والدن

وحي الغابة

بقلم
هنري ثورو

ترجمة
امين مرسي قنديل



والدن

وحياة الغابة

بقلم: هنري ثورو
ترجمة: امين مرسى قنديل

WALDEN OR LIFE IN THE WOODS

by HENRY DAVID THOREAU

FIRST PUBLISHED IN ENGLISH AUGUST 1854



فهرست

مقدمة المترجم

في الشمال الغربي من الولايات المتحدة يقع اقليم نيو انجلند ، وهو اقليم واسع يشمل الآن ستا من الولايات ، سكنه منذ القرن السابع عشر مهاجرون من الانجليز والاسكتلنديين وغيرهم ممن يعتنقون مذهب «المتطهرين» ويحرصون على حريتهم الدينية والسياسية . وهو مذهب ديني بروتستنتي عرف أهله من جهة بالاستقامة في الخلق ، والجد في العمل ؛ ومن جهة أخرى بالاستمساك بالدين والتشدد في مراعاة شعائر مذهبهم . ولا تزال الصفتان الاوليان غالبتين على سكان هذا الاقليم . أما التشدد في مراعاة شعائر المذهب الديني فقد خفت حدته على مر الزمن بانتشار التعليم ، وتزايد التجارة والرخاء ، وظهور حركة التسامي في الادب والفلسفة .

ففي بلدة كمبريدج التي لا تبعد الا بضعة أميال عن مدينة بوسطن عاصمة ولاية مساتشوستس ، كانت جامعة هارفارد التي تأسست سنة ١٦٣٦ تزود الاقليم بالثقافة والتعليم . وفي بوسطن هذه والبلاد القريبة منها ، ولا سيما بلدة كنكورد حيث ولد مؤلف هذا الكتاب ، وحيث قضى ، قامت في القرن التاسع عشر حركة فلسفية أدبية نشيطة جعلت من بوسطن مركز الولايات المتحدة الثقافي . فأقبل الناس على الاطلاع أيما اقبال حتى امتلأت المدينة بالمكتبات العامة ودور الطباعة والنشر ، والنوادي الاجتماعية ، وكثرت المناقشات الادبية والعلمية في كل محفل . وظهرت كوكبة من الادباء والشعراء والمفكرين التفوا حول كبيرهم رالف والدو امرسن في بلدة كنكورد واتجهوا اتجاها أدبيا فلسفيا خاصا عرف بمذهب «التسامي» ، وعرف أنصاره بالتساميين[1] . وكانوا يجتمعون بشكل غير منتظم بين سنتي ١٨٣٦–١٨٤٣ في دار امرسن بكنكورد ويسمون اجتماعاتهم «بالمائدة» [2] أو نادي السياج[3] ، ويصدرون مجلة تعبر عن آرائهم بعنوان « ذي ديال » The Dial .

هذا ، وليس من السهل هنا تحديد معالم اتجاهاتهم ، ولا رسم خطوطها العامة ، وحسبنا أن نقول انها كانت أشبه برد فعل على حركة العقليين التي تزعمها الفيلسوف

(١) Transcendentalists (٢) Symposium (٣) Hedge Club

« لوك » فى انجلترا وفلتير فى فرنسا • وهى من جهة أخرى رد فعل على تشدد « المتطهرين» فى أمور الدين ، واسرافهم فى ذلك التشدد •وأساسها أن ثمة قوى آلهيـــة فوق خبرات الانسان كلها وتجاريبه الحســـية ، أيا كانت الخبرات والتجاريب • وترجع مبادىء «التسامى» هذا الى أصول عدة منوعة من أهمها كتـــابا «كانت» الفيلسوف الألمانى عن « نقــد العقــل الخالص » و « نقــد العقل العملى » بل ان اسم التسامى مأخوذ عن «كانت» فجعلوه علما على فلاسفة القرن التاسع عشر المثاليين ، والى كثير من فلاسفة المشارقة القدامى من هنود وصينيين ومتصوفة المسلمين •

فهى حركة انتقائية ، متعددة الجوانب ، منوعة الالوان ، مما لا يتسنى معـه أن نسميها مذهبا أو نظاما فلسفيا ؛ وربما كان دسـتورها ذلك المقال الذى نشره زعيمهم امرسن بعنوان « الطبيعة » • فمن مبادئها أن الفرد يجمع فى نفسه العالم كله ويرمز له ؛ بل ان كل شىء هو فى ذاته العالم مصغرا ، فيتضمن كل ما فيـه من قوانين ومن نظم • فكل شىء روح فردية تحتوى بالقوة على كل ما فى العالم ، ويتسنى للانسان أن يحقق مافيه من امكانيات قدسـية اما بالتأمل الباطنى فى نفسه ، واما بالاتصـال مباشرة بالطبيعة وبالحق والخير والجمال • فكل ماتوحى الينـــا به النفس البشرية من دوافع ومعان ، وضروب السلوك ، أمور حق كلهـا لأنها علوية سامية من عند الله وخليق بنـا أن نتبع ماتلهمنا به ، وأن نسير فى الطريق التى ترشدنا اليه •

ومن ثم نشـــأ عند التساميين ضرورة الاستمساك بمبدأ الاعتماد على النفس ، والأهتمام بالفردية واحترامها ، وعـــدم الأحتفال بأية سلطة خارجية تتحكم فى اســـتقلال المـــرء وتفكيره ، وبالتقاليد والعرف ، والحجج العقلية ، والأقيسة المنطقية • فكل فرد يجب أن يتجه الى ما هو ميسر له ، وأن يسلك الطـريق التى ترسمها له طبيعته الخيرة ، وأن يطيـع صـــوت ضميره فهو من صوت الله •

تلك هى البيئـة ، وتلك هى الحـــركة العقلية والاتجاهات الفلسفية والدينية التى نشأ فيهـــا الكاتب هنرى دافيد ثورو ، وســـجل اتجاهاتها أروع تسجيل فى كتابه « والدن » الذى نحن بصدده •

« فوالدن » ليس كتابا فى الفلسفة ، ولا فى مشاهد الطبيعة وتصـوير مناظرها الرائعة ؛ ولا هو بقصة ، أو ترجمة حياة فى فترة معينة ؛ ولا مجرد دعوة الى تحاشى الاسراف فى الاهتمام بالماديات ، والى التوفر على العنـــاية بالتثقيف الذاتى ، بالنواحى الروحية السامية ـ بل هـو كل ذلك معا • فالكتاب على ما فيه من تنـــوع كثير ، وتناقض أحيانا ، وحدة شاملة تروقك

كما يروقك مافيه من نواح متعددة وألوان كثيرة منوعة . هو سجل رائع لتجربة جديدة فى فن الحياة البسيطة _ قام بها المؤلف ، فأراد أن ينبه الناس عمليا الى أن سعادتهم الحقة ليست فى صرف زهرة العمر فى الكدح والشقاء سعيا وراء توفير المال للاستمتاع بالجاه الزائف وضروب المتع الحسية الزائلة ؟ وانما هى فى المعيشة البسيطة القريبة من الطبيعة ، وفى التفكير السامى النبيل . فاعتزل الناس وقضى سنتين فى الغابات بين أحضان الطبيعة والجمال البدائى على مقربة من بحيرة والدن الرائعة القريبة من بلدته كنكورد ، وسجل فى كتابه هذا خبرته كاملة ووصفها أجمل وصف وأدقه ، فوصف كيف مضى الى الغابة يقطع الاشجار بنفسه من على السفح الجنوبى لتل مكسو بالغابات ، وكيف بنى لنفسه كوخا من أخشاب هذه الاشجار ، وكيف زرع فدانين من الارض بطاطس وقطانى ، ودون فى يومياته كل مليم أنفقه ، وكل مليم ربحه ، وكيف كان يقضى أوقاته بين الاشجار والبحيرات متأملا دارسا مخلوقات الله التى تحفل بها هذه الغابات ؟ فكان يناجيها ويداعبها وتداعبه من دون أن تخشى منه أذى أو توجس منه شرا كأنها لم تر انسانا قبله . وكأنه كان انسانا بدائيا يحيا حياة بدائية فى القرن التاسع عشر فى أمريكا ، يجوس دارسا حاملا ميكروسكوبا ! فالاتصال بالطبيعة وخالقها كان أروع له وأجدى عليه من الاتصال بالناس . فهو لم يكن يميل الى مخالطتهم منذ شغله عنهم غرامه العارم بالطبيعة ودرسها ففضل أن يتحدث الى النبات والحيوان والسمك ويفيد منها أكثر مما يفيد من عشرة بنى الانسان . ولكن ليس معنى ذلك أنه كان يقلل من شأن الناس ولا يعمل على خدمتهم والنهوض بكل مافيه خيرهم ، ولكن هذا كان مزاجه وتلك نزعته .

وانه ليصف لنا ذلك كله بأسلوب سهل ممتع وصفا رائعا بريشة رسام فنان ؟ أو يدبجه بيراعة شاعر موهوب ، فترى فى وصفه دقة العالم الطبيعى وعنايته بذكر كل ما يشاهده من تفاصيل ، كما ترى عناية الفنان بالجمال والروعة . فالى جانب ما تقرأ عن الطبيعة ومجاليها حتى يخيل اليك أنك أمام عالم من علماء « الأحياء » ، اذا بك تشعر أنك ازاء أديب أحاط بأدب اليونان والرومان وأساطيرهم وتاريخهم أو أمام مستشرق مطلع خبر فلسفة الهند والصين فيحدثك عن الفيدات والباجافات جيتا وعن كونفشيوس ، ومتصوفة المسلمين . فلا تكاد تمر بصفحة واحدة من غير أن تصادف حكمة رائعة وقولا مأثورا ورأيا جديدا وكلمة جامعة وروحا ديمقراطية .

هذا ، وقد تزايد اقبال الناس على هذا الكتاب ، وتزايد تأثيره حتى صار المؤلف بعد ذلك من أكثر الكتاب نفوذا . وقلما تجد شابا أمريكيا لايعرف والدن ومؤلفه ثورو . وقد

ازدادت شهرته وذاعت منذ بدايه القرن الحالى . وحسبك أن نعرف أن أديب فرنسا الكبير أندريه جيد قد عمد الى نقل الكتاب الى اللغة الفرنسية ولكنه نزل عما بدأ الى صديق له اعتزم أن يضطلع بالترجمة ؛ وقد طبعت هذه الترجمة أكثر من سبع مرات . وها هو هذا الكتاب نفسه فى حلته العربية ، فأرجو أن يجدفيها الناطقون بالضاد متعة وفائدة ؛ ففى ذلك كل مايرجوه مترجمه من عوض عما بذل فيهامن جهد .

أما المؤلف فهو هنرى دافيد ثورو . ولدفى الثانى عشر من يولية سنة ١٨١٧ فى بلدة كنكورد من أعمال ولاية مساتشوستس ، فى أسرة تعد بتعبيرنا الحالى من أسرات الطبقة المتوسطة . كان أبوه تاجرا غير موفق فى تجارته ، فأنشأ مصنعا لأقلام الرصاص . وكان جده من جزيرة جرزى احدى جزائر القنال الانجليزى (بحر المانش) وهى جزائر أكثر سكانها من الفرنسيين الاصل . ومن ثم كانت صبغة لقبه الفرنسية (ثورو) .

وعلى ماكان ذووه من رقة الحال فقد استطاعوا أن يلحقوه بجامعة هارفارد سنة ١٨٣٣ . ولما تخرج منها سنة ١٨٣٧ لم يشأ أن يتخذ له عملا ثابتا يتقيد به ، بل فضل أن يكون حرا كل الحرية ينعم بمحبته للطبيعة وباستقلاله ، فأخذ يعمل فى فلاحة الارض وفلاحة البساتين ، وصنع السفن ، وفى أى عمل يدوى فى الهواء الطلق ، ولا يستمر طويلا . واشتغل مدرسا مرة أو اثنتين ولكنه سرعان ماغادر التدريس معترفا بأنه فشل فيه لانه اتخذه وسيلة لكسب الرزق لا رسالة لاصلاح المجتمع وتوجيه الجيل الناشىء . فعكف على دراسة الطبيعة ، يعاونه مافيه من حس مرهف ، وقدرة عظيمة على الملاحظة ، ومقدرة على التعبير عما يلاحظه ، وذاكرة واعية . فدأب يدون خطرات نفسه وملاحظاته فى يوميات حتى بلغ ما دونه منها ثلاثين مجلدا كبيرا كان يرجع اليها يستقى منها كتبه ومحاضراته ورسائله ، ومن ثم كانت كتبه منوعة غير محكمة الربط .

وفى سنة ١٨٣٨ قام مع أخيه الحبيب اليه ، برحلة فى نهرى الكنكورد والمديماك القريبين من حيث يسكن ؛ ووصف لنا رحلته هذه فى كتاب له بهذا الاسم عينه . وبعد وفاة أخيه التحق ببيت امرسن وقضى عنده فترة يعاونه ، فتوثقت صلاتهما وتأثر كل منهما بالآخر ؛ كما اتصل بكثيرين من الشعراء والادباء الذين كانوا يترددون على بيت أمرسن ويعتنقون مبدأ التسامى ، مثل برونسون ألكوت المصلح الاجتماعى ، وابنته لويزا الكوت مؤلفة « ثلاث فتيات صغار » والشاعر تشاننج وغيرهم ممن كانت تحفل بهم نيو انجلند .

وحدث أن تندر عليه صديقه الشاعر تشاننج هذا ، وكان يعرف فيه عدم الاستقرار وحب الطبيعة فقال له أن الاولى به أن يذهب الى الغابة ويبنى له كوخا ويلتهم نفسه فيه حيا ، فما عتم

صاحبنا أن اقترض بلطة من صديق له ومضى بها الى الغابة وابتنى له كوخا عند بحيرة والدن وقضى فيه سنتين من يوليـه سنة ١٨٤٥ حتى سبتمبر سنة ١٨٤٧ حرر فيها رحلته مع أخيه على نهرى الكنكورد والمريمـاك ، وظل ينعم بقرب الطبيعة ، يدون خواطره فى يومياته ، ويسـجل مشاهداته بكل أمانة ودقة ، وكتب « والدن » وصـفا لحياته فى الغابة طيلة هاتين السنتين .

وما عتم جسمه آن أخذ يهزل وصحته تضعف ، على الرغم من اتجاهه نحو الغـرب انتجاعا للصحة واستردادا للعافية ، فوافاه أجله فى بلدته كنكورد مسقط رأسه ، والتى لم يكد يفارقها فترة طويلة . فتوفى فى ٦ مايو سنـة ١٨٦٢ وكانت الطبيعة الحبيبة اليه ، قد أخذت زخرفها فتفتحت الأزهار وملأت الاجواء بعبيرها العبق ، وطفقت الاطيار تصدح بألحانها العذاب. فقضى ثورو فى الخامسة والاربعين وهو مؤمن بالطبيعة وجمالها وبارئها الذى يحب الجمال .

كان ثورو كاتبا موهوبا ذا شخصيـة قوية وفردية عارمة يعتز بها كل الاعتزاز . وكان مفكرا مستقل التفكير يأبى أن يتبع الا ما توحى اليه به عبقريته مهما كلفه الامر ، فهو مثل بارز فى تاريخ الادب عامة والادب الامريكى خاصة لرجل يؤمن كل الايمان بوجـوب أن يعمـل بحسب ما يهديه اليه ضميره . فكل امرىء فى نظره يجب أن يسلك الطريق الذى تدفعـه اليه طبيعته الطيبة من غير آن يحفل بما قد يلاقيه فيه من عقبات ، يسيرة كانت أو كأداء ؛ محتفظا بعزة نفسه واستقلال فكره وكرامته الانسانية ازاء شتى التقاليد والمؤسسات الاجتماعية التى تعمل على استعباده وخنق حريته .

فلم يلبث هذا الـكاتب الثائر آو الفيلسوف الشارد أن اصطدم بالمجتمع وتقاليـده الخانقة للفكر والاستقلال ، فتحمس كل التحمس لحركة الغاء الرقيق التى كان يعمـل لهـا الرئيس ابراهام لينكولن وأنصاره ، فاندفع ينافح عن الـكرامة الانسانية والحرية الشخصية عندما قضت الحكومة بشنق جون براون الذى هب ومن معـه لتحـرير العبيد من أسيادهم بالقوة ، ويهربهم من ولايات الجنوب الى ولايات الشمال ، وذلك على الرغم من اجماع الرأى على أن جون براون هذا قد تحدى القوانين وانتهك حرمتها . ثم رفض ثورو أن يدفع ما عليه من الضرائب لحكومة تسمح بالاتجـار فى الرقيق وتهدر كرامة بنى الانسان فيباعون أمام نظرها وتحت سمعها كما تباع الماشية فى الاسواق فقبضوا عليه وسجنوه حتى دفع له بعض محبيه ما عليه من ضرائب مستحقة .

هذا ، وشرح ثورو رأيه فى عدم التعـاون مع الحـكومات الغاشمة التى تستهين بكرامة بنى الانسان فى رسالة عرفت باسم العصيـان المدنى ، وهى رسالة كانت تعد أقوى دفاع عن

حقوق الفرد وحريته وكرامة الانسان ، قرأها المهاتما غاندى فكانت أثيرة عنده ، فدعا قومه فى الهند الى عدم التعـــاون مع الغـــاصبين والاستمساك باستقلال بلادهم وكرامتهم حتى ترد اليهم حريتهم • وتأثر بها كذلك الفيلسوف الروسى ليو تولستوى الذى مضى الى ضيعتــه يعيش عيشة بسيطة ويدعو الى اصلاح المجتمع وتوفير العدالة الاجتماعية •

أمين مرسى قنديل



الاقتصـــاد

لما كتبت الصفحات الآتية ، أو بالاحرى الجزء الاعظم منها ، كنت أعيش وحـــدى فى الغابات ، على بعد ميل من أى جار لى ، فى بيت أنشأته بنفسى على شاطىء بحيرة «والدن» ، فى بلدة كنكورد* ، من أعمال ولاية مساتشوستس* . وقضيت فيه سنتين وشهرين كنت أعيش فيهما من عمل يدى وحدهما . أما الآن فهأنذا من جديد عابر سبيل فى حياة المدنية والحضارة .

لم يكن لى أن أضايق قرائى بالاكثار من عرض شئونى الخاصة عليهم ، لو لم يقم أهل بلدتى ببحوث خاصة يتقصون بها أحوالى ويتعرفون بها طريقة معيشتى ، فكانت بحـوثا عدها بعضهم من قبيل الفضول ؛ ولكنها لا تبـدو لى كذلك ، بل انى لأعدها طبيعيـــة جدا ، وفى موضعها ، بسبب ظروف معيشتى تلك . فقـد سأل بعضهم عما آكله ، وعما ان كنت أشـــعر بالوحشة ، وان لم أكن خائفا ، وما الى ذلك . وقد بلغ الفضـــول بجماعة منهم أن أرادوا أن يعرفوا مقدار ما خصصته من دخلى للاعمال الخـيرية ؛ وسأل بعض ذوى الأسر الكبيرة عن عدد الاطفال الذين أعولهم وأقوم بالانفـــاق عليهم . وعـــلى هذا ، أرجو من قرائى الذين لا يهتمون بشئونى اهتماما خاصة ، أن يصفحوا عنى اذا ما قمت بالاجابة عن بعض هذه الاسئلة فى هذا الكتاب . ففى بعض الكتب يحذف عادة ضمير المتكلم (أنا) أى ضمير الشخص الاول ، ولكنى سأحتفظ به فى كتابى هذا ؛ وذلك هو الفرق الاساسى من حيث تحدث المـــرء عن نفســـه ، فانا لننسى عادة أن « الشخص الاول » هـــذا ، هو قبل كل شىء ، الذى يتكلم

* تدل هذه العلامة على أن الكلمة مشروحة فى المعجم الابجدى الملحق بآخر الكتاب ، فليرجع اليها القارىء اذا شاء .

يتحدث دائما ، وما كنت لاكثر الكلام عن نفسي ، ان كان ثمة شخص آخر غيري أعرفه ثل هذه المعرفة الوثيقة . ولذا فاني ، لسوء الحظ ، سأقتصر هنا على هذا الموضوع ، لقلة خبرتي بغيري من الناس . وزيادة على ذلك ، فاني أطلب من كل كاتب أولا ، أو آخرا ان نشت ، أن يقص علينا سيرته الخاصة في اخلاص وبساطة ، لا ما سمعه عن حياة غيره من لناس فحسب ؛ أطلب منه أن يسرد علينا شيئا مما يكتبه عن نفسه ، من بلاد نائية ، الى نريب له فانه ان عاش مخلصا حقا ، فلا بد - في رأيي - أن يكون قد عاش في أرض بعيدة عني كل البعد . ولعل المقصود بهذه الصفحات ، هم الفقراء من الطلبة بوجه خاص ، أما سائر قرائي فعليهم أن يقنعوا بما يصدق عليهم منها ، وأرجو ألا يعمد أحد منهم ، وهو يرتدي هذه الحلة ، الى استعمال العنف عند لبسها فيفتق دروزها ويتلفها ، فلعلها تفيد من تلائمهم تصلح لهم فائدة كبيرة .

اني أود أن أقول شيئا هنا لا يخص الصينيين وسكان جزائر ساندويتش* بقدر مايخصكم أنتم يا قراء هذه الصفحات الذين يقال عنكم أنكم تعيشون في اقليم «نيو انجلند» * ؟ فسأذكر شيئا عن أحوالكم ، ولا سيما الظاهرية منها ، فأحدثكم عن ظروفكم في هذه الدنيا ، وفي هذه البلدة ذاتها . فما هي هذه الاحوال يا ترى ؟ وهل من الضروري أن تكون من السوء بالقدر الذي هي عليه ؟ وهل من الميسور أن تنصلح وتتحسن ؟ لقد طفت كثيرا بأنحاء بلدة كنكورد* ، وكنت حيثما سرت أجد السكان في كل مكان : في المتاجر وفي المكاتب والحقول ، يبدون جميعا كأنهم يكفرون عما اقترفوه من ذنوب وآثام - يكفرون عنها بآلاف من الطرق والاساليب العجيبة ، مماسبق لي أن سمعته عن أولئك البراهمة * الذين يجلسون معرضين لأربع نيران ، يحدقون بأبصارهم فيقرص الشمس ؟ أو الذين علقوا منهم من أرجلهم وتدلت رؤوسهم على نيران أشعلت من تحتها ؟ أو الذين ينظرون الى السماء وقد لووا رؤوسهم على أكتافهم حتى استحال عليهم أن يستعيدوا وضعها الطبيعي ؟ ومن جراء ليهم رقابهم هذا ، لم يعد شيء غير السوائل يستطيع أن يدخل معداتهم ؟ ومنهم من يقضون حياتهم مقيدين بسلاسل وأغلال في أسفل جذوع الشجر ؟ أو يظلون يذرعون الامبراطوريات الواسعة بأجسامهم ، كما تفعل اليرقات الدودية ؟ وقديقف الواحد منهم برجل احدة على عمود عال - فحتى هذا التكفير المقصود ليس أعسر تصديقا ولا أغرب من المناظر لتي نشاهدها هنا كل يوم . فأفعال «هرقليس*» الاثنا عشر تعد تافهة اذا ما قيست بما يضطلع ه جيراني من أعمال ، فتلك اثنا عشر عملا فحسب ، ولها آخرها ، على حين أني ما رأيت ط أن هؤلاء الناس قد قتلوا سبعا، أو صادوا وحشا من تلك الوحوش المريعة ، أو أنجزوا

أي عمل من الاعمال التي يزاولونها ؟ فهم لا صديق لهم من أمثال أيولاس* يكوى أصول رأس الهايدرا* بحديدة محماة . ولكنهم لايكادون يسحقون رأسا واحدا حتى ينبت بدله اثنان.

لقد بلغ سوء حظ الشباب من أهل بلدى أن يرثوا ضياعا وبيوتا، وحظائر ومواشي، وآلات زراعية ؛ ذلك لان التخلص من هذه الاشياء أعسر من اقتنائها والحصول عليها ، وكان خيرا لهم لو انهم ولدوا في المراعى المكشوفة ، ورضعوا من لبان الذئاب حتى يستطيعوا أن يروا بوضوح أجلى أي حقل طلب اليهم أن يعملوا فيه . فمنذا الذى جعلهم عبيدا للارض يا ترى ؟ ولم يأكلون من ستين فدانا ، على حين قضى على الانسان ألا يأكل سوى كيلة من قدر ؟ لم يشرعون في حفر قبورهم منذ يولدون ؟ ان عليهم أن يحيوا حياة بني الانسان ، فليدفعوا بكل هذه الاشياء أمامهم وليتقدموا على خير مايستطيعون أن يتقدموا . فكم من رجل مسكين قابلت يكاد ينوء بما عليه من أثقال تكاد تسحقه وتكتم أنفاسه ، فرأيته يزحف في طريق الحياة يدفع أمامه حظيرة طولها سبعون قدما وعرضها أربعون ، لم تنظف قط اسطبلاتها «الاوجية*»، فضلا عن مائة فدان من الاراضي ، منها ما هو للحرث والحصاد ، ومنها ما هو للرعى ، وللاخشاب . ان المحرومين من الذين لا نصيب لهم ، والذين يجاهدون وليس أمامهم ما يعوقهم ويعطلهم من أمثال هذه العقبات الموروثة التي لا ضرورة لها ، ليدركون أن حسبهم من العمل أن يقهروا بضع أقدام مكعبة من اللحم ثم يتعهدوها بعنايتهم واهتمامهم .

ولكن الناس يعملون وهم واهمون ، اذ لا يلبث خير جزء في الانسان أن يصير الى الارض فيحرث معها سمادا لها . وبحسب ما يبدو أنه مصير مقدور يسمونه ضرورة ، ترى الناس يشغلون أنفسهم ، كما ورد في أحد الكتب القديمة [1] ، بادخار كنوز سوف تفسدها عليهم العثة ويتلفها الصدأ وتسطو عليها اللصوص فيسرقونها . تلك حياة الحمقى من الناس ، كما سيتضح لهم الامر ويتبين عندما يصلون الى نهايتها ان لم يكن قبل . قيل ان «ديكاليون*» و «بيرها*» خلقا الناس بأن ألقيا عليهم الاحجار من فوق رأسيهما أو كما أشار «رالى*» الى ذلك في شعره بأسلوبه الموسيقى الرنان :

ومن ثم كان جنسنا قاسي القلب يتحمل الآلام ويعانى الهموم .
ويؤيد من قال أن طبيعة جسومنا من طبيعة الحجر .

فحسبنا هذا طاعة عمياء لكاهنة كثيرة الاخطاء . فالناس يلقون الاحجار من فوق رؤوسهم من دون أن يروا أين تقع .

(١) هو انجيل متى ـ الاصحاح السادس ـ الآية ١٩ وهى « لا تكثروا لكم كنوزا على الارض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون »

ان أكثر الناس ، حتى في هذه البلاد الحرة نسبيا ، مشغولون ، جهــــلا منهـم وخطأ ، بهموم متكلفة مصطنعة ، وبأعمال من أعمال الحياة خشنة غليظة لا لزوم لها ، حتى أصبحوا عاجزين كل العجز عن أن يجنوا ما في الحياة من ثمار رفيعة ؟ فقد صارت أصابعهم من جراء الافراط في العمل ، شوهاء كثيرة الارتجاف فلم تعد تستطيع أن تجنى شيئا من أمثال هذه الثمار. لذا ، ولم يبق لدى الرجــل العامل المجد أي وقت فراغ ليكون مستقيما حقا وصدقا استقامة ورجولة . فهــــو لا يستطيع أن يحافظ على خير العـــلاقات الجديرة بالرجولة بينـــه وبين الناس ، والا نزلت قيمة عمله في الســـوق وانحطت . ولا وقت عنده ليكون شـيئا آخر غير آلة . اذ كيف يتسنى لرجـل يظل يستعمل معـــلوماته باستــــمرار ، أن يذكر ما به من جهــل وقصـــور حق الذكر ، وهـــو الامر الذى يتطلبه نموه ويستلزمه ترقيـه ؟ ان علينا أن نغـــذيه ونكسوه بالمجان أحيانا ، كما أن علينا أن نزوده بما يقويه وينشطه قبل أن نبدى رأينـا فيه ونحكم عليه أو له . ألا ترى أننــا لانستطيع أن نحافظ على خير ما في طبائعنا من نبيع الصفات الا اذا تناولناها برفق مثلما نتناول أزاهير الفاكهة الغضة ؟ ومع ذلك فاننا لا نعالج أمورنا ، ولا يعامل بعضنا بعضا بشيء من هـذا الترفق .

وكلنا يعلم أن البعض منكم فقراء ، يجدون في العيش مشقة وعنتا ، حتى أنهم ليكونون أحيانا كالمبهورين لا يكادون يتنفسون . ولا ريب عندي في أن بعض من يقرأون هذا الكتاب منكم لا يستطيعون أن يدفعوا ثمن الوجبات التى تناولوها فعلا ، ولا أثمان الاكسية والاحـذية الآخذة في البلى بسرعة ، أو التى بليت فعلا . انكم ما أقبلتم على قراءة هذه الصفحة الا لكى تقضوا وقتا ليس ملكا لكم ، وانما استعرتموه أو سرقتموه ؟ وبذلك تكونون قد سـلبتم دائنيكم ساعة من الزمان . وليس يخفى أن الكثيرين منكم يعيشون عيشة وضيعة خسيسة . لقد أرهفت الخبرة بصرى وجعلتـه حديدا ! فأنتم دائمـــا على طرف من أمركم ، تحـاولون أن تقـوموا بالاعمال التجارية وتتخلصوا من ديونكم معا ، وتلك ورطة قديمة كان الرومان يسمونها نحاس الغير ، وذلك لان بعض نقودهم كانت تسك من النحاس . فها أنتم تعيشـون وتموتون ، بل تدفنون ، بنحاس الغير هذا : أنتم دائما تعدون أن توفوا ما عليكم من الدين ـ فتعــــدون بدفعه دائما ، تعدون بدفعه غدا ، ثم اذا بكم تموتون اليوم عاجـــزين عن دفع ما عليكم من ديون . أراكم تحـــاولون التـــودد الى النـــــاس رجاء نيل الحظوة عندهم ، والحصول على زبائن عدد من بينهم بوسائل منوعة ، ولا تقفون الا عند ارتكاب الجـــــرائم التى قد تؤدى بكم الى الاعتقال في سجن الحكومة . فأنتم تكذبون و تتملقون ، وتعطـــون أصواتكم لمن تريدون ، وتتضاءلون حتى تكونوا جماع التأدب وخلاصة اللباقة والكياسة ؟ ثم إذا بكم تنبسطون وتتمددون

حتى تصبحوا هواء رقيقا من الكرم الزائف • كل ذلك كي تحملوا جاركم على أن يرضى ، فيعهد اليكم بصنع أحذيته أو قبعاته أو معطفه أو عربته ؟ أو أن يكلفكم أن تستوردوا له ما يلزمه من صنوف البقالة ، وتمرضون أنفسكم كي تستطيعوا أن تدخروا شيئا من المال ليوم الشدة والضيق ـ تدخروا شيئا تدسونه في صندوق قديم ، أو تخفونه في جورب تضعونه خلف بلاط الجدار ، أو زيادة في الحرص عليه والسلامة له ، تضعونه في مصرف ما ، فأنتم لا تبالون أنى تضعونه • ولا تحفلون بمقدار ما تدخرونه ، كثيرا كان أو قليلا •

واني لاعجب أحيانا أن يبلغ بنا النزق حدا يكاد يجعلني أقول انا لا نعني من الاسترقاق الا بالشكل الخشن منه ، ذلك الشكل الاجنبي البعيد عنا نوعا ما، والذي نطلق عليه اسم استرقاق الزنوج[1] • فثم كثيرون من السادة المتحمسين الاذكياء يبلغ بهم الختل والمكر أن يسرقوا الشمال والجنوب معا • انه لعسير على المرء منا أن يكون عليه رقيب من الجنوب يسيطر عليه ، وأسوأ من ذلك أن يكون هذا الرقيب من أهل الشمال ، وأسوأ من هذا وذاك أن تكون أنت نخاس نفسك تسترقها وتستعبدها • اتريدون أن تقولوا لي أن في الانسان ناحية سامية قدسية ؟ انظروا الى سائق الخيل في الطريق العام وهو يمضي بعربته الى السوق ليلا ونهارا ، فهل ترون فيه ناحية قدسية طيبة تتحرك في نفسه ؟ ان أسمى واجب عليه أن يعلف خيله ويسقيها • وما مصيره المقدر عليه اذا قيس باهتمامه بتصدير السلع في السفن الى الخارج ؟ أليس هو الذي يسوق العربة للسيد فلان ؟ ألا ما أرحم هذا الرجل وأطيب قلبه ، وما أخلده على الزمان ! انظروا اليه كيف يستخذي ويتسلل ، وكيف يظل طول النهار يعاني المخاوف من حيث لا يدري • انه ليس بالخالد ، ولا هو بالرحيم ، بل هو عبد أفكاره ، وحبيس آرائه التي يراها في نفسه ، وهي شهرة عرف بها واكتسبها بأعماله •

ان الرأى العام طاغية ضعيف اذا ما قيس برأينا نحن في أنفسنا • فرأى الانسان في نفسه هو الذي يحدد مصيره المقدور عليه ، أو بالاحرى ينم عنه ويدل عليه • فتحرير المرء نفسه اذن من سلطان الوهم والخيال له قيمته الكبرى حتى في الاقاليم الهندية الغربية • فأي «ويلبرفورس*» عندنا يهب ويضطلع بذلك التحرير وينجزه لنا ؟ انظروا الى النساء في مختلف بلاد الله وهن يعملن في اعداد لوازم زينتهن ، حتى آخر يوم من أيامهن ، ترون أنهن لا يحفلن أي احتفال بما هو مقدور عليهن • كأن المرء منا يستطيع أن يقتل الوقت من غير أن يجرح الابدية ويؤذيها !

(1) كان في أمريكا وقتئذ حركة قوية ترمى الى الغاء الرق ، وكان النزاع شديدا بشأنه بين سكان جنوب الولايات المتحدة وسكان شمالها ، مما أدى الى قيام حرب أهلية بينهما انتهت بانتصار الشماليين ثم الغاء الرق وتحرير الزنوج •

تعيش الكثرة من الناس عيشة يأس هادىء ، وليس ما يسمونه توكلا سوى يأس مؤكد لا شك فيه • فانت انما تنتقل من المدينة اليائسة الى الريف اليائس ، وعليك آن تعزى نفسك بشجاعة مثل شجاعة «فار المسك*» و «المنك*»• انه ليأس ثابت متحجر ، وان لم يكن مشعورا به ، ذلك الذى يختفي وراء حتى ما يسمونه بوسائل لعب الناس ولهوهم اذ ليس فيها أى لعب ، لان اللعب لا يكون الا بعد الشغل ، ولكن الحكمة تمتاز بأنها لا تقتضينا فعل شيء ما في يأس وعنف •

أما اذا فكرنا فيما هو هدف بنى الانسان وغايتهم التى يرمون اليها ، وتساءلنا عما عسى أن تكون الاشياء الضرورية ، والوسائل التى لا بد منها للحياة ، لتجلى لنا أن الناس قد اختاروا أن يسلكوا الطريقة المألوفة في المعيشة قصدا وعن عمد ، لانهم يفضلونها على أية طريقة أخرى ، ومع ذلك فهم يظنون مخلصين في ظنهم أنه لم يكن أمامهم طريقة غيرها فاختاروها • ولكن ذوى الطبائع اليقظة السليمة يتذكرون أن الشمس تشرق كل يوم صافية نقية ؟ وأن وقت تخلينا عن أهوائنا وضروب تعصبنا لا يمكن أن يقال عنه انه قد مضى وفات • هذا ، وانا لانستطيع أن نثق بأية طريقة من طرق التفكير ، مهما قدم عليها الدهر وطال الزمن ، الا اذا قام على صحتها الدليل والبرهان • فما يردده كل انسان منا اليوم ويقول به ، أو يمر به ، فى صمت وسكون ، على أنه حق وصدق ، قد ينقلب غدا فيستبين لنا كذبه وزيفه ، ويتضح أنه لم يكن سوى دخان لرأى اعتقد بعض الناس أنه سحابة سوف تغدق عليهم غيثا يخصب أراضيهم• وما عليك الا أن تجرب ما يقوله لك الشيوخ من الناس بأنك لا تستطيع أن تقوم به وتعمله ، تجد أن فى مقدورك أن تعمله وتنجزه • فالافعال القديمة انما هى للشيوخ القدامى • وأما الافعال الجديدة فللشباب•ولم يحدث أن عرف القدامى مرة المعرفة الكافية أن يأتوا بالوقود ليجعلوا النار تتحرك بما عليها • على حين وضع الناس الجدد قليلا من الخشب الجاف تحت قدر ، فاذا بهم يطوفون حول الكرة الارضية بسرعة الطير ، وبشكل يصعق القدامى ويقضى عليهم ، كما نقول فى تعبيرنا • وليس الشيوخ بأفضل من ذلك ، وهم لا يكادون يصلحون معلمين ومرشدين بالقدر الذى يصلح به الشبان ، لانهم لم يفيدوا من خبرتهم بقدر ما خسروه منها وأضاعوه•وان المرء منا لتساوره الشكوك وتعتوره الريب فيما لو كان أعقل الناس وأكثرهم حكمة قد تعلم من خبرته بالحياة شيئا ذا قيمة مطلقة• فليس لدى الشيوخ من الوجهة العلمية نصيحة ذات قيمة وشأن ، يقدمونها للشبان • فقد كانت خبرتهم الخاصة ناقصة كل النقص ، وكانت حياتهم خيبة ذريعة وفشلا تعسا لاسباب شخصية • ويجب عليهم أن يعتقدوا انها لكذلك • وربما يكون قد تبقى لهم شيء من الايمان

يكذب تلك الخبرة ، وبذا يكونون أصغر سنا مما كانوا . لقد قضيت نحو الثلاثين عاما على هذا الكوكب السيار ، ولا زال على أن أسمع ممن هم أسن مني أول كلمة قيمة ، أو أول نصيحة جدية ؛ فهم لم يقولوا لى شيئا بعد ، ولعلهم يستطيعون أن يقولوا شيئا يفيدنى فيما أنا بصدده . فها هى ذى الحياة تجربة لم أجربها بعد شخصيا الى حد كبير ، ولكن لا يفيدنى فيها أنهم هم قد جربوها من قبل فان كان لدى تجربة أرى لها قيمة فاننى واثق كل الوثوق أن نصحائى من الشيوخ لم يذكروا لى شيئا عنها .

قال لى فلاح ذات يوم : انك لا تستطيع أن تعيش على الغذاء النباتي وحده ، اذ ليس فيه ما يساعد على تكوين العظام ؟ ومن ثم عنى هو كل العناية بأن يخصص جزءا من يومه ليزود فيه جسمه بالمواد الغفل التى من شأنها تكوين العظام . قال لى الرجل ذلك وهو يسير طول الوقت يتكلم وراء ثيرانه التى تكونت عظامها من أكل النبات وحده ، فجعلت تهزه بها هو ومحراثه الغليظ على طول الخط ، هزا عنيفا ، وعلى الرغم من كل عقبة تقابلها فى طريقها . لاشك عندى فى أن بعض الاشياء ضرورية للحياة عند بعض الناس الضعاف الذين لا حول لهم ولا قوة ، وعند المرضى ، على حين أنها عند غيرهم ليست سوى نزق أو شىء كمالى ، كما أنها قد تكون مجهولة كل الجهل عند آخرين غير هؤلاء وهؤلاء .

يبدو لبعض الناس أن أسلافنا قد مروا بتجارب الحياة البشرية كلها وخبروا ، سهلها وصعبها ، نجادها ووهادها ، وأنهم عنوا بكل شىء وأعدوا له عدته . قال افلين : حدد سليمان الحكيم المسافات التى يجب أن تكون بين الاشجار ، وقرر قضاة الرومان عدد المرات التى يجوز للمرء أن يذهب فيها الى أرض جاره ليجمع ما عساه يكون قد تساقط عليها من ثمار شجر البلوط من غير أن يكون قد انتهك حرماتها وتعدى عليها ، كما قرروا الحصة التى يجوز أن ينالها هذا الجار من هذه الثمار . وترك لنا أبقراط توجيهات شتى حتى عن كيفية قص أظافرنا قصا يجعلها فى مستوى أناملنا تماما لا أكثر ولا أقل . ولا شك أن الملل والسأم نفسيهما اللذين يقال أنهما استنفدا ما فى الحياة من تنوع ومن سرور ، أمران قديمان قدم آدم . ولكن طاقة الانسان وقدراته المختلفة لم يسبرها أحد بعد ولم يعرف مداها أحد فليس لنا أن نحكم على ما يستطيع الفرد أن يعمله على أساس أية سابقة سلفت . فما أقل ما جربنا ! فأيا كانت دواعى فشلك الى الآن « يابنى ، فلا تبتئس . فمن ذا الذى يستطيع أن يعين لك الشىء الذى لم تكن أنجزته ؟ » .

يصح أن نبلو حياتنا ونختبرها بآلاف من الاختبارات البسيطة المنوعة ، فنختبرها مثلا بأن الشمس ذاتها التى تنضج فولى فى الحقل هى التى تضىء فى الوقت نفسه نظاما من الدنى أشبه

بنظامنا . فلو أني تذكرت ذلك توفرت على نفسي بعض الاخطاء التي وقعت فيها من قبل . فلم يكن هذا الضوء هو نفسه الذي عزقت فيه فولي ، وما النجوم الا رؤوس زوايا لمثلثات عجيبة كل العجب ! فأي مخلوقات بعيدة شتى في مختلف قصور الكون تفكر في ذات الشيء وفي اللحظة عينها ! ان الطبيعة والحياة البشرية منوعتان تنوع تكويننا ، فمن منا يقدر أن يقول أي أمل تقدمه الحياة لآخر غيرنا . أيجوز أن تحدث معجزة أعظم من أن ينظر كل منا بعيني الآخر لحظة واحدة ؟ انا ينبغي أن نعيش في جميع عصور الدنيا في ساعة واحدة ، بل ينبغي أن نعيش في جميع دنى العصور المختلفة في التاريخ كله : عصور التاريخ والشعر والميثولوجيا (الاساطير). ولست أعرف طريقة ما للوقوف على خبرة الغير ، أغرب وأفيد مما يمكن أن تكونه هذه الطريقة.

ان الجزء الأكبر مما يسميه جيراني خيرا ، أعتقد أنا في صميم نفسي ، أنه شر . وان كنت أندم على شيء ما ، فمن المحتمل كل الاحتمال أن يكون ذلك الشيء هو حسن سلوكي . فأي شيطان استولى علي حتى صرت أسلك هذا السلوك الحسن الصحيح ؟ ان لك أيها الشيخ أن تقول أحكم شيء تستطيع أن تقوله ـ أنت الذي عشت سبعين عاما لم تخل من شرف ما . ولكني أسمع صوتا لا قبل لاحد بمقاومته يدعوني أن ابتعد عن كل هذا . فكل جيل من الأجيال يهجر مشروعات الجيل الآخر ، ويتركها كما تترك السفن التي تحطمت عند الشاطيء .

أظننا نستطيع آمنين أن نثق بالناس والأشياء أكبر جدا مما اعتدنا أن نثق ـ وجدير بنا أن ننزل عن شيء من حقوقنا في العناية بأنفسنا، بالقدر الذي نوليه نواحي أخرى باخلاص فالطبيعة ملائمة كل الملاءمة لضعفنا ملاءمتها لقوتنا . فالقلق المستمر والتوتر الدائم اللذان عند بعض الناس هما نوع من داء عضال يكاد شفاؤه يكون عسيرا . لقد خلقنا بشكل يجعلنا نبالغ في أهمية أي عمل نزاوله . ومع ذلك فما أعظم المقدار الذي لم ننجزه بعد ! وما عسى أن يكون الامر اذا ما أصابنا مرض ؟ فما أشد يقظتنا نحن الذين عزمنا على ألا نعيش بالايمان اذا ما استعطنا أن نتحاشاه . فنحن حذرون يقظون طول النهار كله، ثم نؤدي صلواتنا في الليل على كره منا ، ونسلم أنفسنا لكثير مما نحن غير واثقين منه . انا مضطرون كل الاضطرار ، وبكل اخلاص الى أن نحيا ، ونجل حياتنا ونحترمها ، وننكر جواز حدوث أي تغيير فيها ، ونقول هذه هي الطريقة الوحيدة ، على حين توجد طرق متعددة بقدر ماتوجد أنصاف أقطار صادرة من مركز دائرة واحدة . فان كل تغيير معجزة ، يجدر بنا أن نفكر فيها وتندبرها . ولكنها مع ذلك معجزة تحدث كل لحظة ، قال كونفوشيوس « أن نعرف أننا نعرف ما نعرفه ، وأننا لانعرف مالا نعرفه ـ ذلك هو المعرفة الحقيقية» . فعندما يحول امرؤ حقيقة من حقائق الخيال الى

حقيقة يدركها عقله ، فعندئذ أستطيع أن أتنبأ بأن جميع الناس سيقيمون حيواتهم على ذلك الاساس فى النهاية .

ولنفكر برهة فيما يكون يا ترى أغلب ذلك التعب ، ومعظم هذا القلق ، اللذين أشرت اليهما من قبل ، والى أى مدى يكون من الضرورى لنا أن نقلق ، أو على الاقل ، نحرص ونحذر . قد يكون ثمة بعض الفائدة فى أن نعيش عيشة بدائية خشنة ، كالتى يعيشها سكان الاطراف والحدود ، على الرغم من أنا نحيا وسط مظاهر الحضارة والمدنية ، ان لم يكن ذلك الا لنعرف ما هى الامور الضرورية التى لا بد منها للحياة ، وما الطرق التى اتخذت للحصول عليها . أو قد يكون ثم فائدة أيضا فى أن نتصفح دفاتر التجار القديمة لنرى ما كان الناس يشترونه عادة من المتاجر ، وماذا كانوا يختزنون فى بيوتهم . وبعبارة أخرى نرى ما هى أنواع البقالة الضرورية لهم . فالاصلاحات والتحسينات التى تمت فى العصور الكثيرة لم تؤثر سوى تأثير طفيف فى القوانين الاساسية لوجود الانسان وحياته ، كما أن هياكلنا العظمية قد لا يسهل تمييزها عن هياكل أسلافنا .

وأقصد بعبارة ضروريات الحياة كل ما يحصل عليه الانسان بجهده هو وحده ، وكان من البداية ، أوصار بطول الاستعمال ، ذا أهمية خاصة للحياة البشرية ، حتى لم يحاول قط سوى عدد قليل من الناس ـ ان وجدوا ـ أن يستغنوا عنه ، سواء كان ذلك الاستغناء بسبب التوحش ، أو الفقر أو الفلسفة . فعلى هذا الاساس ، لايكون عند كثير من المخلوقات سوى شىء واحد فحسب لاغنى عنه للحياة ، وذلك الشىء هو الطعام . فهو عند الجاموس البرى الامريكى (البيسون) الطليق فى المراعى لا يعدو بضع بوصات مربعة من الكلأ السائغ مع قليل من الماء يشربه . هذا ، اذا لم يلجأ الى مأوى له فى الغابات ، أو الى ظل جبل من الجبال ، فليس فى الحقيقة حيوان ما يحتاج الى أكثر من الطعام والمأوى . هذا ، وأن حاجات الانسان الضرورية له فى مناخ مثل مناخنا ، يمكن أن توزع على الأمور الآتية توزيعا عادلا صحيحا الى حد ما : الطعام والمأوى والملبس والوقود . ذلك لأنا لن نكون مستعدين للعناية بمشكلات الحياة الحقيقية ، ومعالجتها بحرية ، وبأمل فى النجاح ، الا بعد أن تتوافر لنا هذه الامور الضرورية . فالانسان لم يخترع البيوت فحسب ، بل اخترع كذلك الملابس والطعام المطهو . ولعل ضرورة جلوس الناس حول مواقد النار قد نشأت من جراء استكشافهم دفأها عرضا ، وما ترتب على ذلك من استخدامهم اياها . وكان ذلك الاستخدام فى البداية من قبيل الترف وأمرا من الامور الكمالية . ومن المشاهد أن القطط والكلاب سريعا ماتعتاد هذه العادة ، أو ان شئت هذه الطبيعة الثانية . فبالمأوى والملبس الصالحين نستطيع أن نحافظ شرعا على حرارتنا الداخلية . وهل يصح

لنا أن نقول ان الطهى بمعناه الدقيق قد نشأ من جراء الاسراف فى هذين الامرين، أو استعمال الوقود، أى انه نشأ من جعل الحرارة الخارجية أكثر من حرارتنا الباطنية ؟ قال العالم الطبيعى داروين عن سكان جزائر « تيرا ولفويجو* » . آن هؤلاء المتوحشين العارى الاجسام الجالسين على مسافة بعيدة عن النار كانوا يتصببون عرقا من جراء تعرضهم لهذا الشى ، على حين آن رفاقه كانوا أبعد من أن يكونوا مستدفئين على الرغم من أنهم كانوا يرتدون ملابس تكفيهم، وجالسين على مقربة من النار • فأدهش ذلك داروين* كل الدهشة • وكذلك قيل لنا عن أهالى «نيو هولند» انهم يسيرون عراة الاجسام من دون أن يصيبهم من وراء ذلك أى ضرر ، على حين كان الاوربيون يرجفون مما كانوا يشعرون به من أثر البرد ، على الرغم مما عليهم من ملابس • فهل من المستحيل علينا أن نجمع بين خشونة هؤلاء المتوحشين وبين اتجـــاه الانسان المتحضر الى العناية بالامور العقلية ؟ وبحسب ما قال ليبج* يكون جسم الانسان عبارة عن موقد ، وقوده الطعام الذى يستبقى الاحتراق الداخلى قائما فى الرئتين ، ولذلك صرنا نأكل فى الجو البارد أكثر مما نأكل فى الجو الحار • هذا ، والحرارة الحيوانية تنشأ من احتراق بطىء ، ويحـــدث المرض والموت اذا كان هذا الاحتراق سريعا أكثر مما ينبغى ، أو قد يكون سببهما عدم وجود الوقود ، أو وجود خلل فى جهاز الهواء يجعل النار تخمد • وبالطبع ، يجب ألا نخلط بين الحرارة الحيوانية وبين النار ، على أن فى هذا التمثيل ما يكفى لايضاح المقصود • ويبدو من الثبت الذى ذكرناه من قبل ، ان عبارة « الحياة الحيوانية » ترادف الى حد كبير عبارة « الحرارة الحيوانية » • فعلى حين أنه يصح لنا ان نعد الطعام الوقود الذى يستبقى النار التى فينا قائمــة ــ وفائدة الوقود هى اعداد ذلك الطعام فحسب ، أو أن يزيد فى دفء أجسامنا بما يضيفه اليها من حرارة من الخارج ــ فكذلك المــأوى والملبس ، انما يفيدان فقط فى حفظ الحرارة التى تولدت وامتصت بهذا الشكل •

فأكبر ما تحتاج اليه أجسامنا اذن هو أن تظل دافئة ، أى أن نظل نحن محتفظين بالحرارة الحيوانية قائمة فينا • فما أكثـــر المتاعب التى نتجشمها فى سبيل طعامنا وكسائنا ومأوانا ، بل وفى سبيل فراشنا كذلك ! وما فراشنا سوى ملابسنا الليلية • فمن أجلها أصبحنا نسرق أعشاش الطيور ، ونسلبها صدورها لنهيىء لانفسنا هذا الفراش ــ هذا المأوى ، داخل مأوى ، مثلنا فى ذلك مثل الخلد[1] الذى يتخذ فراشه من الكلأ وأوراق الشجر يضعها فى طرف جحره الذى يأوى اليه • لقد اعتاد الفقراء آن يتشكوا من أن هذه الدنيا باردة ، وانا لنعزو معظم متاعبنا

(١) الخلد الاوروبى "Tolpa Ewropala" حيوان من آكلات الحشرات ، يعيش فى أمريكا الشمالية وشمال آسيا وأوروبا ، وهو مختلف عن الخلد المعروف عنـــد العرب ، من حيث أن هـــذا قارض ، وذاك من آكلى الحشرات ، وأن تشابها فى الحجم وفى صغر العينين ، حتى قيل أن الخلد فأرة عمياء .

وآلامنا الى هذا البرد مباشرة ، سواء كان بردا جسمانيا أو بردا اجتماعيا• ان الصيف فى بعض الاقاليم ييسر للانسان نوعا من حياة الفراديس ، حيث لايكون الانسان بحاجة الى الوقود ، اللهم الا ليطهو طعامه • فالشمس ناره التى تدفئه ، وتنضج أشعتها الكثير من الثمار انضاجا ، ذلك الى أن الطعام فى جملته يكون فى الصيف أكثر تنوعا وتعددا ، كما يكون الحصول عليه أيسر وأهون • أما الملبس والمأوى فلا ضرورة لهما فيه أو يكاد الامر أن يكون كذلك • هذا ، وقد علمتنى خبرتى الخاصة أن حسبنا فى هذه البلاد ، وفى الوقت الحاضر قليل من الادوات مثل السكين ، والفأس والمعول ، وعربة نقل وما الى ذلك ، ثم يلى هذه من حيث الضرورة ، لمحبى الاطلاع الجادين فيه ـ مصباح وورقة للكتابة، وتيسر الحصول على بضعة كتب ، وهى كلها أمور يسهل الحصول عليها بتكاليف زهيدة • ومع ذلك فان ناسا من غير العقلاء يذهبون الى الطرف الثانى من الكرة الارضية ـ الى الاقاليم المتوحشة غير الصحية ، ليعملوا فى التجارة ، عشر سنين أو عشرين سنة كى يعيشوا ـ أى كى يكونوا دافئين الدفء المريح ، ثم ينتهى بهم المطاف أن يموتوا فى نيوانجلند • أما الاغنياء المترفون فليسوا دافئين دفئا مريحا فحسب ، بل هم حرانون حرا غير طبيعى • فهم بالطبع ، كما أشرت من قبل ، يطهون الطهو الذى يتفق مع « الموضة » •

ان أغلب الكماليات ، وأغلب الكثير مما يسمونه وسائل الراحة فى الحياة ، ليست أمورا غير ضرورية فحسب بل هى عوائق ايجابية تقف فى سبيل النهوض بالجنس البشرى • فمن حيث الكماليات ووسائل الراحة هذه ، فقد عاش الحكماء من الناس دائما عيشة أبسط وأكثر تقشفا من عيشة الفقراء • وكان الفلاسفة القدامى من أهل الصين وفارس والهند والاغريق طبقة لم يكن أحد أفقر منهم من حيث الثروة الظاهرية ، على حين لم يكن أحد أغنى منهم من حيث الثروة الباطنية •

على أنا لا نعرف الكثير عنهم ، ومن عجب أن نعرف عنهم ذلك القدر الذى نعرفه ، وهذا نفسه يصدق على المصلحين المحدثين ، والعاملين على خدمة البشر ، وليس ثمة أحد يستطيع أن يلاحظ الحياة البشرية ملاحظة كلها نزاهة وحكمة وعدم تحيز الا اذا نظر اليها من ناحية مايجب أن نسميه بالفقر الاختيارى • فحياة الترف لاتثمر الا ترفا ، سواء كان ذلك فى الزراعة أو التجارة أو فى الادب أو الفن • ألا ترى أن عندنا أساتذة فلسفة الآن ، ولكن لافلسفة • ومع ذلك فمن البديع الرائع أن نعلم الفلسفة لانه من البديع الرائع كذلك أن نعيش • فليس الفيلسوف من كان عنده أفكار وآراء تدق على الافهام فحسب، ولا حتى من له منهم مدرسة ومريدون ، ولكن الفيلسوف هو الذى يحب الحكمة حبا جما يجعله يعيش بحسب ماتمليه عليه

مبادئها وتوجيهاتها ، فيحيا حياة البساطة والاستقلال وسعة العقل والايمان ، والثقة بالناس • فليست الفلسفة أن تحل بعض مشكلات الحياة حلا نظريا فحسب ، بل أن نحلها عمليا ونظريا معا • ان نجاح كبار الاساتذة والمفكرين لأشبه ما يكون بنجـــاح أصحاب السلطـان ورجال الحاشية ، فهو نجاح ، لاهو بالملكى ، ولا هو مما يليق بالرجولة ، فهم يعملون جهدهم ليعيشوا ، كما عاش آباؤهم تقريبا ، وليسوا هم بحال من الاحوال بالآباء الذين ينتظر منهم أن ينجبوا جنسا من البشر أنبل مما سبقه وأشرف منه • ولكن ما الذى يدعو بنى الانسان الى أن يتدهوروا وينحطوا هذا الانحطاط الموصول ؟ وما ذلك الذى يستنفـد قوى الاسرة ويقضى عليهـــا ؟ ما طبيعـــة ذلك الترف الذى يضعف الامم ويهلكها ؟ وهل نحن واثقون يا ترى من أن شيئا من هذا لا يوجد في حياتنا نحن ؟ ان الفيلسوف يسبق عصره دائمـا ، حتى فى مظاهر حياته الخارجية ، فهو لا يأكل ولا يلبس ولا يسكن ولايستدفىء بالشكل الذى يأكل به بنو عصره ويسكنون ويلبسون ويستدفئون • كيف يتسنى لامرىء أن يكون فيلسوفا من غير أن يحافظ على حرارته الحيوانية بطرق أفضل مما يحافظ به عليها غيره من الناس ؟ •

فلو أن انسانا استدفأ بالطرق المختلفة التى وصفتها ، فما عساه يبغى أكثر من ذلك ؟ لا شك أنه لا يتطلب مزيدا من الدفء من النوع ذاته ، كأن يبغى طعاما أكثر وأدسم ، وبيوتا أوسع وأفخم ، وملابس أكثر وأفخر ، ومواقد أكثر عددا وأشد حـــرارة ، وما الى ذلك • فبعد أن يحصل على تلك الاشياء الضرورية للحيـاة لا يكون أمامه سوى بديل آخــر من الحصول على ما يزيد على حاجته ، وذلك بأن يغامر الآن فى الحيـاة • فقد بدأ يتحرر من الاعمال الوضيعة ويتخلص منها • ويبدو أن التربة ملائمة للبذور ، فقد أرسلت جذيراتها الى أسفل ، ولعلها ترسل الآن فروعهـــا الى أعلى وهى واثقة مطمئنة • فلماذا زرع الانسان نفسه هكذا راسخـــة فى الارض ان لم يكن ذلك لينهض بها صعدا نحو السماء ذاتها ؟ ذلك لان النبات الحر تقدر قيمته من أجل ما يحمل من ثمار فى النهاية ، في الشمس والضوء بعيدا عن الارض • وهى لاتعامل معاملة الفواكه الأخرى الاقل منها مرتبة ، والتى ، وان كانت مما يعيش سنتين ، فانها لاتترك الا حتى تستكمل جذورها ، وكثيرا ما تقطع من قمتها لهذا الغـرض نفسه ، حتى أن أكثر الناس لايعرفونها فى موسم ازدهارها •

ولست أقصد هنا أن أضع القــواعد وأرسم الخطط لاصحاب الطبائع القوية الجريئـــة الذين يعنون بشئونهم الخاصة سواء منها ماكان يتعلق بالجنة أو بالنــار • انهم قد يبنون مبانى أروع مما يبنيه أغنى الناس ، وينفقون عن سعة واسراف أكثــر منهم من دون أن يفقــروا أنفسهم ، ومن غير أن يعرفوا كيف يعيشون — هذا ان كان يوجد حقا أمثال هؤلاء الناس الذين

يحلم بهم ، وكذلك لا أضع هده القواعد للـذين يجدون فعلا مصادر تشجيعهم والهامهم فى الحالة القائمة على ما هى عليه ، ويطيب لهم أن يحتفظوا بها ويرعوها بتلك المحبة وهذه الحماسة التى نعرفها عن العشاق المغرمين • وانى لأعد نفسى الى حد ما من هذا الفـــريق ، وكذلك لا أوجه حديثى الى أولئك الذينْ يشتغلون فى عمل طيب ، آيا كانت ظروفهم وأحـــوالهم ، ويدركون ان كانوا حقا مستخدمين استخداما طيبا أم لا ـ وانما أوجه الكلام أصلا الى جمهرة الناس المتذمرين غير الراضين ، الذين يشكون عبثا من قسوة الحظ عليهم ومن صروف الزمن معهم ، على حين أنهم ان شاءوا لأصلحـوا من أحوالهم وحسنوها كثيرا • وثم فـــريق من الناس يجأرون بالشكوى من أى شىء بصورة لا يفلح فيها معهم أى عزاء يعزيهم عما هم فيه ، لانهم ، كما يقولون ، انما يؤدون ماعليهم من واجب • وفى ذهنى كذلك تلك الطبقة من الناس التى يبدو أفرادها أغنياء موسرين على حين أنهمفقراء معدمون فىالواقع ، بل هم أفقر الطبقات جميعا • فقد جمعوا الكثير من حطام هذه الدنيا ولكنهم لا يدركون كيف يستخدمونه ولا كيف يتخلصون منه ، وبذلك صاغوا لانفسهم قيودا من ذهب ومن فضة •

ولو أنى حاولت أن أسرد كيف كنت أود أن أقضى حياتى فى السنين الماضية ، فلربما أدهشت قرائى الذين يعرفون فعلا شيئا عن تاريخ حياتى • أما أولئك القراء الذين لا يعرفون عنه شيئا البتة فأنهم لا شك سيدهشون حقا ، على أنى سأجتزئ هنـــا بالاشارة الى بعض مغامراتى التى أعزها •

ففى كل جو من الاجواء ، وفى كل ساعة من ساعات النهار أو الليل كنت أتلهف دائمـــا على أن أعمل على تحسين اللحظة التى أنا فيها ، وأدونها فى مذكراتى كذلك ، وأن أقف عند ملتقى أبديتين : الماضى والمستقبل[1] معا ، وما ملتقاهما على وجه التحديد الا اللحظة الحاليـة التى نحن فيها •

وأحب أن أقف دائما عند هذا الحد لا أتعداه • هذا ، وانى لارجو المعذرة عما قد يكون فيما أكتب من غموض فان فى مهنتى أسرارا عدة أكثر مما فى مهن معظم الناس • ولست مع ذلك أحتفظ بهذه الاسرار طواعية واختيارا ، ولكنها جزء من طبيعة عملى لا ينفصل عنـــه ولا يتجزأ • والحق أنى ليسعدنى أن أذكر كل شىء عنها وأن لا أضـع على بابى عبـــارة « الدخول ممنوع » •

---

(١) يذكرنا هذا بما جاء فى كتاب للشاعر الايرلندى توماس مور (١٧٧٩ ـ ١٨٥٢) عنـــوانه لالا روخ Lalla Roukh نشره نظما سنة ١٨١٧ •

وحدث أني فقدت منذ زمن طويل كلب صيد وحصانا أدكن اللون ، ويمامة ، ما زلت أتتبع آثارها باحثا عنها . فكم من سائح تحدثت اليه بشأنها ووصفت له آثارها وضروب المناداة التى تستجيب لهـا ، وقابلت شخصا أو اثنين ممن سمعوا نباح كلبى ، ورأوا وقـع حوافر حصانى ، بل رأوا اليمامة نفسها تختفي وراء سحابة ، وقد بدا عليهمـا أنهما يهتمـان باسترجاع هذه الحيوانات كأنهما هما اللذان فقداها .

فلنبتسر الطبيعـة نفسهـا ، لا شروق الشمس ، وبزوغ القمر وحدهما . فكم من صباح ، صيفا وشتاء ، كنت أقوم فيه بعملى قبل أن يتحرك أى جار من جيرانى ويمضى لمزاولة عمله . وليس من شك فى أن الكثيرين من أهل بلدتى قد رأونى عائدا من هذه المغامرة ، فمنهم الفلاحون المتجهون الى مدينة بوسطن* فى الفجـر ، والحطابون الذاهبون الى عملهم . حقا انى لم أساعد الشمس مساعدة مادية على شروقها ، ولكن لا ريب فى أنه من الاهميـة بمكان أن أكون حاضرا لاشهد ذلك الشروق .

وهكذا قضيت أياما كثيرة من أيام الخـريف ، بل ومن أيام الشتاء كذلك ، خارج البلدة أحاول أن أتسمع ما فى الريح ـ أسمعه وأنقله بكل دقة ، وكـدت أن أودع رأس مالى كله فى هذا ، وزيادة على ذلك قطعت أنفاسى فيه حتى كدت أبهر وأنا أركض أمامه . ولاشك عندى انه لو كان الامر يعنى أحـد الحزبين السياسيين لنشر فى الغازتة الرسمية مع أخبار آخر ساعة . وأحيانا أخرى كنت أرقب من مرصدى ، من على صخـرة أو شجـرة ، كى أبرق عن أى وآفد جديد ، أو أنتظر فى المساء على قمم الربى الى أن تقع السماء على ، أتصيد خبرا من الاخبار وان كنت لم أتصيـد شيئـا كثيرا يذكر . وكان ذلك ينصهر فى ضـوء الشمس كما ينصهر المن ويذوب .

واشتغلت مدة قصيرة مخبرا فى جريدة ليست واسعة الانتشار، ولم يكن رئيس تحريرها يرى مناسبا أن ينشر الجزء الاعظم مما أكتب ، وكما هى العـادة مع الكتاب لم أحصل الا على عملى جزاء لما تجشمته من مشقة وتحملته من متاعب ، وفى هذه الحالة كانت متاعبى جـزاء نفسها .

وقد لبثت عدة سنين أعمل مفتشا معينا من قبل نفسى ، على العواصف الثلجية والماطرة، فأديت واجبى هذا بكل أمانة واخلاص . كذلك عينت نفسى ، مساحا ، لا للطرق العامة ، ولـكن لتلك الطرق الضيقة فى الغـابات ، ولسـائر الطرق التى تقطع المزارع ، أعمل على الاحتفاظ بها مفتوحة ، وأراعى أن تكون على الاخاديد جسور وقناطر تيسر للناس المرور عليها فى جميع فصول السنة . وقد دلت أقدام الجمهور على ما كان فى ذلك العمل من فائدة .

وكذلك اشتغلت بصيانة الماشية البرية في البلدة ، تلك التي كانت تسبب للرعاة المخلصين متاعب جمة بسبب قفزها على سياجهم • وكنت أراقب أركان المزارع ونواحيها المنقطعة التي قلما يتردد عليها أحد ، وان كنت لا أعرف دائما أن كان فلان ، أو علان ، قد عمل اليوم في حقل معين أم لم يعمل ، فليس هذا من شأني • ورويت « الجايلوسافيا الحمراء » و « كريز الرمل » وشجيرات القراص ، والصنوبر الاحمر ، والحور الاسود ، والعنب الابيض ، والبنفسج الاصفر[1] التي لولاي لذبلت في موسم الجفاف•

وقصارى القول ، أني ظللت على ذلك مدة طويلة ، واني لاقولها من غير تنفج أو زهو : لقد أديت عملي مخلصا كل الاخلاص الى أن استبان لي واتضح أن أهل بلدي لا يريدون ، بعد كل شيء ، أن يقبلوني موظفا في البلدة ،ولا أن يعطوني وظيفة هينة العمل ذات أجر معتدل • وأقسم أني كنت أمسك حساباتي بكل أمانة ، مع أني ، في الواقع ، لم أكلف أحدا بمراجعتها ولا حتى قبولها والرضى عنها ، ولم أطلب من أحد أن يدفعها ويسددها ، ومع ذلك لم أكن لاعلق على ذلك أي أمل من آمالي •

ومنذ مدة قصيرة ذهب رجل هندي متجول الى بيت محام نابه من جيراني ليبيعه أسفاطا ، وسأل من في البيت : هل بكم حاجة الى شراء أسفاط ؟ فكان الجواب أن لا ! أنا لانريد شيئا منها • فصاح الهندي وهو يخرج من باب الدار : ماذا ! أتريدون أن تقضوا علينا جوعا ؟ ذلك أنه رأى من قبل أن جيرانه البيض المجدين ، أغنياء موسرون ، فلم يكن على المحامي الا أن ينسج خيوط حججه وبراهينه بطريقة سحرية حتى يكسب المال وينال الجاه • فقال الهندي في نفسه : ومالي لا أدخل ميدان الاعمال أنا أيضا ، وأنسج الاسفاط • فذلك شيء في قدرتي أن أعمله ، ظانا أنه اذا عمل الاسفاط يكون قد أتم كل ماعليه أن يعمله ، وعندئذ يكون من واجب الرجل الابيض أن يشتريها • ولكنه لم يكن يدرى أنه من الضروري له ، أن يجعل الآخرين يرون أن من مصلحتهم أن يشتروها ، أو على الاقل أن الامر كذلك ، أو أن يقوم هو بصنع شيء آخر يكون جديرا بأن يشترى • وجعلت بدوري أنسج نوعا من الاسفاط من نسيج رقيق ، ولكني لم أجعل أحدا يرى أن مصلحته تقتضيه أن يشتريها • ومع ذلك ، ففي حالتي الخاصة هذه ، لم أفكر في أنه من مصلحتي أن أنسجها • وبدلا من أن أدرس كيف أعمل على أن يكون من مصلحة غيري أن يشتري أسفاطي ، درست كيف أتجنب أن أبيعها • فما الحياة التي يتمدح بها الناس ويعدونها حياة ناجحة ، سوى

(١) هذه كلها أسماء لنباتات نادرة في البقعة التي عاش فيها المؤلف ، وكان معنيا كل العناية بالنبات والحيوان وكل ما يتصل بمشاهد الطبيعة .

نوع واحد من أنواع كثيرة • فلماذا نبالغ فى نوع معين من أنواع الحيـــاة ونذر الانواع الاخرى ؟ •

ولما وجدت أنه ليس من المحتمل أن يقدم الى بنو وطنى مكانا ما فى دار المحكمة ، ولا وظيفة أخرى ، حتى ولا وظيفة فى أى مكان آخر ، وان على أن أعتمد على نفسى وحدها ، وليت وجهى شطر الغابات فجعلت أتوجه اليها وحدها دون غيرها أكثر مما كنت أفعل من قبل ، وذلك لانى كنت معروفا فيها أكثر منى فى أية جهة أخرى ، وعزمت أن أمضى الى العمل فى التو والساعة من غير أن أنتظر حتى أحصل على رأس المـال اللازم ، واكتفيت بما عندى من الوسائل القليلة • فلم يكن غرضى من الذهاب الى بركة والدن أن أعيش بثمن بخس أو بثمن غال ، وانما كان غرضى من الذهاب اليها أن أقوم باجراء عمليات تجارية شخصية بأقل مايمكن من العقبات • فمنعى من انجازها بسبب نقص قليل فى الذوق السليم وفى المغامرة والمقدرة التجارية لم يبد لى أمرا محزنا بقدر ما هو أخرق •

وكنت دائما أحاول أن اعتاد عادة مراعاة الدقة ، والتزمها فيما أقوم به من أعمال ، فهى عادة ضرورية لـــكل انسان • فان كنت تتجرمع امبراطورية السماء[1] فحسبك اذن مكتب صغير على الشاطىء عند ميناء مثـــل « سالم » تستطيع أن تصدر منه الاشياء التى يمكن للبلاد أن تصدرها ، وهى منتجات أهلية محضة مثل كثير من « الثلج » وخشب الصنوبر وقليـــل من أحجار الجرانيت ، على أن يكون تصديرها فى مراكب أهليـة دائما • فتلك اذن مشروعات ومغامرات طيبة • فأن تشرف بنفسك على جميع التفصيلات ، وتكون فى الوقت نفسه مرشد السفينة وربانها وصاحبها ، والمؤمن عليها عنده ضد الحريق ، تبيع وتشترى ، وتمسك الدفاتر والسجلات ، وتقرأ كل خطاب يرد ، وتكتب وتقرأ كل خطاب تصدره ، وتشرف على تفريغ الواردات ليلا ونهارا ، وتكون فى أجزاء عدة من الشاطىء ، تكاد تكون فيها كلها فى وقت واحد ــ وغالبا ما تفرغ أثمن الشحنات على شاطىء مثل شاطىء جــرزى ــ وأن تكون أنت تلغراف نفسك ، تطوف بكل الآفاق فى غير تعب أو ونى ، تخاطب جميع السفن المـــارة بالشاطىء والمقبلة عليه ، وتعمل على تصدير البضائع باستمرار لتموين السوق البعيدة المرهقة بكثرة مطالبها ، وتجعل نفسك على علم بحالة الاسواق وبما ينتظر من حرب وسلام فى كل بقعة من بقاع الارض ، وتبتسر اتجاهات التجارة والحضارة ــ منتهزا فرصة نتائج جميع الحملات الاستكشافية ، سالكا طرقا جديدة ملاحية ، ومستفيدا من كل تحسن وتجـــديد يتم فى فن الملاحة • ذلك فضلا عن أن ثم خرائط جغرافية تدرس بعناية ، ومواقع الصخور والانوار

---

(١) يقصد الصين • (المترجم)

الجديدة و « الشمندورات » للتأكد منها ، وكذا أن تصلح باستمرار ودواما جداول اللوغارتيمات لان غلطة حاسب واحد قد تؤدى الى تحطيم السفينة على صخرة على حين كان يجب عليها أن تصل الى مرفأ أمين ــ وأمامك ما أصاب لابروز* • من سوء حظ لا يوصف ؟ فعليك أن تماشى العلم العام ، فتدرس سير جميع المستكشفين والملاحين العظام وحياة كل مغامر وتاجر كبير كذلك ، من أيام هانو والفينيقيين الى يومنا هذا • وختاما ، أمامك عملية جرد البضائع وهو جرد يجب أن يحدث من وقت لآخر لتعرف موقفك حق المعرفة ــ ذلك عمل مرهق لا شك لملكات الانسان وقدراته • وأن مسائل الربح والخسارة ، والفائدة ، والتنزيل نظير العيوب ونظير التالف والعادم ، وقياس كل شيء فيها مما يتطلب معرفة واسعة شاملة •

خطر ببالى أن بركة والدن تصلح مركزا طيبا للعمل والاتجار ، لا من أجل السكة الحديدية وحدها ، ولا من أجل تجارة الثلج ، بل لما يتوافر فيها من ميزات قد لا يكون من حسن السياسة أن أكشف عنها • فهى مركز طيب وأساس صالح ، اذ ليس بها مستنقعات يجب ردمها مثل تلك التى على نهر النيفا* وان كنت مضطرا لان تبنى ، فى كل مكان تبنى فيه ، على عروق من الخشب أرسيتها فى الارض وغرزتها بيديك ، فقد قيل آن مدا وريحا غربية ، ووجود الجليد فى نهر النيفا هذا ، تكفى لان تجرف مدينة سان بطرسبرج* من على البسيطة •

ولما كانت هذه الاعمال التجارية ستبدأ من غير أن يكون عندنا رأس المال المعتاد لم يكن من السهل أن نحزر من أين سنحصل على رأس المال هذا ، الذى لا يزال ضروريا للقيام بمثل هذه المشروعات • أما من حيث الملابس ــ كى ندخل مباشرة فى الناحية العملية من المشكلة ــ فانا قد نكون مدفوعين فى اختيارها فى أغلب الاحيان بحب كل جديد وبمراعاة آراء الغير ، أكثر من أن نكون مدفوعين بالمنفعة الحقيقية • وليذكر كل من كان أمامه عمل عليه أن يؤديه ، ان الغرض الاساسى من الملابس هو أولا ، المحافظة على الحرارة الحيوانية • وثانيا ــ فى حالة المجتمع التى نحن عليها الآن ــ أن يدارى العرى • وله اذن أن يحدد مقدار ما يمكن انجازه من أى عمل هام أو ضرورى من غير حاجة الى أن يضيف شيئا جديدا الى صوان ملابسه • ألا ترى أن الملكات والملوك الذين لا يلبسون الحلة الا لبسة واحدة ــ وان كان قد عملها خياط خاص أو خياطة خاصة لجلالتهم ــ لا يستطيعون أن يعرفوا معنى الراحة التى تنجم عن لبس حلة تناسب الجسم وتلائمه تمام الملاءمة • فهم ليسوا خيرا من المشاجب الخشبية التى تعلق عليها الملابس النظيفة • هذا ، وكلما زادت ملابسنا اندماجا فينا اتسمت بطابع أخلاقنا وسماتنا حتى أنا لنتردد فى نبذها من غير ابطاء ، ومن غير أجهزة طبية ، بل ومن غير احتفال

ووقار كالذى نراعيه حتى عندما تزايل أرواحناالاجساد • ولم يحدث أن رجلا نقص مقامه فى نظرى من جراء وجود رقعة في ملابسه ، ومع ذلك فانى على يقين من أن الانسان ليتلهف عادة على الحصول على ملابس تتمشى مع « الموضة » ، والزى الجديد ، أو على الاقل ملابس نظيفة لا رقعة فيها ، أكثر من تلهفه على أن يكون له ضمير حى • وحتى اذا لم يرتق الفتق فربما كان قصر النظر أكبر رذيلة يدل عليها ذلك • وكنت أختبر معارفى أحيانا بأن القى عليهم مثل هذا السؤال « من ذاالذى يستطيع أن يلبس بنطلونا فيه رقعة ، أو فيه درزان اثنان زيادة فوق الركبه ؟ » فظهر لى من مسلكهم أن الكثرة منهم يعتقدون أن مستقبلهم فى الحياة ينهار لو انهم فعلوا ذلك ، فانه أيسر عليهم أن يظلعوا الى المدينة بساق مكسورة من أن يذهبوا اليها ببنطلون ممزق • فاذا ماحدث حادث لساقى رجل فالغالب أنها



تعالج وتصلح ، أما اذا حدث شيء من ذلك لساقى بنطلونه فلا مجال للاصلاح ، ذلك لانه لايحفل بما هو واجب الاحترام حقا ، بل بما يحترمه الناس عادة • انا لا نعرف سوى عدد صغير من الناس ، على حين نعرف عددا كبيرا من الجاكتات والبنطلونات • ألبس ناطورا أحدث بذلة عندك ، ثم قف الى جانبه فى كسل وتراخ وقل لى من ذا الذى لايفضل أن يحيى الناطور ؟ مررت منذ أيام بحقل مزروع قمحا ، وعلى مقربة من قبعة وجاكتة معلقتين على عصا ، واذا بى أرى فيهما صاحب المزرعة ، وان كانت الشمس قد لوحت وجهه ، أكثر مما رأيته آخر مرة • وحدث أن سمعت عن كلب ينبح على كل غريب يقترب من بيت سيده ان كان يلبس ملابس ما ، على حين يستطيع أى لص عارى الجسد أن يجعله يصمت عن النباح فى سهولة ويسر • انها لمسألة شائعة أن تعرف الى أى حد يستطيع الناس أن يحتفظوا بمكانتهم

النسبية التى لهم ، اذا ماتجردوا مما عليهم من ملابس • فهل تستطيع أنت فى هذه الحالة ، أن تحدد واثقا أية جماعة من الرجال المتحضرين ، هى التى تكـــون أكثر الطبقـــات احتراما ؟

قامت مدام بفايفر * برحلات ومغامرات حول العالم من الشرق الى الغرب•فلما وصلت، وهى فى طريقها الى بلادها ، الى أقاليم آسيا الروسية قالت انها شعرت بضرورة ارتداء ملابس أخرى غير ملابس السفر عندما تذهب لمقابلة أولى الامر فيها ، وذلك لانها صارت فى بلاد متحضرة حيث الناس يقدرون بحسب ما عليهم من ملابس • وحتى فى بلادنا نحن ، فى اقليم « نيو انجلند » الديموقراطى تكفى الثروة العارضة ، وما تتجلى فيه من ملابس ورياش وحدهما لتكسب صاحبها احتراما يكاد يكون عالميـــا • على أن الذين يظهرون مثل هذا الاحترام ، على كثرتهم ، يبدون من هذه الناحية وثنيين ، وبذلك يكونون بحاجة الى رســول يبعث اليهـــم ليهديهم • وزيادة على هذا فالملابس قد أدت الى ايجاد فن الخياطة ، وهو فن لك أن تقول عنه انه لا نهاية له ، فرداء المرأة على الاقل شىء لايتم أبدا •

ليس الرجل الذى وجد فى النهاية شيئا يعمله بحاجة الى حلة جديدة يلبسها ليؤديه فيها، فحلته القديمة التى ظلت مخزونة فى عليتـــه دهرا طويلا حتى علاها الغبـــار لتصلح لهذا الغرض • ألا ترى أن الاحذية القديمة تخدم البطل أطول مما تخدم تابعه الخاص ـ ذلك ان وجد بطل له تابع يخدمه ! ولا يخفى أن الاقدام الحافية خلقت قبل أن تخلق الاحذية ، وفى استطاعة المرء أن يكتفى بها • أما أولئك الذين يختلفون الى الحفلات المسائية والأندية السياسية ، فهم وحدهم الذين بحاجة الى ارتداء حلل جديدة تتغير بتغير شخص لابسها • فان كانت سترتى وبنطلونى وقبعتى وحذائى صالحة لان أعبد الله فيها ، فهى لاشك صالحة للبسى ، أليس كذلك ؟ فمن ذا الذى رأى ملابسه القديمة ـ سترته القديمة مثـــلا ـ قد بليت فعـــلا وتحللت الى عناصرها البدائية حتى لم يعد التكرم بهـــا على صبى فقير يعد صـــدقة واحسانا ؟ فلربما يعود هذا الصبى ويتصدق بها على من هو أفقر منه • أم هل لنـــا أن نقول أنه قد يتصدق بها على من هو أغنى منه ، ويستطيع أن يكتفى بما هو أقل ؟ وهأنذا أقولهـــا لكم : احـــذروا كل المشروعات التى تستدعى ارتداء ملابس جديدة، ولا تتطلب بالاحرى لابسا جديدا لهذه الملابس• فاذا لم يكن ثمة رجل جديد فكيف نستطيع أن نجعل الملابس تلائمه ؟ فان كان أمامك مشروع فجرب أن تقوم به وأنت بملابسك القديمة ، فليس كل الناس بحاجة الى شىء جديد يؤدون العمل فيه ، بل الى شىء يعملونه ، أو ان شئت هم بحاجة الى شىء يكونونه • وربما كان الاولى بنا الا نحصل على بذلة جديدة لنا مهما تمزقت القديمة واتسخت ، الا بعد أن نكون قد سرنا فى حياتنا وغامرنا فيها ، أو أبحرنا فى خضم الحياة بشكل يجعلنا نشعر بأنا قد أصبحنا رجالا جددا

غير ماكناه من قبل ، وصار الاحتفاظ ببذلتنا القديمة أشبه شيء بحفظ النبيذ الجديد في زجاجات خمر قديمة . ان موسم تغيير ملابسنا وموسم تغيير الريش عند الدجاج ينبغي أن يعد أزمة ووقتا حرجا في حياتنا فالغطاس* ينتبذ البرك القصية المنعزلة ليقضي هذا الموسم فيها . وكذا تفعل الثعابين عندما تنضي عنها قشرها ، واليرقة كساءها الدودي . وذلك يتم بمجهود باطني وتمدد جسمها من الداخل . فما الملابس الا أظهر طبقة من طبقات جلدنا ، والا فسوف نجد أنفسنا سائرين في بحر الحياة تحت أعلام زائفة ، ولا مناص لنا في النهاية من أن نطرد ، ونقضي على أنفسنا من جراء رأينا فينا ، ورأي بني الانسان كذلك .

انا لنلبس رداء فوق رداء ، كأنما ننمو مثل تلك النباتات التي تنمو بزيادات من الخارج تضيفها الى نفسها . فملابسنا الخارجية ، والتي كثيرا ما تكون رقيقة مزركشة ، انما هي بمثابة بشرتنا أو جلدنا الكاذب ، الذي لايشترك مع حياتنا في شيء ، ومن الهين نزعه من هذا الموضع أو ذاك من دون أن يصيبنا من وراء ذلك ضرر ما ، على حين أن ملابسنا السميكة التي نرتديها باستمرار تعتبر كساءنا الخلوي أو اللحاء ـ أماقمصاننا ، فهي كساؤنا الصادق ، الذي لايمكن نزعه من دون حز أو قطع يقضي على الانسان ويهلكه . وفي اعتقادي أن جميع الاجناس البشرية في بعض الفصول شيئا يعادل القميص . فمن المرغوب فيه أن يرتدي الانسان ملابس بسيطة حتى يستطيع أن يضع يديه على جسمه في الظلام ، وأن يعيش عيشة يكون فيها ،من كل وجه من الوجوه ، على أتم أهبة واستعداد ،حتى اذا ماهاجم عدو بلدته واستولى عليها استطاع كما استطاع الفيلسوف القديم[1] ، أن يخرج من الباب فارغ اليدين في غير قلق أو اضطراب . ان كساءا سميكا واحدا ليعادل ،في أغلب الاحوال ، ثلاثة أكسية رقاق ، هذا ، ولا يخفى أن الملابس الرخيصة يتسنى الحصول عليها بثمن يلائم من يشتريها حقا ، فالمعطف السميك يمكن شراؤه بخمسة دولارات ، ويظل الانسان يلبسه مثل هذا القدر من السنين ، وثمن البنطلون السميك دولاران ، والحذاء الذي من جلد البقر دولار واحد ونصف دولار ؛ وقبعه الصيف ثمنها ربع دولار ،وأخرى للشتاء ثمنها ستون سنتا ونصف . ومما هو خير من ذلك أن يصنع المرء منا واحدة لنفسه في منزله بتكاليف اسمية . أفلو كان المرء فقيرا ولبس أردية من كسب يده ، فهل لايوجد أحد من العقلاء يحترمه ويوقره ؟

اني اذا طلبت صنع رداء لي من شكل معين كانت الخياطة التي أعهد اليها بصنعه تقول لي في رزانة وتوقر « هم لم يعودوا يصنعونه اليوم بهذا الشكل الذي تريد » . تقول هذا

(١) هو الحكيم الاغريقي باياس أحد حكماء اليونان السبعة المشهورين بأقوالهم الحكيمة ، منهم سولون المشرع حكيم أثينا ، وطاليس الملطي وخمسة آخرون (المترجم)

من غير أن تؤكد ضمير الغائب (هم) ، كأنما كانت تقتبس قول حجة ثقة ، له من الشأن والخطر مالآلهة الاقدار* • ولذا كنت أجدمشقة وعنتا فيأن أجعلها تصنع لى الشكلالذى أريد • وما ذلك الا لانها لم تتصور أنى جاد فيما أطلب ، بل كنت فى نظرها متهورا الىحد كبير • وكنت اذا سمعت تلك الجملة الفاصلة ،استغرقت فى أفكارى برهة أستعيد فيها كل كلمة من كلامها على حدة ، حتى أصل الى المعنى الذى ترمى اليه وأعرف مدى درجة القرابة التى بين الضمير (هم) هذا وبينى أنا ، وأية حجة يمكن أن يكون لها فى مسألة تمسنى من كثب • وأخيرا أجدنى ميالا الى أن أجيبها بشىء من الجفاء والغموض يعادل مافى قولها هى من ابهام ، ومن غير أن أؤكد كذلك الضمير (هم) • فأقول لها : « حقا انهم لم يكونوا يصنعون الملابس بهذا الشكل من زمن قريب ، ولكنهم يصنعونها هكذا الآن » فما فائدة أخذ قياسى هذا ان لم تأخذ قياس أخلاقى ، بل تقتصر على عرض كتفى كأنهما كانتا مشجبا يعلق عليه المعطف انا لا نعبد آلهة* الجمال والروعة ولا « البارسيه* » الاهات القدر والمصير ، ولكنا نعبد « الموضة » ، فهى التى تغزلوتنسج وتفصل ولديها السلطة الكاملة • فكبير القردة فى باريس يضع على رأسه طاقية السفرواذا بسائر القردة فيأمريكا يحاكونه ويحذون حذوه حتى ليعرونى اليأس أحيانا من الحصول على شىء بسيط شريف يعمل فى هذه الدنيا بمساعدة الناس ، فهم يجب أن يمروا أولا على مضغطة تعصرهم عصرا وتستخرج منهم أفكارهم العتيقة حتى لا يعودوا ويقفوا سريعا على أقدامهم • وعندئذ يقوم واحد من بين الجماعة ، وفى رأسه يرقة فقست من بيضة لايدرى أحد متى ألقيت فيه • فالنيران نفسها لا تقتل مثل هذه الاشياء • وبذلك تكون أنت قد أضعت عليك عملك وجهدك سدى • وعلى الرغم من هذا كله فانا لا ننسى أن جانبا من القمح المصرى القديم قد وصل الينا على يد مومياء •

وفى الجملة ، يخيل الى أنه لا يوجد أحد يعتقد أن اللبس فى هذه البلاد ، وفى أى بلاد أخرى ، لم ينهض بعد الى المقام الذى يجعله فنا من الفنون • فالناس الآن يقنعون بلبس أى شىء يستطيعون الحصول عليه ، مثلهم كمثل البحارة الذين تحطمت بهم السفينة ، فيلبسون أى شىء يصادفونه على الشاطىء ، ثم لا تلبث أن تراهم على أبعاد قليلة بعضهم من بعض ، وبعد برهة قصيرة ، تجدهم يضحكون بعضهم من بعض بسبب الشكل المضحك الذين هم عليه • وهكذا يضحك كل جيل من «الموضة» القديمة ، على حين يتبع الزى الجديد بكل دقة ويتشدد فيه تشدد التقى فى عبادة ربه • انا ليضحكنا أن نرى حلة الملك هنرى الثامن أو الملكة اليزابيث، كأنهما كانا ملكا وملكة على قوم من « آكلى لحوم البشر » • والحق أن كل حلة ليست على صاحبها قبيحة المنظر ، وفى شكل يستدعى الرثاء ، وليس سوى العين البصيرة الحادة التى

تطل منها ، والحياة المخلصة التى قضيت فيها ، يكفاننا عن الضحك من لباس أى شــــعب ، ويدفعاننا الى تقديسه • فاذا ما حدث وأصيب «هرلكان» بنوبة مغص فان ملابسه لتصلـــح لاستثارة هذه النوبة فى غيره • واذا ما أصيب جندى بقنبلة من مدفع استوت عنده الخلق البالية والملابس الفاخرة •

يميل الرجال والنساء الى اتخاذ الأزياء الجـديدة ، وهو ميل صبيانى متوحش يستبقى الكثيرين منهم فى قلق مستمر فيجعلهم يبحثون وينقبون وينظرون فى تلك المناظير التى تكشف عن أشكال وألوان متعددة ، لعلهم يعثرون بهاعلى الشكل الخاص الذى يتطلبه أهل هذا الجيل الجديد اليوم • ولقد أدرك صناع الأزياء أن هذا الميل قلب كثير النزوات فثم زيان لايختلف أحدهما عن الآخر الا ببضع خيوط من لون خاص ، ولـكن واحدا منهما يروج وينفق ، ويقبل الناس على شرائه أيما اقبـال ، على حين يظل الآخر ملقى على الرف • ومع ذلك فكثيرا مايحدث بعد موسم واحد أن يصبح هذا الآخرهو الزى الاحدث المرغوب فيه كل الرغبة • فليس الوشم بالعادة الشنيعة نسبيا،كما يقولون•فهى ليست بالعادة الوحشية لمجرد أن النقش سطحى لا يعدو مداه سمك الجلد ، ولا يتغيرويحول •

ولست أستطيع أن أصدق أن نظام المصانع عندنا هو خير طريقة يستطيع بها الانســان أن يحصل على الملابس اللازمة له • فقد أخذت أحوال العمـــال عندنا تقترب كل يوم من أحوالهم عند الانجليز ، وليس فى ذلك من عجب ، مادام الغرض الرئيسى ليس ، كما سمعت أو لاحظت ، أن يرتدى الناس أكسـية طيبة صالحة بطريقة شريفة ، وانما هو لا شك تمكين الشركات من أن تثرى وتغتنى • وفى النهـاية ، لايصيب الناس الا الاغراض التى يرمون اليها فعلا • وعلى هذا فقد كان الاولى لهم أن يرموا دائما الى غرض سام ، حتى ولو أخفقوا فى اصابته مباشرة •

أما من حيث المأوى فلست أنكر أنه صار الآن ضرورة من ضرورات الحيـــاة ، وان كان لدينا أمثلة عدة على أن رجالا فى بلاد أشد برودة من بلادنا قد استغنوا عنه فترات طويلة من الزمان • قال «صمويل لانج*» ان سكان« لا بلندا » ينامون على الثلج وهم فى لبـــاسهم المصنوع من الجلد ، وعلى رؤوسهم وأكتافهم كيس من الجلد كذلك ، ويظلون على هـــذه الحال الليلة بعد الليـلة فى درجة من البرودة تقضى على حياة أى امرىء يتعرض لهـــا من لابسى الملابس الصوفية • ولقد رآهم ينامون هكذا فعلا ، ومع ذلك فهو يضيف الى ما سبق قوله « انهم ليسوا أصلب عودا من غيرهم من الناس » • ولكن من المحتمل أنه لم يمض على الانسان زمن طويل على هذه البســـيطة حتى استكشـف أن فى البيت راحـــة ـ الراحـــة

المنزلية – وقد يكون معنى هذه العبارة فى الاصل ، الراحة الجسمانية ، التى يجدها الانسان فى البيت ذاته ، لا تلك التى يتذوقها بين أسرته • على أن هذه كانت مع ذلك راحة جزئية ناقصة كل النقص ، وعارضة فى الاقاليم التى يكون فيها المنزل مرتبطا فى عقولنا بالشتاء ، أو بفصل المطر بوجه خاص • ذلك الى أن البيت فى ثلثى السنة يكون غير ضرورى ، اللهم الا اذا استخدم كمظلة تقينا حر الشمس ووهجها • وفى مناخ بلادنا ، لم يكن البيت فى الصيف فى البداية أكثر من غطاء فى الليل • ولم يكن الكوخ الهندى (الوجوام) فى صحف الهنود الحمر سوى رمز على مسيرة يوم واحد • واذا ماحفر صف من هذه الرموز أو نقش على لحاء الشجر ، كان معنى ذلك أنهم عسكروا هنا بقدر هذا العدد من مرات • هذا ، ولم يخلق الانسان قويا عريض الاكتاف الا ليعمل على تضييق رقعة دنياه ، وليسور لنفسه قطعة من الارض تلائمه وتناسب مقتضياته • فقد كان الانسان فى البداية حافى القدمين يعيش فى الهواء الطلق • ومع ان هذا كان يطيب له ويرضيه فى الاجواء الدافئة الصافية وفى ضوء النهار ، فلربما كان فى فصل الشتاء والمطر ، بله فى الاقاليم ذات الشمس المحرقة ، يقضى على الجنس البشرى فى مهده ، لو لم يبادر الانسان الى اتخاذ بيت يلوذ به ويلجأ اليه •

وبحسب رواية القصة المعروفة لجأ آدم وحواء الى ورق الشجر يخصفانه عليهما ويستران به جسميهما ، قبل أن يكسواه بالملابس المعهودة • فالانسان بحاجة الى بيت تتوافر فيه الراحة والدفء ؛ وكانت حاجته أولا الى الدفء الجسمانى ، ثم الى دفء العواطف والوجدانيات •

لايشق علينا أن نتصور وقتا فى طفولة الجنس البشرى زحف فيه انسان مغامر الى تجويف فى صخرة ما ، فاتخذ منه مأوى له • فكل طفل يبدأ العالم من جديد الى حد ما ، ويجب أن يظل فى الهواء الطلق حتى فى المطر والبرد : فنراه فى لعبه يقلد بيتا ، كما يقلد حصانا ، تدفعه الى ذلك غريزته والميل الفطرى الذى فيه • فمن منا لايذكر اهتمامه ، وهو صغير ، عندما ينظر الصخور المستعرضة الناتئة ، أو الى أى شىء يشبه الكهف أو المغارة ؟ انه الميل الفطرى من ذلك الجزء الذى فى جدنا البدائى الاعلى ، الذى لايزال حيا فى نفوسنا • ثم من المغارة ، تقدمنا الى السقوف نتخذها من جريد النخل ولحاء الشجر وفروعه ، ثم الى ما نتخذه منها من الكتان بعد نسجه ونشره ، ومن الحشيش والقش وألواح الخشب ، ثم من الحجر والقراميد • وهانحن أولاء صرنا آخر الامر لانعرف معنى المعيشة فى الهواء الطلق ، وأضحت حياتنا حياة منزلية بعدة معان أكثر مما نظن فى الواقع • ان الشقة واسعة بين المنزل وبين الحقل • ولعله من الخير أن نقضى مزيدا من أيامنا ولياليا

حيث لا يحجبنا عن الأجـــرام السماوية أي حجاب ؟ ذلك ان كان الشاعر لم يكن قد تكلم من تحت سقف ، ولا القـــديس يظل يسكن تحته مدة طويلة . ألا ترى أن الطيور لا تغرد فى الكهوف ، ولا اليمام يزهى بطهارته وهو حبيس فى الاقفاص !

ومهما يكن الامر فخليق بمن اعتزم أن ينشىء له بيتا ، أن يراعى شيئا من تلك النباهة الامريكية حتى لاينتهى به المطاف فيجد نفسه فى اصلاحية للرجال ، أو فى متاهة لامفتاح لها ، أو فى متحف أو ملجأ خيرى ، أوفى سجن أو مقبرة رائعة فخمة ، بدلا من أن يجـــد نفسه فى بيت . فلنراع أولا مدى بســـاطة المسكن الذى تقتضيه الضرورة المطلقة وحجمه؟ فقد سبق لى آن شاهدت هنود « البنوبسكوت » يعيشون فى هذه البلدة فى خيام من نســـيج القطن الرقيق ، وقد تساقط الثـــلج حتى بلغ سمكه أكثر من قدم . فخطر ببالى أنهم يودون لو أن سمكه كان أكثر من ذلك حتى يصـد عنهم الريح . وقبلا كانت مسألة كسب رزقى بشرف ، وفى حرية تمكننى من متابعة ميـولى الخاصـــة ـ وهى مسألة كانت تقض مضجعى وتضايقنى وقتئذ أكثر مما تضايقنى الآن بعـد أن أصبحت لسوء الحظ جامدا بعض الجمود ـ ففى ذلك الوقت كنت أرى عند شريط السكة الحديدية صندوقا يبلغ الست أقدام طولا ، والثلاث عرضا ، كان العمال يضعون فيـــه آلاتهـــم وعددهم ثم يغلقونه عليهـــا اذا ما جن الليل ؟ فأوحى ذلك الى أن المضطر الى مسكن ما يصح له أن يشترى مثل هذا الصندوق الذى لا يزيد ثمنه على ريال واحد ويثقبه من عدة مواضـــع بالمثقاب ليدخل منه الهواء على الاقل ، ثم يأوى اليه فى الليل ، وفى أثناء المطر قبل أن يغلق عليه الغطاء ويحكم اغلاقه ، وبذلك تتوافر له الحرية فى غرامه وفى روحه[1] . على أن هذا ليس بأسوأ الاشياء كلها ، كما أنه ليس بالامر المحتقر بحال من الاحوال ففى مقدورك أن تسهر ما شئت أن تسهر وتغادره عندما تستيقظ من نومك من غير أن يضايقك صاحب البيت ويتعقبك من أجل ما عليك من كرائه . فكم من رجل أرهقه دفع كراء صندوق أكبر من هذا وأفخم ! على أن الساكن لن يموت من البرد فى مثل هذا الصندوق . هذا ، وانى لا أمزح هنا ، بل أنا جاد كل الجد فيما أقول . فالاقتصاد موضوع يتسنى معالجته بشىء من الخفة والنزق ، ومع ذلك لا يمكن اهماله والتخلص منـــه . فالبيت المريح لجنس خشن غليظ من النـــاس ، يعيش معظم وقته فى الهواء الطلق ، سبق أن عمل هنا مرة ، كله تقريبا من مواد تزودنا بها الطبيعة جاهزة . كتب جوكين سنة ١٦٧٤ ـ وهو مراقب على الرعايا الهنود فى مستعمـــرة مساتشوستس* وقتئذ ـ يقول « كان خير بيوتهم

---

(١) تذكرنا هذه العبارة ببيتين من الشـــعر فى قصيدة للشاعر الانجليزى الســـير ريتشرد لفليس Richard Louflace (١٦١٨ ـ ١٦٥٨) عنوانهـــا "To Althea from Prison"

مغطاة بكل عناية وحـــرص ونظافة ، وكانت بيوتا محبوكة دافئة مصنوعة من اللحاء ينزعونه من جذور الاشجار فى المواسم التى تكون فيها العصارة ما زالت فى الفروع العليا ، ثم يحـول هذا اللحاء ، وهو أخضر ، الى ألواح رقيقة بالضغط عليها بوساطة قطع ثقيلة من الخشب • أما البيوت الوضيعة فكانت تغطى بحصـــير من القش ، وكانت هى الاخرى محكمة دافئة وأن لم تبلغ من الجودة مابلغتـه السـابقة • هذا ، وقد رأيت بعضها يبلغ طوله ستين قدما أو مائة وعرضه ثلاثين • وكثيرا ما عشت فى أكواخهم هذه فوجدتها دافئة دفء خير البيوت الانجليزية، ثم يزيد على ذلك ، أنها كانت مفروشة بالبسط عادة ومكسوة من الداخل بحصير متقن الصنع ، ومزودة بكثير من الادوات والاوعية • وقـد بلغ التقدم بالهنود الحمر أن كانوا ينظمون تأثير الريح بوساطة حصير تعلق على الثقب الذى فى سقف الـكوخ ، وتحرك بخيط • هـذا ، ولا يستغرق انشاء مثل هذا المسكن فى بادىء الامر سوى يوم أو يومين على الاكثر ، ثم يقوض ويقام من جديد فى بضع ساعات ، وكانت كل أسرة تملك بيتا أو شقة فى بيت •

ففى الحالة الهمجية، كانت كل أسرة تملك مسكنا لا يقل جودة عن خير المساكن ، ويكفى حاجاتها البسيطة • وأظننى أتكلم هنا فى نطاق دائرتى اذا قلت ان طيور الجو لهـــا أعشاشها ، وللثعالب أجحارها ، وللمتوحشـين أكواخهم • أما فى الحياة الاجتماعية الحديثـة المتحضرة فلا يعدو من يملكون مساكنهم نصف عدد الاسرات • ففى البلدان والمدن الكبيرة ، حيث تسود الحضارة بوجه خاص ، نجـد أن عدد الذين يملكون مساكنهم قلة ضئيلة بالنسبة الى المجموع ، على حين يدفع البـاقون ضريبة سنوية على هذا الكساء الخارجى بالنسبة لسـائر الملابس ، والذى يصبح ضروريا لهم لا غنـاء عنه صيفا ولا شتاء ، وهى ضريبة تكفى لشراء قرية بأكملها من الاكواخ الهنـدية • ولـكنه أصبح الآن يعاون على استبقائهم فى فقرهم طيلة عمرهم • وليس من غرضى هنا أن أتوسـع فى ذكر مثالب استئجار المساكن بالاضافة الى امتلاكها • ولكن لا يخفى أن المتوحش يملك بيته لانه لايكلفـه الا قليـلا ، على حين أن الرجل المتحضر يستأجر بيته لانه لا يستطيع أن يملكه عادة ، ولا هو فى النهـاية يستطيع فى الواقع أن يكتريه • ولعل واحدا منكم يقول انه بمجـرد دفع الضريبـة ، يتمـكن الفقير المتحضر من الحصول على مسكن يكون قصرا اذا قيس بمسكن الرجل المتوحش ، فان ايجارا سنويا يتراوح بين خمسـة وعشرين دولارا ومائة (وتلك هى الاجور فى الريف) يخول له أن يستفيد من التحسينات التى تمت على مر القرون : شقق فسيحة ، طلاء نظيف ، وورق نظيف كذلك ، وموقد جديد للطهى من طـراز رمفـورد ، وضلف شمسيـة ، ومضخة من نحاس ، وكوالـين ذات لوالب وكيلار فسيح ، ومزايا أخرى كثيرة • ولكن

كيف يحدث أن من يقال عنه انه يستمتع بهذه المزايا كلها يكون عادة رجلا متحضرا وفقيرا الى هذا الحد ، على حـــين يكون المتوحش الذى لايملكها غنيا مع توحشه ؟ انهم يؤكدون لنـــا أن الحضارة تقدم مؤكد فى أحوال البشر • وأظن انها لكذلك ، وان كان العقلاء وحدهم هم الذين يحسنون ما لديهم من مزايا • فان كان الامر كذلك وجب أن نبين انهـــا قد انتجت مساكن خيرا من ذى قبل من غير أن تجعلها أغلى ثمنا • وثمن الشىء هو مقدار ما أسميه الحياة المطلوب استبدالها به عاجــــلا أو فى النهاية • فالبيت المتوسط فى هذه النواحى قد لا يساوى أكثر من ثمانمائة دولار ، ولكى يدخر المرء هذا المبلغ ، لابد له من عشرة الى خمسة عشر عاما ، من حياة العامل ، حتى ولو لم يكن عنده أسرة تعوقه ـ وذلك على أساس تقـــدير قيمـة عمل المرء المالية بدولار واحد فى اليوم • فان كان من الناس من يحصل على يومية أكثر من هذه فلا ننسى أن منهم من يحصل على ما هو أقل منها • وعلى هذا يجب أن يكون قد قضى أكثر من نصف حياته عادة قبل أن يحصل على بيت له • وان فرضنا أنه سيدفع كراء بدلا من ذلك كان هذا اختيارا مشكوكا فيه ، بين أمرين كلاهما شرَ • فهل يعد المتوحش عاقلا اذا ما استبدل بكوخه قصرا على أساس هذه الشروط ؟ •

قد يحرز امرؤ أنى ، من حيث ما يتعلق بالفرد ، أكاد أحول جميع الفائدة التى تنجم عن حيازة هذا الملك الذى لا لزوم له الى مبلغ يدخر للمستقبل ، كى يتمكن هـــذا الفرد أساسا من أن يدفع نفقات جنازته • قد لايكون مطلوبا من أحد أن يدفن نفســـه ، ومع ذلك فان هذا يشير الى فرق هام بين الانسان المتمدين والانسان المتوحش • فلا شك فى أنهم يقصدون ما فيه مصلحتنا أولئك الذين يجعلون حياة الشعب المتحضر مؤسسة تندمج فيها حياة الفرد الى مدى كبير ، وهو اندماج يصون حياة الجنس ويزيدها كمالا • ولكنى أود أن أبين الى أى حد ، وبأية تضحيـــــة ، نحصل على هذه الميزة الآن ؟ ولاقترح أنه من الممكن أن نعيش بشكل نحصل فيه على جميع المحاسن والمزايا ، من غير أن نعانى شيئا من المســـاوىء والمثالب • فماذا نعنى بأن الفقراء يلازموننا دائما ، وأن الآباء آكلوا الحصرم[1] والابناء هم الذين يضرسون ؟ •

عندما أفكر فى جيرانى الفلاحين من أهالى « كنكورد » ، وهم لا يقـــلون ثراء عن سائر الطبقات ، أجد أن أغلبهم كانوا يعملون عشرين أو ثلاثين أو أربعين سنة ليصبحوا المـالكين الحقيقيين لمزارعهم التى ورثوها عادة بكل ما فيها من متاعب وعقبات ، أو اشتروها بنقـــود ستأجرة (ويصح لنا أن نعد ثلث هذا العمل ثمنا لبيوتهم) ولـكنهم لايكونون فى العادة قد

(١) حزقيال الاصحاح الثـــامن عشر : الآباء أكلوا الحصرم واسنان الابناء ضرست .

دفعوا أثمانها بعد • حقا ان العقبات قد ترجح قيمة المزرعة ، حتى تصبح المزرعة نفسها عقبة كبيرة كأداء ، ومع ذلك فانا لا نعدم انسانا يرثها ، لانه يعرفها كل المعرفة كما يقول • وعندما لجأت الى المثمنين دهشت كل الدهشة لما علمت أنهم لايستطيعون أن يعدوا فى الحال أكثر من اثنى عشر رجـلا فى البلدة كلهـا يملكون مزارعهم ملكا حرا خالصا • فان شئت أن تعرف تاريخ هذه البيوت فسل المصرف المرهونة عنده • فالذى دفع ثمن مزرعته فعلا من عرق جبينه نادر فيها كل النـدرة ، حتى أن كل جار يستطيع أن يشير اليه بالبنان • وانى لاشك ان كان يوجد ثلاثة من هذا الفريق فى كونكورد كلها • هذا ، وما قيل عن التجار من أن أغلبية كبيرة منهم قد تبلغ ال ٩٧ ٠/٠ لا بد أن تفشل ، يصدق كذلك على الفلاحين • أما من حيث التجار ، فان واحدا منهم مع ذلك يقول حقا أن جزءا كبيرا من الفشل الذى منوا به لم يكن فشلا ماليا حقيقيا ، ولكنه لا يخرج عن أن يكون عجزا عن القيـام بتعهداتهم ، لانه من غير المناسب ـ أى أن الناحية الأخلاقية هى التى تفشل • على أن هذا قد يجعل الامر سيئا بالغ السوء ؟ وزيادة على ذلك فانه يوحى الينا بأنه من المحتمل ألا ينجح الثـلاثة البـاقون فى انقاذ أرواحهم . وربمـا يكونون قد أفلسوا بمعنى أسوأ ممن فشلوا فشلا بامانة واخلاص • فالافلاس والامتناع عن تسديد الديون هما لوحا خشب للوثب ، يثب عليهمـا الـكثير من مظاهر مدينتنا ويقوم بانقلابات عدة رأسا على عقب ، على حين أن المتوحش يقف على لوح الجـوع ، وهو لوح ثابت صلب غير مرن ، ومع ذلك فان معرض ماشيـة مدلسكس يقام هنا كل سنـة فى ضجة وفى رواج كأن مفاصل الآلة الزراعية كانت كلها مشحمة غير تشحيم •

يحاول الفلاح أن يحل مشكلة المعيشة بقانون معقد أكثر من تعقيد المشكلة ذاتها • فلـكى يحصل على أربطة لاحذيته يضارب فى قطعان المـاشية ، ويقيم فخه بمهارة وحذق كبيرين من الشعر ليتصيد لنفسه الراحة والاستقلال ، ثم عندما يبتعد عن هذا الفخ اذا به يجد ساقه قد علقت فيه • وهذا هو علة فقره ، بل انا جميعا فقراء لهذا السبب عينه من حيث شتى ضروب الراحة التى يتمتع بها المتوحشون ، وذلك على الرغم من الترف وكثرة أنواع الـكماليات التى تحيط بنا ، كما قال الشاعر تشابمان (1) :

ان مجتمع الناس الزائف
يضحى بكل متعة سماوية ويدعها تضيـع هباء
فى سبيل كسب العظمة فى هذه الدنيا

---

(١) هو جورج تشابمان (١٥٥٩ ـ ١٦٣٤) شاعر انجليزى ومؤلف مسرحى • اشتهر بترجمته لاليـاذة هوميروس وأوديسيته •

واذا ما حصل المزارع على بيت له ، فقدلايكون بذلك أغنى مما كان، بل ربما كان أفقر ، وقد يكون البيت نفسه علة نكبه . فبحسب ما أفهمه كان اعتـــراضا قويا ذلك الذى قدمه « مومص* » واعتـــرض به على البيت الذىأنشأته « منيرفا* » من حيث أنها « لم تجعل هذا البيت متحركا حتى يتسنى أن نتحاشى جارالسوء » وما زال هذا الاعتـــراض قائما ، فان بيوتنا ما زالت عمارات ضخمة فنكاد فيها نكونمسجونين لا قاطنين ، والجيرة السوء التى يجب أن نتحاشاها انما هى أنفسنـــا نحن الوضيعةالمريضة . وانى لاعرف أسرة واحدة أو اثنتين على الاقل فى هذه البلدة كانت تود طيلة جيـل كامل تقريبا أن تبيع بيتها الذى فى الضواحى كى تنتقل الى السكنى فى القرية ولـكنها معذلك لم تستطع أن تحقق هـذا الغرض ، ولن يخلصها من ذلك البيت الا الموت .

لنسلم بأن الـكثرة من الناس يستطيعونأن يملكوا ، آخر الامر ،المنـــزل الحديث بكل ماأدخل عليه من تحسينات،وأنهم يستطيعون استئجاره . ولكن ، بينما عملت المدنية على تحسين منازلنا فانها لم تعمـل شيئا فى سبيل تحسين الناس الذين يقطنون هذه المنازل ، فقد أنشأت قصـــورا ، بيد أنه لم يكن من السهل عليهـا أن تخلق نبـــلاء وملوكا . فان لم تكن الاعمال التى يقوم بها الرجل المتمدين أسمى مما يقوم به الرجل المتوحش ، وان كان هذا الرجل يقضى الجزء الاكبر من عمره فى السعى وراء الحصول على حاجاته الضرورية ، ووسائل راحته الاساسية فحسب ، فما الذى يدعو لان يكون له منزل أفضل مما للآخر ؟

ولكن ماحال الأقلية الفقيرة ياترى ؟ كما أن بعض الناس وضعوا من حيث ظروفهم الخارجية فى مراتب أعلى من مرتبة المتوحشين ،فان آخرين مثلهم قد وضعـوا دونهم ، فترف طبقة من الطبقات يوازيه فقر طبقـة أخرى منها ، فمن ناحية يوجد القصر ، ومن أخرى يوجد الملجأ الخيرى والفقراء الصامتون . ان عشرات الالوف من النـــاس الذين قاموا ببناء الاهرام كانوا يعيشون على الثوم . وربما لم يجدوا من يقوم بدفنهـم الدفن اللائق بهم . والبنـــاء الذى ينجز عمل « كرانيش » القصر وزخارفه قد يعود من عمله فى المساء الى كوخ دون أكواخ الهنود . فليس من الصواب فى شىء أن نظن أن بلدا تقوم فيه الادلة المعهودة على وجود الحضارة ، لاتكون حالة عدد كبير من سكانه منحطة انحطاطها عند المتوحشين . وأقصد بذلك حالة الفقـراء المنحطين ، ولست أقصد الآن حالة المنحطين من الاغنياء ، وكى أعرف هذه الحقيقة لست بحاجة الى أن أنظر الى أبعد من تلك الاكواخ الوضيعة التى نجدها فى كل مكان على جانبى طرقنا الحديدية ، وهى تلك التى تعد آخر تحسين أدخل على المـدنية

والحضارة • ففى أثناء نزهتى اليومية أرى ناسا يعيشون فى أمكنة تظل طول الشتاء مفتوحة الابواب كى ينفذ اليها الضوء وليست مزودة بشىء من خشب الحريق ، يمكن أن يرى ، وان كان كثيرا ما يتخيل ، حتى أصبحت قامات الشباب والشيوخ متقلصة من طول ما اعتادوا التقبض « والانكماش » خوفا من البرد والبؤس ، فتوقف ترقى أطرافهم وتعطل نمو قدراتهم العقلية أيضا • فمن العدل ، لا شك ، أن ننظر الى هذه الطبقة من الناس الذين اضطلعوا بانجاز الاعمال التى تميز بها هذا الجيل عن غيره من الاجيال السابقة • وكذلك الى حد ما ، كبيرا كان أو صغيرا ، حالة العمال الآخرين من كل نوع وجنس فى بلاد الانجليز التى تعد أعظم مصنع للعالم كله • ويصح لى أن أوجه نظركم الى ايرلنده التى تظهر على الخريطة أنها من المواضع البيض ، أو المستنيرة ؟ فوازنوا بين حالة الايرلندى الجسمانية وبين حالة الهندى الاحمر فى أمريكا الشمالية ، أو ساكنى جزائر البحار الجنوبية ، أو بأى فرد تشاءون من أفراد تلك الاجناس المتوحشة قبل أن تنحط من جراء اتصالها بالعالم المتحضر • هذا ، ولا يساورنى اى شك فى أن حكام هذا الشعب عقلاء مثل متوسط الحكام المتحضرين ، ولكن أحوالهم تدل على أن القذارة قد تتمشى مع المدنية وتلازمها • ولا أرانى بحاجة الى أن أشير الى العمال الذين فى ولاياتنا الجنوبية الذين ينتجون الصادرات الاساسية لهذه البلاد ، وهم أنفسهم يعدون من منتجات الجنوب الاساسية ، وحسبى أن اقتصر على أحوال أولئك الذين يقال أنهم فى حالة وسطى •

يبدو أن أكثر الناس لم يفكروا فيما هو المنزل ، وانهم فقراء فعلا طول حياتهم كلها ، من غير موجب قط ، وذلك لانهم يعتقدون ضرورة أن يكون لهم منازل من الطراز الذى لجارهم ، كأنه واجب على المرء أن يرتدى أى رداء كان ، يفصله له الخياط ، وأن يترك تدريجيا لبس القبعة التى من الخوص أو التى من فرو المراميط* ، ثم يشكو من قسوة الزمان لانه لم يتح له أن يشترى تاجا ! من الميسور أن نخترع منزلا يكون أكثر راحة وأعظم ترفا من منازلنا الحالية ، ويسلم كل الناس بأن الانسان لا يستطيع مع ذلك أن يدفع ثمنه • فهل كتب علينا أن نبحث دائما عن الطرق التى نحصل بها على مزيد من تلك الاشياء التى نحن فى غنى عنها ، ولا نقتنع أحيانا بما هو دونها وأقل منها ؟ هل سيظل المواطن المحترم يعلم الشبان فى وقار وجد ، بالقول الطيب ، وبالقدوة الحسنة أن يتزودوا ، قبل أن يموتوا ، بعدد من الاحذية المصقولة ، والشمسيات ، وحجرات الاستقبال الخالية ، للضيوف الفارغين ؟ لم لا يكون أثاثنا بسيطا بساطة أثاث العرب والهنود ؟ انى عندما أفكر فيمن خدموا الجنس البشرى والذين نقول عنهم أنهم رسل السماء يحملون النعم الآلهية الى بنى الانسان ، لا أجد فى ذهنى صورة ما

لحاشية تسير وراءهم ، ولا لعربة تحمل أثاثا من الطراز الحديث . واذا ما سمحت أن يكون أثاثنا أكثر تعقدا من أثاث العرب ، ألا يكون سماحي هذا غريبا ؟

فبيوتنا مزدحمة الآن بما فيها من الاثاث ، وان ربة البيت الصالحة لتفضل أن تنبذ الجزء الاكبر منه وتقذف به حيث القمامة من غير أن تترك عملها الصباحي من دون انجاز . عمل الصباح ! فبحق تورد أورورا* وموسيقى ممنون* أفهموني ما عمل الرجل الصباحي في هذه الدنيا ؟ كان على مكتبي ثلاث قطع من حجر جيري أفزعني كل الفزع أن أجد أنه من الضروري أن أنفض عنها التراب كل يوم ، على حين أن أثاث عقلي لايزال مغطى بالتراب الذي لم ينفض عنه بعد . فألقيت بها خارج النافذة مغيظا محنقا . اذ كيف يكون لي اذن بيت مؤثث وأنا أفضل البقاء في الهواء الطلق ؟ ان التراب لا يتجمع على الكلأ الاحيث يكون انسان قد عمل في الارض .

ان المترفين والمبذرين هم الذين يسنون لنا « الموضة » التي يتبعها القطيع بكل حماسة ونشاط . وسرعان ما يدرك السائح الذي ينزل فيما يسمونه خير الفنادق ، حقيقة هذا الامر . فأصحاب الفنادق يظنونه «سردانا بالوس*» ،واذا ما ترك نفسه لرحمتهم الرقيقة لم يلبث أن يجد أنه قد أضاع رجولته ، وأضحى من المخنثين . وأظن أنا في عربة القطار نميل الى الانفاق على الكماليات أكثر مما ننفق على سلامتنا وراحتنا . ان عربة القطار لتوشك أن تصبح ، من غير أن تحقق لنا الراحة والسلامة هاتين — انها ليست خيرا من حجرة استقبال حديثة بما فيها من الدواوين والارائك والستوور وما الى ذلك من آلاف الاشياء الشرقية التي نجلبها معنا الى الغرب ، والتي كان اختراعها في الاصل من أجل النساء في الحريم ، ولسكان الامبراطورية السماوية[1] من المخنثين ، مما يجعل المرء يخجل من أن يعرف أسماءها . واني لافضل الجلوس على يقطينة تكون لي ملكا خالصا على أن أجلس في حشد من الناس على نمرقة من المخمل . وأفضل أن أسافر في دنياي هذه على عربة مكشوفة يجرها ثور ، وفي الهواء الطلق ، على أن أصعد الى السماء في عربة فاخرة من عربات قطار الرحلات وأستنشق الهواء الفاسد الموبوء طول الطريق .

لبساطة حياة الانسان وعريه في العصور البدائية هذه الفائدة على الاقل . انها تركته يعيش عابر سبيل بين أحضان الطبيعة ، حتى اذا ما أنعشه الطعام والنوم عاد الى التفكير في رحلته من

---

(١) اى الصين .

جديد ، فكأنى به يقطن فى هذه الدنيا فى خيمة ، ومشغولا دائما بسلوك الوديان ، وعبور السهول أو بتسلق ذرى الجبال. ولكن أنظروا ! لقد أصبح الناس آلات لآلاتهم ! أما الرجل الذى كان يجنى ثمار الفاكهة بنفسه عندما يشعر بالجوع ، فقد أصبح فلاحا ، ومن كان يجلس تحت شجرة يتفيأ ظلها صار رب بيت ، ولم نعد نعسكر ونضرب خيامنا فى الخلاء ليلة واحدة ، بل استقررنا فى الارض ونسينا السماء. لقد بنينا لهذه الدنيا قصرا عائليا ، وللآخرة مقبرة عائلية . وما خير آيات الفن سوى تعبير عن كفاح الانسان فى سبيل تحرير نفسه من ربقة هذه الحال ، ولكن لم يكن لفننا من أثر ، سوى أن يجعل هذه الحالة المنحطة مريحة لنا ، وان ينسينا تلك الحالة السامية . والحق أنه لم يعد فى هذه القرية أى مجال لقطعة ما من القطع الفنية ، واذا ما حدث ووصلت المتناقطعة ما لتقام بيننا وجدنا بيوتنا وشوارعنا لاتصلح أن تكون قاعدة لها تقوم عليها ، فليس ثمة مسمار يمكن أن يتخذ مشجبا تعلق عليه صورة ما ، ولا رف توضع عليه صورة بطل أو قديس . انى عندما أفكر فى طريقة بناء منازلنا وكيف دفعنا ثمن بنائها ، وكيف كان تدبيرنا لشئونها الداخلية ، يأخذنى العجب من أن « أرضيتها » لم تسقط عندما يدخلها زائر ويقف عليها ليتأمل تلك التحف التافهة الموضوعة على رف الموقد ، فتهوى به عبر « الكيلار » الى مكان مأمون وطيد الاساس ولو كان أساسا من تراب ــ انى عندما أفكر فى تلك الطريقة ، لايسعنى الا أن أرى أن هذه الحياة التى يقولون عنها أنها حافلة غنية ورفيعة سامية ، انما هى شىء وثبنا اليه وثبا . ولا أجدنى قادرا على الاستمتاع بما يزينها من الفن الجميل ، لانصراف اهتمامى كله الى تلك الوثبة ، فلست أنسى أن خير وثبة صحيحة أساسها العضلات البشرية وحدها ، ولدينا عنها وثائق مدونة هى وثبة بعض البدو الرحل الذين قيل عنهم انهم قفزوا فى أرض مستوية قفزة مداها خمسة وعشرون قدما . ولا شك فى أن المرء واثق من أنه سيعود وينزل يقينا الى الارض بعد هذه المسافة ان لم تسنده سنادات صناعية . وأول سؤال أود أن أوجهه الى صاحب هذه المقتنيات الخارجة عن حدود اللياقة خروجا عظيما هو : وأنت من الذى يسندك ؟ وهل أنت أحد السبعة والتسعين الذين يفشلون أم أحد الثلاثة الذين ينجحون ؟ أجبنى أولا عن هذه الاسئلة فلعلنى أستطيع بعد ذلك أن أنظر الى تحفك التافهة وأجد فيها زينة وزخرفا حقا . ان وضع العربة أمام الحصان شىء ليس بالجميل ولا هو بالنافع ، فقبل أن نزخرف منازل الناس ونزينها بالتحف الرائعة الجميلة يجب أن نجرد حوائطنا ونعريها مما عليها ، كما يجب أن نجرد أنفسنا ، ونجعل ادارة المنزل الجميلة والحياة الجميلة أساسا . ان حاسة الجمال تتعهد وتنمى خارج المنازل وفى الهواء الطلق ، حيث لا منزل وحيث لا حاجة الى ادارة منزل .

حدثنا جونستون*العجوز فى كتابه «العناية صانعة الاعاجيب » [1] Wonder Working Providence عن النـــازلين الاول فى هـــذه البلدة ، وقد كان هو معاصرا لهم.قال « انهم يحفرون لانفسهم أول مأوى لهـم فى الارض تحت سفح ربوة ، ثم بعد أن يلقوا التراب الذى استخرجوه من الحفر عاليا على بعض أخشاب ينصبونها ، يشعـــلون نارا كثيرة الدخان على الجانب الاعلى من هذا التراب . ويقول أنهم لم يزودوا أنفسهـم بمنازل الا بعد أن تكون الارض قد أنبتت لهـــم ، ببركة الله ، خبزا يأكلونه . وكان محصـــول السنـــة الاولى ضعيفا جدا حتى اضطروا أن يقطعـوا خبزهم قطعا رقاقا ، وظلوا على ذلك فترة غير قصيرة من الزمان . وكتب سكرتير اقليم «نيونذرلاند» سنة ١٦٥٠ باللغة الهولندية يعلم الذين يريدون أن يحصلوا على أراض فيها ، كتب يقول بشكل أكثر تحـــديدا « ان أهالى اقليم «نيونذرلاند » ولا سيما أهالى « نيو انجلند » الذين لايملكون وسائل لبناء بيوت لهم فى مزارعهم تأتى من أول الامر بحسب الشكل الذى يشتهون ، عليهم أن يحفروا فى الارض حفرة مربعة على هيئة « كيلار » عمقها ست أقدام أو سبع . أما طولها وعرضها فبحسب مايرونه مناسبا لهم . وعليهم أن يبطنوا هذه الحفرة بالاخشاب يقيمونها حول الجدران كلها ، ثم يغطوا الخشب بلحاء الشجر أو بأى شىء آخر كى يمنعوا انهيار الارض الى الداخل . وينبغى أن يعملوا لهذا « الكيلار » أرضية من ألواح الخشب ، ويقيموا على الجدران من الداخل وزرة من أعلى عليها قوائم لتحمل السقف ، ثم بعد ذلك يعملون السقف من قطع من الخشب ويغطونها كذلك بلحاء الشـــجر أو بالمدر والنباتات . ذلك كله كى يتيسر لهم أن يعيشوا فى هذه البيوت فى جفاف ودفء ، هم وسائر أسرتهم سنتين أو ثلاثا أو أربعـا . ولايخفى أن من الواجب أن تقام حواجز فى هذه « الكيلارات » تتناسب مع حجم الأسرة . وقد أنشأ الاغنيـاء والسراة فى « نيو انجلند » فى بداية عهد المستعمرات أول مساكن لهم بهذه الطريقة لسببين : أولا لعدم اضاعة الوقت فى البناء ولتوفير الطعام فى الموسم التالى ، وثانيـا كى لايثبطوا همم الفقـراء من العمـال الذين جلبـــوهم معهـــــم من أراضى الوطن الاصلى . ثم فى مدى ثلاث سنـــوات أو أربع ، بعد أن أصبحت البلاد صالحة للزراعة ، بنوا لأنفسهم بيوتا جميلة ، أنفقوا عليها عدة آلاف من الدولارات » .

يتجلى فى هذه الطريقة التى سلكها أجدادنا ، شىء من مظاهر الحزم والكياسة على الاقل. فكأن مبدأهم كان أن يسدوا حاجاتهم المـــاسة أولا . ولكن هل قضيت كل حاجاتهم المـاسة

---

(١) هكذا فى الاصل الذى ترجمنا منه وصحة الاسم جونسون Gohnson انظـــر المعجم واســـم كتـابه Wonder Working Providence

الآن ياترى ؟ انى عندما يخطر ببالى أن أحصل لنفسى على بيت من بيوتنا الفخمة أجد ما يمنعنى ، كأن البلاد لم تكيف بعد للثقافة البشرية ، فما زلنا مضطرين أن نقطع خبزنا « الروحى » قطعا أرق مما كان يقطع أجدادنا خبزهم المصنوع من القمح . ولست أقصد بذلك أن نغفل كل الزخارف المعمارية . لا !حتى ولا فى أخشن العهود وأغلظها . ولكن لتكن بيوتنا مبطنة أولا بالجمال حيثما تتصل بحياتنا ، فتكون مثل الاصداف التى تسكنها الاسماك القشرية ، وليست مرصعة به فحسب . ولكن وأسفاه ! لقد دخلت أنا نفسى بيتا أو اثنين من هذه البيوت ، وعرفت بماذا كانت مبطنة ! .

انا وان لم نبلغ بعد من الانحطاط درجة يجوز لنا معها أن نسكن فى مغارة ، أو فى كوخ هندى ، أو نلبس جلد حيوان ، فليس من شك فى أن الأولى بنا أن نقنع بالمنافع ونرضى بالميزات التى يقدمها نشاط الجنس البشرى وقدرته على الاختراع ، مهما دفعنا فيها من ثمن غال . ففى مثل هذه الجهات المجاورة لنا ألواح من الخشب ، ومن الحصى ، والجير والطوب أرخص ، والحصول عليها أيسر ، من الحصول على المغاور الصالحة ، أو الكتل الكاملة ، أو لحاء الشجر بمقادير كافية ، بل ان الحصول عليها لايسر من الحصول على الصلصال الصالح ، أو الحجارة العراض . انى أتكلم فى هذا الشأن عن علم ودراية ، فقد سبق لى أن درست هذا كله نظريا وعمليا . وانا ليصح لنا بمزيد من الفهم والفطنة أن نستعمل هذه المواد حتى نصبح أغنى من أغنى الناس الآن ، ونجعل من حضارتنا نعمة وبركة . والحق أن الرجل المتحضر ليس الا رجلا متوحشا زادت خبرته، واتسعت حكمته . على أنى يجب أن أسارع الى الكلام فى موضوع تجربتى .

ففى أواخر شهر مارس سنة ١٨٤٥ اقترضت بلطة ومضيت الى الغابات عند بركة « والدن » عند أقرب نقطة الى المكان الذى اعتزمت أن أقيم بيتى فيه . ثم شرعت أقطع بعض أشجار الصنوبر الطويلة المدببة البيضاء ، وهى لاتزال غضة فى شبابها ، كى اتخذ منها خشبا . ولا يخفى أنه ليس من الهين على المرء أن يبدأ العمل من غير أن يلجأ الى الاقتراض ، ولكن لعل هذا هو أكرم طريق تتيح به لبنى جنسك مجالا للاهتمام بمشروعاتك . وعندما رفع صاحب البلطة يده من عليها ، ليسلمها الى قال انها مقلة عينه ، ولذلك رددتها اليه أحد مما أخذتها منه . وكان الموضع الذى عملت بها فيه سفح تل رائع مكسو بغابات الصنوبر ، فجعلت أنظر الى البركة من خلالها ، والى حقل صغير مكشوف وسط الغابات كانت أشجار الصنوبر والجوز الامريكى تنمو فيه . ولم يكن الجليد قد ذاب بعد ، وان كان ثم بعض

نواح مفتوحة فيـــه ، وكان كله ذا لون غامق ومشبعا بالميـــاه . وحدث أن أثلجت السمـاء خفيفا في الايام التي اشتغلت فيها ، وفي أغلب الاوقات ، عندما أخرج الى السـكة الحديدية وأنا في طريق عودتي الى بيتي ، كنت أشاهد كومة رمالها الصفراء قد امتدت وظلت تلمع في الجو القاتم ، كما كانت تلمع قضبـان السكة الحديدية في ضوء الشمس . وسمعت القنابر وغيرها من الطيور ، وكانت قد جاءت من قبل لتبدأ سنة جديدة معنا ، فكانت أياما سارة من أيام الربيع أخذ فيها شتاء تذمر الانسان ووجومه يذوب كما تذوب الارض المجلودة ، وشرعت الحياة التي كانت هاجعة خاملة تتحرك وتتمطى ثم تستيقظ . فذات يوم انطلق مني نصل بلطتي وخرج عنها ، عقب أن قطعت شجرة خضراء من أشجار الجوز الامريكي لأتخذ منها وتدا أغرسه في الارض وأدقه فيها بقطعة كبيرة من الحجر . وبعد أن وضعت الجميع في ثقب من ثقوب البركة ليتفتح الخشب ، اذا بي أبصر حية رقطاء تدخل المـاء ثم ترقد في قاعه من دون أن تجد في ذلك أية مضايقة لهـــا في الظهر طول الوقت الذي لبثته في المـاء ، أي أكثر من ربع ساعة . ولعل سبب ذلك أنها لم تكن قد خرجت بعد تماما من حالة الخمول والنوم التي هي فيها . ويبـدو لي أن النـــاس يظلون في حالتهم البدائية لمثل هذا السبب عينه . أما اذا حدث وشعروا بما للربيع من سلطان يوقظهم ويحركهم ، ارتفعوا بالضرورة الى مستوى حياة أرفع وأسمى . وقد سبق لي أن رأيت الحيات في صباح كثر صقيعه ، وكانت بعض أجزاء من جسمها لاتزال خاملة جامدة تنتظر من الشمس أن تذيبها . وفي أول أبريل أمطرت السماء ، وذاب الجليد ، وسمعت في بكرة النهار ـ وكان نهـــارا كثير الضباب ـ أوزة ضالة تبحث عن طريقها في البركة ، فظلت تسبح كأنما ضـلت طريقها فعـلا ، وكأنهـــا كانت روح الضباب وشيطانه .

وعلى هذا ظللت عدة أيام أقطع الاخشاب وأسويها ، وأصلح بلطتي غير العريضة القوائم اللازمة للحوائط وللسقف . واذ لم تكن عندي أي أفكار أنشرها ، ولا أي آراء علمية أذيعهـا جعلت أغني لنفسي :

يقول الناس انهم يعرفون أمورا كثيرة ،
ولكن انظروا ! فها هي قد طارت في الهواء ،
الفنون منها ، والعلوم ، والكثير من تطبيقاتها ؟
فالريح التي تهب
هي كل ما يعرفه الواحد منا

وسويت الأخشاب الأساسية وجعلتهاست بوصات مربعة ، كما سويت أغلب القوائم من جانبين اثنين فحسب • أما اخشاب السقف والارضية فسويها من جانب واحد تاركا سائر اللحاء حيث هو ، حتى صارت كلها قوية مستقيمة استقامة الاخشاب المنشورة بالمنشار وفي قوتها كذلك ، ثم عشقت كل خشبة مع الاخرى بعناية ، ذلك لانى كنت قد اقترضت آلات أخرى غير البلطة ، ولم تطل أيامى فى الغابات كثيرا ومع ذلك اعتدت أن أحمل معى غدائى من خبز وزبد ملفوفا فى صحيفة • ثم بعد تناول الغداء عند الظهر أعود الى قراءة الصحيفة وأنا جالس وسط أغصان شجر الصنوبر الاخضر الذى قطعته مما جعل شيئا من أريج الصنوبر يتعلق بخبزى لان يدى قد تغطتا بطبقة سميكة من القطران • وقبل أن أفرغ من عملى هذا ،



أصبحت صديقا لشجيرات الصنوبر أكثر منى عدوا لها ، على الرغم من أنى قطعت بعضها • فقد صرت أكثر الماما بأحوالها • وقد يحدث أن يسترعى صوت بلطتى شخصا ممن يتجولون فى الغابات فيأتى الى كوخى ، ونتحدث معا فى سرور بشأن ما أنجزته من قطع الاخشاب •

وعندما انتصف شهر أبريل ـ وما كنت لاتعجل فى عملى ، بل كنت أستفيد منه أكبر فائدة مستطاعة ـ تم وضع هيكل منزلى ، وصار معدا لان يقام • وقد سبق لى أن اشتريت كوخ جيمس كولنز رغبة فيما يحويه من ألواح الخشب ؛ وجيمس كولنز هذا أيرلندى يعمل فى انشاء سكة حديد فتشبرج ، وكان كوخه معدودا من الاكواخ الجميلة جمالا غير عادى • فلما ذهبت اليه لم يكن صاحبه موجودا ، فجعلت أطوف بالكوخ وأدور حوله من دون أن يتمكن أحد ممن بداخله أن يرانى فقد كانت النافذة عميقة وعالية ، وكان البيت صغيرا ، والسقف مدببا ، ولم يكن ثم شىء آخر يرى ، لان القمامة والاقذار التى حوله قد تراكمت

حتى بلغ ارتفاعها خمس أقدام ، وصارت أشبه بتل من السماد الطبيعي • وكان السقف أسلم جزء في البيت ، وان كان قد التوى الى حد كبير وصار هشا من تأثير الشمس فيه • ولم يكن للباب عتبة ولكن كان به ممر دائم للدجاج أسفل ألواح الارضية • وأخيرا حضرت السيدة وطلبت منى أن أشاهد البيت من الداخل ، وماأن اقتربنا منه حتى خرجت الدجاجات • وكان داخل البيت مظلما ، وأرضيته بالغة القذارة ،لزجة ، رطبة ، موبوءة • وكان بين ألواح الخشب العديدة ، لوح هنا ، ولوح هناك ،لايحتمل أن ينزع أو ينقل من مكانه ، فأشعلت السيدة مصباحا لتريني السقف والجدران من داخل البيت ولتوضح لى أن ألواح الارضية تمتد تحت الفراش ، ثم حذرتنى من أن أتقدم خطوة واحدة نحو الكيلار • وهو عبارة عن حفرة من التراب عمقها قدمان ، وقالت بعباراتها هي : كانت الالواح التى فوق البيت والتى حوله جيدة صلبة ، وثم نافذة جيدة كذلك وثقبان مربعان في الاصل لم يخرج منهما حديثا أحد سوى القطة وحدها • وكان في البيت موقد ومكان للجلوس ، وطفل ولد في هذا البيت نفسه ، ومظلة من حرير ، ومرآة يحيط بها اطار مذهب ، وطاحونة للبن جديدة مثبتة في قطعة من خشب البلوط • هذا كل ما في البيت • وسرعان ما اتفقنا على الثمن لان جيمس كان قد حضر في أثناء ذلك وتعهدنا على أن أدفع أنا الليلة أربعة دولارات وخمسة وعشرين سنتا، وأن يخلى هو البيت في الساعة الخامسة من صباح الغد ، ويتعهد في الوقت نفسه بألا يبيع البيت الى أحد سواى في أثناء ذلك ، ثم اتفقنا على أن أتسلم البيت في الساعة السادسة • قال الرجل : انه من الخير أن نحضر هنا بكرة كي نتفادى بضعة طلبات غامضة بعيدة عن العدالة تتعلق بأجرة الارض ، وبالوقود • وأكد لى أن هذه هي العقبة الوحيدة • وفي الساعة السادسة صادفتهما يسيران في الطريق ومعهما حزمة كبيرة تحتوى على جميع ما عندهم من أمتعة : الفراش ، وطاحونة البن ، والمرآة ، والدجاج ، فهذا كان كل متاعهم ما عدا القطة ، فقد هربت الى الغابات وصارت قطة متوحشة ، ثم علمت فيما بعد أنها وقعت في فخ كان قد نصب لصيد المراميط ، فانتهى بها الامر أن صارت قطة ميتة •

وفي صباح اليوم عينه قمت بهدم المسكن ، ونزعت منه المسامير وشرعت أنقله لى الشاطىء البركة على عدة مرات بعربة صغيرة ، وبسطت الالواح على الكلأ كي تبيض في الشمس • ويستقيم ما بها من التواء • وسمعت لحنا أو اثنين غردت بهما سمنة وأنا أنقل الاخشاب بالعربة في طريق الغابة • وقد أسر الى خفية فتى صغير من آل باتريك انه بينما أنا مشغول بنقل أنقاض البيت بالعربة دس جارنا سيلى الايرلندى المسامير المستقيمة الجيدة في جيبه وكذا المسامير المزدوجة الطرف ، والمسامير الكبار ، ثم وقف عندما عدت لاقضى بقية النهار

ينظر الى الانقاض في غير اكتراث غير حافل بشيء ما • اذ توجد أزمة في العمل كما يقول وكان قد حضر الى هنا يمثل النظارة ويجعل من هذا الحادث التـافه حادثا هاما من حوادث نقل آلهة تروادة* •

وحفرت « كيلاري » في سفح تل ينحدر جنوبا في مكان سبق أن احتفر « مرموط* » جحرا له فيه وسط جذور السماق ، والعليق الاسود ، وعند آخر طبقة من النباتات ، وجعلته ست أقدام مربعـة في سبـع أقدام عمقا حتى وصلت الى طبقة من الرمل الرفيع حيث لايمكن أن يتجمد البطاطس فيها في أي شتاء ،وتركت الجوانب عارية من غير أن أبطنهـا بالحجارة ، ولما كانت الشمس لم تطلع عليـه فقد ظلت الرمال متماسكة قائمة في محلها من غير أن تنهال ، ولم يستغرق ذلك مني سـوى شغل ساعتين اثنتين ، وقد شعرت بسرور خاص في حفر الارض وافساح الطريق • فالنـاس في جميع العروض والاقاليم تقريبا يحفرون في الارض رجاء أن يصلوا الى بقعـة متزنة في درجات حرارتهـا • وانك لاتزال تجد أسفل أفخم بيت في المـدينة « كيلارا » يخزن فيـه الناس النبـاتات الجذرية بالشكل الذى كانت تختزن به في الزمن القديم • ثم بعد أن يزول البناء بزمن طويل تلحظ الذراري ذلك الشق المتخلف منه في الارض • فالبيت لايزال مجرد نوع من قبو عند مدخل جحر طويل •

وأخـيرا أقمت هيكل منزلي في أوائل شهر مايو بمعاونة بعض من أعرف من جيراني ، وذلك حبا في انتهاز فرصة طيبة مثـل هذه لتحسين أحوال جيرتي أكثر منه بدافع الضرورة والحاجة الملحة • فلم يحدث قط أن رجلا أكرم بمثل ما أكرمت به من حيث صفات الذين عاونوني على اقامة منزلي هذا • فأرجو أن يكتب لهم أن يعاونوا في اقامة صروح أفخم منه وأجل قدرا في يوم من الايام • وفي الرابع من شهر يوليه بدأت السكنى في منزلي عقب أن تم وضع الالواح ، واقامة السقف مباشرة ، وذلك لاني كنت قد سويت حافات الالواح وكففتها بعضها على بعض بكل عناية واحكام ، حتى كانت غير قابلة لان تنفذ منها مياه المطر بحال من الاحوال• وقبل أن أضع الالواح في محالها وضعت أساس مدخنة في أحد طرفي البيت • فنقلت بساعدي من ناحية البركة ما يعادل حمل عربتين من الاحجار ، وصعدت بهـا الى الربوة ، ثم بنيت المدخنة عقب الفراغ من عملية عزق الارض في الخريف قبل أن يصبح اشعال النـار أمرا ضروريا للاستدفاء بها • وكنت في أثناء ذلك أطهو طعـامي على الارض خارج البيت في الصباح الباكر ، وهي طريقة لازلت أعتقد أنها أنسب من الطريقة المـألوفة ، وأكثر منها راحة من عدة وجوه • فاذا ما عصف الجو واضطرب قبل أن أكون أتممت خبز أرغفتي نصبت عدة ألواح فوق النار وجلست تحتها أرقب الرغيف• فبهذه الطريقة كنت أقضي عدة ساعات في

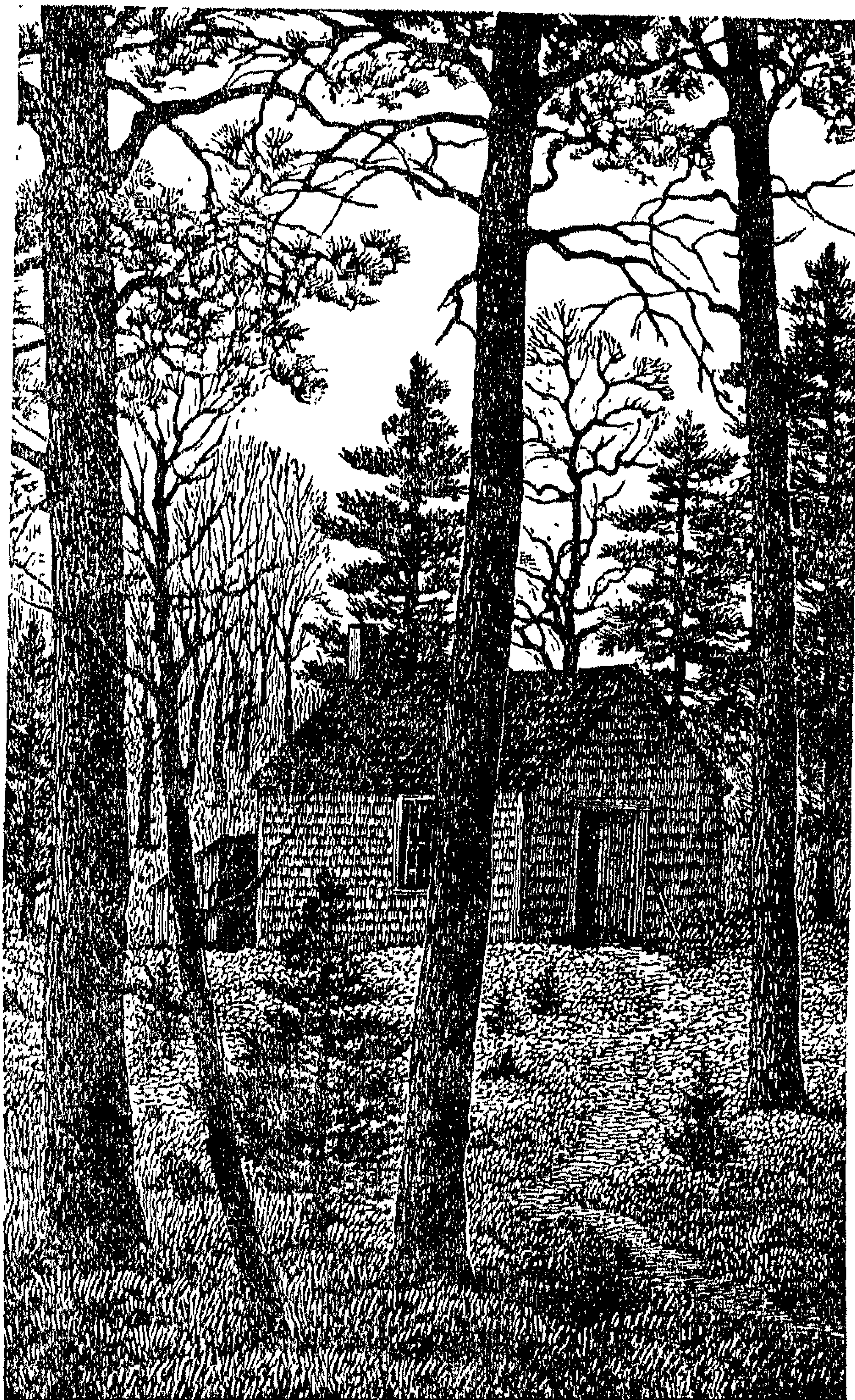
بسرور ومتعة ؛ ولم أكن قرأت الا قليلا في تلك الايام التي كنت فيها مشغولا بالاعمال اليدوية ، ولكن قطع الورق الصغيرة ، التي كانت مبعثرة على الارض ، والتي كنت أستخدمها لامسك بها القدور الساخنة ، أو لاجعل منها مفرشا لمائدتي — كانت تسليني كما تسليني القراءة ، وفي الواقع كانت تؤدي الغرض نفسه الذي تؤديه « الالياذة* » ذاتها .

ومن الخير أن نظل نبني مع ذلك عن قصد وعمد ، أكثر مما فعلت أنا ، فنراعي مثلا ما للباب والنافذة والكيلار والعلية من علاقة بطبيعة الانسان . وربما لا يصل بنا الامر أبدا أن نقيم مباني عالية الا بعد أن نجد سببا خيرا من مقتضيات حاجاتنا الدنيوية المؤقتة . فثم شيء من الواجب ذاته في أن يقوم المرء منا ببناء بيته بنفسه ، مثل ما في قيام الطائر ببناء عشه بنفسه . ومن يدرينا انه اذا قام الناس ببناء منازلهم بأيديهم ووفروا لانفسهم ولافراد عائلاتهم المؤن اللازمة في بساطة وأمانة كافيتين — فقد تترقى فيهم القدرات الشعرية ترقيا يشملهم جميعا ، حتى يكون مثلهم في ذلك مثل الطير . فكلها يغني وهي تبني أعشاشها . ولكن وا حسرتاه ! فانا لنعمل كما تعمل تلك العصافير المعروفة « بعصافير البقر* » وكما تعمل الوقاوق* التي تضع بيضها في أعشاش أنشأتها طيور أخرى غيرها، ولا تدخل السرور على أي سائح بأصواتها ونغماتها غير الموسيقية . فهل كتب علينا ياترى أن نظل نحرم أنفسنا لذة الانشاء والبناء ونتركها للنجار وحده ؟ ما مبلغ ما وصل اليه فن العمارة في خبرة الجمهرة من الناس ؟ لم يحدث أني صادفت في كل تطوافي رجلا مشغولا بمثل هذا العمل البسيط فيبني بيته بنفسه . نعم انا أفراد من الجماعة . وليس الخياط وحده هو الجزء التاسع من الانسان ، بل هو كذلك الواعظ والتاجر والزارع ، فأين ينتهي تقسيم العمل هذا ؟ وأي غرض يخدم في النهاية ؟ لا شك أن شخصا آخر غيري يصح أن يقوم بالتفكير بدلا مني ، ولكن ليس من المرغوب فيه أبدا أن يفعل ذلك على أن يحرمني أن أفكر بنفسي .

حقا ان في هذه البلاد من يسمونهم بالمعماريين ، فقد سمعت عن واحد منهم على الأقل استولت عليه فكرة أن الزخارف والحليات المعمارية تنطوي على نواة من الحق ، فأراد أن يجعل ذلك ضرورة لازمة ، ومن ثم يكون جمالا . فكأن هذه الفكرة كانت وحيا نزل عليه من السماء . قد يكون كل ذلك حسنا من حيث وجهة نظره هو ، ولكنه لا يرتفع كثيرا عن مرتبة الهاوي العادي . فهو من حيث أنه مصلح عاطفي في شئون العمارة ، قد بدأ بالزخارف ولم يبدأ بالأساس . فلم يكن الامر معه الا أن يعرف كيف يضع نواة من الحقيقة داخل الزخارف ، وأن كل برقوقة مسكرة يمكن أن تحتوي على لوزة ، أو على حبة من الكراويا ؛ وان كان اللوز في اعتقادي شيئا صحيا من غير السكر . وليس كيف أن القاطن — القاطن في

المنزل ـ يمكن أن يبنى حقا داخل المنزل وخارجه ، ويدع الزخارف وشأنها • فأى رجـــل عاقل خطر له مرة أن الزخارف ليست سوى أمور ظاهرية خارجية ، وأنهـا ليست الا فى السطح وحده لاتتعداه ـ وأن السلحفاة لهـادرقتها المنقطة ، وللمحارة ألوانهـا ـ خطر له أن ذلك كله قد تم كما تمت لسكان « برودواى » كنيستهم المعروفة باسم كنيسة الثـــالوث ؟ ولكن ليس للانسان أى شأن بطراز العمارة فى بيته أكثر مما للسلحفاة بطراز درقتها هذا ، وليس الجندى بحاجة لان يبلغ به الكسل أن ينقش لون فصيلتـه الصحيح على علمه اذ أن العدو لايلبث أن يعرفه وقد يمتقع لون الجندى اذا ما آن أوان المحنة والتجربة ، فيبدو لى أن الرجل كان يميل على « الكورنيش » ويهمس فى خوف بالحقيقة القاصرة التى وصل اليها فى آذان السكان الخشنين الذين يعرفونها فى الواقع خيرا منـه هو • فأى جمـــال معمـارى أراه الآن ، أعلم أنه انما نشأ من الباطن ، ثم تدرج منه الى الظاهر ـ نشأ من ضرورات السـاكن ومن أخلاقه ـ وما الساكن الا البناء الوحيد •انه نشأ من نبالة ، ومن حقيقة صادقة لايكون شاعرا بها عادة ولا متفطنا اليها ، ومن دون أن تخطر بباله أية فكرة عن المظهر الذى يتجلى فيه البيت • وأيا كان الجمال الاضافى الذى من هذا القبيل ، والذى قدر له أن يبدو ويظهر ، فانه سيكون مسبوقا بشىء من جمال الحياة بهذا غير المشعور به • ان أروع المنازل فى هذه البلاد هى ، كما يعرف النقاشون ، أقلها ادعاء وتظاهرا ـ هى أكواخ بسيـــطة من الخشب ، وعشش الفقراء عادة • ان حياة الانسان فى هذه المنازل التى لاتخرج عن أنها بمثابة محاراتهم ، وليس مجرد أية خاصة فى سطحهـا الظاهرى ، هى التى تجعل هذه المنازل رائعة جميلة • وكذلك يكون بيت المواطن الذى فى ضواحى البـلدة رائعا جميلا اذا ما كانت حيـاته بسيطة بساطة يلذ للخيـال أن يتصـورها واذا لم يحدث له تأثير مرهق من جراء طراز ســكناه فى هذا البيت •

ان نسبة كبيرة من الزخارف المعمارية جوفاء حقا ، بمعنى هذه اللفظة الحرفى ؟ وأن عاصفة من عواصف شهر سبتمبر لتجرفها كما تجرف الريش المستعار ، من غير أن يحدث أى ضرر كان للامور الاساسية فيها • فالناس الذين لازيتون عنـدهم ، ولا خمر فى كيـــلارهم ، يستطيعون أن يستغنوا عن الزخارف المعمارية • فما عسى أن تكون الحال ياترى لو أن ضجة مثل هذه قامت حول الأدب ، بشـــأن الزخرف والصنعة فى الأسلوب ، أو أن معماريى الاناجيل انفقوا فى زخرفتها من الوقت مثل ما ينفقـــه معماريو الكنائس ؟ فهكذا تصنع الآداب والفنون الجميلة وهكذا تكون أساتذتها ، وفى الحق أنه ليهم الانسان كثيرا أن يعـرف كيف أن يضع عصى توضع مائلة فوقه أو تحته ، وأى الالوان قد لطخ بها صندوقه • قد يكون لذلك شىء من



الدلالة لو أنه هو ـ بمعنى جدى ـ قد أمال هذه العصى بنفسه ولطخ ذلك الصندوق ، ولكن اذا ما الروح غادرت الساكن صارت هى وانشاءتابوته شيئا واحدا . فما مهندس القبر«النجار» سوى اسم آخر « لصانع التوابيت » . قد يقول رجل قل احتفاله بالحياة أو يئس منها : خذ حفنة من التراب الذى تحت قدميك واطل بيتك بلونها . فهل كان هذا الرجل يفكر فى بيته الضيق الاخير ياترى ؟ ما عليك الا آن تحزرذلك بأن تطرح قطعة من النقود فى الهواء ثم تنظر على أى وجهيها تقع . ألا أكثر ما عند هذا الرجل من أوقات الفراغ ! ولكن ما الذى يدعوك الى أن تتناول حفنة من الاقذار ؟ انالاولى بك أن تطلى بيتك بلون محياك أنت ثم ليمتقع لونه أو يحمر بدلا منك . فياله من مشروع لتحسين طرز الفن المعمارى من حيث بناء المنازل الصغيرة ! اذا ما آعددت لى حلياتى وزخارفى كنت على استعداد للبسها والتحلى بها .

وقبل أن يحل الشتاء بنيت مدخنة ، وغطيت جوانب البيت بسدائب من الخشب ، وذلك على الرغم من آن المنزل كان من قبل بمأمن من أن تنفذ مياه المطر من خلاله ، وكانت هذه السدائب غير كاملة ، ولينة لانها كانت لاتزال حافلة بالعصارة ، وقد اتخذتها من أول شريحة قطعتها من كتلة الخشب ، واضطررت الى استعمال الفأرة لجعل حافاتها مستقيمة .

وهكذا صار لى منزل محكم مغطى بالسدائب ومطلى بالشيد عرضه عشرة أقدام وطوله خمس عشرة قدما ، وبه ثمانى أقدام من القوائم ، وله علية ، وخزانة صغيرة ، ونافذة فى كل جانب ، وكوتان ، وباب فى آخره قبالته موقد من الطوب . هذا وكانت تكاليف بيتى الحقيقية ـ مع مراعاة دفع الثمن العادى للمواد التى استخدمتها فيه ، ومن غير آن أدخل فى حسابى أجرة العمل لانى أنجزته كله بيدى ـ هذه التكاليف كانت كما يأتى . هذا وقد ذكرت هنا تفصيلات المفردات لان قليلين هم الذين يستطيعون أن يقولوا على وجه التحديد مقدار ما تكلفته بيوتهم ، وأقل منهم ـ ذلك ان وجدوا ـ من يعرفون أثمان المواد المختلفة التى تتركب منها هذه البيوت :

	سنت	دولار	
ألواح من الخشب . . .	٣ ١/٢	٨	وأغلبها الواح أكواخ
سدابات للسقف والجوانب .		٤	
أخشاب « بغدادية » . . .	٢٥	١	
شباكان نصف عمر مع زجاجهما	٤٣	٢	
ألف طوبة قديمة		٤	
برميلان من الجير	٤٠	٢	هذا الثمن مرتفع

	سنت	دولار	
شعر	٣١		كان هذا أكثر مما يلزمني
حديد	١٥		
مسـامير	٩٠	٣	
مفصلات ومسامير محواة . .	١٤		
« سقاطة »	١٠		
طباشـــير	١		
النقل	٤٠	١	حملت جزءا كبيرا على ظهري
الجملة	١٢ ١/٢	٢٨ دولاراً	

هذه هي المواد الاولية كلها ما عدا الخشب والاحجار والرمل فقد حصلت عليهـا بحق وضع اليد . هذا ، وقد صنعت كذلك حظيرة صغـيرة من الخشب على مقـربة من البيت ، معظمها من المواد التي تخلفت من بنائه ، وفي نيتي أن أبني بيتا يفوق بيوت الشارع الرئيسي في «كنكورد» عظمة وفخامة وترفا ، عندما يحلو لي أن أبنيه ، ولن يكلفني من النفقـات أكثر مما كلفني بيتي الحاضر .

وهكذا وجدت أن الطالب الذي يود أن يكون له مأوى ، يستطيع أن يحصل على مسكن له طيلة حياته بنفقات لا تزيد على الكراء الذي يدفعه الآن في كل سنة ، فان كان يبـدو على اني أتنفج أو أفخر أكثر مما ينبغي فعذري أني أهذر وأتحدث من أجل مصلحة الانسانية ، لا من أجل مصلحتي الخاصة . فان مابي من نقائص وعيوب ومتنـاقضات لايؤثر بحال من الاحوال في صدق ما أقول . وعلى الرغم من كثير من الهراء والرياء ـ وهذا غث أرى من العسير فصـله عما هو سمين ، واني لا أسف عليه بقدر ما يأسف عليه أي انسان آخر ـ فاني في هذه الحال سأتنفس بحرية وأتمدد وأتمطى ، ففي ذلك تخفيف كبير عن الجهـــازين الجسماني والخلقي . هذا ، وقد عزمت أمري على ألا أجعل نفسي وكيلا للشيطان أحامي عنه وأدافع ، تواضعـــا مني . وسأحاول أن أقول كلمة طيبة في سبيل الحق والصدق . ان كراء حجرة الطالب في كلية كمبريدج* ، بأمريكا ثلاثون دولارا في العام ، وهي حجرة لا تزيد سعتها كثيرا على سعة حجرتي على أن للاتحاد الحق في أن يبني اثنتين وثلاثين حجرة لاتزيد بعضهـــا البعض ، وتحت سقف واحد ممـا يجعل ساكنهـــا يعاني مضـايقة كبيـــرة من جيرانه من جراء مايحدثونه من ضوضاء ، ذلك الى أن حجرته قد تكـــون في الدور الرابع .

ولا يسعني الا أن أقول انه لو كان لدينا شيء من الحكمة وبعد النظر في مثل هذه الاحوال، لاحتجنا الى تعليم أقل، لانا وأيم الحق، نكون قد حصلنا على تعليم خيرا منه وأوسع عن طريق الخبرة العملية، ولانخفضت نفقات التعليم انخفاضا عظيما . فوسائل الراحة التي يحتاج اليها الطالب في كلية كمبريدج هذه أو في غيرها من الكليات، تكلفه هو، أو غيره عشرة أضعاف ما تكلفه من الحياة أكثر مما لو حسنت الادارة من الطرفين . فالاشياء المطلوب الانفاق فيها ليست أبدا الاشياء التي يكون الطالب في أشد الحاجة اليها . فنفقات دروسه الخاصة مثلا تعد لاشك فترة هامة في قائمة حسابي « الفترة » . على حين أن التعليم الذي يحصل عليه من جراء الاتصال بأوسع الناس علما في عصره وأكثرهم ثقافة، وهو تعليم لاشك أهم وأنجع بكثير، لايكلفه شيئا من النفقات . والطريقة المتبعة عندنا في انشاء أية كلية هي، في العادة، أن نبدأ بجمع التبرعات من دولارات وسنتات، ثم نتبع اتباعا أعمى نظام تقسيم العمل بحذافيره حتى نهايته، وهو مبدأ يجب ألا نأخذ به الا بكل حرص واحتياط . فنراهم يدعون مقاولا يجعل من بناء الكلية موضوعا للمضاربة، فيستخدم عمالا من الايرلنديين أو من غير الايرلنديين، ليضعوا الاساس فعلا، على حين يقال أن طلبة الكلية، سوف يعدون لهذا العمل نفسه . فمن أجل هذه الاخطاء كان على الأجيال التالية أن تدفع الثمن . وفي رأيي، أن خيرا من ذلك وأجدى للطلبة، ولمن يريدون أن يستفيدوا من التعليم، أن يقوموا هم أنفسهم حتى بوضع الاساس هذا . فالطالب الذي ينال أوقات الفراغ والعزلة اللذين يطمح اليهما بأن يرفض باستمرار وانتظام أن يعمل في أي عمل ضروري لبني الانسان، لايحصل الا على فراغ خبيث عقيم، ويحرم نفسه الخبرة والخبرة وحدها هي التي تجعل الفراغ مجديا مثمرا حقا . على أن قائلا قد يقول« انك لاتقصد أن تقرر أن الطلبة يجب أن يعملوا بأيديهم بدلا من أن يعملوا بعقولهم »لا ! لست أقصد هذا تماما، بل أقصد شيئا آخر يجعلهم يفكرون بما يشبه الطريقة الآتية : أقصد أنهم يجب ألا يقنعوا بأن يمثلوا دور الحياة، وأن يدرسوها في الكتب فحسب، على حين تقوم الجماعة بمعاونتهم على هذا التمثيل الكثير التكاليف والنفقات . بل يجب أن يحيوها فعلا — يحيوها بجد من بدايتها الى نهايتها . فكيف يتسنى للشباب أن يتعلموا الحياة بأفضل من أن يبدأوا في الحال ويقوموا بتجربة المعيشة والحياة بأنفسهم مباشرة . فهذا في رأيي، يدرب عقولهم كما تدربها دراسة الرياضيات . فاذا شئت أن يعرف صبي شيئا عن العلوم والفنون مثلا لم يخطر ببالي أن أسلك به الطريق العادي المرسوم وأبعث به الى حيث يوجد أستاذ يلقنه، وحيث يدرس كل شيء، ويزاول كل شيء، الا فن الحياة ذاتها . فتراه يدرس العالم بمنظار مقرب أو بمجهر معظم

ولا ينظر اليه أبدا بعينه الطبيعيـــة ؟ ويدرس الكيمياء ، ولا يعرف كيف يصنع الخبـز الذى يأكله ؟ ويدرس الميـــكانيكا ولا يعرف كيف توصلنا اليهـــا ؟ ويتعلم كيف يستكشف توابع للسيـــار نبتون على حين أنه لا يدرى كيف يستكشف الخشبة التى فى عينه ، وهو لايدرى أى متشرد ضال يتبع ، ويجرى وراءه . وقد تلتهمه الوحوش الضوارى التى تتجمع حوله ، بينما هو مشغول بالتفكير فى الجراثيم المريعة التى تتجمع فى نقطة من النبيذ . فأى الصبيين يكون قد تقدم أكثر من الآخر ؟ أذلك الذى صنع مبراته الكبيرة بيديه من معدن استخرجه من الارض بجهده ، وصهره بجهده ، واطلع فى الـــكتب على كل ما هو ضرورى له فى موضوعه ، أم الصبى الآخر الذى ظل فى أثناء ذلك يتلقى محـــاضرات فى المعهـــد فى علم المعادن ، ثم أهداه والده مبراة فخمة من طراز رودجرس ؟ فأيهمـــا تظن يجرح أصابعه عندما يستعمل هذه المبراة ؟ أخبـــرنى القوم عندما غادرت الكلية بأنى قد درست فيما درست علم الملاحة . ولـماذا ؟ فلو أنى عرجت مرة واحدة على الميناء لعرفت عن هذا الفن أكثر مما تلقيته فى الـــكلية . ان الطالب الفقير يدرس ويتعلم ، ولكنهم لا يعلمونه سوى الاقتصـــاد السياسى ، على حين أن اقتصاديات المعيشة ــ وهى المرادفة للفلسفـــة ــ لاتدرس باخلاص وعناية فى كلياتنا ، فترتب على ذلك الاهمال أن يقرأ هذا الطالب ريكاردو* ، وآدم سميث* وســـاى* ، ويورط والـــده فى الدين توريطا لا خلاص له منه .

وكما هى الحال فى كلياتنا فكذلك حال المئات من التحسينات « الحديثة » ففيهـــا خداع ووهم ، وليس فيها أى تقدم ايجابى دائما ، ويظل الشيطان يتطلب حتى النهاية ربحه المركب من نصيبه الذى دفعه فى البداية ، ومن المبالغ الكثيرة التى أودعها فيها بعد ذلك على التوالى . هذا ، وليست مخترعاتنا عادة سوى لعب جميلة رائعة تصرف انتباهنا واهتمامنا عن الامور الجدية ، فهى وسائل محسنة لغايات لم تتحسن بعد ولم تنصلح ــ غاية من السهولة بمكان أن نصل اليها مثلما نصل بالسكك الحديدية الى بوسطن أو نيويورك . ألا ترى انا نتعجل انشاء خط برقى بين « مين » و « تكســـاس » [1] وقد لا يكون عند « مين » ولا عند « تكساس » خبر هام تبرق به احداهما الى الاخرى ، حتى لـــكأنها فى موقف ذلك الرجل الذى كان متحمســـا كل التحمس للتعرف بسيدة مشهورة صماء . فلما قدم اليها وأمسك بيـــده أحد طرفى المسماع الموضوع على أذنها ، لم يجد عنده شيئا يقوله . فكأن الغرض الاساسى أن نتكلم بسرعة ، وليس أن نتكلم بعقل وحكمة . وانا لنتلهف على عمل نفق تحت المحيط الاطلسى ليقرب الدنيا القديمة من الدنيا الجديدة بضعة أســـابيع ، وربما كان أول خبر ينقل الى الآذان الامريكية العريضة

(١) ولايتان من الولايات المتحدة .

أن الاميرة « أدلايد » أصيبت بالسعال الديكي •وأخيرا ، أن الرجل الذي يركض حصانه ميلا في الدقيقة الواحدة ليس بالرجل الذي يحمل أهم الاخبار ، فما هو برسولي مبشر ولا هو يأتينا عائشا على الجراد أو العسل البرى • واني لأشك كل الشك ان كان فلاينج[1] تشسيلدرز قد حمل مرة قيراطا من الاذرة الى الطاحون •

قال لي بعضهم : « انى لاعجب من انك لا تدخـــر مالا ، فأنت رجـل تحب الاسفار ، وتستطيع أن تستـــأجر العربات لتذهب الى« فتشبرج » اليوم فترى الدنيا » • ولكنى أعقل من أن أفعل شيئـــا من هذا ، فقد تعلمت أن أسرع سائح هو ذلك الذي يسير على قدميه • فلا غرو ان أجبت صديقي هذا بقولي « لنفرض أنا سنجرب من منا يصل الى تلك البـلدة قبل الآخر ، فالمسافة اليهـا ثلاثون ميلا ، والاجر تسعون سنتا ، مما يكاد يعادل أجرة يوم ، لانى أذكر يوم كانت أجرة العامل الذي يشتغل في هذا الطريق ذاته لاتزيد على ستين سنتـا في اليوم • والآن سأقوم وأسير على قدمي وأصل الى البـــلدة قبل أن يجن الليل ، وقد سبق لى فعلا أن سافرت بهذه السرعة أسابيع موصولة •على حين تكون أنت قد ربحت في أثنـــاء ذلك مايعادل أجرتك ، وتصل الى هنا في وقت ما غدا ، أو قد تصل هذا المســـاء اذا كان من حسن حظك أن تجد لك عملا في هذا الموسم ،ولـكنك ، بدلا من أن تذهب الى فتشبرج ، ستظل تعمل الجزء الاكبر من النهـار • وعلى هذا ففي ظني أنى سأكون الســـابق دائما ، حتى ولو امتدت السكة الحديدية حول الارض كلهـا • أما من حيث رؤية البلاد والحصول على خبرة من هذا النوع ، فأرى أن الاولى بي أن أهجرك وأقطع صلتي بك قطعا تاما » •

ذلك هو القانون العام الذي لا يستطيع أي انسان أن يفلت منه بحال من الاحوال • أما من حيث السكك الحديدية فيمكننا أن نقول انهـــا عريضة بقدر ما هي طويلة • فلكى نمد سككا حديدية حول الارض ، ونيسرها لجميع الناس معناه انا يجب علينا أن نمهد سطح هذا الكوكب كله •فلدى الناس فكرة غامضة عن أنهم لو ظلوا يواصلون هذا النشاط مدة طويلة لاستطاع كل منهم في النهـاية أن يركب القطار فيصل في لحظـــة وبدون أجر الى أى بلـــد يريد • قد يندفع حشد من الناس الى المحطة ، ويصيح بهم الســـــائق عندما ينقشع الدخان ويتكاثف البخار ، أن هلموا اصعدوا جميعا ، وعندئذ تشاهد أن عددا قليلا منهم قد صعدوا فعلا ، أما الباقون فقد دهسهم القطار • ثم بعد ذلك يقال ـ وهو ما سيكون فعلا ـ آنه «لحادث محزن»• ولا شك أن الذين يوفقون الى كسب أجرهم يستطيعون آخر الامر أن يركبـوا اذا ما بقوا أحياء ، ولكن من المحتمل آن يكونوا قد فقدوا مرونتهم وحبهـم للاسفار قبل ذلك الوقت ،

(1) Flying Childers وهو اسم حصان من خيل السباق كان مشـــهورا في امريكا وقتئذ (المترجم)

فانفاق المـــرء خير جـزء من عمره فى كسب النقود كى يستطيع أن يستمتع فيما بعد بحرية مشكوك فى أمرها فى أثناء أقل أجزاء عمره قيمة ـ هذا الانفـــاق يذكرنى بذلك الرجل الانجليزى الذى مضى الى الهند ليجمع منهـــا ثروة أولا ثم يعود الى بلاده ليعيش عيشـــة الشعراء • لقـــد كان الواجب عليه أن يبادر ويسكن فى علية فى الحال ، وعندئذ يصيح بى مليون ايرلندى من شتى أنحاء البلاد ، برزوا من مختلف حظائرهم ومخازنهم ، وقد استولت عليهم الدهشة : ماذا ! ألم تكن السكة الحديدية هذه التى أنشأناها سكة صـالحة ؟ فأجيبهم نعم انها صالحة نسبيا ، أى أنه كان من الجائز أن تعملوها أسوأ من ذلك ، ولكن مادمتم اخوتى فانى أتمنى لو أنكم أنفقتم وقتكم فيما هو خير من الحفر وسط هذه الاقذار •

واذ كنت قبل أن أتم بناء المنزل بحاجة الى كسب عشرة دولارات أو اثنى عشر دولارا بطريقة شريفة ومريحة فى الوقت نفسه كى أسدد نفقاتى غير العادية ، زرعت أول الامر نحو فدانين ونصف فدان من الاراضى قرب المنزل ، وفى تربة رملية خفيفة ، كما زرعت مساحة صغيرة ، بطاطس وأذرة وحمصا ولفتـــا •وكانت مساحة الارض كلهـــا أحد عشر فدانا معظمها ينمو فيه أشجار الصنـــوبر والجوز الامريكى ، وكانت قد بيعت كلهـــا فى الموسم المـــاضى بسعر ثمانية دولارات وثمانية بنسات للفدان الواحد ، وقال عنها أحد الفلاحين أنهـــا أرض لاتصلح لشىء غير تربيـــة السنـــاجيب الصارخة • ومع ذلك فانى ، عندما زرعتها ، لم أضع فيها أى سماد لانى لست مالكا لها ،وانما أنا محتل لهــــا فحسب ، ولا أنتظر أن أزرع منها مثل هذه المساحة الـــكبيرة مرة أخرى • ولم أعزقها كلها مرة واحدة ، وقد استخرجت منها عند حرثها بعضا من أرومات الشجر كانت لى مادة صـــالحة لخشب الوقود زمنا غير قصـــير • ذلك الى أنى تركت دوائر صغيرة من التـــربة عذراء ، كان من السهل تمييزها طول الصيف ، بغزارة الفـــول الذى نما فيها • أما الخشب الجـــاف الذى كان حول منزلى ، والذى لايمكن أن يبـــاع ، والخشب الطافى الذى قذفت به الريح الى البر فقد كان مصدر الباقى لى مما يلزمنى من خشب الوقود•وقد اضطـــرنى الامر الى استئجـــار زوج من الثيران ورجل لحرث الارض ، ومع ذلك فقد بقيت طول الوقت ممسكا بالمحراث • ولم تزد تكاليف الزراعة فى المـــوسم الاول على ١٤دولارا واثنين وسبعين سنتـــا ونصف سنت ، ثمنا للآلات والتقـــاوى وأجر العمال • أما تقاوى الاذرة فقد أعطيت لى بالمجان•وهذ اكله لا يتكلف شيئا يذكر اللهم الا اذا زرعت أكثر مما يكفى حاجتك • هذا ، وقد حصلت على اثنى عشر بوشلا من الفول و١٨ بوشلا من البطاطس فضلا عن جانب من الحمص والاذرة الحلوة ،

أما الاذرة الصفراء واللفت فكانت متأخرة ولذا لم تنتج شيئا يذكر • وكان جميع دخـــلى من الضيعة كما يأتى :

	سنت	دولار	
	٤٤	٢٣	
١/٢	٧٢	١٤	تنزيل النفقات
١/٢	٧١	٨	البـــاقى

ذلك فضلا عما استهلكته من المحصول ،وعن الباقى منه تحت يدى عندما عملت هـــذا التقرير ، مما قيمته أربعةدولارات ونصف ؟ وكان ذلك الباقى الذى تحت يدى يعادل القليل من الكلأ الذى لم أزرعه ، بل يزيد عليه•وفى الجملة ، أى مع اعتبار أهمية روح الانسان ، ومراعاة الوقت الحاضر ، وعلى الرغم من قصر الوقت الذى استغرقته تجربتى ، بل ونظـــرا لصفتها المؤقتة ــ اعتقد أن ربحى هذا كان خيرامن دخل أى فلاح فى كنكورد فى تلك السنة•

وكان ما عملته فى السنة التالية خيرا مما عملت فى السنة التى قبلها ، وذلك لانى عزقت كل ما أحتاج اليه من الارض ، وكان نحو ثلثفدان ، وقد علمتنى تجربة السنتين كليهما ، من دون أن يرهبنى مطلقا ماورد فى المؤلفاتالـكثيرة التى وضعت فى شئون الزراعة ومن بينها كتاب آرثر يونج* نفســـه ــ علمتنى أنالانســـان اذا شاء أن يعيش عيشة بسيطة ، لايقتات الا مما زرعه بنفســه من المحصول ،ولا يزرع أكثر مما يلزم لقوته ، ولايستبدل به مقدارا قليــــلا غير كاف من أشياء كماليةغالية كثيرة التكاليف ، فانه لايكون بحاجة الى زرع أكثر من بضع قصبات مربعة منالارض•وأنه لارخصله أنيعزقهذه القطعةمنالارض من أن يستخدم الثيران لحرثها ، وأن اختياربقعة جديدة أرخص له من أن يسمد أرضه القديمة ، وأنه يستطيع أن يقوم بجميع ماتتطلبهالضيعة من أعمال بيده اليسرى ، اذا ماصح هذا التعبير ، وفى أوقات متفرقة من أوقات فراغهفى الصيف ، لا يكون مرتبطا فى الحاضر بثور أوحصان أو بقرة أو خنزير • وانى لاود أنأتكلم فى هذه النقطة من غير تحيز أو هوى ، ذلك لاننى لم أكن أحفـــل بنجـــاح النظـمالاقتصادية والاجتماعية ولا بفشلها ، فقد كنت أكثر استقلالا من أى فلاح آخر فى كنكورد ،غير مقيد ببيت ولا بضيعة ، ولكنى لم أستطع أن أتبع ما يهدينى اليه عقلى ، وان كان عقـلاملتويا مضطربا فى كل لحظة ، ذلك الى انى كنت أغنى منهم فى البــــداية • فلو أن بيتىاحترق أو هافت محصولاتى ، لظللت غنيا كما كنت من قبل •

وفى رأيى ، ليس الناس هم الذين يرعون القطعان ، بقدر ما يرعى القطعان بنى الانسان

فالقطعان أكثر حيوية واستقلالا . ان الرجال والثيران يتبادلون الشغل ، على أنا اذا ما اعتبرنا الشغل الضروري وحده تميزت الثيران على بني الانسان تميزا كبيرا . فمزرعتها أوسع بكثير ، ويقوم الانسان ببعض نصيبه من الشغل في قيامه بعمل الدريس في الستة الاسابيع التي يعمل فيها عادة ، ولا شك أنه عمل ، ليس بلعب أطفال . ويقينا أن كل أمة تعرف كيف تحيا ، من كل وجه من الوجوه - أي كل أمة من الفلاسفة - لاتقع في مثل هذه الغلطة الشنيعة ، فتستغل عمل الحيوان وتستهين به . حقا انه لم توجد ، ولا يحتمل أن توجد ، أمة من الفلاسفة ، فلست متأكدا من أن مثل هذه الامة يحسن أن توجد . ومهما يكن من أمر ، فقد كان الواجب على ألا أروض حصانا أو ثورا ثم أعلفه مقابل أي عمل يقوم به لي خشية أن أصبح راعي خيل أو راعي بقر ليس الا . واذا كان الظاهر أن المجتمع يربح من وراء ذلك ، فهل نحن واثقون ياترى من أن مايربحه انسان ليس خسارة لانسان آخر ، وأن عامل الاسطبل له حق مثل سيده ، في أن يكون هو الآخر راضيا مطمئنا . ولنسلم بأن بعض الاعمال العامة لم تكن تتم الا بهذه الوسيلة ، وليشارك الانسان الثور والحصان في المجد الناشيء عن انجاز هذه الاعمال ، فهل يستتبع هذا أنه لم يكن لينجز أعمالا أجدر به وباسمه؟ عندما يبدأ الانسان في أن يعمل ، لا مجرد أعمال غير ضرورية أو فنية ، بل أعمالا كمالية فارغة بمساعدة الحصان والثور فلا مناص من أن قليلين سيقومون بتبادل العمل مع الثيران ، أو بعبارة أخرى يصبحون عبيدا للاقوى . وهكذا لايعمل الانسان للحيوان الذي في باطنه فحسب ، بل يرمز الى ذلك بان يعمل للحيوان الذي خارجه ، ومع أن عندنا بيوتا كبيرة مبنية بالطوب أو بالحجر فان سعادة الزارع لاتزال تقدر بالدرجة التي تسود بها المزرعة البيت وتفوقه . والمعروف أن هذه البلدة التي نحن فيها تحتوي على أكبر بيوت للثيران والبقر والخيل في هذه النواحي ، ومع ذلك فهي ليست متخلفة عن غيرها من حيث المباني العامة ، ولكن لايوجد في هذه البلاد سوى عدد قليل من الدور الخاصة بالعبادة الحرة أو الخطابة الحرة . فلا ينبغي أن تقوم الامم بتخليد ذكراها عن طريق اقامة المباني العامة ، ولكن لم لاتقوم بذلك على الاقل عن طريق قدرتها على التفكير المجرد . فما أبدع « الباجافات جيتا* » . وما أروعها ! انها لأبدع من كل خرائب الشرق وأطلاله ! فما الابراج والمعابد سوى ترف الامراء . ان العقل البسيط المستقل لايكدح نزولا على اشارة من أمير ، فليس النبوغ تابعا من توابع أي امبراطور ، ولا هو بالفضة والذهب أو الرخام اللهم الا الى حد صغير تافه . فما الغاية من نحت هذه الاحجار الكبيرة ياترى ؟ انى لم أر في أركاديا ، لما كنت بها ، أي نحت للاحجار . لقد استولى على الامم مطمح أخرق لان يسعوا لتخليد ذكراهم بمقدار مايخلفونه

وراءهم من أحجار منحوتة • فماذا يكون الامرياترى لو أنهم بذلوا مثل هذه الجهود فى تهذيب آدابهم وصقل أخلاقهم ؟ أن قطعة واحدة ذات معنى طيب سليم قد تكون أدوم على الدهر من نصب يرتفع حتى يناطح السماء ويداني القمر •انى لافضل أن أرى الاحجار قابعة فى مواضعها، فقد كانت عظمة طيبة عظمة سوقية خرفاء •وكذلك أفضل أن أرى بضع ياردات من جدار من الحجر يحيط بحقل رجل شريف ، من أن أرى طيبة ذات المائة باب قد حادت عن الغرض الحقيقي من الحياة • لقد دعا دين المتوحشين ،ودعت حضارتهم الى بناء المعابد الضخمة ، على حين أن ما نسميه مسيحية حقا لم تفعل شيئا من ذلك • فأغلب ما تنحته أمة من الاحجار يذهب الى عمل قبرها وحده ، فكأنها انما تدفن نفسها حية • أما من حيث الاهرام فلا شيء فيها يستثير اعجابنا اللهم الا أن نجد عددا كبيرا من الرجال قد بلغت بهم الضعة أن ينفقوا حياتهم فى انشاء مقبرة لشخص غنى طموح ، كان من الحكمة والرجولة أن نغرقه فى النيل ونلقى برمته الى الكلاب • وقد يكون فى وسعى أن أنتحل لهولهم عذرا ما ، ولكن وقتى يضيق عن ذلك • أما من حيث ديانة البنائين وحبهم الفن ، فالامر واحد فى العالم كله ، سواء كان البناء معبدا مصريا أو مصرف الولايات المتحدة • فان نفقاته تزيد على فوائده • فالاصل فى ذلك كله هو الخيلاء يسندها حب أكل الثوم والخبز والزبد •هذا ، وأن المستر بالكوم ، وهو معمارى شاب واحد يرجى منه الكثير ، قد رسم لنا تصميمه بالقلم الرصاص وبالمسطرة على ظهر كتاب «فتروفيوس*» ثم ترك انجاز العملية لدوبسون وأولاده قطاع الاحجار • وبعد أن تكون الثلاثون قرنا قد بدأت تنظر الى المبنى من عل ،يبدأ بنو الانسان فيتلعون رؤوسهم لينظروا اليه من أسفل • أما من حيث أبراجكم العالية وتماثيلكم الضخام فقد حدث مرة أن رجلا مأفونا من هذه البلدة أخذ على نفسه أن يحفر فى الارض حتى يبلغ بلاد الصين ، وقد ظل يحفر — على حد قوله — حتى صار يسمع أصوات القدور والغلايات الصينية • على أنى لن أحيد عن طريقى التى أسلكها كى أشاهد ذلك الثقب الذى قام هذا الملتاث المأفون بعمله ، وأبدى اعجابى به • لقد أخذ القلق يساور الكثيرين من الناس بشأن آثار الشرق والغرب ، فهم يودون أن يعرفوا من الذى أنشأها • أما أنا فأود أن أعرف من الذين لم ينشئوها فى تلك العصور الخوالى • فهم أسمى من أن يعملوا مثل هذه السفاسف • ولكن يجمل بى أن أعود الى احصائياتى •

استطعت أن أربح ثلاثة عشر دولارا ،وأربعة وثلاثين سنتا من عملى فى المساحة والتجارة ، ومن القيام بعدة أعمال شتى غيرهما باليومية فى القرية — لانى أحذق من الصناعات عددا بقدر ما لدى من أصابع • أما تكاليف الطعام لمدة ثمانية شهور ، أى من ٤ يوليه الى

أول مارس ، وهــو الوقت الذى عملت فيــهذه التقديرات ، وان كنت قضيت هناك أكثر من سنتين ـ من غير أن أدخل فى حسابى ثمنالبطاطس وثمن قليل من الاذرة الخضراء وقليل من البسلة التى زرعتهــا ، وكذلك من غير أنأدخل فيه قيمة ما لايزال تحت يدى حتى ذلك التاريخ ـ فهى ما يأتى :

		سنتا	دولارا	
أرز	٢/١	٧٣	١	
عسل اسود		٣٧	١	
دقيق الجودار	٤/٣	٤	١	
دقيق الاذرة	٤/٣	٩٩		
لحم خنزير		٢٢		
دقيق القمح		٨٨	وهو يتكلف أكثر من دقيقالجودار منحيث النفقــات والتعب •	كلها تجارب فشلت
ســكر		٨٠		
شحم		٦٥		
تفـــاح		٢٥		
تفاح مجفف		٢٢		
بطاطا		١٠		
قرعة واحدة		٦		
بطيخة		٢		
ملــح		٣		

نعم كانت جملة ما أكلته فعلا ٨ دولارات و ٧٤ سنتا ، على أنه ما كان لى أن أذيع أخبار جريمتى هكذا فى غير حياء ولا خجل ، لو لم أعلم أن معظم قرائى مجـــرمون مثلى ، وأن أفعالهم لا تبدو خيرا من أفعالى اذا ما نشرت مطبوعة على الناس • وفى السنة التاليـــة كنت أصيد أحيانا السمك لغدائى ، وبلغ بى الامر أن أذبح مرة « مرموطا » كان يعيث فســادا فى حقل فولى ، أو كما يقول التتـــار ، أنجزتعملية نسخ روحه وأكلته • وكان ذلك منقبيل التجربة الى حد ما ، ومع أنه كان لى متعة مؤقتة على الرغم من طعمه المسكى ، فقد رأيت أن طول الخبرة لاتجعل ذلك عملا طيبا مهما بداللك أن هذا يجعلك تشترى «المراميط*» منظفة جاهزة من قصاب القرية •

وكانت الملابس وبعض النفقات العارضةالتى أنفقتها بين هذين التـــاريخين السابقين ، وان لم يكن يستنتج من هذه الفترة الا القليل ـ قد بلغت :

	سنت	دولار
	٤٠ ٣/٤	٨
للزيت وبعض الادوات المنزلية .	٠٠	٢

وعلى هذا تكون جميع النفقات ـ ما عدا نفقات الغسيل والاصـــــلاح اللذين كانا يتمان خارج البيت عادة ، ولم تصلنى فواتيرها بعد . تلك هى جميع الطرف بل أكثر من جميـــــع الطرق التى تنفق فيهــــا النقود بالضرورة فى هذا الجزء من العالم ، وعلى هذا كانت هـــذه النفقات هى :

	سنت	دولارا
المنزل	١٢ ١/٢	٢٨
الضيعة لمدة سنة	٧٢ ١/٢	١٤
الطعام لمدة ثمانية شهور . .	٧٤	٨
الملابس الخ لمدة ثمانية شهور .	٤٠ ٣/٤	٨
الزيت الخ لمدة ثمانية شهور .	٠٠	٢
المجموع . .	٩٩ ٣/٤٠	٦١

وانى لاتوجه الآن بالقول الى هؤلاء النفر من قرائى الذين عليهم أن يكسبوا رزقهم . وكى أواجه كسب رزقى هذا حصلت مما بعتهمن منتجات المزرعة على :

	سنت	دولارا
	٤٤	٢٣
كسبتها بالعمل باليومية	٣٤	١٣
الجملة	٧٨	٣٦

وبعد خصم هذه من جملة النفقات يتبقى رصيد قدره ٢٥ دولارا و٢١ سنتا و ٣/٤ سنت من جهة ـ وذلك هو المبلغ الذى بدأت به تقريبا ، ومقياس النفقات التى ينتظر أن أتحملها . ومن الجهـــة الاخرى حصلت على بيت مريح خاص بى كثيرا ما أحببت أن أشغله .

قد تبدو هذه الاحصاءات عرضية وغير مفيدة ، ومع ذلك فان لها قيمتها لانها كاملة الى حد ما ، فانى لم أغفل شيئا أعطيته من غير أن أقدم عنه حسابا . فمن التقدير الاول يتجلى أن طعامى وحده كلفنى من حيث النقود ما يقرب من سبعة وعشرين سنتا فى الاسبـوع ، وظل

مدة تقرب من سنتين بعد ذلك يتكون من دقيق الجودار ودقيق الأذرة من غير خميرة ، ومن البطاطس والارز وقليل من لحم الخنزير المملح،والعسل الاسود والملح ، أما شرابى فكان المـاء القراح . وكان يصح لى أن أعيش على الارز أساسا لانى كنت مشغـوفا كل الشغف بفلسفة الهند . وكى أواجه ما يعترض على به بعض المهاترين العنيدين ، لايسعنى الا أن أقرر أنى كنت أتغذى خارج المنزل أحيانا (كما اعتدت أن أفعل من قبل دائما ، ولعل الفرصة تواتينى لاعود وأفعل ذلك ثانية) ، فان ذلك كثيرا ماكان يفسد على نظام منزلى . ولكن لمـا كان الغذاء خارج المنزل عنصرا ثابتا كما ذكرت ، فانه لم يكن له مع ذلك أقل تأثير فى قول نسبى مثل الذى ذكرت .

وقد تعلمت من خبرتى فى هاتين السنتين أن حصول الانسان على طعـــامه الضرورى لايكلفه سوى تعب قليل لايكاد يصدقه أحد ،حتى فى هذه البلاد ، وان فى قدرة الانسان أن يتخذ طعاما بسيطا بساطة طعام الحيوان ، ويظل يحافظ مع ذلك على صحته وقوته . لقد تناولت غذاء كافيا مرضيا من وجوه عدة ، من طبق من البقلة الحمقاء Porlutaca oleracea جمعتهـــا من حقل الاذرة ، ثم سلقتها وأضفت اليها قليلا من الملح . هذا وقد ذكرت هنا اسمها باللغة اللاتينية من أجل تفـــاهة اسمها . وفيما عسى يرغب الرجل العاقل فى أيام السـلام ، وفى أوقات الظهر العادية ، أكثر من عدد كاف من كيزان الاذرة الحلوة المسلوقة أضيف اليها قليل من الملح ؟ ان هذا التنوع الصغير الذى كنت ألجأ اليه كان فى الواقع خضوعا منى لمطالب الشهية لا لمطالب الصحة ، ومع ذلك فقد بلغ الامر بالناس أنهم كثيرا ما يموتون جوعا لا لنقص فى الامور الضرورية لهم ، ولكن لنقص فى الكماليات . فقد عرفت امرأة صالحة ظنت أن ابنها فقد حياته لانه انغمس فى شرب المـاء القراح وحده دون غيره .

من هذا يرى القـارىء أنى انما أعالج الموضوع من الناحية الاقتصادية لامن الناحية الغـــذائية ، ولن يجسر أحد على أن يجرب تقشفى هذا ويختبره الا اذا كان عنده كيلار ملىء حافل .

أما الخبز فقد صنعته لاول مرة من دقيق الاذرة الخالص والملح ، فكان لى منه أقراص من الاذرة أصيلة حقا ، خبزتها على نار خارج المنزل على طرف عصا من الخشب ممـــا كنت قد نشرته وأنا أبنى منزلى . ولكن هذه الاقراص ، كانت معرضة لان تدخن وتصبح ذات طعم صنوبرى ، وجربت كذلك دقيق القمح ؛ الا أنى وجدت آخر الامر أن خليطا من دقيق الجودار ومن دقيق الاذرة يكون صالحا مستساغ الطعم . وانها لتسلية لا يستهان بها فى الجو البارد ،

أن تخبز عدة أرغفة من هذا الخليط الواحدبعد الآخر ، وتلاحظها وتقلبهـــا بكل عناية وحرص ، وترعاها كمـــا كان يرعى المصرىفقس ما عنـــده من البيض . فكانت لى فاكهة حقيقية من الحبـــوب أنضجها بنفسى ، وكانت نكهتهـــا فى أنفى مثل نكهة أى فاكهة أخرى نبيلة حرة ، احتفظت بها أطول وقت ممكن ،بأن لففتها فى قطع من القماش . وقد درست فن صنع الخبز ، ذلك الفن القديم الذى لاغنى عنه ، ورجعت الى ما عنـــدى من كتب ومراجع للثقاة من المؤلفين ، ورجعت كذلك الى الايام البدائية ، والى أول ما اخترع الناس ذلك الخبز الخـالى من الخميرة ، عندما انتقلوا من وحشيةأكل البندق واللحوم الى أن توصلوا لأول مرة الى نوع الغذاء هذا ، بمافيه من بساطة وتهذيب.وبعد أن تتبعت فى دراستى هدا الموضوع حتى بلغت ما حدث عرضا من تخمر العجين مصادفة،وهو ذلك الحادث الذى فرض أن النـــاس قد تعلموا منه عملية التخمير ، ثم تتبعت مختلف الخمـــائر فيما بعد حتى توصلت الى أن الخبز الطيب الصحى ملاك الحياة حقا . فالخميرة التى يعدها بعض الناس روح الخبز ـ الروح التى تملأ نسيجه الخلوى ، والتى تحفظ بكل عنايةوتقوى ، كما تحفظ « نار العذارى* » وتصان ـ كانت ملء زجاجة ثمينة أظنها جلبت لاول مرة مع السفينة «الملايفلاور*» فأدت عملها فى أمريكا ، ولا يزال نفوذها يرتفع وينمو وينتشرفى موجات عمت البلاد كلها . وكنت أحصل على هذه الخميرة بانتظام وأمانة من القرية الىأن حدث ذات صباح أنى نسيت القـــواعد ، فأفسدت الخميرة . وبهذه الحادثة استكشفت أن هذه الخميرة ذاتها ليست بالضرورية التى لايمكن الاستغناء عنهـــا . فاستكشافاتى لاتتم بالطريقةالتركيبية بل بالطريقة التحليليـــة . وهكذا استغنيت عن استعمال الخميرة بكل سرور من ذلك الوقت ، وعلى الرغم من أن الكثرة من ربات البيوت أكدن لى أن الخبز لايكون مأمونا ولاصحيا بغير خميرة ، وعلى الرغم كذلك من أن الشيـــوخ أنذرونى بتدهور سريع فى قواى الحيـــوية ، فانى لم أجد هذه الخميرة عنصرا ضروريا.فبعد أن استغنيت عنها سنة مازلت على قيد الحياة . وانى لسعيد أن تخلصت من سخافة حمل زجاجة مملوءة فى جيبى ، فقد يحدث أن تنفجر مرة وتفرغ محتوياتها مما يسبب لى الكثير من المضـــايقة . فأبسط من ذلك كله وأكثر احتراما لنفسى أن استغنى عنها كلها . اذ لا يخفى أن الانسان حيـــوان يستطيع أن يكيف نفسه بكل مناخ وبكل الظروف والاحوال ، أكثر مما يستطيعه أى حيوان آخر . وكذلك لم أضع فى خبزى أى ملح أو صودا أو أية مادة حمضية أو قلوية أخرى . ويبدو لى أنى صنعته بحسب وصـــفة ذكرها « ماركوس* بوركيس كاتو* » منذ قرنين قبل ميلاد المسيح . وتقول هذه الوصفة ، بحسب ما أفهمه منها :

« اصنع الخبز هكذا : اغســـل يديك والمعجن غسلا جيدا ، ثم ضع الدقيق فى المعجن،

وأضف اليه الماء قليلا قليلا ، ثم اعجنه عجناكاملا • وبعد أن تتقن عجنه قرصه ، ثم اخبزه تحت غطاء » ، أي فرن •

ولكنه لم يذكر لنا كلمة واحدة عن الخميرة • هذا ، ولست أنا ممن يستعملون ملاك الحياة هذا دائما ، فقد مرت بي فترة من الزمان لم أر فيها شيئا منه أكثر من شهر ، فقد كان كيسي خاويا من النقود•

ويستطيع كل ساكن من سكان « نيوانجلند » أن يزرع في سهولة ويسر كل ما يحتاجه من المواد التي تلزم لصنع الخبز في هذه الاراضي التي يكثر فيها حب الجودار والاذرة ، من غير حاجة الى الاعتماد على الاسواق البعيدة المتقلبة • ومع ذلك فها نحن قد بعدنا كل البعد عن البساطة وعن الاستقلال ، حتى صار من النادر أن نجد الدقيق الحلو الطازج يباع في دكاكين كنكورد • ولا يكاد أحد الان يستعمل الاذرة ، المجروش منها أو الصحيح ، وصار المألوف أن يعلف الفلاح ماشيته وخنازيره بالحبوب التي أنتجها بيديه ، ثم يشترى من المتاجر دقيقا بأسعار عالية ، مع أنه ليس ، على الاقل ، أصح من الاذرة التي زرعها ، فضلا عن أنه يكلفه ثمنا أكبر • ولقد رأيت أنه من السهل على أن أنتج ما أحتاج اليه من كيلة أو اثنتين من حب الجودار أو من الاذرة • فالاول ينمو في أفقر الاراضي الزراعية ، ولا يتطلب الثاني خيرها • وفي استطاعتي أن أطحنها بنفسي في طاحون يدوية ، وبذلك أستغني عن الارز وعن لحم الخنزير ، وان كان لابد لى من حلو مركز فقد دلتني الخبرة أني أستطيع أن أصنع عسلا أسود طيبا من القرع أو من البنجر • وما على الا أن أحصل على بضع اسفندانات للحصول عليه بسهولة ويسر • وبينا هذه لاتزال نامية أستطيع استعمال بدائل عدة منها غير التي ذكرت ، وذلك « لأنا » كما يغني الاجداد :

« نستطيع أن نصنع شرابا نحلي به شفاهنا
من القرع والاصطفلين وشظايا شجر الجور »(١)

وأخيرا ، من حيث الملح ـ وهو أبسط ماعند البدال ـ فان الحصول عليه قد يكون فرصة طيبة لزيارة شاطىء البحر أو ـ اذا ما استطعت أن أستغني عنه بتاتا ـ فاني ربما اضطر الى القليل من شرب الماء • ولم يصل الى علمي أن الهنود كانوا يجشمون أنفسهم مؤنة الحصول عليه •

بهذا استطعت أن أتحاشى كل تجارة وكل مقايضة من حيث طعامي • واذ قد صار عندي بيت معد جاهز فلم يبق على الا أن أحصل على الكساء والوقود • فالبنطلون الذي على

(١) هذه الأبيات من اغنية امريكية قديمة نظمها احد المهاجرين الاول الى القارة الجديدة . ويقال انها اقدم اغنية امريكية عرفت . و « الاصطفلين » نبات تؤكل جذوره كالجزر واللفت .

الآن سبق أن نسج فى بيت فلاح ، فشكرا لله أن لا يزال فى الانسان هذا القدر من الفضيلة ، لانى أعتقد أن الانحطاط من الفلاح الى الصانع انحطاط كبير ملحوظ ، كانحطاط الانسان الى فلاح . وليس يخفى أن الوقود فى البــلاد الجديدة ، عائق معطل . أما من حيث المسكن ، فاذ لم يعد مسموحا لى أن أضع يدى على أرض ما ، فقد اشتريت فدانا بالثمن الذى بيعت به الارض التى زرعتها ، أى أنى اشتريته بثمانية دولارات وثمانية سنتات . ومهما يكن الامر فانى أعد نفسى قد أعليت من قيمة الارض ، ورفعت من شأنها باحتلالى اياها وبالعمل فيها .

وثم طائفــة من غير المــؤمنين ، كانوا يسألوننى فى بعض الاحيان أسئلة من نوع هذا الســؤال : هل كان فى استطاعتى العيش على الطعام النبــاتى وحده ؟ وكى أتجه الى أصل المسألة مباشرة ــ فالاصل هو الايمان ــ اعتدت الاجابة عن مثل هذه الاسئلة حتى صرت أستطيع أن أعيش على المسامير ، فان كانوا لا يستطيعون أن يتعلموا ذلك فلن يستطيعوا فهم الكثير مما سأقول وانى ليسعدنى أن أسمــع عن تجارب أخرى تجرى فى هذا الميدان ، مثل تلك التجربة التى قام بها أحد الشبان ، فعاش أسبوعين على أكل الاذرة النيئة الصلبة وهى فى كيزانها من غير أن يستعمل فى طحنها سوى أسنانه نفسها . هذا وقد جربت قبيــلة السنــاجيب ذلك ونجحت فيه . والجنس البشرى يعنى بهــذه التجارب ويهتم بها وبأمثالهــا ، وان كان ثمة بعض نساء عجائز قد فزعن منها ، وما ذلك الا لأنهن يعجزن عن القيام بها ، أو لأنهن يملكن الثلث فى الطاحون .

أما أثاث منزلى فقد صنعت بعضه بيدى ، ولم يكلفنى الباقى منه شيئا لم أقدم عنه حسابا هنا . ويتكون هذا الاثاث من سرير وخــوان ومكتب وثلاثة كراسى ومرآة قطــــرها ثلاث بوصات ، وملقط ، وأثافى ومقلاة ، وغلاية وكوز وطشت للغسيل ، وجرة للزيت وأخرى للعسل الاسود ، ومصباح مصقول بالطريقة اليابانية . هذا ، ولا يوجد أحد بلغ به الفقر ألا يجد أمامه سوى يقطينة واحدة يجلس عليها ، فذلك دليل على عجزه وقلة حيلته . ففى عليات القرى كثير من تلك الكراسى التى أحبها وأفضلها ، ويستطيع من يشاء أن يحصل عليها . أثاث ! انى لاحمد الله على قدرتى على الجلوس والوقوف من غير حاجة ماسة الى أن يكون عندى مخزن للاثاث فأى انسان ــ ان لم يكن فيلسوفا ــ لا يخجل من أن يرى أثاث بيته محزوما فى عربة تسير به وسط المدينة ، معرضا للضوء وعيون الناس ؟ فياله من عرض مسكين لعدة صناديق فارغة ! ذلك كان أثاث « سبالدنج » . ولست أستطيع بعد فحص حالة هذا الحمل أن أقول ان كان يخص رجلا يقولون عنه انه غنى ، أو يخص آخر فقيرا ، فصاحبه يبدو معدما دائما . والحق،

كلما زاد ما عندك من أمثال هذه الاشياء ازددت فقرا على فقرك . فكل حمل يبدو كأنه يشمل محتويات اثنى عشر كوخا ، وان كان واحد منها فقيرا فذلك أفقر منها اثنتى عشرة مرة . لست أدرى لماذا ننتقل من بيت الى آخر الا اذا كان ذلك بقصد التخلص مما عندنا من أثاث وملابس قديمة وغيرها ؟ وأخيرا لننتقل من هذه الدنيا الى أخــرى مؤثثة أثاثا جديدا ، تاركين هذه لتحترق ؟ فكأن جميع هذه الحقائب والامتعة قد علقت بمنطقة رجل لا يستطيع أن يتحرك بها في الاراضى الوعرة من دون أن يجرها جرا ـ يجر أمتعته وحقائبه . لقد كان ثعلبا سعيد الحظ ذلك الذى خلف ذيله في الفخ . وأن الفــأر المسكى ليقرض رجله الثالثة كلها ليخلص نفسه ويحررها . فلا عجب أن يفقد الانسان مرونته . فكم من مرة يكــون فى « حرج » وهل لى ياسيدى أن أتجرأ وأسألك عما تقصــد بهذه العبارة « يكون فى حرج » ، فلو كنت ألمعيــا بعيد النظر لكنت كلما قابلت رجلا رأيت وراءه كل ما يملكه ، وكثيرا مما يدعى أنه لايملكه ، حتى أثاث مطبخه ، وجميع السفــاسف التى يحتفظ بها ، ولا تحدثه نفسه بأن يحرقها ، بل يبدو مربوطا بها ، ويسير الى الامام مايستطيع أن يسير . ففى رأيى أن الرجل الذى دخل من خوخة أو من مطرح صغير ولم تستطع العربة المحملة بأثاثه أن تتبعــه يكون فى « حرج » ، ولا يسعنى عندما أسمع أن رجلا أنيقا ، سليما ، مكتنــز الجسـم ، حرا فى ظاهر أمره ، وقد تمنطق وتهيأ ـ أسمعه يتحدث عما عنــده من « أثاث » من حيث أنه مؤمن عليه أو غير مؤمن ، ويقول : ولكن ماذا أصنع بأثاث منزلى ؟ ها قد وقعت فراشتى المرحة فى خيوط عنكبوت اذن؟ فحتى هؤلاء الذين يبدون مدة طويلة كأنهــم لايملــكون شيئا من الاثاث ، اذا ما استقصيت أمرهم بعناية أدق ، وجدت أن عندهم شيئا منه اختزنوه فى مزرعة شخص ما . وانى لاتمثل انجلترا الآن كأنهــا سيد عجوز يسافر ومعه مقدار عظيم من الحقائب ، سفاسف تكدست عنده من طول ادارته لشئون البيت ، ولم يكن لديه الشجاعة ليلقى بها فى النار ويحرقها : فهذه حقيبة كبيرة ، وتلك صغيرة وهذا صندوق من الورق المقوى ، وتلك حزمة كبيرة . فلنلق بالثــلاثة الاول على الاقل . فان كل انسان صحيح الجسم لينوء الآن بحمل فراشه والسير به ، وانى لانصح للــرجل المريض أن يدع فراشه ويجرى . وكلما قابلت واحــدا من المهــاجرين يحمل حزمة ينوء بها تحوى كل مايملكه ، وتبدو كأنها تورم ضخم نبت فى قفاه أشفقت عليــه ورثيت له ، لا لان هذا هو كل ما عنده ، ولــكن لان عنده كل هذه الاشياء ليحملهـــا . فلو كان على أن أحمل حقــائبى وأمتعتى كلها لعنيت كل العناية أن تكون خفيفة الحمل ، لا تضغط على أى جزء من أجـــزاء جسمى الحيوية ، ولكن قد يكون خيرا من ذلك وأحكم ألا يكون لك يد أبدا فى هذا الامر .

ولاذكر هنا عرضا أن الامر لم يكلفني شيئا من حيث الستائر ، فليس عنـــدي قوم فضوليون أخشى أن يطلوا على بيتي ، وأريدأن أمنعهم من ذلك،اللهمسوى الشمس والقمر . والحق أني أميل الى أنه من الخير أن يطلا على ،فلست أخشى أن يجعل القمر اللبن حامضا ، أو أن يفسد ما عندي مناللحم ، ولن تضر الشمسبأى أثاث في منزلى ولن تحيل لون سجادتى . واذا ما زادت الشمس واشتدت في صداقتها لى ، فاني أرى أنه من حسن الاقتصاد والتـدبير أن أنسحب وراء ستار زودتني به الطبيعة ذاتها ، بدلا من أن أضيف شيئا واحدا الى مفردات ادارة منزلى . فقـــد حدث أن أهدت الى سيدة ممسحة للاقدام ، ولم يكن في منزلى مكان ما أستطيع أن أستغنى عنه لأضعها فيه ، كما لم يكن عنـــدي أي وقت في المنزل أو خارجه مكان ما أستطيع أن أستغنى عنه لاضعها فيه ،كما لم يكن عندى أيوقت في المنزل أوخارجه لانفضهـــا وأهزها ولذلك رفضت قبول هذهالهدية وآثرت أن أظل أمسح أقدامى على المدر الذي أمام المنزل ، فمن حسن السيـــاسة أنأتجنب الشر من بدايته .

وبعد ذلك بزمن غير طويل حضرت مزادا أقيم لبيع أمتعة شماس ، لأن حياة هــــذا الرجل لم تكن عقيما غير منتجة .

« فالشر الذي يقترفه الناس يبقى بعدهم » (١)

وكما هي العادة في أمثال هذه المزادات ،كان جزء كبير من المعروضات سفاسف وتوافه تجمعت عند هذا الشماس منذ حياة والده ،وكان بينهـا دودة شريطية مجففة . فبعد أن ظلت هذه الاشياء نصف قرن في عليته ، وفيثقوب أخرى مليئة بالتراب فانها لم تحرق بعد، فبدلا من احراقهـــا ، أو تطهيرها باعدامها ،أقاموا لها مزادا وعملوا على زيادتها وتكاثرها . فتجمع الجيران متلهفين على رؤيتهـــا وعملواعلىنقلها فيحرص وعناية الىعلياتهم وجحورهم الكثيرة التراب ، لتبقى فيهـا الى أن تصفى تركاتهم وعندئذ تبدأ من جـديد . فعندما يموت الانسان يضرب التراب برجليه .

قد يكون ثم فائدة تعود علينا من اقتباسعادات بعض الامم المتوحشة فانهم يمارسون على الاقل ما هو في ظاهره أشبه شيء باطراح جلودهم عنهم كل سنة ، فلديهم الفكرة المقصودة عن هذا الموضوع ، سواء كان عندهم الحقيقة أملا . أفلا يكون من الخير أنتحتفل بعيد مثل عيد بواكير الفاكهة أو عيد الاعداد والتهيؤ ، هذاالذي وصفه لنا « برترام » على أنه عادة يزاولها الهنود الحمر من قبيلة الموكلاس ؟ قال « عندماتحتفل بلدة بعيد التهيـؤ هذا يجب أن يكونوا قد تزودوا أولا بملابس جديدة وأوان وحللجـــديدة وغيرها من أدوات البيت وأثاثه ، ثم

---

(١) من تمثيلية يوليوس قيصر لشكسبير

يجمعون كل ملابسهم القـــديمة وغيرها من الاشياء التـــافهة المحتقرة ، ويكنسون بيوتهم وينظفونها وينظفون ميادينهم العامة والبلدة كلها من كل ما تجمع فيها من أقذارهم وأوساخهم . ثم يضمون الى ذلك كل ما تبقى عندهم من الحبوب والأطعمة المختزنة ، ويجعلون من كل هذا كومة كبيرة يشعلون فيها النار لاحراقها . وبعد تناول دواء ، وصيام ثلاثة أيام ، يطفئون جميع النيران التي في البلدة ويمتنعون في صيامهم عن كل شيء يشبع شهوة ما من شهواتهم ويرضي أي هوى من أهوائهم ، ثم بعد أن يتم لهم ذلك كله يعلنون عفوا عاما في البلدة ويسمحون لجميع المجرمين المبعدين أن يعودوا اليها .

« وفي صباح اليوم الرابع يوقد القديس الاكبر نارا جديدة في الميدان العام ، بأن يحك قطعتين من الخشب بعضهما ببعض ، ومن هذه النار يتزود كل بيت من بيوت القــرية بقبس جديد نقي طاهر » .

ثم يقيمون وليمــة من الاذرة الجديدة والفواكه ويرقصون ويغنون ثلاثة أيام متوالية . ويستقبلون في الاربعة الايام التـالية الزائرين ويظلون يسمرون مع أصدقائهم من البـــلاد القريبة الذين سبق لهم أن تهيـــأوا وأعدوا أنفسهم بهذه الطريقة عينها .

وكذلك كان المكسيكيون يمارسون عملية تطهير شبيهة بهذه آخر كل اثنتين وخمســين سنة اعتقادا منهم بأن الوقت قد آن للدنيا أن تنتهي .

ويندر أن سمعت بقربان أصدق من هذا ، فالقربان بحسب تعريف القاموس لهذه الكلمة « علامة خارجية مرئية على فضل باطني روحي » . ولا يساورني أي شــك في أنهم كانوا في الاصل قد ألهموا مباشرة من قبل السماء أن يفعلوا ذلك ، ولو لم يكن لديهم أي وثيقــة انجيلية عن هذا الوحي .

. . .

ظللت أكثر من خمس سنوات أعيش هكذا من عمل يدي وحدهما ، فوجدت أني اذا عملت ستة أسابيع في العام استطعت أن أسدد جميع نفقات معيشتي ، وبذلك تصبح فصول الشتاء كلها وأغلب فصول الصيف حرة خالصة لي ، أقضيها في الدرس والبحث . ولقد جربت مرة أن أقوم بفتح مدرسة وكانت تجربة دقيقة كاملة فوجدت أن نفقاتي كانت تتناسب ، أو بالاحــرى لاتتنـــاسب ، مع دخلي لاني كنت مضطرا الى أن أهذب غيري وأدربه ، فضلا عن أن أفكر وأعتقد بحسب ذلك . وزيادة على هذا أضعت وقتي . ولمــــا كنت لا أعلم التلاميذ حبا لمـا فيه الخير لبني جنسي ، وانما كنت أدربس لهم رغبة في كسب رزقي فحسب كان عملي هذا فاشلا كل الفشـــل . وعندئذ جربت التجارة ، غير أني وجدت أنه لابد لي

من عشر سنين على الاقل لاحسنها وأنجح فيها،وعندئذ أكون قد أخذت طريقي الى الشيطان .
وكنت أخشى فعلا أن أصبح بعد ذلك الوقت مايسمـــونهم قائمين بأعمال ناجحة . وعندما كنت في المـاضي أبحث عما يمكنني عمله لكسب قوتي كانت بعض التجارب المحزنة التي نجمت عن نزولي على رغبات أصدقائي لاتزال حيـة في ذاكرتي ترهق تفكيري . وكثيرا ماخطر ببالي ـ وبجد ـ أن أجمع « التوت البري » . فهذا عمل لاشك أستطيع القيام به ، وما يدره على من ربح قليـــل يكفيني . لان أعظم مهارة لي أمتاز بها هي رضاي بالقليل ـ وفضلا عن ذلك فهذا عمل لايحتاج الا الى رأس صغير ، ولايمنعني عن متابعة ميولي المعتادة الا قليلا ، وهكذا فكرت هذا التفكير الاحمق . فبينا أصدقائي يتجهون الى العمل في التجارة أو الى الاشتغال بالمهن الحرة ، فكرت أنا في اختيار هذا العمل على أنه لايختلف كثيرا عن أعمالهـــم التي اختاروها . فجعلت أطوف بالتلال طيلة الصيف كله أجمع « التوت البري » الذي قد يصادفني في طريقي ، ثم أتصرف فيه في غير اكتراث أو حذر . وهكذا كنت أحافظ على قطعان أدميتوس* وكذلك خطر لي أن أجمع الاعشاب البرية ، أو أنقل النباتات الدائمة الخضرة الى القرويين الذين يودون أن يتذكروا الغابات ، بل وأنقلها كذلك الى المدينة أحمالا على عربات الدريس لو لا أني علمت منذ ذلك الوقت أن التجارة تلعن كل شيء تتناوله ، ولو كنت تتجر في رسالات من السماء ، فان لعنة التجارة كلها لاتفارق رجال الاعمال .

ولما كنت أفضل بعض الاشياء على بعض ، وأقدر حريتي حق قدرها بوجه خاص ، ولما كنت أستطيع كذلك أن أتحمل الكثير من المشقة والعنت ، وأنجح على الرغم من ذلك كله النجاح الباهر ـ لم أشأ وقتئذ أن أضيع وقتي في كسب ما أشتـري به بسطا نفيسة ، أو أي أثاث آخر قيم ، أو مأكولات شهيـة ، أو بيتا من الطراز الاغريقي أو القوطي . فان كان ثمة ناس لا يجدون ما يعوقهم عن سعيهم للحصول على مثل هذه الاشياء ، وكانوا يعرفون كيف يستخدمونها اذا ما حصلوا عليها ـ فاني تارك لهم أمر مثل هذا السعي . فبعض الناس مجدون مجتهدون ، ويبدون أنهم يحبون العمل لذاته ، أو لانه يبعدهم عن شيء قد يكون شرا منه . فالى أولئك ، لاشيء عندي الآن أقوله ، فالذين لايعرفون ماذا يصنعـون بوقت فراغ أكثر من الذي يستمتعون به الآن ، أنصح لهم أن يضاعفوا ما يبذلونه من جهد ، وأن يظلوا يشتغـــلون حتى يدفعوا ما عليهم من نفقات ، ويحصلوا على « مخالصة » بذلك . وان سألتني عن نفسي فقد وجدت أن شغل العامل مياومة أكثر الأشغال كلها استقلالا ، اذ أن شغله هذا لايقتضي منه أكثر من ثلاثين يوما في السنة حتى يستطيع أن يعـول نفسه . ذلك الى أن شغله اليومي ينتهي بغروب الشمس ، ثم يصبح حرا في أن يفرغ نفسه لمواصلة الامور التي يميل

اليها ويفضلها على غيرها ، مستقلا عن شغله •أما مخدومه الذى يضارب الشهر بعد الشهر فلا يجد فترة راحة من أول السنة حتى آخرها•

وقصارى القــول أن الايمان والخبرة كليهما أقنعانى بأن قيام المرء باعالة نفسه بنفسه فى هذه الدنيا ليس بالامر الشاق ، بل ان فيه لتسلية له ومتعة • ذلك ان كنا نعيش فى بساطة وبحكمة • فأشغال الذين يعيشون عيشة بسيطةمازالت تسلية الشعوب المتــكلفة البعيدة عن الطبيعـــة • فليس من الضرورى أن يكسب الانسان رزقه بعرق جبينه ، اللهم الا اذا كان يعرق بسهولة أكثر مما أعرق •

قال لى شاب ممن أعرف ، ورث بضعة أفدنة ، أنه خطر له مرة أن يعيش بالطريقة التى أعيش بها ، اذا ما توافرت له الوسائل المالية اللازمة • على أنى لاأرضى لأحد أن يتبع طريقتى فى عيشى بأى حال من الاحوال • فقبل أن يحذقها حذقاكافيا أكون أنا قد وجدت طريقة أخرى غيرها أتبعها ، ذلك الى أنى أود أن يكون فى هذه الدنيـــا أكبر عدد ممكن من الاشخاص الذين يختلفون بعضهم عن بعض ، وأتمنى أن يحرص كل منهم الحــرص كله على أن يجد طريقته هو الخــاصة به ويسير عليها ، لا على طريقة أبيه أو أمه أو جاره • فقد يبنى الشاب أو يزرع أو يعمل فى البحر فذلك له ، وكل ما فى الامر يجب ألا يعوقه عائق عن أن يفعل ما يقول أنه يجب عليه أن يفعله • فانا لسنـــاعاقلين حكماء الا بمجرد نقطة حسابية ، مثلما يضع البحار أو العبـــد الآبق النجم القطبى نصب عينيه • ففى ذلك ارشاد كاف لنا فى كل حياتنا • نعم انا قد لا نصل الى مرفئنا المنشود فى ظرف فترة نحسبها بالرياضة ، ولكننا نكون قد حافظنا على سلوك الطريق الصحيح •

لا شك أن ما يصدق فى هذه الحـالة على واحد يصدق أكثر من ذلـــك على ألف من الحالات • فنسبيا ليس البيت الكبير بأكثـر تكاليف من البيت الصغير ، لان سقفا واحدا يغطيه كله ، وان كيلارا واحـــدا يكون أسفله كله ، وكذلك يفصل جدار واحد عدة شقق منه • على أنى ، من جهتى ، أفضل البيت المنعزل المستقل ،فانه ، زيادة على ذلك أرخص عادة أن تبنيه كله بنفسك من أن تقنع آخر بفوائد الجـدارالمشترك ، وبعد أن تفعل ذلك يجب أن يكون الحاجز المشترك هذا رقيقا حتى يكون رخيصاقليل التكاليف • وقد يكون جارك المشترك معك هذا جار سوء لايحفظ جانبه من الجدار فى حالةجيدة • والتعاون الوحيد الذى يمكن أن يكون بينكمـــا هو تعـــاون جزئى وسطحى الى مدى بعيد ، وهذا القليل من التعاون الصحيح الموجود بينكما ، أشبه ما يكون بأنه ليس موجودا ، فهواتساق فى الاصوات غير مسموع عند الناس • فان كان عند رجل ايمان فانه سيتعاون معك بمثل ايمانك فى أى مكان ، اما ان كان لا ايمان

له فانه سيظل يعيش كما يعيش سائر الناس فيالعالم مهما كانت الجماعة التى ينتمى اليها • فان نتعاون بأسمى معانى الكلمة أو بأدناها معناه أننكسب رزقنا معا • وقد سمعت حديثا اقتراحا عن شابين اتفقا على أن يطوفا معا حول العالم ،وكان أحدهما مفلسا لانقود معه ، يكسب رزقه من عمل يده وهو فى طريقه بأية وسيلة كانتفيعمل فى السفينة ، أو خلف المحراث مثلا ، على حين كان الآخر يحمل فى جيبه خطاباعتماد • وكان من السهل على أى أمرىء أن يدرك أن هدين الرجلين لايمكن أن يترافقاطويلا ، كما لايمكن أن يتعاونا ، ذلك لان أحدهما لايعمل مطلقا • فلا شك أنهما سيفترقانعند أول أزمة تحدث بينهما • وقبل كل شيء ، كما أشرت من قبلضمنا ، أن الرجل الذىيسافروحده يستطيع أن يبدأ سفره اليوم ، على حين من يسافر صحبة آخر ، عليه أن ينتظر حتى يتهيأهذا الآخر ويستعد • وقد يمضى وقت طويل قبل أن يبدآ الرحلة •

فعـــل الخيـــر

سمعت بعض الناس من أهل بلدى يقولون أن هذا كله اثرة ، ودليل على حب الذات . وانى أقر بأنى لم أتجه الا قليلا جدا حتى الآن نحو المشروعات الخيرية . نعم قمت ببعض التضحيـــات فى سبيـــل أداء الواجب ، بل ضحيت بهذه اللذة نفسها كذلك مع ماضحيت به من غيرها . فمن الناس من استعملوا كل ماعندهم من فن وحيل ليقنعونى بضرورة أن آخذ على عاتقى القيام بالانفاق على أسرة فقـيرة من أسر البلدة . فان لم يكن لدى شىء آخر أعمله ـ والشيطان يجد للكسالى دائما عملا يعملونه ـ يصح لى أن أجرب القيام بعمل من هذا النوع أتسلى به . ومع ذلك فعندما فكرت فى أن أمتع نفسى بمثل هذا العمـــل وأقرض الله قرضا حسنا بأن أعول بعض الفقراء ، وأكفل لهـم الراحة على وجه من الوجوه بالشـكل الذى أعول به نفسى ، تجرأت على القبول ـ ولكن الفقراء جميعا ، ومن غير استثنـــاء ، وفى غير تردد ، فضلوا أن يظـلوا على فقرهم . فبينماكان أهل بلدتى ، من رجال ونساء ، يتجهون بطرق عدة الى مافيه خير بنى جنسهم ، أرجوأن يعفى واحد منهم ، على الاقل ، من ذلك كى يتجه اتجاهات أخرى وان كانت أقل رحمة وانسانية . فيجب أن يكون للمرء عبقـــرية خاصة لفعل الخير وللصـــدقة ، كما يجب أن تكون له عبقرية خاصة لعمل أى شىء آخر . أما من حيث فعل الخير فهـــو وظيفة من الوظائف التى تفهق الآن بالموظفين ، ومع ذلك فقد جربته فى عدل ونزاهة . ومهما بدا الامر غريبا فلست أخفى أنى قـــد اقتنعت بأنه لا يوافق مزاجى . وربما كان الواجب على أن أستمسك بمهنتى الخاصة ، ولا أهجرها وأتركها قصـدا وعن عمد ، كى أفعل الخير الذى تتطلبه منى الجماعة وأنقذ العالم من الفناء . وفى اعتقادى أن استمساكا مثل هذا ، ولكنه أعظم منه جدا، ويحدث فى ناحية أخرى ، هو كل ما يحفظ العالم ويصونه الآن . ولكنى مع ذلك لن أحول بين أى انسان وعبقريته وميله الخاص . وأقول لمن يقوم بهذا العمل الذى أعتذر أنا عن القيام به ـ بكل قلبه وروحه وحياته ـ أقول له ثابر على ما أنت فيه ، حتى ولو سماه جميع الناس شرا ، اذ يحتمل كل الاحتمال أن يسموه بهذا الاسم .

انه لبعيد كل البعد أن يخطر ببالى أن حالتى هذه حالة خاصة ، ولا شك فى أن الكثيرين

من قرائي سيدفعون بمثـل هذه الحجة ـ انيعندما أعمل شيئـا ما لا أراعى ضرورة أن يقول جيراني أنه عمل صالح ـ ولست أترددفي القول بأني رجل صالح كل الصلاح لان يستخدمني أي مخدوم يشاء ، ولكن على مخدومي هذا أن يبحث عن ذلك العملالذي يريد أن يستخدمني فيه ، وأن يعرفه هو ، اذ يجب أنيكون الخير الذي أفعله ـ وأقصد الخير بمعنى هذه الكلمة المألوف ـ بعيدا عن طريقيالرئيسي الذي أسلكه ، كما يجب في الغالب الاغلب أن يكون أمرا غير مقصود . وقد يقولي الناس ابدأ من حيث أنت ، وكما أنت من دون أن تجعل جل همك أن تصبح ذا قيمةأعظم مما أنت عليه ، وامض الى فعل الخير تحدوك شفقة ورحمة فكرت فيهما من قبل .فلو أتيح لى مرة أن أعظ الناس وأخطبهم في هذه الناحية لقلت لهم اعملوا على أن تكونواصالحين ، كأن الشمس ستقف وتتعطل بعد أن تكون قد أفاضت البهجة والرواء على القمر أوعلى نجم من القـدر السادس ، وتمضى مثل « روبين جودفلو » فتطل في نافذة كل كوخ ،تستثير المجانين ، وتفسد اللحم ، وتسدل ستور الظلام ، بدلا من أن تظل تزيد في حرارتهاالطيبة ، وفي كرمها وبرها حتى تبلغ درجة من التـألق والتوهج لا يستطيع معها انسـانأن يحدق ببصره فيها مباشرة ، على حين تدور في فلكها حول العالم تصنعالخير له ، أوبالاحرى ، كما تقول فلسفة صحيحة ، تظل الارض تدور حول الشمس تستفيد من خيرها .

لما أراد « فيتون* » أن يبرهن على ميلاده السماوى بما يفعله من خير ويسديه للناس من كرم ، ركب مرة عربة الشمس وجرى بها فلم يلبث أن حاد عن السكة المطـروقة الى غيرها وأحرق عدة صفوف من المنازل القائمةفي الشوارع المنخفضة التي في السـماء ، وأشاط سطح الارض ، وجفف كل عين فيهامن عيون الماء ، وأحدث الصـحراء الكبرى القاحلة ، ثم ظل سادرا يخبط في طريقه حتىهب (يوبيتر*) وقذفه بصـاعقة ألقت به الى الارض فنزل يهوى اليها على أم رأسه صريعا ،ووقفت الشمس عن الضياء سنة كاملة حزنا عليه وحدادا .

لا توجد رائحة أسوأ من تلك التي تفوحمن عمل صالح أفسده الاذى ، فهو نتن صادر عن جيفة انسانية ، فلو اني علمت علم اليقينأن رجلا سيحضر الى بيتي قاصدا أن يصنع خيرا لى ، لفررت منه بحياتي فراري من تلك الريحالجافة التي تهب علىالصحارى الافريقية وتعرف بالسموم ، والتي تملأ الانف والاذن والعين بالغبار حتى يختنق الانسان ، وذلك خشية أن يصيبني شيء من ذلك الخـير الذي يصنعه ،وخشية أن تختلط بعض سمومه بدمي . لا ! اني فيهذه الحالة أفضل أنأعاني الشر بالطريقةالطبيعية . فليس الرجل صالحا في نظرى لانه

سيطعمني ان كنت جائعـــا ، أو يدفئني اذاما قرصني البرد ، أو ينتشلني من وهدة كدت أرتطم فيها • اني لاستطيع أن أجد كلبا من تلك الكلاب النيوفنلندية يمكنه أن يفعل مثل ذلك • فليس فعل الخير محبتك بني جنسك بأوسع المعاني ، فقد كان « هوارد*» لا شك رجلا شفيقا كريما جديرا بكل تقدير في ذاته ، وقد نال جزاءه الذي يجب له ، ولكن ـ نسبيا ـ قل لي ما فائدتنا من مائة هوارد ان كان حبهم لفعل الخير لا يساعدنا ونحن في أحسن حالة لنا ، وحيث نحن أجدر ما نكون بالعون والمساعدة ؟ اني لم أسمع قط باجتماع خيري واحد اقترح فيه أحد بكل اخلاص أن يعمل الخير معي أو مع أمثالي •

لقـــد خيب الهنـــود الحمر آمال بعض اليسوعيين وهم يحرقون على آلة التعـــذيب ، بأن ألهموا أولئك اليسوعيين الذين يتولون تعذيبهم طرقا جديدة من طرق التنكيل والتعذيب • ولما كان الهنود أسمى من أي ألم جسماني يعانونه ، فقد يحدث أحيانا أن يكونوا كذلك أسمى من أي عزاء يواسيهم به هؤلاء المرسلون • فقانون عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به لم يكن ليقنع الاقناع الكافي أولئك الذين لا يحفلون من جهتهم كيف يعاملهم النـــاس الذين يحبـــون أعداءهم بطريقة جديدة خاصة ، وكادوا أن يغفروا لهم عن رضى واختيار كل ما فعلوه •

تأكد من أنك لا تقدم الى الفقراء سوى المعونة التي هم في أشد الحاجة اليها ، وان كان مثالك أنت هو الذي يذرهم متخلفين كل هذا التخلف الكبير • فان كنت تعطي نقودا فأنفق نفسك معها ، ولا تكتف بأن تتركها لهم • حقا أننا قد نقع في أخطاء عجيبة ، فكثيرا ما لا يكون الرجل الفقير بردان ، ولا جوعان بقدر مايكون قذرا ذا ملابس رثة ممزقة ، وفظا غليظا كل الفظاظة والغلظ • ان ذوقه الى حد ما ، وليس ما حل به من كوارث ومحن ، هو أصل علته • فان أنت أعطيته نقودا فقد يشتري بها المزيد من الخرق والملابس البالية • لقد اعتدت أن أشفق على العمال الايرلنديين الجفـــاة الذين يعملون في قطع الثلج من البركة وهم في ملابس بالية حقيرة ، على حين كنت أنا نفسي أرتجف في ملابسي ، وهي خير من ملابسهم ، وأقرب منها الى الزي « والموضة » ، حتى حدث ذات يوم قارس البرد أن زلق أحدهم في المـــاء ، وجاء الى بيتي ليستدفيء ، فرأيته يخلع ثلاثة بنطلونات وزوجين من الجوارب قبل أن يصل الى جلده ، وان كانت كلها خلقة مهلهلة وبالغة القـــذارة • ولا شك أن في قدرته أن يرفض الكساء الذي قدمته اليه ، فلديه من المـــلابس الداخلية الشيء الكثير • ولكن هذا الغطس في المـــاء هو الشيء الذي كان يعـــوزه حقا • ثم أخذت أشفق على نفسي وأرثي لحالي ، ورأيت أنها لصدقة أفضل وأثمر أن أهب نفسي قميصا من « الفانيلا » من أن أهب هذا الايرلندي محلا كاملا من محال بيع الملابس الرخيصة • وثم آلاف من الناس يوجهون ضرباتهم الى فروع

الشر ، على حين لايوجد واحـــد يضرب فيأصوله • وقد يكون الذي يمنح المحتاجين أكبر مقدار من وقته وماله عاملا هو نفسه بقدوته ،وطريقة معيشته ، على ايجاد هذا الشقاء الذي يحاول أن يخففه عبثـا وبغير طائل • انه تاجرالعبيد التقي الذي يخصص ربحه من كل عاشر عبد يبيعـــه لشراء راحة يوم من أيام الآحادللباقين من عبيده • هذا ومن الناس من يبدون شفقتهم على الفقراء بأن يستخدموهم عندهم فيمطابخهم • أفلا يكون أكرم لهـم وأشفق لو أنهم استخدموا أنفسهم فيهـا ؟ انكم تفخرون بأنكم تنفقون عشردخلكم على الصدقات ، فربما كان خيرا لكم وأولى أن تنفقوا كذلك عليهـــاتسعة الاعشار الباقية ، وتريحوا أنفسكم منها كلهـا • وعندئذ لا يسترجع المجتمع أكثر منعشر الممتلكات • فهل هذا يا ترى نتيجة كرم ممن وجدت فى حيازته ، أم هو نتيجة اهمالالقائمين على العدالة ؟ •

يكاد فعل الخير يكون الفضيلة الوحيـــدة التى يقدرها بنو الانسان حق قدرها ، بل هم يبالغون فى تقديرها ويسرفون فيه اسرافا كبيرا ، وما بالغ فيه سوى أثرتنا فى الواقع • حدث فى كنكورد أن رجلا فقيرا ، قوى الجســم امتدح أمامى رجلا من أهل بلدته لانه كان ، على حد قوله ، شفيقا على فقراء المدينـة ، برابهم • وليس من شك فى أنه لم يقصد بالفقراء الا نفسه • فالناس يقدرون الكرماء من أعمـام البشر وعماته أكثر مما يقدرون آباءه وأمهاته الروحيين • وسمعت مرة قسيسا موقرا ، عـلىعلم وذكاء ، يحاضر الناس عن بلاد الانجليز • فبعد أن ذكر الكثيرين من رجالاتها العظماء فى شتى ميادين العلم والادب والسياسة من أمثـال شكسبير وبيكون وكرومويل وملتن ونيوتن وغيرهم ، تحدث عن أبطال المسيحيين فرفعهم ، كما تقتضيه وظيفته،الى مرتبة أسمى منمراتبسائر العظماء ، بل وصفهم بأنهم أعظم العظماء • وهؤلاء هم : بن *، وهوارد*، والسيدة فراى* • ولابد أن كلا منا يشعر بما فى هذا منكذب وهراء ، فلم يكن الاخيرون بأفضــــل رجالاتانجلترا ، ولا خيرة نسائها ، ولعلهم لم يكونوا سوى خير المصلحين فيها من رجال ونساء •

انى لا أود أن أنقص شيئا من الثنـاء الواجب لفعل الخير ، وانما أطلب انصاف كل أولئك الذين كانت حياتهم وأعمالهم نعمة وبركة عـلىبنى الانسان • ولست أرفع أساسا من قيمـــة استقامة الرجل وحبه الخير ، فما هو الا جذعهوأوراقه ، ان جاز هذا التعبير • ألا ترى تلك النباتات التى تتخذ من أوراقها التى ذبلت بعـداخضرار عشبا تنقعه ، وشايا للمريض ، لاتفيد الا فائدة يسيرة ، ولا يكاد يستخدمها غير الدجالين من الناس ؟ أما ما أطلبه أنا فهو زهـــــرة الانسان وثمرته ، وأن ينتقل لى شيء من نفحات أريجه ، وأن يغشى حديثنــــا شيء من كمـال نضجه • فينبغى ألا تكون طيبة الانسان وخيريتهعملا ناقصا زائلا غير دائم ، بل يجب أن تكون

فيضا عنه موصولا غير مقطوع ، لا يكلفه شيئا ،ولا يكون هو شاعرا به ، ولا متقطنا اليه . تلك هي الصدقة ، وذلك هو الاحسان الذى يستر كثرة من الخطايا [1] . وكثيرا ما يسرف فاعل الخير في احاطة بني الانسان بجو من ذكريات آلامه ويسمى ذلك عطفا ومشاركة وجدانية . انا يجب أن ننفث في الناس شجاعتنا لا يأسنا ،وصحتنا وراحتنا لا مرضنا ، فلنحرص على ألا ينتشر هذا المرض بالعدوى . فمن أي السهول الجنوبية تأتى أصوات الانين والنواح ؟ وفى أى العروض يسكن ذلك الوثنى الذى يجب علينا أن نرسل اليه النور ؟ ومن هو ذلك الرجل الوحشى المسرف فى كل شىء ، الذى يجب علينا أن نسعى لاستنقاذه وهديه ؟ أن كان ثمة انسان يتألم من شىء حتى أصبح لا يستطيع أن يؤدى وظائفه . ان كان يشكو حتى من وجع فى أمعائه ــ وتلك هي مركز العطف والمشاركة الوجدانية ــ فانه سيأخذ عندئذ فى أن يصلح العالم . ولما كان هو نفسه عالما مصغرا فانه سيكتشف ، وانه لاستكشاف حق ، انه هو الرجل الذى يستطيع أن يقوم بذلك ــ يستكشف أن العالم انما كان يأكل تفاحا أخضر فجا . والحق أن الكرة الارضية تكون فى نظره تفاحة ضخمة ، وفى ذلك خطر جسيم مريع لو أن أطفال بنى الانسان قضموها قبل أن تنضج . وسرعان ما يتجه حبه المفرط لفعل الخير الى الاسكيمو والبتاجونيين، ويشمل القرى الهندية والصينية التى تفهق بالسكان . وعلى هذا فان بضع سنين من النشاط فى فعل الخير كانت القوى تستخدمه فى أثنائها لتحقيق أغراضها ، هى لا شك تشفى نفسه مما يعانيه من آلام عسر الهضم ، فتكسب الكرة الارضية شيئا من الاحمرار الخفيف يتجلى فى احدى وجنتيها أو فى الاثنتين معا كأنها أخذت تنضج ، وكأن الحياة أخذت تفقد خشونتها وجفوتها وتعود من جديد أعذب وأصح . ولم يحدث قط انى حلمت بشىء أفظع مما ارتكبته ولم أعرف رجلا أسوأ من نفسى .

لست أعتقد أن عطف الرجل المصلح على البائسين من بنى جنسه ، هو الذى يسبب له الحزن والاسى ، وانما الذى يحزنه هو ما يعانيه من آلامه وأوجاعه الخاصة به ، حتى ولو كان أقدس خلق الله . فليصلح هذا أولا ، وليقبل عليه الربيع ، وتشرف شمس الصباح على مخدعه فلسوف يهجرن عندئذ أصدقاءه الكرماء من غير أن يبدى لهم أى اعتذار . ان عذرى عن عدم المحاضرة ضد التبغ أنى لم أمضغه قط ، وذلك عقاب على ماضغى التبغ أن ينالوه ، ومع ذلك فثمة أشياء كثيرة مضغتها ،وفى استطاعتى أن أحاضر الناس عنها وعن أضرارها . فاذا ما حدث وتورطت يوما فى فعل من هذه الفعال الخيرية فلا تجعلن يدك اليسرى

---

(١) رسالة بطرس الاول ٨/٤ المحبة تستر كثرة من الخطايا .

تعرف ما فعلتـــه اليمنى لانه ليس جديرا بأن يعرف ، فأنقذ الغـــريق ثم اعقد رباط حذاءك واستأن وتمهل واسع وراء عمل حر تشغل به نفسك .

ان كل نبأ عن الصحة ، وعن النجاح أسمع به يفيدني مهما بدا لي آجلا بعيدا ، وكل مرض ، وكل اخفاق يسبب لي حزني واكتئابي انما يضرني ويؤذيني مهما يكن بي من عطف عليه ، ومهما يكن فيه من عطف علي . فان كنا صادقين حقا في رغبتنا في العمل على تجديد بني الانسان وتنشيطهم بوسـائل هندية شتى ، من نباتية ومغناطيسية أو طبيعية ، فلنبدأ بأنفسنا . ولنكن بسطاء وأصحاء سليمين مثل الطبيعة في بساطتها وسلامتها ، ولنطرد عنا تلك الهموم التي تخيم علينا ، ولندخل شيئا من الحياة في مسامنا . فلا تقنع بأن تكون مشرفا على الفقراء فحسب ، بل جاهد أن تكون فاضلا من فضلاء هذه الدنيا وأماجدها .

قرأت في «الكلستان»* ، أو حديقة الورد للشيخ سعدي* الشيرازي ، أن حكيما سئل مرة عن السبب في أن النـــاس لا يقولون عن شجرة من الأشجار الكثيرة المشهورة ، التي خلقهـــا الله سبحانه وتعالى ، سامقة ، وارفة الظلال ــ انهـــا آزاد أو حرة الا عن شجرة السرو التي لا تؤتي ثمرة ما . فقال : سر ذلك أن لكل شجرة ثمرتها الخاصة بها ، ولها موسم معين لاثمارها تظل طيلته ناضرة مزدهرة ، على حين تكون في غير هذا الموسم جافة متصوحة . وليست شجرة السرو معـرضة لاية حالة من هاتين الحالتين فهي مخضلة دائما . وطبيعـــة الآزديين ــ الاتقياء المستقلين ــ من هذه الطبيعة . فلا تعلقوا قلوبكم بكل ما هو فان زائل ، فسيظل نهر دجلة يجري عند بغداد بعد زوال الخلفاء . فان كانت يدك مليئـــة بالخيرات ، فكن كريما كالنخلة ، وان كانت يدك فارغة لا شيء لديك تعطيه ، فكن آزادا ، أي رجلا حرا ، شأنك في ذلك شأن شجرة السرو .

ابيات تكميلية

دعاوى الفقر

« انك لتدعى دعوى عريضة أكثر ممايبنغى لك أيها الصعلوك المسكين
فتطالب بمركز لك تتبوؤه تحت قبة هذه السماء
لأن كوخك الوضيع
يقيم ببعض الجذور والخضر فضيلة كسلى أو متفيهقة
فى ضوء الشمس الرخيص، أو عند عيون المـاء الظليلة ،
حيث يدك اليمنى ، وهى تنزع من العقل تلك الوجدانات الانسانية الرقيقة ،
التى تنمو على أروماتها فضائل زاهرة رائعة
فتحط بذلك من مقـام الطبيعة وتميت الحس ،
وتحيل النـاس النشيطين حجارة كما فعلت «جرجون*» من قبل
اليك عنا ! فلسنا بحاجة الى الاجتماع بك ذلك الاجتماع الخمل ،
ولا الى عفتك واعتدالك اللذين فرضتهما عليك حاجتك ،
ولا الى ذلك الغباء غير الطبيعى ،
الذى لا يستشعر فرحا أو حزنا . أنا فى غنى عن شجاعتك
الادبية السلبية المفروضة عليك فرضا ، والتى تشيد بها زورا وبهتانا ،
فترفعها على الشجاعة الايجابية . ان تلك الذرية الوضيعة المنحطة
التى تبوأ مقاعدها بين أوساط الناس العاديين
لتلائم عقلك الوضيع الذليل . أما نحـن فلا نقدم
الا تلك الفضائل الحافلة الفياضة ،
نقدم أعمالا من أعمال البطولة ، كريمة ، ذات أبهة خليقة بالملوك ،
وحزما بصيرا بكل شىء ، وسعة عقل
لا حد لها ولا آخر ـ نقدم تلك الفضيلة الجريئة

التى لم يخلف لنا الاقدمون لها اسما
وانما خلفوا نماذج لها فحسب من أمثال هرقليس*
وأخيل*وتسيوس*. فعد الى جحرك الكريه اقبع فيه
حتى اذا ما رأيت العالم الجديد المستنير
فادرس ، وتعلم ، لعلك تدرك ماكان عليه أولئك الاماجد . »

ت. كارو*

أين عشت، ومن أجل ماذا عشت

اعتدنا في فترة معينة من أعمارنا أن نعد كل بقعة من بقاع الارض مكانا صالحا لاقامة منزل فيه ، فدفعني هذا الى دراسة جميع الأراضي التي تقع على بعد اثني عشر ميلا من المكان الذي أقطنه ، فجعلت أتفحصها من كل ناحيةمن نواحيها . واشتريت – في الخيال – كل ما فيها من ضياع ، الواحدة تلو الاخرى ، فقدكانت كلها تشترى ، وكنت على علم بأثمانها ، ولذا جست خلال أرض كل مزارع ، وتذوقتما عنده من التفاح البرى ، وتحدثت اليه في شئون زراعته ، ثم اشتريت منه ضيعته بالسعرالذى عينه ، بل بأى سعر شاء ، ثم رهنتها عنده في ذهني ، بل قدرت لها ثمنا أزيد مما طلب ، وحصلت منه على كل شيء الا على حجة التمليك ، فقد اكتفيت منها بكلامه – وما أشد غرامي بالكلام ! ثم تعهدت الارض بالزراعة ، ولعلي تعهدت عقله بالثقافة أيضا ، ثم انسحبت منها آخر الامر بعد أن استمتعت بها ماشئت أن أستمتع ، وتركتها له يزرعها ، ويدبر شئونهابنفسه . فهذه الخبرة التى حصلت عليها ، خولت لاصدقائي أن يعدوني أشبه بسمسارللمزارع والضياع ، فأنا حيثما جلست استطعت أن أعيش ، وكانت المناظر الطبيعية تشع منيوتتفرع . وما عسى أن يكون البيت غير مقعد للجلوس ؟ ومن الخير أن يكون ذلك المقعد فيالريف . فكم من موضع استكشفت يصلح لاقامة بيت ، ولا يحتمل أن يكون بحاجة عاجلةالى الاستصلاح ، وكان الكثيرون من الناس يظنون أنه يبعد عن القرية بعدا كبيرا ، ولكنالقرية هي التى كانت بعيدة عنه البعد الشاسع . ثم قلت في نفسي : حسنا ، فهنا ينبغي لى أن أعيش ، وهنا عشت فعلا ساعة من الزمان ، كانت صيف حياة وشتاءها ، ورأيت كيف استطعت أن أجعل السنين تمضى ، وأقاوم الشتاء حتى آخره ، وأستقبل الربيع حين يحل .وليكن الذين سيقطنون هذا الاقليم في المستقبل – أنى أقاموا منازلهم – على ثقة من أنهم قد سبقوا الى ما اختاروه من مواضع . وحسبنا مساء يوم واحد لتخطيط جزء من الارض الىبستان ، ولتخصيص جزء منها للاخشاب ، وآخر للمرعى ، ولتقرير أى أنواع أشجارالبلوط السليمة ، أو أشجار الصنوبر الرائعة ، يجب أن تترك قائمه أمام مدخل الدار حتىنستطيع أن نرى منه كل شجرة ذابلة متصوحة

علىخير مايمكن أنترى • وربما تركت الأرضبعد ذلك كله هملا غير مزروعة • فالرجل منا لا يعد غنيا الا بنسبة عدد الاشياء التى يستطيعأن يدعها وشأنها •

هذا ، وقد جرى بى الخيال شوطا بعيدا ،فتخيلت أن عددا من المزارعين أبوا أن يبيعونى ضياعهم ـ وكان هذا الرفض كل ما أبغيه منهم ـ غير أنى لم أدع أصابعى تحترق بأن أتملك بعض المزارع فعلا • وكان أقرب ما وصلتاليه من قبيل الملك الحقيقى ، عندما اشتريت ضيعة «هلول» وشرعت أفرز بذورى ، وأجمعالمواد اللازمة لصنع عربة يد لاحملها عليها الى الضيعة أو منها • ولكن قبل أن يكتب لىالبائع حجة التمليك كانت زوجه قدغيرترأيها ،



ولكل امرىء زوجة من هذا الطراز ـ فقد رأت أن تحتفظ بالمزرعة ، وعندئذ قدم لى الرجل عشرة دولارات لقاء اعفائى اياه منالاتفاق الذى أبرمناه • وفى الحق ، كان جميع ما أملكه لايزيد على عشرة سنتات ، وكان أرقىما أعرفه من علم الحساب أنى كنت الرجل الذى يملك عشرة سنتات ، أو ذلك الذى يملك ضيعةأو عشرة دولارات ، أو يملك هذه الاشياء كلها معا • ومهما يكن من أمر ، فقد تركت لهالدولارات العشرة ، والضيعة كذلك • فقد سرت فى الامر الى مدى بعيد ، أو بالاحرى ،أنى ، كى أكون كريما معه ، بعته الضيعة بالثمن الذى اشتراها بههو نفسه ، واذ لميكن بالرجلالغنى فقدأهديت له عشرة دولارات ، واحتفظت بالعشرة سنتات التى لى ، وبالبذور ، والمواداللازمة لصنععربة اليد ، وبذلك وجدتنى رجلا غنيا من دون أن يصاب فقرى بأذى ما • علىأنى احتفظت مع هذا كله بالمنظر الطبيعى ،

وجعلت ، منذ ذلك الوقت ، أنقل ما يغله لى من دون حاجة الى عربة يد • فمن حيث المنظر الطبيعى

« أنا ملك على كل ما أشاهده حولى ،
وليس ثمة من ينازعنى حقى فى ذلك » [1]

فكم من شاعر رأيته ينسحب من شراء ضيعة بعد أن يكون قد استمتع بأجل ما فيها قيمة ، على حين كان المزارع الجافى يتوهم أنه لم يحصل منها الا على بضع تفاحات برية ليس غير ، ولم يدر مالك الضيعة ، الا بعد مضى عدة سنين ، أن الشاعر قد وضع ضيعته فى قصيدة مقفاة ، وذلك أروع نوع من أنواع الاسيجة غير المرئية ، وانه قد احتجزها واحتلها ، وانتزع قشدتها ، فحصل بذلك على كل ما فيها من خير ، ولم يدع له منها غير اللبن منزوعا قشدته •

ان ما استرعى اهتمامى بمزرعة هلول هذه ، هو انعزالها الكامل • فهى تقع على بعد ميلين من القرية ، وعلى مسافة نصف ميل من أقرب جار لى • وكان يفصلها عن الطريق العام حقل واسع ، ويحدها النهر الذى قال عنه المالك أنه يقيها بضبابه من الصقيع فى فصل الربيع ، وان كان هذا فى ذاته لا يهمنى البتة ، أما الذى يعنينى فلونها الادكن ، وحالة المنزل والحظيرة الخربة ، والأسيجة المشعثة التى تفصل بينى وبين آخر ساكن بفترة طويلة ، وأشجار التفاح المجوفة المغطاة بالحزاز والطحلب ، والتى قرضت الأرانب الكثير من أجزائها ، مما ينبئنى عن نوع الجار الذى سيكون لى • ولكن قبل كل شىء استرعتنى الذكريات التى كنت حملتها معى عنها منذ رحلاتى الأولى التى كنت أقوم بها فى النهر صعدا ، عندما كان البيت محجوبا وراء أجنة كثيفة من أشجار الاسفندان الاحمر كنت أسمع عواء الكلاب من خلالها • فلا غرو اذن أن تلهفت على شرائها قبل آن يفرغ مالكها من نزع ما فيها من صخور ، وقبل آن يعمد الى قطع اشجار التفاح الجوفاء ، أو يجتث بعضا من أشجار البتولا الصغار التى نبتت فى المرعى • وقصارى القول كنت أود شراءها قبل آن يدخل عليها صاحبها مزيدا من اصلاحاته وتحسيناته • فحبا فى الاستمتاع بهذه الميزات كنت مستعدا أن أحملها ، بل كنت مستعدا مثل أطلس* أن أحمل العالم كله على كتفى ــ وان كنت لم أسمع قط عن أى تعويض ناله عن هذا العناء ــ وأن أقوم بعمل جميع تلك الاشياء التى لا داعى لها ولا حافز سوى أن أدفع ثمنها وأترك حرا فى تملكى اياها ، لا يضايقنى فيها أحد • فقد كنت أعلم طيلة الوقت كله أنها ستثمر لى أكبر غائلة

---

(١) مطلع قصيدة مشهورة فى الأدب الانجليزى للشاعر وليم كوبر (١٧٣١ ــ ١٨٠٠) عنوانها « وحدة ألكسندر سلكرك » •

من النوع الذى أنشده ، لو أنى استطعت أنأدعها وشأنها • ولكن العاقبة كانت كما ذكرت من قبل •

وكل ما أستطيع أن أقوله اذن بشـأن الزراعة الواسعـة النطاق وقد كان لى دائما حديقة خاصة أتعهدها بنفسى ، هو أني حصلت علىالبذور اللازمة لى • هذا ، ويرى كثيرون من الناس أن البذور تتحسن كلما قدم عليها العهدوطال ؟ وليس من شك فى أن الزمن سيفرق بين الصـالح والطالح • وأخيرا ، فانى عندماأزرع ، لايحتمل أن أصاب بالفشل وخيبـة الآمال ، ولكنى سأقول لاخوانى مرة واحدةفحسب ، أن عيشـوا أحرارا ما استطعتم غير مرتبطين بشىء ، فليس ثمة غير فرق ضئيـلبين أن تكونوا مرتبطين بمـزرعة أو مقيدين بالاغلال فى سجن من السجون •

قال « كاتو* » الشيخ فى كتابه عن شئون الزراعة وهو مرجعى[1]فيها • هذا ، والترجمة الوحيدة التى رأيتها جعلت من القطعة المقتبسةهنا هراء فارغا قال : « عندما تفكر فى الحصول على ضيعة ، قلب الامر على وجوهه فى ذهنك ، فلا تشتر بلهفـة ، ولا تأل جهدا فى أن ترى الضيعة وتفحص عنها • ولا يخطرن ببالك أنتكتفى بالطواف حولهـا مرة واحدة ، فكلما أكثرت من التردد عليها ازددت بها سرورا انكانت مزرعة طيبة صالحة » • وغاية ظنى أنى لن أشترى بلهفة ، بل سأمضى اليها وأطوف بهاالمرة بعد المرة مادمت حيا ، وسأدقق فيها أولا حتى ازداد بها سرورا آخرا •

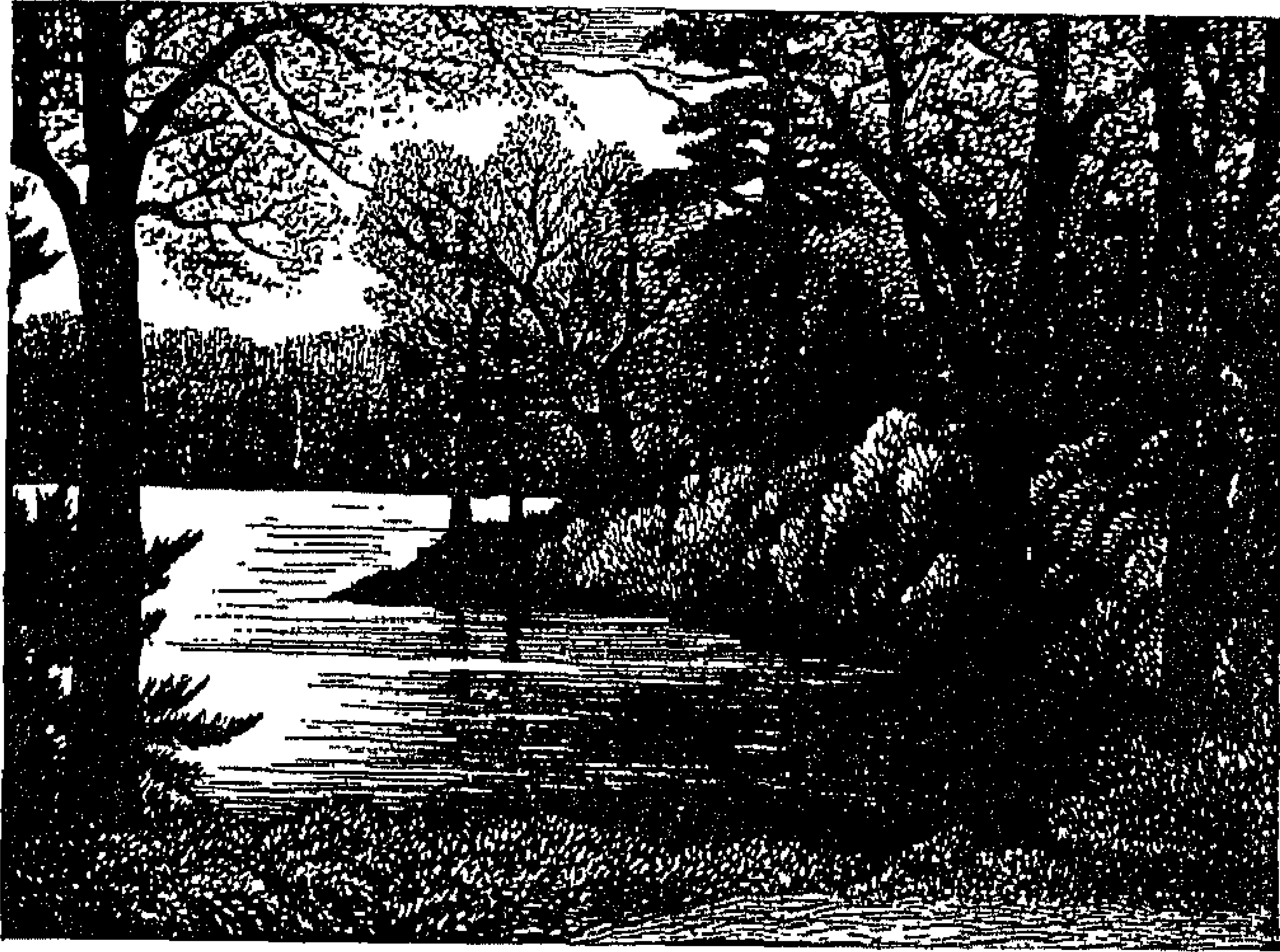
هذا وتجربتى الحالية هى ثانى تجربة لى من هذا القبيل ، وهى التى أنوى أن أصفها هنا بشىء من التفصيل • ومن الملائم أن أدمج خبرة السنين فىسنة واحدة ، فانى ، كما ذكرت من قبل ، لا أقصد أن أدبج قصيدة أشيد فيها بالاكتئاب وكسوف البال ، وانما أبغى أن أتحدث بقوة ، وأصيح كما يصيح الديك فى الصباح ، وهو واقف على مجثمه ، ان لم يكن ذلـك الا لاوقظ النائمين من جيرانى •

ولمـا اتخذت مسكنى فى الغابات لاول مرة ، أى لما شرعت أقضى ليالى ونهرى فيها ، كان ذلك مصادفة فى « يوم الاستقلال* » فىالرابع من شهر يوليه سنة ١٨٤٥ • ولم يكن بيتى قد تم بعد بشكل يتيسر لى السكنى فيه فى فصلالشتاء ، فهو لم يكن غير وقاية من المطر ، ولم يكن قد زود بعد بموقد ومدخنة ، ولم يتم طلاء جدرانه بالشيـد ، فقد كانت من خشب لم يصقل ، ارتسمت عليه آثار الجو،وكانت لاتزالبه شقوق كثيرة لطفت جوه فى الليل • وكانت قوائمه البيضاء ، وبابه ، وحلوق النوافذ الممسوحة حديثا بالفارة ، قد جعلت له منظرا أنيقا طلق

---

(١) الكتاب باللاتينية واسمه De Re Rultica

الهـواء ، ولا سيما فى الصبـــاح عندما تكون أخشابه قد تشبعت بالندى ، حتى كان يخيل الى أنه لا يحل الظهـــر حتى تكون قد أفرزت نوعا من الصمغ الحلو • وقد تصـــورت أنه سيحتفظ طيلة النهار ببعض صفات من صفات الفجر هذه ، قليلة كانت أو كثيرة ، ممـــا يذكرنى ببيت معين على جبل زرته فى العـام الماضى • فكان كوخا طلق الهـــواء غير مطلى بالشيد ، خليقا بأن يستضيف الاها سائحا ، أو يستقبل الآهة فتستطيع أن تجرر فيـــه أذيال ردائها • وكانت الرياح التى تتنـــاوح مسكنى من نوع الرياح التى تهب على سلاسل الجبال تحمل نغمات مقطعة من موســـــيقى أرضية ، أو أنها تحمل منها ما فيهــــا من



الاجـزاء الســـــماوية فحسب ؟ فكانت ريح الصباح تهب أبدا وباستمرار • فليس ثمة شيء يعوق شـــعر الخليقة ويعطله ، ولكن ما أقـل الآذان التى تصغى اليه ، فما جبل أولمبوس* الا غلاف الأرض البادى فى كل مكان •

والبيت الوحيد الذى ملكته من قبل — مع استثناء قارب صغير — كان خيمة استخدمتهـــا أحيانا فيما كنت أقوم به من رحلات فى الصيف ، ولا تزال مطوية قابعـــة فى علية بيتى • أما القارب ، فبعد أن ظل يتنقل من يد الى يد ، جرفه الزمان • ويخيل الى أنى بهذا البيت الكبير حولى قد تقدمت بعض التقـــدم فى ســـــبيل استقرارى فى هذا العالم • فهذا الهيكل المكسو كساء خفيفا كان أشبه بتبلور حدث حـولى ، وكان له رد فعل على من بناه ، ويلوح للرائى كأنه صورة لا تزال فى دور التخطيط • فلم أكن اذن بحاجة الى الخروج من البيت لاستنشاق الهواء • فقد ظل الجو داخله محتفظا بنضـارته لم يفقد منها شيئا ، ولذا لم يكن جلوسى داخل

البيت بأكثر من جلوسي وراء بابه حتى في أغزر الاوقات مطرا • جاء في الهاريفانسا « ان المسكن الذي لا أطيار تغرد فيه أشبه بلحم خال من التوابل » • على أن مسكني لم يكن من هذا النوع • فقد وجدت نفسي فجأة جارا للاطيار ، لا لأني حبست واحدا منها ، ولكني حبست نفسي في قفص على مقربة منها ، ولم أكن أقرب الى بعض الطيور التي تألف الحدائق والبساتين عادة ، بل الى تلك الطيور الغريدة البرية التي تسكن الغابات وتؤثر في النفوس ، والتي لا تغرد أبدا لساكن القرية ، أو هي لا تغرد له الا نادراً مثل سمنة الغاب وسمنة ولسن ، و « الطنجر » القرمزي ، وعصفور الحقل والسبد الامريكي [1] وغيرها •

وكان بيتي عند شاطىء بحيرة صغيرة تبعد قرابة ميل ونصف ميل عن قرية كنكورد ، وتقع أعلى منها بقليل ؟ وسط غابة مترامية الاطراف بين هذه البلدة وبين لينكولن ، وعلى بعد ميلين من ساحتنا الحربية الوحيدة المشهورة ـ ساحة قتال *كنكورد • وكنت في مكان منخفض من الغابة حتى أن الشاطىء المقابل لي كان أفقي البعيد ومرمى بصري ، وهو شاطىء مكسو بالغابات ، مثل غيره ويقع على بعد نصف ميل مني • وكانت هذه البركة تبدو لي طيلة الاسبوع الاول ، كلما نظرت اليها كأنها بحيرة على سفح جبل عال ، قاعها أعلى بكثير من سطوح البحيرات الاخرى • فكنت أشاهدها عند بزوغ الشمس تخلع عنها غلالة الضباب التي توشحت بها في أثناء الليل • وشيئا فشيئا أخذ سطحها الاملس العاكس ، أو أخذت مويجاتها الساجية ، تنكشف لي في هذا المكان أو ذاك ، على حين كان الضباب ينحسر عن كل جبهة ويتسلل خلسة كالاشباح متجها نحو الغابات ، أو يتفرق وينفض كما تنفض آية جمعية سرية بعد انعقادها في الليل • وكان الندى نفسه يبدو لي أنه يظل متعلقا بالشجر في النهار الى وقت أطول من المألوف ، مثلما يحدث على سفوح الجبال •

وكان لهذه البحيرة الصغيرة قيمة كبيرة من حيث هي جارة لي ، في الفترات التي تحدث في أثناء هبوب عاصفة مطر خفيفة في شهر أغسطس ، عندما يسكن الهواء ، ويسجو الماء كل السكون ، على حين يظل الجو غائما ويهدأ النهار عصرا هدوءه مساء ، وتغرد سمان الغابة حولك فيسمع تغريدها من شاطىء الى شاطىء • ان بحيرة كهذه لا يمكن أن تكون أسجى مما هي عليه في مثل هذا الوقت ، ويكون الجزء الصافي من الهواء الذي فوقها ضحلا ، تعلوه السحب ، وتضفي عليه الظلام ؟ ويصبح الماء الحافل بالطيور ، وبما انعكس عليه من صور الاشياء ، سماء أخرى تحت السماء ، لا تقل عن تلك شأنا ان لم تزد عليها ، ومن قمة ربوة قريبة قطعت من عليها الغابة حديثا كان منظر خلاب رائع يشاهد جنوبا عبر البركة من خلال ثنية

(١) كلها طيور غريدة تعيش في أمريكا الشمالية •

كبيرة في التلال التي عند الشاطيء وحيث تنحدر سفوحها المتقابلة نحو بعضها بعضا فيخيل اليك كأن نهرا يجري في ذاك الاتجاه وسط واد ظليل بالاشجار ، ولكن من غير أن يكون ثمة نهر ما . فوليت وجهي شطر هذا الاتجاه ، وشاهدت من بين التلال القريبة الخضراء ، ومن فوقها ، تلالا أخرى أبعد منها وأشمخ تقوم عند الافق يشوبها لون أزرق . والحق اني عندما أقف على أطراف أصابع قدمي أستطيع أن ألمح بعض قمم لسلاسل جبال أشد منها زرقة وأبعد منها شقة في الشمال الغربي ، تلك النقود الزرق التي صدرت من دار سك السماء ذاتها ؟ وكذلك كنت أستطيع أن أرى بعض أجزاء من القرية . أما من الاتجاهات الاخرى – حتى من هذه النقطة – فلم أكن أرى شيئا من علي الغابات المحيطة بي ولا من ورائها . فمن الخير أن يكون ثم مياه بجوارك تجعل الارض كأنها تطفو وتتراقص . ومن فوائد عيون المياه هذه – حتى أصغرها – انك اذا ما نظرت فيها أدركت أن الارض ليست قارية بل جزرية ، ولهذا أهميته ، مثل أهمية حفظ الزبد باردا . وعندما أنظر عبر البركة من هذه القمة متجها شطر بطائح « صدبري » التي كنت أراها في زمن الفيضان عالية ، وربما كان منظرها هذا نتيجة سراب قام في واديها القلق المضطرب كقطعة من نقود ألقيت في حوض ماء . فكانت الارض كلها التي وراء البركة تبدو أشبه بقشرة أرضية معزولة طفت على هذا السطح المائي المتداخل ، مما ذكرني بأن هذا الجزء الذي أعيش فيه ليس سوى أرض جافة صلبة .

ومع أن المنظر الذي يتراءى من عند بابي ضيق محصور ، فاني لم أكن أشعر بضيق أو ازدحام بأي حال من الاحوال . فثمة مراع كافية يسرح فيها خيالي ويهيم . فالهضبة المنخفضة التي تنمو عليها شجيرات البلوط ، والتي يرتفع اليها الشاطيء الآخر كانت تمتد نحو براري الغرب وسهوب التتار ، وتتيح مجالا فسيحا لجميع أسر الرجل المنتجعين . قال « دامودارا » عندما احتاجت قطعانه الى مراع جديدة أوسع مما اعتادت أن ترعى فيه « ليس سعيدا في هذه الدنيا غير الخلائق التي تستمتع بأفق واسع فسيح » .

لقد تغير الزمان والمكان كلاهما ، وسكنت على مقربة من تلك الاجزاء من الكون التي استرعتني ، ومن تلك العصور من التاريخ التي استهوتني أكثر من غيرها فحيث سكنت كنت بعيدا جدا بعد الاقاليم العديدة التي يرصدها الفلكيون كل ليلة . هذا وما أكثر ما نتخيل أصقاعا بعيدة رائعة ، في ركن سماوي سحيق من أركان هذا النظام الكوني ، وراء كوكبة ذات الكرسي لتكون بمنأى عن الضوضاء وسائر أنواع الاضطراب ، فاتضح لي أن بيتي يقع فعلا في مكان قصي في الكون مثل ذلك المكان ، ولكنه أبدا جديد لم يدنسه شيء ما . فان كان خليقا بالانسان أن يستقر في تلك الاجزاء القريبة من الثريا أو من الفلاص ، أو

الديران أو النسر الطـــائر ، فانا فعـــــلا من سكانها اذن ، أو على بعد مساو لها من الحياة التي خلفتها ورائي أتضاءل وأتألق بشعاع يبدو رفيعاً لأقرب جار لي ، فلا أتراءى له الا في الليـالي الحالكة غير القمراء • وهكذا كان هذا الجزء من الكون الذي اخترت أن أتخـــذه لي ســـكنا ومستقرا •

كان في ســـــالف الأيام راع ،
جعـــل أفكـاره في مستوى عال
علو الجبال التي ترعى عليها قطعانه
وتمده منهــا بالغذاء كل ســـــاعة

فما عسى أن يكون رأينا في حياة الراعي يا ترى ، ان كانت قطعانه تنتجــع على الدوام مراعي أعلى من أفكاره وأسمى ؟

كان كل صباح يطلع دعوة بهيجة لي تشرح صدري وتهيب بي أن أجعل حياتي في بساطة الطبيعة ذاتها ، بل وفي طهارتها أيضا ؛ فقـــد كنت مخلصا في عبادة «أورورا*» اخـــلاص الاغريق لها ، فكنت أستيقظ من نومي مبــكرا وأستحم في البركة • واتخذت ذلك شعيرة من شعائري الدينية ، وكان عملا من خير ما قمت به من أعمال • قيل انه كان للملك تشنج تانج وعاء كبير يستحم فيه حفر عليه ما معناه : « جدد نفسك كل يوم تجديدا كاملا ، وافعـــل ذلك وكرره المرة بعد المرة وداوم عليه باستمرار » •واني لأدرك ما في ذلك من معنى وما له من مدلول • فالصباح يعيد الينا عصور البطـولة •واني لأتأثر بطنين البعوضـــة الخافت ، وهي تطوف بمسكني أول ما ينبثـــق الفجـــر ،طـــوافا غير مرئي ، ولا يتصـوره الخيـــال ، وأنا جالس في البيت وبابه ونوافذه مفتوحة •فقد كنت أتأثر بهذا الطنين كما أتأثر بأي بوق يتغنى به صاحبه بمديح ذوي الشهرة والصيت البعيد•ان هذا الطنين ترنيمة لتأبين هوميروس• انه الياذة وأوديسية معا في الهواء تنشد أهازيج غضبها وطوافها ، وكأن فيه شيئا كونيا • فهو اعلان دائم (الى أن حرم ومنـــع) عن نشاط الدنيا وعن خصبها الأبديين•فالصباح وهو خير وقت في النهار يهمني ، هو ساعة التيقظ • فنحن فيه أقل ما نكون ميلا للنعاس ، وان جزءا منا ليتيقظ فيه ساعة على الاقل ويغفو بقية النهـار وطول الليل • وليس ثمة شيء كثير ينتظر من ذلك اليوم ــ ان صح أن يسمى يوما ــ الذي لم توقظنـــا فيه عبقريتنا • بل يوقظنا خادم يظل يحركنا تحريكا آليا ــ ذلك اليوم الذي لا توقظنا فيه من باطننا قوانا ومطامحنا وآمالنـــا التي اكتسبناها حديثا مصحوبة بنغمات من موسيقى سماوية ، بدلا من أجراس المصانع ، وبرائحة

عطرة تملأ الهواء كله بأريجها ـ توقظنا الى حياة أسمى وأنبل من الحياة التى كانت قبل أن تنام . فبمثل ذلك يؤتى الظلام ثماره ، ويبرهن لنا على ما فيه من صلاح ونفع بما لا يقل عن صلاح النهار ونفعه . ان الرجل الذى لا يؤمن بأن كل يوم فيه ساعة أبكر واقدس وأقرب الى الفجر من أى ساعة قد دنسها هو الى الآن ـ هذا الرجل يكون قد يئس من الحياة وسلك فيها طريقة هاوية منحدرة مظلمة . فبعد أن ينقطع الانسان عن حياته الحسية فترة ، تزداد روحه كل يوم نشاطا ، أو بالاحرى تزداد أعضاؤه قوة ، وتحيا عبقريته من جديد الحياة النبيلة التى فى قدرتها أن تحياها . ان جميع الاحداث الهامة انما تحدث فى الصباح ، وفى جو من أجواء الصباح . وقد ورد فى « الفيدات* » أن جميع الفطن وضروب الذكاء انما تتيقظ وتنشط فى الصباح ، فالشعر والفن وأروع أعمال الانسان وأولاها بالذكر ، انما تبدأ فى تلك الساعة . فجميع الشعراء وجميع الابطال من مثل ممنون* كلهم أبناء «أورورا*» ، وكلهم يصدحون بموسيقاهم فى الفجر مع شروق الشمس . فاليوم كله صبح دائم موصول لمن كانت أفكاره مرنة نشيطة تماشى الشمس فى مسراها . وليس بذى شأن ما تقول به الساعات ، ولا ما تنم عنه مواقف الانسان وأشغاله . فالصباح صباح عندما أكون متيقظا ، وعندما يكون ثمة فجر فى نفسى ، وما الاصلاح الاخلاقى سوى الجهد المبذول فى اقصاء النوم عنا . فلم كان الناس يقدمون تقريرا مسكينا هزيلا عن يومهم ، ان لم يكن ذلك الأن النعاس غالب عليهم ؟ فهم ليسوا بالعاجزين عن الحساب كل هذا العجز ، فلو لم يغلبهم النعاس لأنجزوا من الاعمال شيئا يستحق الذكر حقا . فثم ملايين من الناس متيقظون يقظة تكفيهم للقيام بأعمال جسمانية ، على حين لا يوجد سوى واحد فى كل مليون متيقظ يقظة كافية للقيام بالاعمال التى تقتضى جهودا عقلية ، كما أنك لا تجد سوى واحد فى كل مائة مليون ، متيقظا للحياة الشعرية أو القدسية . فأن يستيقظ الانسان صباحا معناه أنه حى . انى لم أصادف قط رجلا متيقظا كل اليقظة ، ولو أنى صادفته ـ لما عرفت كيف أنظر اليه فى وجهه .

يجب أن نتدرب على أن نوقظ أنفسنا من جديد ، وان نستبقيها نشيطة ، لا بوسائل آلية ، ولكن بأن نتوقع دائما توقعا لا نهاية له ، الفجر الذى لا يفارقنا أبدا ، حتى ونحن فى أعمق ساعات نومنا . فلست أعرف شيئا أكثر تشجيعا على هذا من قدرة الانسان التى لاريب فيها على أن يسمو بحياته وينهض بها بمجهود مقصود يبذله وهو شاعر به متفطن اليه . انه لحسن لا شك أن يقدر الانسان على رسم صورة خاصة ، أو على نحت تمثال ما ، وبذلك يكون قد استطاع أن يصنع بعض أشياء جميلة رائعة ولكن أحسن من ذلك وأروع أن يستطيع أن

يصور الوسط نفسه ، وينحت الجو نفسه الذي ينظر من خلالهما • وذلك شيء يتيسر له أن يقوم به من الوجهة الاخلاقية الادبية • ان قدرتنا على التأثير في نوع اليوم وفي صفته لهي أسمى الفنون كافة • فمن واجب كل انسان منا أن يعنى بجعل حياته كلها ، في جميع تفصيلاتها وجزئياتها ، جديرة بأن يتأملهـا ويتدبرها في أسمى ساعة من ساعاته وأحرجهـا • فانا ان رفضنا ، أو استهلكنا تلك المعلومات التـافهة التي تحصل عليهـا ، فان الهـواتف ستحدثنا بوضوح عن كيف يمكن أن يتم ذلك •

ذهبت الى الغابات حبا في أن أحيا قصدا وعن عمد ، ولأواجه حقائق الحياه الاساسية وحدها دون غيرها ؟ ولارى ان كنت لا أستطيع أن أعرف ما لديها مما يمكن أن تعلمني اياه • ولم أذهب الى الغابات كي أعرف ، وقد أوشكت على الموت ، أني لم أحي بعد ، فلست أبغي أن أحيا ما ليس بحياة • فالحياة عزيزة غالية • هذا ولا رغبة لي في الاستسلام والتوكل ، اللهم الا اذا كان ذلك ضروريا ولا مناص منه • لقـد أردت أن أحيا حياة عميقة ، امتص كل مشاشها ، واعتزمت أن أعيش عيشة قوية اسبرطية ثابتة فأجتث من الحياة كل ما ليس بحقيقي ولا أصيل فيها ، وأطرده عنها طردا ، وان أضرب ضربة واسعة نجلاء فأدفع بالحياة الى ركن من الاركان فافحص عنها وادرسها وانزل بهـا الى أبسط معانيها وعناصرها • فاذا ما استبان لي أنها حياة دنيئة وضيعة عمدت اليهـا واستخرجت جملة ما بها من خسة أصيلة فيها ونشرتها على العالم كله • أما ان كانت جليلة رائعة ، كان على أن أعرف ذلك بالخبرة والعمل حتى أستطيع أن أصفها وأقدم عنها تقـريرا صحيحا صادقا في رحلتي التالية في الدار الآخرة ، فيبدو لي أن معظم الناس في شك من أمرها غريب ، فهل هي من عند الشيطان أم من عند الله ؟ فهـم قد تسرعوا بعض التسرع واستنتجوا أن غاية الانسان في هذه الحياة أن يمجد الله ويحمده على الدوام •

ومع ذلك فما زلنا نحيا حيـاة وضيعة كالنمل ، وان كانت الاسطورة تقص علينا أنا قد تحولنا الى بشر من زمن طويل • فنحن كالاقزام نحارب المردة العماليق ، فالامر كله غلط فوق غلط ، ورقعة فوق رقعة • حتى أن خير فضيلة فينا انما تتجلى في وسط من البؤس والشقاء لا لزوم لهما ، ومن الميسور تحاشيهما • وانا لنبدد حياتنا هباء شيئا فشيئا • وليس الرجل الشريف بحاجة الى أن يعد أكثر من أصابع يديه العشر ، وان اشتدت به الحال وتأزمت الامور يمكنه أن يضيف اليهـا أصابع قدميه العشر كذلك ، أما الباقي فعليـه أن يجمله اجمالا • يا قوم ! البساطة ! البساطة ! اني أهيب بكم أن اجعلو مشاغلكم بسيطة مثل ٢ ، ٣ ، لا مثل مائة أو ألف • فبدلا من أن تعدوا بالمـليون حسبكم نصف « دستة » فدونوا حساباتكم على

ظفر ابهامكم . فبحر الحياة المتحضرة ، المتلاطم الامواج ، حافل بالكثير من السحب والعواصف والرمال المنهالة وغيرها من آلاف الاشياء المنوعة التي يجب أن نحسب لها حسابها حتى يستطيع الانسان منا أن يحيا ، اللهم الا ان كان يريد أن يغرق ويهوى إلى القرار قبل أن يصل الى مرفأ السلامة الذى يقصده ، وانه لماهر في العد والحساب حقا ، ذلك الذى يكتب له النجاح . فبسطوا أموركم وبسطوها ! فبدلا من أن تتناولوا ثلاث وجبات في اليوم حسبكم واحدة ، ان كان لابد من وجبات . وبدلا من مائة صنف من الطعام تقدمونها على موائدكم حسبكم خمسة ، وخفضوا سائر الاشياء الاخرى بمثل هذه النسبة . لقد أصبحت حياتنا أشبه باتحاد ألمانى[1] يتكون من عدة دويلات صغيرة تظل تخومها في تغير وتبدل مستمرين ، حتى أن الرجل الالمانى نفسه لم يعد يستطيع أن يخبرك بشيء عن حدودها في أي وقت من الاوقات . هذا ، وأن الامة نفسها ليست ، على الرغم من كل ما يقال عما تم فيها من اصلاحات داخلية — وما هي بداخلية في الواقع ، بل اصلاحات خارجية وظاهرية ضحلة — ليست سوى مؤسسة شائخة مترامية الاطراف ، يصعب معالجة شئونها ، مزدحمة ازدحاما سيئا بما فيها من الاثاث ، تورطت في شر أعمالها ، فأهلكها الترف وأرهقها الانفاق الاخرق بغير حساب ، وضيعها عدم التقدير وقلة التدبير ، وعدم وجود غرض سام جدير بها تضعه نصب عينيها ، شأنها في ذلك شأن ملايين الاسر والبيوت في البلاد . والعلاج الوحيد لها — ولهم — هو مراعاة الاقتصاد والتقشف ، والتزام بساطة في الحياة أكبر من بساطة الاسبرطيين ، وكذلك السمو بالغرض الذى تتجه اليه . ذلك لانها تعيش بسرعة وعجلة أكثر مما ينبغي . ويرى الناس أن الامة يجب أن تكون لها تجارة ، فلابد أن تصدر الثلج ، ولابد من أن يتخاطب أفرادها بطريق البرق ، ويسافروا بسرعة ثلاثين ميلا في الساعة من غير شك ، سواء فعلوا هم ذلك أو لم يفعلوه . أما ان كان علينا أن نعيش عيشة القردة أو عيشة بنى الانسان فأمر مشكوك فيه بعض الشك . فاذا لم ننتج « فلنكات » ونصنع القضبان الحديدية ، ونقضى في ذلك العمل أياما وليالى ، واتجهنا بدلا من ذلك كله الى العناية بشئون حياتنا لنصلحها ونحسنها ، فمن ذا الذى يقوم ببناء الطرق الحديدية اذن ؟ واذا لم تنشأ الطرق الحديدية فكيف نبلغ السماء في الوقت الملائم ؟ ولكنا اذا لبثنا في بيوتنا ، نعنى بشئوننا الخاصة ، فمن منا يريد طرقا حديدية ؟ انا لا نركب السكك الحديدية ، بل هي التى تركبنا . فهل خطر ببالك مرة ما هي تلك «الفلنكات»[2] التى توضع تحت قضبان السكك الحديدية ؟ ان كل واحدة منها رجل ايرلندى ، أو أمريكى .

---

(١) كانت ألمانيا قبل اتحادها سنة ١٨٧١ تتكون من دويلات كثيرة مبعثرة غير ثابتة الحدود .

(٢) « الفلنكات » هى تلك الكتل الخشبية التى تثبت عليها قضبان السكة الحديد حتى تكون في مستوى واحد . واسمها بالانجليزية Sleepers أى نيام . والمؤلف يتلاعب هنا بمدلولى هذه اللفظة : فلنكة ، شخص نائم .

فالقضبان انما توضع عليهم هم ثم يغطون بالرمال ، وتجرى عليهم العربات جريا سهلا ! فهم « فلنكات » سلام ، أؤكد لكم . ففى كل بضعة أعوام توضع جماعة جديدة منهم فى الارض ، فيمر عليهم القطار . فاذا كان بعض الناس يستمتعون بركوب القطار فمن سوء حظ الكثيرين أن يركبهم القطار ويمر عليهم واذا ما مروا فوق رجل كان يمشى فى نومه ، بوصفه (فلنكة) زائدة وضعت فى غير موضعها الصحيح ، فأيقظوه من نومه أوقفوا العربات فجأة ، وأحدثوا ضجة كبيرة ، وأقاموا الدنيا وأقعدوها من أجله ، كأنه كان حادثا شاذا . وانى ليسعدنى أن أعلم أن الامر يستلزم فرقر من الرجال لكل خمسة أميال لصيانة «الفلنكات» والمحافظة عليها مستوية فى مواضعها ، فتلك علامة على أنها قد تنهض من جديد .

ولماذا نعيش بمثل هذه العجلة ، ونضيع الكثير من الحياة سدى بهذا الشكل ؟ كأنا اعتزمنا أن نموت جوعا من قبل أن نجوع . يقول الناس أن عمل غرزة واحدة فى ابانها يوفر علينا تسع غرز ، ومن ثم نراهم يعملون اليوم الف غرزة ليوفروا على أنفسهم تسعا فى الغد . أما من حيث العمل فليس لدينا منه شىء ذو قيمة وخطر ، كأنا قد أصابنا داء «الخوريا[1]» فلم نعد نستطيع أن نستبقى رءوسنا هادئة ساكنة . فلو أنى استطعت أن اسحب حبل نافوس الكنيسة بضع مرات كما أسحبه للانذار بحريق ، لم يكد يبقى رجل واحد فى مزرعته فى أرباض كونكورد ـ على الرغم من ضغط ما عليه من ارتباطات ومن مواعيد كان يعتل بها ويعتذر مرات كثيرة هذا الصباح ، وانى لاكاد أقول أنه لا يبقى رجل ولا امرأة ـ الا وهجروا كل شىء وهرعوا الى مصدر ذلك الصوت ، لا لينقذوا الاملاك من الحريق أصلا ، ولكن اذا أردنا أن نقول الحق ونعترف به ، فانهم انما ذهبوا ليروها تحترق ، مادام ذلك كان أمرا محتوما عليها ومادمنا نحن ـ وليكن ذلك مفهوما ـ لم نشعل هذا الحريق ، أو ليروها تخمد ، ويكون لهم يد فى اخمادها ما دام ذلك سيتم بمهارة وحذق . نعم ان الامر لكذلك ، حتى ولو كان الذى يحترق هو كنيسة الابرشية ذاتها . فلا يكاد امرؤ يقضى نصف ساعة فى النوم بعد الغداء الا ويمسك برأسه عندما يستيقظ ويسأل ما الخبر ؟ . كأنى ببنى الانسان كلهم كانوا واقفين ديدبانات وحراسا عليه . ومن الناس من يتركون تعليمات بأن يوقظوا كل نصف ساعة ، وليس من شك فى أنهم لا غرض لهم من وراء ذلك الا سماع الاخبار ، ثم يقصون علينا هم نظير ذلك ما رأوه فى أحلامهم . فبعد قضاء ليلة من النوم تصبح الاخبار أمرا ضروريا ضرورة تناول الفطور نفسه . « أرجو أن تقص على خبرا جديدا

---

(١) الخوريا أو الكوريا مرض عصبى عوارضه حركات قسرية فى عضلات الوجه و (الاطراف) ويسمى بالانجليزية عادة Saint Vitas Dance رقصة سانت ويتاس . وقد يسمى فى العربية بالزفن كما جاء فى المخصص .

حدث لرجل ما فى أية بقعة من بقاع الارض ،ثم يقرأ عليك هو أثناء تناول قهوته وكعكاته فى الفطور ، ان رجلا قد سملت عينه هذا الصباح على نهر واشيتو ، من غير أن يحلم قط فى أثناء ذلك أنه كان يعيش فى كهف هذه الدنيا العتيق المظلم الذى لا يسبر له قرار ، وأنه نفسه ليس له سوى أثر لعين واحدة .

أما من جهتى فليس أيسر على من أن أستغنى عن مصلحة البريد برمتها . ففى رأيى أن قليلا جدا من الاخبار الهامة يصلنا على يديها . والحق أنى لم أتسلم فى حياتى سوى خطاب واحد أو خطابين اثنين ـ كتبت هذا من بضع سنين مضت ـ كانا جديرين بما عليهما من ثمن طوابع البريد . فنظام البريد الذى جعل قيمة ارسال الخطاب بنسا واحدا ـ هــو فى العادة نظام يجعلك تقدم هذا البنس ، جادا غير مازح ، ثمنا لافكار رجل واحد ، وهــو البنس الذى يقدم عادة ، وفى أمان من قبيل المزاح والفكاهة . وانى لواثق كل الوثــوق أنى لم أقرأ أى خبر ذى بال فى جريدة ما . فان قرأنا أن رجلا سلب أو قتل أو مات عرضا فى حادثة ، أو عن بيت احتــرق أو سفينة تحطمت أو باخــرة انفجرت ، أو بقــرة دهسها القطار على سكة وستون الحديدية أو أن كلبا مسعــورا قتل ، أو جماعات من الجنادب ظهرت فى الشتاء ـ اذا قرأنا خبرا واحدا من هذه الاخبار لم نعد بحاجة الى أن نقرأ آخر ، فحسبنا مثل واحد منها . فما دمت قد عرفت المبدأ أو القاعدة فما حاجتك الى ألف مثال ومثال لها ؟ أو الى ألف تطبيق وتطبيق عليها! فالاخبار ، فى رأى أحد الفلاسفة كلها هذر ، وهراء فى هراء وان الذين يذيعونها ويقرأونها ليسوا سوى نسوة عجائز يتشدقن بها ، وهن يتناولن الشاى . ومع ذلك فكثيرون هم الذين يحرصون كل الحرص فيما بينهم على سماع أمثال هذه الاخبار والاحاديث الجوفاء . بلغنى أن الناس هجموا منذ أيام على مكتب من مكاتب البريد ليعرفوا آخر الاخبار الخارجية من آخر قادم الى المكتب ، حتى أن عدة ألواح من ألواح الزجاج الــكبيرة التى فى احدى العمارات قد تحطمت من جراء ما وقع عليهــا من الضغط ـ وهى أخبار أظن ، جادا غير هازل أن رجلا ألمعيا سريع البديهة يستطيع أن يكتبها بدرجة كبـيرة من الدقة قبل أن تحدث باثنى عشر شهرا أو ان شئت باثنى عشر عاما . فمن حيث أسبانيا مثلا ، فأنت ان عرفت كيف تضع فى الجــرائد من وقت لآخر أسمــاء الدوق كارلوس والامراء والدوق بدور وأشبيليــة وغرناطة مع مراعاة المحافظة على ما بين الجميع من نسب صحيحة ـ هذا ، وربما كانت هذه الاسماء قد تبدلت بعض التبديل منذ اطلاعى على الجرائد ـ وعرفت كيف تجرى مصارعة للثيران ، اذا لم تكن أمامك وسائل أخرى غير هذا للتسلية كنت صادقا كل الصدق فيما قصصته من أنباء ، وأعطيتنا فكرة طيبة عن حالة الاشياء فى أسبانيا أو عن خرابها ودمارها ، كما يمكن أن

يعطينا اياها أوضح مافي الصحف عنها من تقارير وأوجزها تحت هذا العنوان نفسه • أما من حيث انجلترا فآخر خبرهام من هذه الجهة كان ثورة سنة ١٦٤٩ • وان أنت عرفت تاريخ غلاتها على أساس محصول سنة متوسطة لم تكن بحاجة أبدا الى أن تتنبه الى ذلك الشيء مرة أخرى ، اللهم الا اذا كان تفكيرك ذا صبغة مالية خاصة فان كان لرجل لا يقرأ الصحف الا نادرا ، أن يحكم ويبدى رأيه ، فلا شيء جديد يحدث مطلقا فى البلاد الخارجية حتى ولا ما يقوم فى فرنسا من ثورات وانقلابات •

ما الاخبار ! أليس أهم من ذلك وأولى بكثير أن نعرف ذلك الذى لم يكن قديما أبدا ؟• أرسل كيو ـ هي ـ يو ، (وهو موظف كبير فى دولة واى) رجلا الى خونج تسو ليعرف أخباره ، فأجلس خونج ـ تسو الرسول بجانبه وسأله عما يعمله سيده ، فأجاب الرسول في احترام : انه يود أن يقلل عدد أخطائه وعيوبه ، ولكنه لم يصل بعد الى آخرها • ولما انصرف الرسول قال الفيلسوف :«ياله من رسول خليق بالاحترام ! ياله من رسول خليق بالاحترام » ! ولننتقل الى الواعظ فى كنيسته ، فبدلا من أن يصدع آذان الفلاحين الناعسين في يوم راحتهم آخر الاسبوع ـ فيوم الاحد خاتمة ملائمة لاسبوع أسيء استخدامه ، وليس بداية جريئة ناضرة لاسبوع جديد ـ بدلا من أن يصدعهم بتلك العظة الاخرى الطويلة الثقيلة ، يجب أن يصرخ بصوت يدوى كالرعد ، أن استأنوا ! قفوا مكانكم ! لماذا هذه العجلة السريعة فى ظاهرها ، والبطيئة كل البطء فى الواقع ؟ »

يقدر الناس الاوهام والخدع كأنها أصدق الحقائق وأثبتها ، على حين أنهم يعدون الحقيقة نفسها خرافة أو أسطورة من الاساطير • فلو أن الناس لم يراعو الا الحقائق وحدها ، ولم يسمحوا لانفسهم بأن يخدعوا ، لكانت الحياة ،اذا ما وزنا بينها وبين مانعرف من الاشياء ، أشبه شيء بقصة خيالية من قصص « الحور » أو من قصص ألف ليلة وليلة • فاذا ما اقتصرنا على احترام ما لا مناص من وجوده ، وله حق فى الوجود فعلا ، لصارت الموسيقى والشعر يسمعان فى الشوارع • فان كنا مستأنين غير معجلين ، وحكماء غير متهورين لادركنا أن الاشياء العظيمة والقيمة وحدها هى التى لها أى وجود مطلق دائم ـ وأن المخاوف الصغيرة والملذات التافهة ليست سوى ظل للحقيقة وخيال لها • أما الحقيقة نفسها فأمر جليل ومثير حقا • أما اذا أغمض الناس عيونهم ونعسوا ورضوا أن تخدعهم المظاهر والخيالات ، فانهم بذلك يقيمون حياتهم اليومية المبنية على « الروتين » والعادات فى كل مكان ويزيدونها رسوخا ، ولكنها مع ذلك حياة تظل قائمة على أسس من خالص الوهم والخداع • ان الاطفال وهم يلعبون لعبة الحياة ، يدركون قانونها الصحيح ، ويعرفون علاقاتها الحقيقة ، أوضح مما يدركها أولئك

الرجال الذين فشلوا فى أن يحيوا حياة حقـةطية ، ويخيل اليهم مع ذلك أنهم أصبحوا أعقل وأحكم بما حصلوا عليه من الخبـرة ، أى بماأصابوا من الفشل والخيبة . قرأت فى كتاب من كتب الهندوكيين أن ابنا من أبناء الملوك طرد من البلدة التى ولد فيها وهو لا يزال فى نعومة أظفاره ، فقام بتربيته رجل من رجال الغـابات ولما كبر وبلغ رشده وهو على هذه الحال خيل اليه أنه من أبناء الشعب الهمجى الذى نشأ بين ظهرانيه ، وظل على ذلك الوهم الى أن وقف أحد وزراء أبيه على جلية أمره وكشف عن حقيقة حاله ، فلم يلبث أن زال عنه سوء ما أدرك من نفسـه وعرف أنه أمير ، ثم استأنف الفيلسوف الكلام وقال: وكذلك الروح فهى قد تنسى حقيقة ما هى عليه من صفات من جراء الظروف التى قد تجد نفسها فيها ، وتظل على ذلك جاهلة أحوالها الى أن تنجلى لهـا الحقيقة على يد معلم من القـديسين ، وعندئذ تدرك أنها هى براهما* . وفى رأيى ، أنا نحن معشر سكان نيوانجلند نحيا هذه الحياة الوضيعة، لان نظرتنا لا تتعدى ظواهر الاشياء ولا تنفذ الى بواطنها فنظن كائنـا موجودا ما يظهر أنه كذلك ، فلو أن رجلا طاف بأنحـاء هذه البلدة ولم ير الا الحقيقة فما عسى تظن أن يكون مآل « ميل دام[1] » فلو أنه وصف لنا ما شاهده فيه من الحقائق ما استطعنـا أن ندرك موضع ذلك المكان فى الوصف الذى كتب . أنظر الى نادأو محكمة أو سجن أو متجر أو بيت من البيوت وقل لى بحقك ما عسى أن يكون هذا الشىء أوذاك فى الحقيقة اذا ما نظرت اليه نظرة فاحصة. انها كلها تنهار وتتحطم فى وصفك لها . يرى الناس أن الحقيقـة بعيدة نائية ، وأنها تقع فى أطراف هذا النظام الكونى وراء أبعد نجم منا ، فهى تقع قبل آدم وبعد آخر رجل من أهل هذه الدنيا . ليس من شك فى أن الابدية أمر جليل وحقيقى ، أما الامكنة والازمنة والظروف فكلها موجود فى هذا الزمن وفى هذا المكان . والله نفسه يتجلى فى هذه اللحظة حيث نحن الآن. ولن يكون أشد منه ألوهية بمضى العصور وكر الدهور كافة ، وانا لن ندرك ما هو جليل ونبيل الا بدوام الحاحنا على الحقيقة التى تحيط بنا ، وأن الكون كله ليستجيب دائما لتصوراتنا ، وسواء سافرنا ببطء أو بسرعة فالطريقة مرسومة أمامنا من قبل ، فلننفق أعمارنا فى ادراكهـا وتصورها ، فلم يخطر بعد للشاعر أو للفنـان تصميم بلغ من الجمال والنبل مابلغه هذا التصميم، الا وكان فى استطاعة بعض من ذراريهما على الاقل أن يقوم به وينجزه .

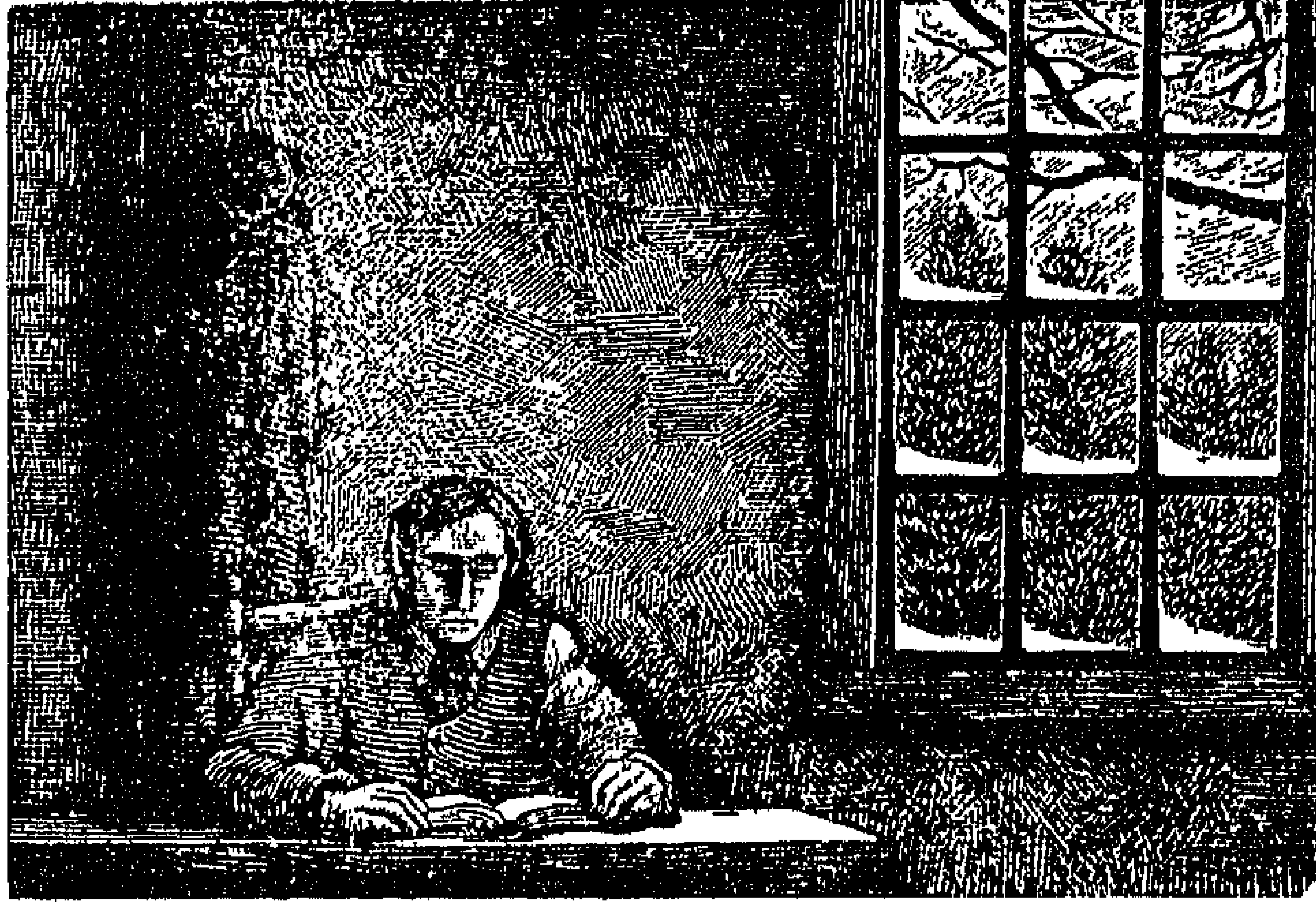
فلنقض يوما واحدا بحسب خطة نضعها بقصد وعمد كما تفعل الطبيعة ، فلا نحيد عن طريقنا الذى رسمناه لانفسنا من أجل ما قد يعرض لنا فيه من توافه الامور ، من مثل قشرة جوزة أو جناح بعوضة ، ولنستيقظ مبـكرين وبسرعة ونتنـاول فطورنا فى هدوء ومن غير

(١) هو ميدان فى وسط بلدة كنـكورد حيث يجتمع الناس ليتحدثوا ويسمروا .

اضطراب أو انزعاج ، ولنـــدع جماعة تغدووأخـرى تروح ، ولنـــدع الاجراس تدق والاطفال تضج وتصيح ـ لندع كل هذا ولنعزم أمرنا علي أن نجعل من يومنـا هذا يوما حقا . فلماذا نستخذي ونستسلم ونجرى مع التيار ؟ يجب ألاتنقلب بنا سفينتا ، ونترك ذلك الشلال أو تلك الدوامة التى نسميهـا عشاء تغمرنا ـ تلك التى تقع فى المـواضع الضحلة عند خط الزوال ، فواجهوا هذا الخطر وانفـــذوا منه تسلموا ، فبقية الطريق سهلة تنحدر الى أسفل . فسيروا في طريقكم بأعصاب متينة غير مسترخية، وبنشاط الصباح ، وسط خضم الحياة ، ناظرين الى اتجاه آخر ، ولـــكن رابطين آنفسكم في السـارية ، كما فعل يوليسيز ، فاذا ما صفرت القاطرة ، فلتصفر ما شاءت حتى يبح صوتها . واذا ما دق النـاقوس فما الذى يدعونا الى أن نجرى ونهرول ؟ والاجدر بنا أن نفكر فى أي نوع من أنواع الموسيقى هما . فلنستقر ولنعمل، ولنثبت أقدامنـــا راسخة ، ولنخترق طبقـات الاوحال ـ أوحال الآراء وضروب الهـــوى والتقـــاليد والاوهام والمظاهر الزائفة ـ تلك الاوحال التى تغطى الكرة الأرضية فى لندن وباريس وبوسطن وكنكورد ، وفى الـــكنيسة والدولة والشعر والفلسفة والدين . لنخترقها حتى نصل الى أسس صلبة ، وصخور صلدة في مواضعها نسميها الحقيقة . ولنقل هذه هي ولا خطأ . ثم بعد أن تحصل على نقطة ارتكاز تحت المـاء الغامر ، وتحت الصقيع والنـــار ـ نقطة يتسنى لك أن تقيم فيها مقياسا ما ، لا من مقاييس النيل ، ولكن مقياسا للحقيقة نفسها ، حتى يستطيع الخلف أن يعـــرفوا الى أى مدى بلغ سمك طبقـــة الاوهام والمظاهر الزائفـة والاكاذيب التى تجمعت على مدى العصور من وقت الى وقت . فان أنت وقفت أمام حقيقـــة تنظـــر اليهـــا وجهـــــا لوجه ، رأيت الشمس تتألق على جانبيها ، كأنهـــا سيف بتار تشعر بحده الحلو يخترق فؤادك ، وينفذ من نخاع عظامك ويشطرك شطرين ، وبذلك تختم حياتك الفانية ختاما سعيدا . لتـكن حياة أو موتا ، فانا لا ننشد غير الحقيقـــة . فان كنا سنموت حقـــا فلنسمع حشرجة المـوت فى صدورنا ، ولنشعر بالبرودة تدب فى أطرافنا . أما ان كنا أحياء فلنمض فى سبيل شئوننا التى اعتزمنا السير فيها .

ليس الوقت الا النهر الذى أمضى اليه لاصيد السمك فيه ، وأشرب من عنده . ولكنى عندما أشرب منه ، أشاهد قاعه الرملى ، وأدرك أنه ضحل بالغ الضحولة ، فتياره الضعيف يمر ، على حين تبـقى الابدية وتدوم ، فأشرب شربا أعمق وأصيد سمكا فى الجو المـــرصعة قيعانه بحصباء من الكواكب والنجوم . ولست أستطيع أن أعد واحدا منها ، فأنا لا أعرف أول حرف من حروف الهجاء ، ولقد كنت أتحسر دائمـا على أنى لم أظل عاقلا حكيما كاليوم الذى ولدت فيه ، فالذهن آشبه شيء بشاطور القصاب يرى طريقه فيشقـه الى أسرار الامور وخفاياها ،

ولست أبغى أن أكون مشغولا أعمل أكثر ممايبنغى لى أن أعمل ، فرأسى هو يداى وقدماى ، وأشعر أن جميع قدراتى ومواهبى مركزة فيه•وتدلنى فطرتى على أن يدى ليست سوى عضو للفحص والتنقيب ، أستعملها كما تستعمل بعض المخلوقات خراطيمها ومخالبهـا الامامية • فأنا أستطيع أن أشق طريقى برأسى وأحفره خلال هذه التـلال • ومن رأيى أن أغنى عرق فى الارض انما هو فى مكان ما ، هنا ـ هنا فى ناحية من هذه النـواحى • وهكذا أستطيع بوساطة عصا الاستنباء وبالابخرة المتصاعدة أن أحكم على الاشياء وأبدى رأيى فيها • فهنا فى هـذا الموضع أبدأ فى الحفـر والتنقيب عن المعدن الثمين •



المطالعة

لو أمعن الناس فى التفكير بعض الامعان قبل أن يختاروا ما سيزاولونه من الاعمال ، لربما صاروا كلهم طلاب علم حقا ، وملاحظين لمشاهد الطبيعة وسلوك الانسان وتصرفاته • فلا شك فى أن طبائعهم ومصائرهم المقدرة عليهم تهمهم جميعا على حد سواء • فمهما اقتنينا من ملك وعقار ، لنا أو لذرارينا ، ومهما أنشأنا من أسرة أو دولة ، بل ومهما نلنا من الشهرة وبعد الصيت ، فانا فانون زائلون • أما عندما ننشد الحقيقة وحدها ، فنحن خالدون ، ولا خوف علينا عندئذ من تبدل يصيبنا ، أو حادثة تحل بنا • فقد سبق أن رفع أقدم فيلسوف هندى ، أو مصرى ، لا أدرى ، طرف الستر الذى يغشى تمثال الاله ، وما زال ذلك الطرف الخفاق مرفوعا الى الآن • فهأنذا أرى أمامى مجدا باهرا مثل الذى رآه ذلك الفيلسوف من قبل ، مادمت أنا الذى كنت فيه آنئذ ، جريئا كل الجرأة ، ومادام هو الذى فى أنا ذلك الذى يشاهد هذا المنظر الآن من جديد • فلم يتراكم بعد أى غبار على الستر ، ولم يمض زمن ما منذ أن تجلى ذلك الاله • فالوقت الذى نحسن استخدامه حقا ، أو الذى يمكن أن نستفيد منه ، ليس بزمن مضى ، ولا هو بالزمن الحاضر ولا المستقبل •

كان مسكنى أصلح للتفكير ، وأنسب للمطالعة الجديه من الجامعة نفسها ، فان كنت بعيدا عن دائرة المكتبة التى أستطيع أن أستعير منها ما أشاء من الكتب ، فقد كنت أقرب منى فى أى وقت مضى ، من تأثير تلك الكتب التى يذيع أمرها فى العالم كله ، وهى كتب دونت عباراتها بادىء الامر على لحاء الشجر ، ثم ظلت تنقل منها نقلا على ورق الكتان من آن

لآخر . قال الشاعر الامير «قمر الدين ماست»:« ان أنا جلست لانفذ الى العوالم الروحانية ، فقد سبق أن وجدت هذه الميزة في مطالعة الكتب من قبل ، وان أنمل بكأس واحدة من النبيذ فقد سبق لي أن ذقت طعم هذه اللذة عندما شربت من رحيق الاسرار الخفية » . هذا ، وقد استبقيت الياذة هوميروس على مكتبي طوال الصيف كله ، وان لم آكن أنظر في صفحاتها الا الفينة بعد الفينة . ففي بادئ الامر كان العمل اليدوي المتواصل يجعل المزيد من الدراسة والاطلاع أمرا مستحيلا ، فقد كان علي أن أنجز بناء بيتي ، وأعزق حقل فولي في الوقت نفسه ، بيد أني كنت أعلل نفسي بأمل أن تتاح لي فرص لمثل هذه الدراسة في المستقبل . وفعلا قرأت كتابا أو اثنين من كتب الرحلات الضحلة ، التي جعلتني أخجل من نفسي ، وأتساءل : أين المعيشة التي كنت أود أن أعيشها أنا اذن ؟

للمرأ منا أن يقرأ هوميروس* وأسخيلوس* باللغة الاغريقية من دون أن يخشى افتتانا ولا اتهاما بالاغراق فيما هو كمالي . فقراءته هذه تتضمن أنه قادر على أن يباري أبطالهما الى حد ما ، ويخصص ساعات الصباح لقراءة صحفهما . فكتب البطولة ، وان كتبت بحروف لغتنا القومية ، ستظل في نظر العصور المنحطة مكتوبة بلغة ميتة . وعلينا أن نتحمل كل مشقة وعناء في البحث عن معنى كل كلمة وكل سطر ، وأن نحزر ونستخلص مما قد يكون لدينا من حكمة ومن شجاعة وكرم ، معاني أوسع مما يخوله لنا الاستعمال المألوف أن نحزره ونستخلصه . فالصحف والمطبوعات الحديثة الرخيصة ، على كثرة ما يصدر منها ، ومع كل ترجماتها ، لم تفعل شيئا يذكر يقربنا ممن كتبوا عن البطولة والابطال في العصور القديمة . فهم لا يزالون يبدون لنا منعزلين منفردين ، كما تبدو لنا الحروف التي تطبع بها كتبهم نادرة وغريبة كل الغرابة ، على حين أنها جديرة بما ينفق في مطالعتها من أيام الشباب ومن الساعات الثمينة ، حتى ولو كنت لا تتعلم منها سوى بضع كلمات من لغة قديمة ، تسمو بك عن سفاهات الشوارع ، وتكون لك مصدر الهام دائم يستحثك ويستثيرك . فليس عبثا أن يتذكر الفلاح بضعة الالفاظ اللاتينية التي سبق أن سمعها ، ويظل يكررها المرة بعد المرة . هذا ، وقد يتحدث الناس أحيانا ، كأن مآل الدراسات القديمة أن تختفي وتزول لتفسح الطريق لدراسات أخرى غيرها حديثة وعملية . ولكن الطالب المغامر سيظل يدرسها دائما بأية لغة كتبت ، ومهما قدمت وطال عليها الزمن . فهل هذه الدراسات الا أشرف ما دون من أفكار البشر وآرائهم ؟ فهي وحدها أقوال الهواتف والحكماء التي لم تبل بعد ، ولم يجر عليها الزمن ثوب النسيان ، وفيها من الاجابات عن أحدث البحوث والمشكلات ما لم تقدمه لنا حتى أمثال ولفي* ، و «دودونا*» . فكأنما كان الاولى بنا أن نهمل دراسة الطبيعة لانها قديمة كل

القدم ! ان القراءة الجيدة ، أى قراءة الكتب القيمة بروح طيبة سليمة ، عمل نبيل يكلف القارىء أكثر مما يكلفه أى عمل آخر تقره عادات العصر وتعلى من شأنه . فهى تتطلب تمرينا مثل ذلك التمرين الذى يؤخذ به من يدربون على الرياضة البدنية ، وتقتضينا جعل هذا الغرض نصب أعيننا باستمرار طيلة الحياة كلها أو معظمها ، فيجب أن نقرأ الكتب بقصد وروية وتحفظ ، بمثل ما كتبت . ولا يكفينا أننا نستطيع الكلام بلغة الامة التى كتبت بها تلك الكتب ، فثم فترة هامة بين لغة الكلام ولغة الكتابة ، بين اللغة المسموعة واللغة المقروءة . فالاولى مؤقتة زائلة عادة ، اذ ما هى الا صوت أو لسان أو لهجة من اللهجات ، وتكاد تكون حوشية ، ونكاد أن نتعلمها من أمهاتنا على غير تفطن منا أو شعور ، كما يتعلم الحيوان نفسه. أما الثانية ، أى لغة الكتابة ، فهى نضج الاولى وكمالها ، وثمرة ما فيها من خبرة وتجاريب . فان كانت تلك لغة أمهاتنا فهذه لغة آبائنا . تعبير رزين ، متزن مختار ، أهم وأخطر من أن نكتفى منها بالسماع عن طريق الاذن . انا يجب أن نولد من جديد حتى نستطيع أن نتكلمها حق الكلام . فحشود الناس الذين اقتصروا على الكلام فقط باللغة الاغريقية أو اللاتينية ، فى القرون الوسطى ، لا حق لهم ، بسبب ميلادهم العارض هذا ، أن يقرءوا ما دبجه العباقرة النوابغ بهاتين اللغتين ، فكتبهم لم تكتب باللغة الاغريقية ، ولا باللغة اللاتينية التى يعرفونها ولهم بها عهد ، وانما كتبت بلغة الادب المنتقاة . انهم لم يتعلموا لغتى اليونان والرومان النبيلتين ، بل ان المواد نفسها التى كتبت عليها كانت تعد فى نظرهم أوراقا مهملة ضاعت سدى بحسب رأيهم ، فقد عنوا منهما بأدب معاصر رخيص . ولكن لما حصلت الامم المختلفة فى أوربا على لغات متمايزة مسطورة ، خاصة بهم ، كانت هذه اللغات ، على خشونتها وجفوتها ، كافية للتعبير عن أغراض آدابهم الناشئة . وعندئذ أخذت العلوم تنهض من كبوتها ، واستطاع العلماء بسبب ذلك البعد أن يدركوا ما لذخائر الاقدمين من قيمة وخطر ويقدروها حق قدرها . فما لم تستطع جماهير الرومان واليونان أن يسمعوه بعد مضى عصور طوال ، استطاعت قلة من العلماء أن يقرءوه ، ولا زالوا الى الآن قلة فحسب .

ومهما أعجبنا بما قد يتفجر به الخطيب فى بعض الاحيان من فصاحة وحسن بيان ، فأشرف العبارات المكتوبة تكون عادة متخلفة وراء اللغة المنطوقة الزائلة ، أو هى ان شئت تكون أعلى منها ، كما تكون السماء وما بها من نجوم وأجرام وراء السحب . فهنا النجوم ، وللذين يستطيعون القراءة أن يقرءوها . فالفلكيون يرصدون النجوم دائما ويشرحونها ويعلقون عليها . فليست تلك الكتب مجرد نفثات كمحادثاتنا اليومية ، ولا مثل أنفاسنا المليئة ببخار الماء . فليس ما يسمى فى المحافل العامة خطابة ، سوى علم البيان الذى يدرس فى معاهد

التعليم عادة . فالخطيب انما يخضع لالهام فرصة طارئة أو حادث عارض ، ويخاطب الدهماء الذين أمامه ـ فهو يخاطب الذين يستطيعون أن يسمعوه . أما الكاتب فحياته المعتدلة المتزنة هي فرصته وظروفه الملائمة له . أما الحادث العارض فيشتت أفكاره ، كما تشتتها كذلك الجماهير التي تلهم الخطيب . فالكاتب انما يخاطب أذهان الجنس البشري وقلوبه ، يخاطب أولئك الذين يستطيعون أن يفهموه في أي عصر كانوا .

فلا غرو ان كان الاسكندر* اذن يضع الالياذة* في علبة قيمة يصحبها معه في حروبه وحملاته . فالكلمة المسطورة صفوة جميع المخلفات المأثورة ، فهي وثيقة الصلة بنا ، وفي الوقت نفسه عالمية عامة أكثر من أي عمل آخر من أعمال الفن ، بل هي العمل الفني القريب كل القرب من الحياة ذاتها . ويصح أن تترجم الى كل لغة ، حتى لا تقرأها كل شفة من شفاه البشر فحسب ، بل تتنفس بها فعلا . فهي لا تمثل على القماش صورا ونقوشا ، ولا على الرخام دمى وتماثيل فحسب ، ولكنها تخلق وتنحت من روح الحياة ذاتها . فالرموز التي يومىء بها الرجل القديم الى خواطره وأفكاره تصبح كلام الرجل الحديث ؛ فمرور ألفي صيف أفاض على ذخائر الادب الاغريقي ، كما أفاض على تماثيله المنحوتة من الرخام ، صبغة ناضجة ذهبية اللون كصبغة الخريف ، لانها قد حملت معها جوها السماوي الساجي الى جميع البلاد ، تلقى به أفاعيل الزمن وتأثيره فيها . فالكتب ثروة العالم المذخورة ، والتراث الصالح الذي خلفته لنا الاجيال والامم ، ولذا حق لاقدم الكتب وخيرها أن تقوم طبعا على رفوف كل بيت في القرى ، فليس لها قضية خاصة تدافع عنها ، ولكنها تنير للقارىء طريقه ، وتسترعي اهتمامه ، وله من سلامة ذوقه وحسن تقديره ما يمنعه من أن يرفضها . فمؤلفوها أرستقراطية طبيعية ، لا قبل لاحد أن ينازعها في أي مجتمع من المجتمعات ، ولها على بني الانسان تأثير كبير أعظم من سلطان الملوك والاباطرة . فعندما يكون التاجر الأمي ـ المحتقر في بعض الاحيان ـ قد حصل بجده ومغامراته واستقلاله ، على فراغه المنشود ، وفتحت له الابواب الى دوائر أصحاب الثراء ، وأنصار « الموضة » ـ فانه يتجه حتما آخر الامر الى دوائر أسمى من دوائر هؤلاء ـ فيتجه الى منتديات أصحاب العقل الراجح وذوي المواهب والنبوغ ، التي يشق على كثيرين دخولها ، ويكون فيها غير شاعر الابما في ثقافته من نقص وقصور ، وبما في ثروته وأملاكه من زهو وخيلاء .

وزيادة على هذا فانه ليدل بذلك على رجاحة عقله وحسن تقديره ، بما يبذله من جهود ليكفل لابنائه تلك الثقافة التي حرمها ، وأحس كل الاحساس بأنها تعوزه ، وبذلك يصبح المؤسس لاسرة حقا .

ان الذين لم يتعلموا قراءة الكتب الكلاسيكية القديمة باللغات التى كتبت بها أصلا ، لا بد أن تكون معلوماتهم عن تاريخ البشر قاصرة كل القصور • ومن العجب أن هذه الكتب لم تنقل بعد بحروف أى لسان حديث ، اللهم الا اذا اعتبرنا حضارتنا ذاتها نوعا من هذا النقل • فلم تطبع بعد بالانجليزية كتب هوميروس* واسخيلوس* • ولا كتب فرجيل* نفسه ، وكلها كتب سامية رصينة وجميلة جمال الصبح، أو تكاد تكون كذلك • أما الكتاب الذين جاءوا بعدهم ــ وقل ما شئت عن نبوغهم وعبقريتهم ــ فيندر أن ارتفع واحد منهم الى مستوى ذلك الجمال المحكم، أو الى مدى ذلك الصقل والتهذيب ، ولا الى مستوى تلك الجهود الادبية التى بذلها الاقدمون ، وهى جهود أعمار حافلة بالبطولة وأعمال الابطال • وليس ثمة من يتحدث عن نسيان هذه الكتب واغفال شأنها الا أولئك الذين لا يعرفون عنها شيئا قط • على أن وقت نسيانها سيكون وشيكا حقا اذا ما توافر لنا العلم والعقل اللذان يمكناننا من درسها حق الدرس وقدرها حق القدر • وسيكون ذلك الوقت حافلا فعلا عندما يزداد توافر هذه المخلفات المأثورة التى نسميها « كلاسيكيات »ودراسات قديمة ، وكذلك عندما تزداد لدى الامم الاخرى كتب أقدم من هذه وأمعن فى الكلاسيكية مما يعرف بالكتب المقدسة التى نعرفها أقل حتى مما نعرف الكتب الكلاسيكية ــ عندما يحفل الفاتيكان* بالفيدات* والزندافستات* والاناجيل ، وبأمثال كتب هوميروس* ودانتى* وشكسبير* ــ وعندما تكون كل العصور المقبلة قد أودعت آثارها وذخائرها على التوالى عصرا بعد عصر سوق العالم وعرضتها فيه • فاذا ما تم ذلك كله جاز لنا أن نأمل فى أن نرقى الى السماء ونعرج اليها آخر الامر على مثل هذه الاكداس •

لم يقرأ البشر بعد دواوين الفحول من الشعراء • ففحول الشعراء وحدهم هم الذين يستطيعون قراءتها • فهى لم تقرأ الا بمثلما يقرأ عامة الناس النجوم ، يطالعونها من حيث التنجيم على الاكثر لا من حيث علم الفلك • فغالبية الناس لم يتعلموا القراءة الا رغبة منهم فى تحقيق غرض تافه ، كما أنهم لم يتعلموا العد والحساب الا ليمسكوا دفاتر حساباتهم ، وكى لا يخدعوا فى شئون تجارتهم • أما عن القراءة من حيث هى تمرين عقلى نبيل ، فلا يكادون يعلمون عنها شيئا ، أو هم لا يعلمون الا النزر اليسير • مع أن هذه وحدها هى القراءة بمعناها السامى ، وليست تلك التى نلهو بها كما نلهو بأى شىء كمالى ، ثم تخدر قدراتنا ومواهبنا السامية وتذرها هاجعة • انما القراءة الصحيحة هى التى تجعلنا نبذل كل جهد فيما نقرأ ، ونخصص لها خير الاوقات التى نجد فيها أنفسنا أشد ما نكون يقظة وانتباها •

وفى رأيى ، أنا وقد ألممنا بمبادىء القراءة والكتابة ينبغى ألا نقرأ سوى عيون الادب ،

وخير ما كتب فيه ، وألا يكون دأبنا أن نكرر دائما با ـ بى ـ بو ـ اب ، ثم ألفاظا من مقطع واحد ، كما نفعل فى فصول الفرق الدنيا من المدارس الابتدائية ونظل جالسين على أصغر التخوت الامامية طيله حياتنا • ان أكثر الناس يقنعون بقراءة الكتب المقدسة أو أن يقرأها لهم غيرهم • وربما يكونون قد اقتنعوا وآمنوا بما فى كتاب واحد طيب من الحكمة ، فيقضون بقية عمرهم خاملين يبعثرون مواهبهم وقدراتهم فيما يسمونه بالقراءة الخفيفة • هذا ، وعندنا فى كلياتنا كتاب من عدة مجلدات اسمه «المطالعة الصغيرة»[1] ، ظننته أول الامر اسم بلدة لم تسعدنى الفرص بزيارتها • ومن الناس من هم مثل الغاق أو النعام يستطيعون أن يهضموا كل ما يقدم اليهم من هذه الصنوف حتى بعد أن يكونوا قد ملأوا بطونهم من الدسم واللحم والخضر ، لانهم لا يسمحون لانفسهم أن يضيعوا أى شىء سدى • فلئن كان غيرهم الآلات التى تقدم لهم هذا العلف الذى يعتلفونه ، فانهم هم الآلات التى تقرؤه ، فهم يطالعون القصة التاسعة ألفا عن « زيبولون » و « سفرونيا » وكيف أنهم عشقا بعضهما بعضا عشقا لم يعشق أحد مثله من قبل ، ومع ذلك لم يجر عشقهم الصادق هذا لينا سهلا • وعلى كل حال كيف جرى هذا الحب ، وكيف تعثر وكبا ، ثم نهض من كبوته واستأنف مسراه من جديد ، وكيف أن شخصا مسكينا منكود الحظ ، صعد الى برج كنيسة ، وكان الاجدر به ألا يصعد الا الى القبة وحدها • ثم بعد أن يكون الروائى السعيد قد وصل الى ذلك الحد من غير ضرورة ولا حاجة ، اذا به يدق الناقوس ليسمع العالم كله كى يجتمعوا ويصغوا • يا الهى ! كيف استطاع هذا أن ينزل بعد أن وصل الى ماوصل ؟ أما أنا فأرى أن الاحرى بهم أن يحولوا أمثال هؤلاء الابطال الطامحين من أبطال القصص والروايات العالمية الى ديكة آدمية (مثل تلك التى ترى على سطوح المنازل تبين اتجاه الريح) كما اعتاد الناس أن يضعوا أبطالا بين كوكبات النجوم ، ثم يتركوهم يتأرجحون هناك حتى يصدأوا ، ولايسمحون لهم أن ينزلوا أبدا ليضايقوا عقلاء الناس ويعنتوهم بحيلهم وألاعيبهم • فلن أتحرك فى المرة التالية عندما يدق الروائى مثل هذا الناقوس ، حتى ولو احترق مكان الاجتماع كله • ان كتاب The Skip of the Tip Toe Hop قصة من قصص القرون الوسطى كتبها المؤلف المشهور صاحب كتاب Little Tol Tan ستظهر فى أجزاء شهرية ـ اقبال عظيم !لا تحضروا جميعا دفعة واحدة ! قرأ الناس ذلك كله بعيون مفتوحة ، وبفضول بدائى عنيف ، وتناولوه بمعدة لا تمل ، ليست طواياها بحاجة الى ارهاف ، كما يقرأ طفل فى الرابعة من عمره كتاب (سندرلا*) فى طبعة مغلفة بغلاف مذهب ثمنها سنتان ـ من غير أى تقدم أو تحسن أستطيع ادراكه فى النطق ، أو فى اظهار النبرات

(1) Little Reading

أو في التوكيد على بعض المقاطع والالفاظ ، ومن غير أية مهارة أخرى في استخراج المغزى ، أو في ادخاله . فكانت نتيجة ذلك كله كلال البصر وحسره ، وركود حركة كل جهاز حيوى فيهم ، وتميع قدراتهم العقلية وترهلها . فمثل هذا النوع من «خبز الزنجبيل» التافه يخبز يوميا ، وبدءوب أكثر مما يخبز دقيق القمح الصافى أو دقيق الجودار والاذرة تقريبا ويجد له مع ذلك سوقا أنفق وأروج .

ان خير الكتب لم تقرأ بعد ، فلم يقرأها حتى أولئك الذين يقال عنهم أنهم يحسنون المطالعة . فما مبلغ ثقافتنا هنا فى كنكورد ؟ ليس فى هذه البلدة ، مع استثناءات قليلة ، أى ميل الى مطالعة خير الكتب وأحسنها ، ولا الى الكتب الطبيعية ، حتى ما كان منها مكتوبا باللغة الانجليزية ، ويستطيع كل انسان أن يقرأ ألفاظها ويفهمها . ان أولئك الذين تربوا فى الكليات ، ويقال عنهم انهم تربوا تربية أدبية ـ هنا ـ أو فى أى بلد آخر ، لا خبرة لهم بالدراسات الانجليزية القديمة (الكلاسيكية) أوليس لديهم منها الا النزر اليسير . أما من حيث حكمة البشر الموروثة ، و (الكلاسكيات) القديمة ، والاناجيل ، وهى فى متناول كل من يريد أن يطلع عليها ، فليس يبذل ، فى أى مكان ، سوى أضعف الجهود فى سبيل الالمام بها . عرفت حطابا كهلا كان يتناول صحيفة فرنسية ويقرؤها ، ولم يكن يقصد من وراء ذلك الوقوف على الاخبار ، لانه كما يقول ، أرفع من ذلك وأسمى ، بل كان غرضه أن « يستذكر اللغة الفرنسية » ويتدرب عليها ، اذ كان مولده فى كندا . ولما سألته عن خير شىء يستطيع أن يعمله فى هذه الدنيا قال ـ زيادة على هذا ، انه يبغى أن يعمل على المحافظة على لغته الانجليزية وأن يزداد بها علما . وهذا هو مدى مايعمله أولئك الذين تربوا فى الكليات عندنا تقريبا ، أو هو مدى مايطمحون الى عمله ، فانهم انما يتناولون الصحيفة الانجليزية لمثل هذا الغرض عينه . فان فرغ واحد منهم من قراءة كتاب من خير الكتب الانجليزية ، فكم رجلا يستطيع أن يتحدث اليه عن هذا الكتاب عقب الفراغ منه ؟ أما ان فرضنا أنه قد فرغ من مطالعة كتاب من كتب الاغريق أو الرومان مكتوب باللغة الاصلية، ويعرف أهميته ، ويدرك كل الناس حتى من يسمونهم بالاميين الثناء الذى وجه اليه ، فانه لن يجد أحدا يستطيع أن يتحدث اليه عنه ، بل يجد نفسه مضطرا الى التزام الصمت فلا يذكر عنه شيئا . والحق أنه لا يكاد يوجد فى كلياتنا ذلك الاستاذ الذى بعد أن حذق اللغة وتغلب على ما بها من صعوبات ، يكون قد تغلب كذلك على صعوبات روح الفكاهة والشعر عند شاعر من مشاهير شعراء الاغريق، وتكون لديه عاطفة يوحى بها الى القارىء اليقظ الجرىء . أما من حيث الكتب المقدسة ، أو أناجيل العالم ، فمن فى هذه البلدة يستطيع أن يذكر لى أسماءها ، وعنواناتها ؟ فأغلب

الناس لا يعرفون أسمـــاء وحقائق الـكتب المقدسة . ان الرجل ـ وأقصد أى رجل ـ قد يخـرج عن طريقه مسافة كبـيرة ليلتقط دولارا فضيا ، على حين أن هناك ألفـاظا ذهبية قالها أحكم الناس فى قديم الزمان . وقد أكد لنا حكماء كل عصر من العصور التى تلت، ما لها من قيمة ومن شأن ، ومع ذلك فانا لا نتعلم أن نقرأ الا الى مستوى القراءة الخفيفة السهلة ، مستوى الكتب الأولية والمدرسية . أما اذا غادرنا المدرسة فانا لا نقرأ سوى « القراءة الصغيرة » (Little Reading) وكتب القصص التى توضع لصغار الاولاد ، وللشداة المبتدئين . فمطالعاتنا وأحاديثنا ، وتفكيرنا كلها فى مستوى وضـيع كل الضعة ، ولا تصلح الا للاقزام وصـغار الرجال .

انى لأطمح الى التعرف برجال أعظم حكمة ممن أنبتتهم تربة « كنكوردنا » هـذه ، وتكاد أسماؤهم أن تكون مجهولة فيها . فهـل كتب على أن أسمع اسـم أفلاطون* ولا أقرأ كتـابه أبدا ؟ كأنى به كان رجلا من أهـل بلدتى ، ولم أره قط ، أو كأنه جارى الجنب ، ولم أسمعه مرة يتكلم ، ولم أصـغ الى ما فى ألفاظه من حكمة ومن عقل . ولكن ما حقيقة الامر يا ترى ؟ ان محـاورات أفلاطون* التى تحوى كل ما هو خالد فيه ولا تزال جاثمة على الرف القريب منى ، ومع ذلك فانى لم أقرأها بعد . لقد ربينا تربية قاصرة ، وأصبحنا نعيش عيشة وضيعة، فها نحن أميون . وانى لاعترف لكم بأنى ، من هذه الوجهة ، لا أميز تمييزا كبيرا بين أمية أهل بلدتى الذين لا يعرفون القراءة مطلقا ، وبين أمية ذلك الرجل الذى تعـلم ألا يقرأ غير ما هو مخصص للاطفال وضـعفاء العقول وحدهم . انا يجب أن نكون نافعـين صالحين صلاح عظماء الرجال الاقدمين . ولكن ينبغى أن نعرف أولا شيئا عن مدى صـلاحهم هذا ، انما نحن جنس من صغار الرجال لا نرتفع فى تحليقاتنا العقلية عن أنهار الجريدة اليومية الا قليلا .

وليست الكتب كلها جافة ثقيلة مثـل قرائها ، فقد تكون فيها ألفاظ تصدق على أحوالنا كل الصدق ، فلو أنا سمعناها وفهمنا مدلولهـا حق الفهم لافادتنا فى حياتنا أكثر مما يفيـدنا فيها الصباح أو الربيع ، ولربما أضفت عـلى الاشياء كلها لونا جديدا . فكم من رجل حدد بداية عصر جديد فى حياته من اليـوم الذى قرأ فيه كتابا معينا راقه وأثر فيه كل التأثير ! وربما كان موجودا ذلك الكتاب الذى يفسر لنا ما يصادفنا مما نعده معجزات ، نقصر عن ادراك كنهها ، ويكشف لنا عن أخرى غيرها جديدة . وقد نجد الامور الحاضرة التى لا يتسنى ، حتى التلفظ بها والتعبير عنها ، قد ذكرت فيهـا فى موضع ما . فتلك المشكلات نفسها ، التى تعنينا وتقلقنا وتحيرنا قد خطرت بدورها من قبـل للحكماء كافة من غير استثناء أحد . وقد أجاب

كل حكيم منها عنها بحسب مدى مقدرته ، وعبرعنها بعباراته ، وبمسلكه فى حياته . وزيادة على ذلك فبالحكمة تتعلم السماحة والكرم . فالرجل الاجير المنعزل الذى يعمل فى مزرعة فى ربض من أرباض كنكورد ، الذى حدث له بعث جديد ، وحدثت له خبرة دينية خاصة ، فدفعه ايمانه ، كما يعتقــد ، الى أن يصطنع الرزانة الصامتة والانطواء على نفسه ، هذا الرجل قد يعتقد أن هذا ليس بحقيقة . ولكن زرادشت قد سار فى هذا الطريق منذ آلاف من السنين مضت ، وحصل على هذه الخبرة عينها . ولمــا كان زرادشت هذا حكيما فقــد عرف آن هذه الخبرة خبرة عالمية فعامل جيرانه بحسبها . ويقال أنه بلغ به الامر أن سن العبادة ، وجعلها أمرا قائما بين النــاس . فليتصل هذا الاجير الفلاح بزرادشت اذن ، وليناجه ، وليعقد صلات كذلك بما لسائر الحــكماء من نفوذ ، يحرر النفس ويطلقها من عقالها .

انا لنفخر بأنا من أهل القرن التاســع عشر ، ونتقدم بخطوات سراع أسرع مما تتقدم به أية أمة خرى ، ولــكن تأملوا فى ضآلة ماتبذله هذه البلدة فى سبيل تثقيف أهلها . أنا لا أحب أن أتملق أهل بلدى ، ولا أحب منهم أن يتملقونى ، فليس فى ذلك ما يقــدمهم ولا ما يقدمنى ، ولــكننا بحاجة الى ما يستثــيرنا ويحفزنا ، وينخسنا كما تنخس الثــيران (وما نحن الا كذلك حقا) كى نسرع فى الخطى . عندنا نظام من المــدارس الشعبية لا بأس به ، نسبيا ، ولكنها مدارس لصغار الاطفال ليس الا . وفيما عدا المدارس الثــانوية التى تكاد تقفــز وتغلق أبوابها فى فصل الشتاء ، والمكتبة التى بدأت تتكون أخيرا بشكل مسكين باقتراح من الدولة نفسها ، فليس عندنا مدارس تصــلح لنا خاصة ، نحن الراشدين . فانا لننفــق على أية سلعة من سلع المواد الغذائية أكثر مما تنفق على غذائنا العقلى ، ولقـــد آن الاوان ليكون عندنا مدارس غير عامة ، وألا ندع مواصــلة تعليمنا عندما نبدأ فى أن نكون رجالا ونساء . لقد حان الوقت الذى ينبغى أن تكون فيه القرى جامعات ، ويكون سكانها من الشيوخ « زملاء » فى هذه الجامعات ، لديهم من الفراغ ــ ان كان لديهم الوسائل المادية حقا ــ ما ييسر لهــم مواصلة الدراسات الحرة بقية حياتهم . فهــل قضى على العالم أن يقتصر على باريس واحدة وأكسفــرد واحدة الى الابد ؟ ألا يصح أن نجعل الطلبة داخلية هنا بين ظهرانينا ، حتى يجدوا سبيلهم الى التــربية الحرة تحت سماء كنكورد ؟ ألا نستطيع أن نستأجر «أبلاردا*» يحاضرنا ؟ وا أسفاه ! فانا باهتمامنا بعلف الماشية وبشئون المتاجر والدكاكين قد حرمنــا التردد على المدارس زمنا طويلا ، أطول مما ينبغى ، فأهملت تربيتنا اهمالا معيبا مؤسفا . ان القرية فى هذه البلاد ، يجب أن تحــل ، من بعض الوجوه ، المكان الذى كان للرجل الشريف فى أوروبا فتكون نصيرة الفنون الجميلة ، اذ لهــا من الثروة مايسوغ لها ذلك ، ولا ينقصها غير

سعة العقل والتهذيب والصقل . ففي وسعها أن تنفق الكثير من الاموال على الاشياء التي يقدرها الفلاحون والتجار ، ولكن الناس يظنون أنه من قبيل الخيال والمحال أن يقترح عليها أحد أن تنفق مالا على الامور التي يراها ناس أذكى من هؤلاء ، أرقى شأنا وقيمة . فقد انفقت هذه البلدة سبعة عشر ألف دولار على انشاء دار للبلدية بفضل السياسة وبفضل حسن الحظ ، ولكن ليس من المحتمل أن تنفق في مائة سنة مثل هذا المبلغ على النواحي العقلية الحية ، التي هي الغذاء الحقيقي الواجب لنا أن نهضمه . فمبلغ الـ ١٢٥ ألف دولار المفروض علينا أن ندفعه في كل سنة للمدرسة الثانوية في الشتاء ، انما يصرف في موضع أفضل مما ينفق فيه أي مبلغ مواز له يجمع من أهالي هذه البلدة . فان كنا نعيش في القرن التاسع عشر فلم لا نستمتع بالمزايا التي يتيحها لنا هذا العصر ؟ لماذا يجب أن تكون حياتنا اقليمية من أي وجهة من الوجوه ؟ فان كنا نطالع الصحف فلماذا لا ندع قراءة الاحاديث عن بوسطن ، ونتناول فورا خير صحيفة عملية في العالم ؟ بدلا من أن نعيش على هراء صحف مثل « الاسرة المحايدة » أو « أغصان الزيتون » هنا في « نيو انجلند » . انا يجب أن نستورد جميع التقارير التي تصدرها الجمعيات العلمية لنرى ان كانت تحتوي على شيء يحسن بنا أن نعرفه . ولماذا نترك أمر اختيار ما نقرؤه لامثال « هارير واخوته » ، و « ردنج وشركاؤه » من الناشرين ؟ .

فكما أن الرجل الشريف ذا الميول المهذبة يحيط نفسه بكل ما يعاون على ثقافته من نبوغ ومن علم ، وفكاهة ، وكتب ، وتماثيل ، وموسيقى ، وأجهزة علمية ، وما الى ذلك ، فكذلك يجب أن تفعل القرية فلا تقتصر على معلم أولي وقسيس وحفار قبور ، ومكتبة قروية ، وثلاثة أفراد مختارين فحسب ، كل ذلك لان أسلافنا من « الحجاج » تصادف أن قضوا شتاء على صخرة مقفرة باردة ، بأمثال هؤلاء . ان العمل الجماعي يتفق مع روح نظمنا ، واني لعلى يقين من أنه ما دامت أحوالنا مزدهرة فان وسائلنا أعظم مما كان منها لدى ذلك الرجل الشريف ، في الازمان الغابرة . فنيو انجلند تستطيع أن تستأجر جميع الحكماء الذين في العالم ليأتوا اليها ليعلموها ، وتقوم هي بكفالتهم ، ولا تعود بعد ذلك اقليمية مطلقا . تلك هي المدرسة ، غير العامة ، التي نحن بحاجة اليها . فبدلا من الاشراف ، يجب أن تكون عندنا قرى شريفة من الرجال ، وان اقتضى الامر فاستغنوا عن قنطرة مما يقام على النهر وسيروا مسافات أطول حوله ، وأقيموا قنطرة واحدة عبر خليج الجهل المظلم الذي يحيط بنا .



اصـــوات

ونحن اذ نقصر كلامنا هنا على الكتب ،حتى ولو كنا لا نتكلم الا عن خيرها وأمعنهـــا فى « الكلاسيكية » وحدها ، ولا نقرأ الا ما كان منها بلغات مكتوبة خاصة ، ليست فى ذاتهـــا سوى لهجات ولغات اقليمية ــ فانا فى خطـــر أن ننسى اللغة التى تنطق بها جميع الاشـــياء والاحداث فى غير مجاز أو استعارة ، والتى هى وحدها اللغة الثرية الحافلة ، والتى تعـــد معيارا يقاس به غيرها • ان ما ينشر من الكتب لكثير ، على حين ما يطبع منها قليل • فان أحدا لا يتذكر أشعة الشمس التى تدخل من خلال ضلفة نافذته ، اذا ما أزيلت هـــذه الضلفة بأكملها ؛ وليس ثم طريقـــة ولا مادة دراسية ما يمكن أن تحل محل ضرورة أن نكون دائما متنبهين يقظين • فما دراسة التاريخ أو الفلسفة أو الشعر ، مهمـــا أحسنا اختيار ما ندرسه منها ، وما خير مجتمع ، أو أبدع نظام يتبع فى الحياة ــ اذا ما قيس بالتدرب على النظر دائما الى ما نريد مشاهدته ؟• أتبغى أن تكون قارئا أو مجـــرد طالب علم فحسب ؟ أم تبغى أن تكون مشاهدا يلاحظ ما حوله ويراه ؟ عليـــك اذن بقراءة مصيرك المقدر عليك وانظر ما أمامك ثم سر قدما نحو المستقبل •

لم أقرأ كتبا فى أول صيف قضيته فى الغابة ، فقد كنت مشغولا بموالاة الفول ومشطه ؛ على أنى كثيرا ما قمت بما هو خـــير من ذلك وأفضل ، فقد كانت ثمة أوقات لا أستطيع فيها أن أضحى بخير ما فى اللحظة الحاضرة وبصفوتها فى سبيل أى عمل ، عقليا كان أو يدويا ، اذ أنى أحب أن يكون لحياتى هامش عريض • فأحيانا، صباح يوم من أيام الصيف ، بعـــد أن أقضى حمامى المعتاد ، كنت أجلس عند مدخل دارى المشمس ، من شروق الشمس حتى غروبها ، غارقا فى أحلامى ، بين أشجار الصنوبر والجوز الامريكى ، والسماق ، فى وحدة هادئة لا يعكر صفوها شىء ، وتصدح الاطيار حولى أو تطير خلال بيتى فى غير جلبة ، ولا ضوضاء ، وأظل على ذلك الى أن تعود الشمس للافول وتدخل أشعتها بيتى من النافذة القريبة ، أو الى أن تحدث ضجة من عربة من عربات المسافرين تجرى فى الطريق العام البعيد ؛ فعندئذ أفيق من أحـــلامى

وأتذكر أن الوقت يمر . وكنت فى أمثال هذا الموسم أنمو فى الليل كما تنمو الأذرة ، فكانت مواسم أفضل بكثير مما يمكن أن يكونه أى شغل يدوى ، لانها لم تكن أوقاتا اقتطعت من حياتى وأنقصت منها ، بل كانت مزيدا يضاف الى ما كتب لى من العمر المعتاد ؛ وعندئذ أدركت ما يقصده المشارقة بالتأمل والتخلى عن الاشغال . ولم أك فى الغالب الاغلب أحفل كيف كانت الساعات تمر ، كأن النهار انما كان يمضى قدما لينير لى عملا من أعمالى . كان صباحا ، واذا بنا قد هجم علينا المساء ولما ننجز بعد شيئا ذا قيمة تذكر . فبدلا من أن أغنى وأغرد كما تفعل الطير ، ظللت صامتا أبسم من حسن حظى الموصول . فكما أن للعصفور تغريده ، وهو جاثم على شجرة جوز أمريكى أمام بيتى فكذلك أنا ، لى ابتسامتى ، أو لى ان شئت ، تغريدى المكبوت الذى يستطيع العصفور أن يسمعه من عشى . ولم تكن أيامى ، من أيام الاسبوع تحمل طابع أى اله من آلهة الوثنية[1]، ولم تكن موزعة ساعات تمضى بحسب دقات الساعة ، فقد كنت أعيش عيشة هنود البورى الحمر الذين قيل عنهم أنهم لايملكون سوى لفظة واحدة للدلالة على أمس واليوم وغدا ؛ وكانوا يعبرون عن تنوع هذه المعانى بالاشارة الى الخلف للدلالة على البارحة ، والى الامام للغد ، والى أعلى لليوم الذى هم فيه الآخذ فى الزوال . وليس من شك فى أن هذا كسل محض فى نظر أهل بلدى ولكن ، لو أن الطير والزهور آخذتنى وقدرتنى بحسب معاييرها هى لما وجدت بى نقصا ولا قصورا . حقا ان الانسان يجب أن يجد فرصه وأحواله كلها فى نفسه هو ، فاليوم الطبيعى هادىء كل الهدوء ، وليس له أن يلوم انسانا ما ، على كسله هذا .

ان لى فى طريقة معيشتى ميزة واحدة على الاقل أمتاز بها على أولئك الذين يضطرون الى أن يتجهوا الى الخارج للبحث عن وسائل للتسلية ، فيولون وجوههم شطر الاندية والمجتمعات والمسارح . فميزتى أن حياتى نفسها أصبحت هى تسليتى وسلوانى ، فلم يحدث أن ركدت مرة أو توقفت عن أن تكون أبدا جديدة ؛ فقد كانت دواما مسرحية كثيرة المناظر ، لا نهاية لها . فان كنا دائما نكسب قوتنا حقا ، ونرتب حياتنا بحسب أحدث آخر نظام تعلمناه وأتقناه ، لما كان لنا أن نشكو أبدا الملالة والسأم . فما عليك الا أن تتبع ما يوحى به اليك عقلك وتلتزمه بدقة كافية ، فلن يتأخر عن أن يريك منظرا جديدا فى كل ساعة . لقد كان العمل المنزلى مسلاة ممتعة سارة لى ، فاذا ما اتسخت أرضية بيتى استيقظت مبكرا وأخرجت الاثاث كله من البيت ووضعته على الكلأ . ولم يكن السرير والفراش سوى

---

(١) أسماء أيام الاسبوع فى اللغات الأوربية مشتقة من اسماء آلهة الوثنيين ، مضافا اليها لفظة Day فى الانجليزية أو Tag فى الألمانية مثلا . فلفظ Thursday يتكون من Day و Thurs التى أصلها Thor و Thor هو اله الرعد عند الاسكندنافيين .

شيء واحد ، ثم بعد ذلك ألقي الماء على البلاط ، وأذر عليه رملا أبيض أجلبــه من البركة ، وأدعك البــلاط بالمكنسة حتى يصــير أبيض نظيفا • ولما يفرغ القرويون من تناول فطورهم تكون شمس الصباح قد جففت بيتي الى حــد يجعلني أعود اليه وأدخله ، من غير أن يقطــع على تأملاتي وأفكاري شيء ما • وكان من دواعي مسرتي واغتبــاطي أن أرى جميــع أدواتي المنزلية ملقاة على العشب اتخذت شــكل كومة صغيرة كأنها خزمة «نوري» ، وأرى منضــدتي المثلثة الأرجل التي لم أرفع عنها الكتب والاقلام والمداد ، التي كانت عليهــا ، ماثلة أمامي بين أشجار الصنوبر والجوز الامريكي كأنهــا هي الاخرى كانت مسرورة بأن تخرج ، ولعلها لم



تكن راضية أن تعود فتدخــل البيت ، حتى وددت أحيانا لو أني أقمت عليها صوانا واتخذت عندها مقعدا لي • وكان من الخــير لي أن أرى الشمس تسطع على هذه الاشياء ، وأسمع أزيز الرياح الطليقة وهي تهب عليها ، اذ لا يخفى أن معظم الاشياء العادية المألوفة لنا تبدو رائعــة شائقة وهي خارج المنزل أكثر مما تبدو لنــا وهي داخله • فهذا عصفور جثم على الغصــن القريب مني ، وتنمو ضروب الحياة الخالدة تحت المنضدة ، كما تنمو شجيرات العليق الاســود حول أرجلها ، وانتثرت ثمار البلوط وثمــار القسطل وأوراق الشليك حــول المكان كله ، كأنما كانت هذه هي الطريقة التي تحولت بها هذه الاشياء الى أثاث لمنازلنــا ـ الى كراسي وموائد وسرر ـ لانها كانت في يوم من الايام شجرات قائمة بينها •

وكان بيتي يقع على سفح ربوة عند حافة الغابة الكبرى مباشرة ، وسط غابة فتيــة من أشجار الصنوبر الراتنجي والجوز الامريكي ، وعلى بعد ثلاثين مترا من البركة • وكان ثمة طريق ضيق منحدر يوصل اليها ، وكان ينمو في الفناء الذي قبالة الدار ، الشليك والعليــق الاسود وحشيشة حنا ، ذلك النبات الذي يدوم مدى الحياة ، وكذا العود الذهبي وشــجرات البلوط وكريز الرمل والعليق الازرق وحب العزيز • حتى اذا ما حل شهر مايو زين كريز الرمل جوانب الطريق بزهوره الرقيقة الغضة المرتبة أشكالا تشبه المظلات وتقوم بهيئــة أسطوانية حول جذوعه القصيرة • وكانت هذه الجذوع ، من جراء ثقل الكريز الجميل المتوسط الحجم عليها في فصل الخريف ـ كانت تقع على كل جانب كأنها الاشعة • هذا ، وقد ذقتهــا

مرة تحية مني للطبيعة ، على الرغم من طعمها الذى لا يكاد يستساغ . أما السماق Rhus glabra فكان ينمو غزيرا حول البيت ، ويمتد صعدا على الجسر الذى أنشأته . وقد يظل ينمو حتى يبلغ فى أول موسم له خمس أقدام أو ستا ، فأوراقه الريشية العريضة المدارية متعة للناظرين على الرغم من شكلها الغريب غير المألوف . وعندما ترخى البراعم الكبيرة فجأة فى أواخر فصل الربيع من عصا جافة كانت تبدو كأنها ميتة ، تنمو وتترفى بسحر ساحر فتصبح أغصانا خضراء غضة رشيقة قطرها نحو البوصة . وكانت تنمو فى غير اكتراث فتحمل أوصالها الضعيفة أكثر مما تطيق حتى تنوء بحملها . وبينا أنا جالس عند نافذتى ، والجو ساج هادىء ، لا تكاد تتحرك فيه نسمة ما ، كنت أسمع أحيانا صوت تقصف غصن ناضر رقيق من أغصانها ينكسر فجأة من جراء ثقله ويسقط على الارض فى شكل مروحة . وفى شهر أغسطس تتخذ كتل التوت الضخام التى كانت قد اجتذبت كثيرا من النحل البرى ابان ازدهارها - تتخذ تدريجيا لونها القرمزى ، وملمسها المخملى ثم تنحنى هى الاخرى من جراء ثقلها وتنكسر أطرافها الرفيعة .

وذات مساء ، وأنا جالس هذا الصيف عند نافذة بيتى اذا بالصقور تحلق فوق الاراضى الخالية من الغابات ؟ وكانت حركات الحمائم البرية ، وهى تطير مثنى وثلاث ، مارة أمامى ، أو وهى جاثمة فى سكون وصمت على أغصان شجر الصنوبر الابيض خلف بيتى ، تجعل للهواء صوتا مسموعا . وقد يغض عقاب من عقبان البحر سطح البركة الاملس الزجاجى عندما ينقض على سمكة يصيدها ، ويتسلل (منك) من المستنقع أمام البيت فيمسك ضفدعا من عند الشاطىء ، وينحنى السعادى تحت ثقل العصافير التى تظل تنب من مكان الى مكان . ثم فى نصف الساعة الاخير سمعت أصوات عربات القطار تخفت ، ثم تعود فتعلو بانتظام فى مثل ايقاع الحجل . وكانت عربات القطار تحمل الركاب من بوسطن الى الريف ، ذلك لانى لم أكن أعيش خارج هذا العالم الى الحد الذى كان يعيش فيه ذلك الصبى الذى وضعه أهله ، كما بلغنى ، عند مزارع شرقى المدينة ، فلم يلبث أن هرب وعاد الى بيته فى حالة يرثى لها ، بعد أن برح به الحنين الى وطنه ، لانه لم ير فى حياته مكانا خاملا مستوحشا منعزلا عن العالم مثل هذا المكان الذى نزح عنه الناس كافة الى مكان آخر ، فلم يعد أحد يسمع فيه حتى ولا صوت صفارة القطار . هذا ، وانى لأشك كل الشك ان كان فى مساتشوستس الآن مكان مثل هذا المكان .

« والحق أن قريتنا قد أصبحت هدفا
لسكة من هذه السكك الحديدية السريعة

فعلى سهلنا الهادىء المسالم صرت تسمع اسمها اللطيف : «كنكورد» .

تمس سكة فتشبرج الحديدية البحيرة على بعد ٥٥٠ ياردة جنوبى المكان الذى أقطنـــه . وكان من عادتى أن أذهب الى القرية عن طريق جسر السكة الحديدية ، فكأنى صرت عـــلى اتصال بالناس والمجتمع بوساطة هـذا الجسر ، فأرى الذين يركبون قطار البضاعة ، طيـــلة الطريق كله ، ينحنون تحية لى كما ينحنـــون لشخص يعرفونه من قبـل ، ذلك لانهم كانوا يمرون بى كثيرا حتى حسبونى موظفا من موظفى السكة . وانى لكذلك حقا . وأتمنى أن أكون ممن يعملون فى اصلاح الطريق فى مكان ما فى فلك هذه الارض .

وكان صوت صفارة القطار يخترق غاباتى فى الصيف وفى الشتاء ، فيدوى فيهـــا كأنه صوت صقر يطير فوق حظيرة لمزارع ، فتدلنى هذه الصفارة على أن كثيرين من تجـــار المدن الذين لا يستقر بهم مقام ، سيصلون الى البلدة ، أو أن جماعة من تجار الريف المغامرين سيصلون من الجهة الاخرى ، لانهم عندما يصـلون الى احدى الدوائر يكونون قد أرســـلوا نذرهم بالخروج عن الطريق الى دائرة أخرى ، وقـد تسمع هذه النذر أحيانا فى دائرتى مدينتـــين معا . فها هى أصناف « بقالتك » أيها الريف ، وها هو تموينكم أنتم أيهـــا الريفيون ! فليس ثم رجل واحد يبلغ به الاستقلال فى مزرعتـه أن يجرؤ ويقول لا ! على حين تقول صـــفارة القروى : نعم ! ودونكم أثمانها : أخشاب مثل كباش الحرب الطويلة ، تسير بسرعة عشرين ميلا فى الساعة صوب أسوار البلدة ، وكراسى كثيرة تكفى لاجلاس جميع المتعبين المرهقـين المثقلين الذين يقطنون داخل هذه الاسوار . فبمثل هذه الاساليب الجافية من ضروب التأدب والمجاملة يقـــدم الريف كرسيا الى المدينة . فكل التلال المكتسية بشجيرات « الجايلوسافيا » الهندية قد عريت من شجيراتها الآن ، وجميع مراعى الآس البرى قد جرفت الى المدينة جرفا . فالى المدينة يصعد القطن ، ومنها تنزل المنسوجات القطنية ، واليها يصعد الحرير ، وتنزل منهـــا المنسوجات الصوفية ، واليها تصعد الكتب وتهبط عقول الناس الذين يكتبونها .

عندما أصادف القاطرة ورتل العـربات خلفها تجرى بسرعة حـــركة الارض ـ أو بالحرى تجرى بسرعة النجم المذنب ، لان الناظر اليها لا يدرى ان كان هذا المذنب سيزور نظامنا الشمسى مرة أخرى بتلك السرعة عينها ، وفى ذلك الاتجاه نفسه أم لا يزورها ، اذ لا يبدو أن مدار فلكه قوس تسير فى اتجـــاه دائرى ـ عندما أصـادف القاطرة وسحب دخانهـــا التى كأنها الاعلام تخفق وراءها فى مثـل التيجـان المذهبة والمفضضة ، مثل الكثير من تلك السحب الزغبية التى شاهدتها مرارا فى أجواز السماء تنشر كتلها فى الضوء ـ يخيل الى أن « نصف الاله » الســـائح هـذا ، الذى يكره السحب ويقسرها ، سيتخذ بعد قليل من شفق الشمس

الغاربة حلة يكسو بها عرباته • وعندما أسمع بذلك الحصان الحديدي، والربى تتجاوب بأصداء صوته الذي كأنه الرعد القاصف ، ويهـــز الارض أمامه هزا ، ويتنفس من منخريه نيرانا ودخانا (ولست أدري ، ضمن أي نوع من حصان*مجنح ، أو من تنين*ناري سيضعونه في الميثولوجيا الحديثة) يبدو أن الارض قد وجدت لها الجنس الجدير بسكناها • فان كان كل شيء كما يبدو ، وان كان الناس قد جعلوا من العناصر خداما لهم يسخرونها لاغراضهم السامية حقا ، وان كانت السحابة التي تهوم فوق القـاطرة وتنضح عرقا من جراء ماقامت به من أعمال البطولة ، سحابة كريمة هتانة مثـل تلك التي تسبح فوق حقل الفـــلاح ـ ان كان كل ذلك كذلك فلسوف تصحب العناصر والطبيعة ذاتها الناس في غبطة وانشراح ، وترافقهم في مهماتهم وشئونهم وتصبح لهم حراسا يحافظون عليهم •

هذا ، واني لأشاهد عربات الصبـاح فأشعر بالشعور نفســه الذي أشاهد به الشمس وهي تشرق من خدرها ، فهي ليست أكثر منها انتظاما • فأرتال السحب الممتدة خلف العربات لمسافات طويلة ، والتي تظل ترتفع صعدا متجهة نحو السماء، على حين تكون عربات القطار متجهة نحو بوســطن ، تخفي عني قرص الشمس لحظات ، كما تخفي عني حقـــلي البعيد • فهذا قطار سماوي ، وليس قطار العـــربات الصغير الذي يلتزم الارض سوى سن الرمح •

لقد استيقظ خادم اسطبل الحصان الحديدي مبكرا صباح هذا اليوم الشاتي ، على ضوء النجوم وسط الجبال ليعلف حصانه ويسرجه ، وكذلك تيقظت النار لتنفث فيه الحرارة الحيوية وتجعله ينطلق • فليت هذا المشروع كان بريئا خالصا مثلما هو مبكر هذا التبكير ! فان تراكمت الثلوج عالية بعضها فوق بعض ، ألبسـوا هذا القطار أحذية خاصة بالثلج ، واذا به يحدث ، بمحراث ضخم عملاق ، أخدودا عميقـــا في الثلج يمتد من الجبال الى شاطيء البحر ، تلقى فيه العربات بجميع من فيها من الركاب القلقين، وتنثر البضائع في البلاد ، بدلا من أن تنثر فيها الحبوب ، كما تفعـــل آلة البذار • ويظل هذا الحصان الناري يطير على الريف ، ولا يقف الا ريثما يستريح صاحبه ويستجم • فكان يوقظني وقع حوافره وغطيطـه الذي يتحداني عنـــد منتصف الليل ، وذلك عنـــدما يواجه في وادصغير ناء في الغابات ، العناصر التي كانت معتقلة في الجليد وفي الثلج • ثم لا يصل الى مربطه الا مع نجم الصبـــاح كي يستـــأنف رحلاته وأسفاره من جديد من غير أن يستريح ، ومن دون أن ينال حظه من النعـاس • وقد أسمعه مساء في اسطبله وهو ينفس عنه الطاقة الزائدة عن حاجته مما تجمع فيه منذ الصباح كي تهدأ أعصابه الثائرة ، وتبرد كبده الحـري ويهدأ رأسه ببضع ساعات من النوم يرتاح فيها • فليت هذا المشروع كان من البطولة والسلطان بقدرما فيه من طول ، ومن عدم الشعور بالتعب !

ففى الغابات غير المطروقة ، عند أطراف المدن التى لم يجس الصياد خلالها سوى مرة واحدة فى النهار ، كانت هذه الصالونات الفخمة المتألقة بالانوار تندفع فى أحلك الليـــالى ، وتتوغل مسافات طويلة فيها عـلى غير علم ممن بها من الناس • فتراها تقف هذه اللحظة عند محطة فاخـــرة فى بلدة أو فى مدينة ، حيث احتشدت جماعة من الناس يتحدثون ويسمرون، واذا بها فى اللحظة التالية تقف فى المستنقع المظلم الكئيب ترهب البوم وتفزع الثعـــالب • لقد أصبح قيام العربات ووصولها أهم حـوادث اليوم فى القرية ؟ فهى تذهب وتجىء فى انتظام ودقة ، ويسمع صوت صفـارتها من بعيد حتى ألف الفلاحون أن يضبطوا ساعاتهم بحسبها • وهكذا ترى أن مؤسسة واحدة أحسنت ادارتها، تستطيع أن تنظم شئون قطر بأسره • ألم تر أن الناس قد تحسنوا بعض التحسن فى مواظبتهم منذ أن اخترعت السكك الحديدية ، وأنهـــم أصبحوا يتكلمون ويفكرون فى المحطة بأسرع مما كانوا يتكلمون ويفكرون ، وهم وقوف فى مراكز عربات السفر القديمة العادية ؟ ان ثمة شيئا يكهرب فى جـــو المحطة الاولى • ولقد دهشت من تلك المعجزات التى استحدثتها هذه المحطة • فأدهشنى مثلا أن يكون بعض جيرانى موجودين بها عندما يدق الجرس ، وقد كنت أتنبـأ لهم دائما بأنهم لن يصـــلوا الى بسطن باستخدام وسيلة سريعة للتنقل مثـل هـــــذه الوسيلة • فعبـارة « أن تؤدى أمورك عـــلى طريقة السكة الحديدية » أصبحت الآن مثـلا سائرا يجرى على كل لسان • وانه لمن الخير أن تحذرك المرة بعد المرة ، فى اخلاص ، قوة ما وتنبهك الى أن تأخذ حذرك وتبتعد عن طريقها ؟ فليس هنا مجال لان تقف حتى تقرأ « قانون التمرد » ، فليس ثم نيران تطلق من فوق رؤوس الجماهير المحتشدة • لقد أنشأنا قدرا من الاقدار ، وأوجدنا «أتروبوسا*» لا يحيـد أبدا ، عن طريقه ، (وليكن هذا اسم قاطرتكم) ويعلن للناس أنه فى ساعة معينة ، وفى دقيقة محددة ، ستنطلق السهام نحو نقطة معينة من نقاط البوصلة ؟ ومع ذلك فهى لا تتدخل فى عمـــل أى انسان • فالتلاميذ يذهبون الى المدارس فى الطريق الاخرى • هذا ، وانا لنعيش بواســـطتها عيشة أكثر استقرارا ، وأكثر اطرادا • وبذلك فانا جميعا ننشأ على أن نكون من أبناء (تل*) فالجو زاخر بسهام غير مرئية ، وكل الطريق غير طريقك أنت ، طريق القدر ، فالزم طريقك اذن ولا تحد عنه •

ان ما تتضمنه التجارة من شـجاعة ومغامرة يجعلها حبيبة الى نفسى ، فهى لا تمســك احدى يديها بالاخرى ثم تصلى ليوبيتر* وتضرع اليه • انى أرى هؤلاء التجار كل يوم يمضون الى أشغالهم فى شجاعة بالغة واطمئنان ورضى كبيرين يعملون أكثر مما يظنـــون أنهم يؤدونه فعـلا ، وربما كانوا فيما يشتغلون به من الاعمال أفضل مما لو كانوا هم الذين « صـمموها »

ووضعوا خطوطها الرئيسية بأنفسهم عن قصد وعمد • فتأثرى بشجاعة الذين قضوا نصف ساعة واقفين فى الخطوط الامامية فى « بونافستا[1] » لاقل من تأثرى بتلك الشجاعة الثابتة المستبشرة التى يبديها أولئك الرجال الذين يتخذون من محراث الثلج موئلا لهم يقضون فيه فصل الشتاء ، أولئك الذين ليس لديهم شجاعة الساعة الثالثة صباحا فحسب ، تلك الشجاعة التى وهل نابليون وظنها خطأ أنها أندر ضروب الشجاعة ، بل الذين شجاعتهم لا تتجه الى الراحة والسكون مبكرة هذا التبكير ، والذين لا يمضون الى مخادعهم الا عندما تنام العاصفة أو عندما تتجمد أعصاب حصانهم الحديدى • ففى هذا الصباح من أيام ذلك « الثلج العظيم » الذى لا يزال ثائرا يجمد دماء الرجال فى عروقهم ، قد أسمع صوت جرس قاطراتهم المكتوم من خلال الضباب الحادث من أنفاسهم الباردة ، ويعلن لنا وصول العربات من غير تأخر طويل عن ميعاد وصولها المحدد لها ، على الرغم من مقاومة عاصفة ثلجية من عواصف « نيو انجلند » الشمالية الشرقية • فأرى الحراث وقد تغطوا بالثلوج ، تطل رؤوسهم على سكين المحراث التى تعمل فى قلب أشياء غير «الاقاحى» وعشوش جرذان الحقول ، مثلما تطل جنادل « السيرانفادا » التى تشغل فى الكون محلا خارجيا •

ان التجارة واثقة من نفسها ، وقور ، يقظة ، مغامرة ، لا تمل ، على غير ما كان متوقعا منها أن تكون ، فضلا عن أنها طبيعية فى طرقها التى تسلكها ، أكثر جدا من كثير من تلك المشروعات الخيالية والتجارب العاطفية • ومن هنا كان نجاحها الفريد • فلا غرو ان كان يطيب لى ويسرنى أن أرى قطار البضاعة يمر ، وأشم رائحة البضائع التى تفوح على طول الطريق من على «لونج هوارف» الى بحيرة «تشامبلين*» فتذكرنى بالاقطار الاجنبية والشعاب المرجانية والمحيطات الهندية ، والاقاليم المدارية ، باتساع رقعة هذه الكرة الارضية ، فأشعر أنى مواطن من مواطنى هذا العالم كله ، عندما أشاهد الخوص الذى سيغطى كثيرا من الرؤوس التى علاها الشيب من أهل نيو انجلند* ، فى الصيف التالى ، وأرى قنب مانيلا* وقشور جوز الهند والاشياء القديمة البالية ، والاكياس ، والحديد « الخردة » ، والمسامير التى علاها الصدأ ، وأرى العربة المحملة بالاشرعة الممزقة ؟ وانها لأشرعة تهمنى الآن وتسترعى نظرى ، اذ أقرأ فيها أكثر مما لو حولت الى ورق وكتب مطبوعة منشورة • فمن ذا الذى يستطيع أن يكتب تاريخ العواصف التى مرت بها هذه الاشرعة ويصفه لنا وصفا حيا ، بمثل ما تصفه لنا هذه الفتوق والشقوق نفسها ؟ فهى «تجارب طبع » لا تحتاج الى تصحيح • وترى فى القطار خشبا من غابات «مين*» لم يرسله أصحابه الى البحر بطريق مياه الفيضان الاخير ،

(١) اسم لموقعة حدثت فى الحرب المكسيكية سنة ١٨٤٧ .

د ارتفعت أثمانه أربعـــة دولارات فى الالف بسبب ما خرج منه ، وبسبب ما تشقق وتلف ــ شب من الصنوبر ، والتنوب الفضى والارز ، وهى على أربع مراتب : الاولى والثانية والثالثة الرابعة ، وكانت الى زمن قريب تعد كلها مرتبة واحدة تخفق فروعها على الدب ، وعلى «الموس*» «الكاريبو*» ثم تأتى العربة المحمـــلة بكمية من نوع جيد من جير (تمسن) ، تنقـــل الى سافات بعيدة بين التلال قبل أن يتم اطفاؤها ، ثم بالات من خرق وقصاصات شتى من كل لون صنف ، هى أدنى نوع ينحط اليه القطن أو التيل ، وهى النتيجة الختامية التى يسفر عنهـــا عمل المـــلابس ، من أزياء وموضات ، لم يعد أحد ينادى بها الآن ويعمل على ترويجها اللهم لا ان كان ذلك فى مدينة «ميلووكى» ، مثـــل تلك الاقمشة المطبوعة كالشيت و « الموسلين » وما اليهـــا ، مما هو مصنوع فى بلاد الانجليز وفى فرنسا وأمريكا ؟ وهى كلها خرق جمعت ن جميـــع الاحياء ــ أحيـــاء الفقراء وأحياء الاغنياء معا ، لتكون ورقا ذا لون واحد ، أو ذا لوان قليلة محدودة ليس الا . وسوف تكتب عليها قصص منتقاة من الحياة الواقعية ، منهـــا الوضيع ومنها السامى النبيل ، وكلها يقوم على الحقائق كما يقولون . وثم عربة مغلقـــة تفـــوح نها رائحة السمك المملح ، رائحة نيو انجلنـــد القوية ، ورائحة التجارة ، مما يذكرنى بمصايد « الجراند بانكس » وبمصايد الاسماك الاخرى . فمن لم ير سمكة مملحة محفـــوظة قد أتقنت معالجتهـــا بالملح أيما اتقـــان حتى لم يعد شىء يستطيع أن يفسدها ، وتفوق مثابرة القديسين وتخجلهـــا . وانك لتستطيع أن تكنس بهـــا الشوارع ، أو ترصفها ، أو تشق بها أخشابك الصغيرة التى توقد بها نارك ؟ ويستطيع سائق البقر أو الخيل أن يحمى بها نفسه وعربتـــه المحملة ، من وهج الشمس ومن الريح والمطر ، ويعلقها التاجر على بابه ــ كما فعل مرة أحد التجار فى كنكورد ــ لتكون علامة لافتة عندما يبدأ العمل فى محل تجارته ، حتى لا يستطيع فى النهاية أقدم زبون عنده أن يقول على سبيل التوكيد ان كانت حيوانا ، أو نباتا ، أو معدنا من المعادن . ومع ذلك كله ، تظل هـــذه السمكة صافية نقية صفاء ندافة الثلج ونقاءها ، واذا ما وضعت فى القدر وغلت ، خرجت رمادية اللون تصلح للغداء فى يوم الاحد . ثم تلى ذلك الجلود الاسبانية بذيولها التى ما زالت محافظة على ما بها من التواء ، وعلى زاوية الميل التى كانت لهـــا عندما كانت الثيران التى تحملها تجرى على سهول «الباماس*» فى شمال أمريكا الجنوبية ، وهو طرز ينم عن العنـــاد ، ويدل على أن معـــالجة الرذائل المغروسة فى النفوس أمر عضال ، يكاد يدعو الى اليـــأس من أى أمل فى النجاح فيه . وانى لاعتـــرف أنى اذا ما عرفت نزعات أى امرىء ، ووقفت على ميوله الحقيقية لم يكن لى أى أمل ، من الوجهة العمليـــة ، فى أن أغيرها الى ما هو خير منها ، أو أسوأ ، فى هذه الحالة التى نحن عليها من الجحود . وكما يقول المشارقة

انك «مهما أدفأت ذيل الكلب وكويته وربطته ومن حيث ضخامة البطن ، يكون قد كرع منه سنة ، فانه سيظل محافظا على شكله الطبيعي » •والعلاج الوحيد الناجع لهذه الامور العضالة العنيدة من أمثال هذه الذيول ، هو آن تعمل منهاغراء ، وهو ـ على ما أعتقد ـ ما يصنع بها عادة ، وعندئذ تبقى ملتصقة ثابتة • وها هوبرميل من العسل الاسود أو الخمر ، مرسل باسم « جون سميث » بمدينة « كتنجفيل » من أعمال ولاية «فرمونت*» • وجون سميث هذا تاجر ، محله عند «جبال جرين» يستورد الخمور للفلاحين الذين يسكنون على مقربة من أرضه التي يعيش فيها ، قد يقف على منصة ما ، يفكر في أحدث ماورد من الخمور الى الشاطىء ، وفي مدى تأثيرها في الاثمان التي يبيع بها ،فيخبر زبائنه في هذه اللحظة ، كما أخبرهم عشرين مرة هذا الصباح أنه ينتظر ورود شيء من أجود أصناف « الخمور » ، وستصله هذه (الرسالة) بالقطار التالي • وهذا النوع هوما أعلن عنه في جريدة « الكتنجفيل تايمز » !

وبينما تصعد هذه الاشياء ، تهبط أخرى غيرها • وعلى أثر أزيز طرق سمعي ، رفعت بصري من الكتاب الذي أطالعه ، فاذا بي أرى شجرة باسقة من أشجار الصنوبر ، قطعت من على الجبال الشمالية البعيدة ، وشقت طريقها على جبال جرين وكنيتيكت ، وانطلقت كالسهم عبر البلدة في مدى عشر دقائق • وينـدر أن تكون عين أخرى قد شاهدتها ، فقد مضت لتكون «سارية لامير عظيم من امراء البحار[1]»•

أصغ ! فها قد وصل ذلك القطار الذي يحمل الماشية من آلاف التلال ، كما يحمل أقفاصا للغنم ، واسطبلات ، وحظائر بقر ترى عالية في الهواء ، وصبيان رعاة بين قطعانهم • فهو يحمل منها كل شيء الا مراعي الجبال ذاتها ، ينقلها ويجري بها كأنها أوراق شجر أطارتها عواصف شهر سبتمبر من على الجبال ، وقد امتلأ الهواء بثغاء الغنم وخوار العجول ، وتزاحم الثيران ، كأن الذي يمر كان واديا من الاودية التي ترعى فيها الماشية • واذا مادق الكبش الخصي الذي يتصدر القطيع جرسه ، خلت الجبال تقفز حقا كالخراف ، والآكام تثب كما تثب الحملان[2] • وثم عربة في الوسط ملأى بتجار الماشية تراهم الآن في مستوى قطعانهم التي يمضون بها الى السوق • ومع أن مهنتهم قد زالت ، فهم لا يزالون يحتفظون بعصيهم غير المجدية ، ويتعلقون بها ، كرمز لوظائفهم • ولكن أين كلابهم ؟ فهذا هرج واضطراب حدث بين الماشية ، لقد استغنى عنها وطردت لانها فقدت رائحة الطرائد • ويخيل الى أني أسمعها تعوي خلف تلال « بيتربره » ،أو تلهث على منحدرات جبال جرين الغربية ،

(١) اقتباس من الفردوس الضائع للشاعر الانجليزي ملتون .
(٢) المزامير ـ المزمور الرابع عشر بعد المائة ، (٤)

لقد ذهبت حرفتها هي الاخرى ودالت، وانحطت قيمة وفائها وذكائها عن المستوى المعهود فيها ، ولسوف تتسلل الى جحورها مجللة بالعـــــار والخجل ، أو أنها قد تعود متوحشة ، وتعقـد اتفاقا مع الذئاب والثعالب • وهكذا مضت حياة الرعى وولت ، ولكن الجرس مازال يدق ويجب على أن أبتعد عن الطريق ، وأدع العربات تمر ، ولكن

ماذا يهمنى من أمر السكة الحديدية ،
فأنا لا أذهب أبدا
لأرى أين تنتهى •
فهى تملأ بضع حفر ،
وتنشىء جسورا لعصافير الجنة ،
وتثير الرمال وتسفيها
وتعاون على نمو العليق الاسود[1]

ولكنى سأجتاز طريقها كما أجتاز الطريق الضيق ـ طريق العربات الذى فى الغـــابة • فلست أود أن تتلف عيناى ، ولا أن تفسد أذناى ، من جـــراء دخان القاطــــرة وبخـارها وأزيزها •

والآن ، وقد مرت بنا العربات ، ومرت معها الدنيا القلقة المضطربة كلها ، ولم تعـد الاسماك فى البحيرة تشعر بصـــوت عجلاتها ـ فقد أصبحت أكثر وحدة مما كنته فى أى يوم من الايام • ففى بقية النصف الثانى الطويل من النهار ، لم يعد ثم شيء يعـــوقنى عن التفكير والمضى فى تأملاتى ، سوى صوت ضئيل يحدثه مسير عربة من العربات ، أو صـــوت زوج من الماشية يسير فى الطريق العام البعيد •

وكنت أسمع النـــواقيس أحيانا تدق فى أيام الآحاد ، فأسمع نواقيس لينكولن وآكتون، وبدفورد ، وكنكورد عندما تكون الرياح مواتية ، أسمعها أنغاما خافتة حلوة كأنها ألحان طبيعية جديرة بأن تنقل الى البرية ، اذ بعد مسافة كافية يكتسب هـــذا الصوت من فوق الغـــابات نوعا متذبذبا من الغمغمة ، كأن أوراق الصنوبر التى عند الافق كانت تمر فوق أوتار قيثـارة • لكل صوت يسمع من أقصى مسافة ممكنة يحدث أثرا واحدا بعينه لا يتغير ، وهو ذبذبة من القيثارة العالمية ، مثلما يجعل الجو ربوة بعيدة عن الارض ، أمرا شيقا يروق أبصارنا ويسترعيها بما يضفيه عليها من اللون اللازوردى • ففى هذه الحالة طرقت أذنى نغمة استحدثها الهواء ،

(١) من قصيدة للشاعر الأمريكى تشاننج وهو معاصر للمؤلف وصديق له •

وسبق أن تحدثت الى كل ورقة من أوراق الاشجار فى الغابة ـ هى ذلك الجزء من الصوت الذى تناولته العناصر ونغمته ، وترددت أصداؤه بين واد وآخر . وهذا الصدى أصيل الى حد ما ، وهذه الاصالة سبب مافيه من سحر وأساس ماقيه من روعة وفتنة ، فهو ليس مجرد تكرار لما يستحق أن يتكرر فى أصوات النواقيس ، ولكنه جزء منه كان من صوت الغابة نفسها ــ الالفاظ التى تنشدها وتترنم بها حوريه من حورياتها .

وفى المساء كان خوار بقرة بعيدة عن الافق فيما وراء الغابات يدوى فى أذنى ، صوتا عذبا له نغمات ، حتى لأكاد أخطىء فى البداية وأظنه صوت منشدين جوالين ممن كانوا ينشدوننى أحيانا ، قد ضلوا طريقهم بين التلال والوديان . ولكن سرعان ماخاب أملى ، ولكنها خيبة مستساغة مقبولة ، عندما يمتد الصوت وينقلب تلك الموسيقى الرخيصة الطبيعية التى تصدر عن البقرة . هذا ، ولست أقصد أن أتهمكم أو أسخر ، وانما قصدت أن أعبر عن تقديرى لانشاد هؤلاء الشبان عندما أقول انى أدركت ادراكا واضحا أن انشادهم كان يشبه موسيقى البقر ، أنهم انما كانوا تعبيرا مما تعبر به الطبيعة عن نفسها .

وكانت السباد الفرجينية * تغرد ترانيم المساء قرابة ساعة وهى جاثمة على أرومة شجرة عند بيتى ، أو على « مائل » فى سقف البيت . وكانت تفعل ذلك بانتظام فى موسم معين فى الصيف ، وحوالى الساعة الثامنة بعد مرور قطار المساء . وتكاد تبدأ غناءها بدقة عظيمة مثل دقة الساعة ، خمس دقائق عند غروب الشمس . فكانت تلك فرصة نادرة لى لدرس عاداتها وطبائعها . فكنت أسمع فى بعض الاحيان أربعة عصافير أو خمسة منها تصدح معا فى نواح شتى من الغابة ، وكل واحد منها يغنى مصادفة صوتا بعد الآخر . واذ كانت هذه الطيور على مقربة كبيرة منى ، استطعت أن أميز بعد كل نغمة من نغماتها ، ذلك الصوت الذى يشبه قوقأة الدجاجة ، وكثيرا ما كنت أميز فيها كذلك هذا الصوت الغريب الطنان الذى يشبه طنين الذبابة وقعت بين خيوط العنكبوت ، الا أنه أعلى منه نسبيا ، وأحيانا كان واحد منها يدور حولى فى الغابة على بعد بضع أقدام منى كأنه مربوط بخيط ، وربما كان ذلك عندما أقترب من بيضها ، وكانت تغنى طيلة الليل فى فترات ، وتسمعها عند بزوغ الفجر أو قبيله موسيقية كعادتها .

وبينما كانت الطيور الاخرى لا تزال صامتة ، اذا بالبومة الصارخة تأخذ فى النعيب ، فتصيح كما تصيح النوائح صيحتهن المعهودة القديمة « أو ــ لو ــ لو ! » فصيحتها الكئيبة هذه صيحة « بن جونسية » [1] حقا ! فيالهن نسوة حكيمات من نساء منتصف الليل ! فليس

(١) نسبة الى بن جونسون وهو شاعر انجليزى معاصر لشكسبير .

صوتها بذلك الصوت الجاف الذى ينم عن اخلاص ، والذى يرد فى قصائد الشعراء «تو ـ هوت ـ تو ـ هو » ، ولكنه ، فى غير مزاج ، رثاء أوتأبين وقور كل الوقار ، مما ينشد على المقابر ، ومما يعزى به العشاق بعضهم بعضا عن انتحارهم ، وهم يذكرون لواعج الحب ، ومتع الغرام السماوية ، فى آجام الآخرة . ومع ذلك كله ، فانى أحب نواح البوم ، وترجيعاته المحزنة القابضة للنفس ، وهى تدوى فى جنبات الغابة ، فتذكرنى أحيانا بتلك الطيور الموسيقية والغريدة . فكأنها الجانب المظلم الباكى من الموسيقى ـ حسرات وتأوهات تتمنى لو أن أحدا ينشدها ويتغنى بها ، انها الارواح ـ الارواح الوضيعة ، والنذر القاضة للصدر ، التى هوت ، والتى كانت من قبل تمشى على الارض فى الليل متقمصة أشكالا بشرية ، وترتكب الاعمال التى



تقترف فى الظلام عادة . فهى الآن تكفر عن خطاياها بتلك الاناشيد النائحة ، أو المراثى الباكية ، فى المواضع التى كانت ترتكب فيها ذنوبها وتعتدى على حرمات الناس . انها لتجعلنى أحس احساسا جديدا بما فى تلك الطبيعة ـ موطننا المشترك ـ من تنوع وبما فيها من قدرات . ثم تتنهد بومة أخرى على هذا الجانب من الوادى وتنعب ، ثم تدور فى قلق واضطراب مثل قلق البائس واضطرابه ، ولاتلبث حتى تسمع غيرها تصيح من عدوة البركة الاخرى صيحة مضطربة ، واذا بصوتها يتردد صداه ضعيفا من بعيد فى غابات لينكولن .

وكذلك غنتنى ذات مرة بومة ناعقة أخرى . فلو كنت على مقربة منها لتخيلت صوتها أكآب أصوات الطبيعة كافة ، فكأن هذه الطبيعة قصدت أن تسجل أنات انسان حضره الموت . انسان مسكين من حطام البشرية ، ترك الآمال كلها وراءه ، وجعل يعوى عواء الحيوان ، ولكنك تلمس فيه مع ذلك تنهدات انسان وحسراته ، أقبل على ذلك الوادى المظلم ، وادى الموت ، وقد زادته فظاعة ورهبة نغمة معينة من نغمات الحشرجة ، مما يعبر عن عقل

وصل الى مرحلة من مراحل الموت التي يمر بهاكل فكر سليم جريء ، مما يذكرني بعواء الغيلان ، وصراخ المأفونين والمجانين • ولكن ها هي ذي بومة أخرى تجيبها الآن من الغابات البعيدة ، بنغمة يحيلها بعد المسافة وطول الشقة الى نغمة حلوة منسجمة حقا : « هو ـ هو ـ هو ـ هوررهو » • وفي الحق انها لنغمة لا توحي الينا في الكثير الغالب الا بذكريات سارة ، سواء سمعناها بالليل أو النهار وفي الصيف أو في الشتاء •

انه ليسرني أن في العالم بوما • فلتقم هذه بالنعيب الاخرق والنعيق الجنوني بدلا من بني الانسان ، فصوتها يلائم كل الملاءمة المستنقعات والغابات المظلمة ، التي لا ينيرها أي نهار ، مما يوحي بطبيعة واسعة عريضة لم تترق بعد ، ولم يدركها الانسان ولم يعترف بها بعد • فالبوم تمثل الشفق السافر ، والافكار التي لم تصادف مايرضيها ويشفي غلتها ، والتي توجد في خاطر كل انسان • وقد ظلت الشمس ساطعة طيلة النهار على مستنقع موحش تقوم فيه أشجار التنوب الفضي المنفردة ، وقد تعلقت بها الطحالب والحزاز ، وتهوم فوقه صغار الصقور ، وتغرد القراقف (أسنان المنجل) وسط الاشجار الدائمة الخضرة ، وتستخفي الحجل ، والارانب البرية ، وتتسلل تحته • والآن يطلع نهار أشد وجوما من الليل ، وأكثر منه ملاءمة ، فيستيقظ جنس آخر من المخلوقات ليعبر عن معاني الطبيعة هناك •

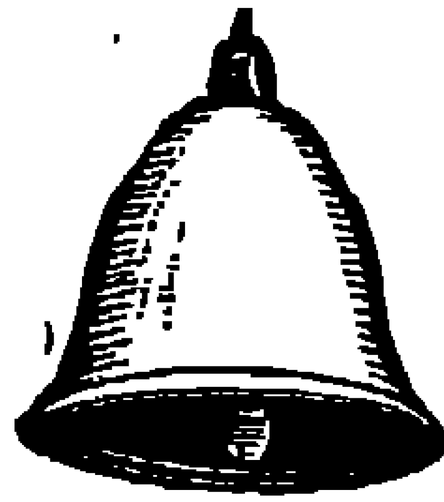
وفي الغسق سمعت صوت عربات السكة الحديدية تجري فوق القناطر ، فكان صوتا يسمع في الليل من مدى أبعد مما يسمع منه أي صوت آخر تقريبا ، وسمعت نباح الكلاب ، وأحيانا خوار بقرة مكتئبة حزينة في حظيرة بضيعة بعيدة • وكان الشاطيء في أثناء ذلك يدوي كله بنقيق الضفادع والعلاجيم : أرواح القدامى القوية من شاربي الخمر والانتخاب الذين لم يتوبوا بعد ، وهي تحاول أن تنشد لحنا في بحيرتها الكئيبة المظلمة ، ذلك اذا ما تسامحت حوريات «والدن» في هذه المقارنة ، فانه وان لم يكن ثم أعشاب تذكر ، فيها ضفادع ـ وكلها تود لو حافظت على آداب أكلها القديمة المرحة ، رغم أن أصواتها قد بدت خشنة غليظة رزينة ، وساخرة ، عند المرح والطرب ، وبرغم أن الخمر قد فقدت مذاقها وصارت مجرد سائل يمدد كروشها (مع أن حلاوة السكر لا تخمد ذكريات الماضي) ومجرد تشبع واستنقاع وتمدد ليس الا • ان أكبر شيخ من شيوخ هذه العلاجيم ، وقد استندت ذقنه الى ورقة من أوراق الشجر يستخدمها مشوشا لشفتيه الرائلتين في هذا الشاطيء الشمالي ، ليكرع جرعة طويلة من الماء الذي كان من قبل محتقرا مزدرى ، ثم يمرر كأسا وهو يصيح «ترونك! ترونك! ترونك!» ثم اذا بك تسمع في التو كلمة السر عينها تتكرر صادرة من فجوة بعيدة ، ثم تمر على الماء واذا بضفدع آخر ، هو التالي من حيث الاسبقية ،

ومن حيث ضخامة البطن ، يكون قد كرع منه ونهل حتى امتلاء كرشه • وبعد أن يمر هذا النظام بالشواطىء كلها اذا برئيس التشريفات يقوم راضيا مغتبطا ويصيح هو الآخر : ترونك، ويظل كل ضفدع يكرر هذا الصوت بدوره حتى يبلغ الدور أصغرهم كرشا ، وأقلهم تمددا وانتفاخا ، وأقلهم نضجا ، وأكثرهم استرخاء كرش ، حتى لا يكون في الامر أي خطأ • ثم تعود الكأس وتدور عليهم دورة بعد أخرى ، حتى مطلع الشمس ، فتبدد ما انعقد من ضباب الصباح ، ولم يبق في أسفل البركة سوى كبير العلاجيم وبطريقها الاعظم ينق عبثا : ترونك ! ترونك ! ترونك ! الفينة بعد الفينة ، منتظرا أن يرد عليه أحد ، ولكن لا من مجيب •

لست واثقا من أني سمعت مرة صياح الديكة من أرضي هذه الخالية من الاشجار • فخطر ببالي أن من الخير أن أقتني ديكا حبا في صوته الموسيقي ليس الا ، فيكون لي طائرا غريدا • فنغمة هذا الديك ، الذي كان من قبل تدرجا هنديا بريا ، لا شك أروع نغمة تصدر من أي طائر • فلو استطعنا أن نجعل من هذه الطيور طيورا طبيعية ، من غير أن نستأنسها ونصيرها طيورا منزلية أليفة ، لكان صوتها أروع صوت في غاباتنا • فهو يفوق صوت الاوز ، ونعيب البوم • ثم تصور صوت الدجاج في الفترات التي تستريح فيها أسيادها الديكة • فهل من عجب اذن ان أضاف الانسان هذا الطائر الى مجموعة طيوره الاليفة ؟ دع ذكر البيض ، (وعصي الطبل) • فما أبدع أن يسير المرء صباح يوم شات في غابة تكثر فيها هذه الطيور ـ غاباتها الاهلية ـ ويسمع صوت الديكة البرية تصيح على الاشجار بصوت قوي حاد واضح ، يدوي على بعد أميال ، في الارض التي تردد صداه ، ويسكت أصوات سائر الطيور الاخرى الضعيفة ! تأمل هذا وتدبره • انه ليجعل الامم يقظى متنبهة • فمن ذا الذي لا يود أن يستيقظ في البكور طيلة حياته ، ويستيقظ كل يوم أبكر مما استيقظ في اليوم الذي قبله حتى يصير فعلا ذا صحة ، وذا ثروة وذا حكمة ؟ ان نغمة هذا الطائر الاجنبي كانت مما أشاد به الشعراء في كل بلد من البلاد ، مع ما أشادوا به من تغريد العصافير الصداحة المعهودة لهم في بلادهم • فكل البلاد تناسب « شانتكلير[1] » وتلائمه ، هذا الطائر المقدام الجريء ! فهو آهلي أكثر من أهل البلد ، وصحته جيدة دائما ، ورئتاه سليمتان وشجاعته لا تفثأ ولا تخيم ؛ حتى الملاح في المحيط الاطلسي أو في المحيط الهادي ليستيقظ على صياحه ، ومع ذلك فصوته الحاد لم يوقظني قط من نعاسي ، لاني لم أقتن كلبا ولا قطا ولا بقرة ولا خنزيرا ، فلك أن تقول ان ثمة نقصا في الاصوات المنزلية عندي • فلا المخض الذي نخض فيه

(١) الديك •

اللبن ، ولا عجلة الغزل ، ولا صوت القدور ،وأزيز المقلاة ، وصراخ الاطفال بقادرة على أن تهدىء المرء ، وتريح أعصابه . فالرجل الذي يستمسك بالطراز القديم من المعيشة يكاد يفقد حواسه كلها ، أو يموت سأما وملالا قبل أن يقع له شيء من هذا ، حتى ولا الجرذان نفسها التي في جدار البيوت ، لانها تكون قد ماتت جوعا ، أو لانها لم تكن قد وجدت ما يغريها بالدخول في هذه الجدران . فليس غير السناجيب على السقوف ، وتحت أرضيات البيوت ، أو السباد الفرجينية* في عوارض السقف ، وأبى زريق* وهو يصيح من تحت النافذة ، أو أرنب برى ، أو مرموط* تحت البيت أو بومة وراءه ، وقطيع من الاوز البرى ، و «غطاس*» ضاحك على سطح البحيرة ، أو ثعلب ينبح في الليل حتى ولاقبرة ، ولاصفارية تلك الطيور الوديعة التي تعيش في المزارع ـ فلم يحدث أن شيئا من هذه كلها قد زارني مرة في أرضي . فلم يعدفيها ديك يصيح ، ولا دجاجات تقوقيء في الحظيرة ! لا ! انها ليست حظيرة ! وانما الطبيعة المطلقة الحرة ، التي تصل الى وصيد نافذة بيتك ، والتي لا أسيجة لها ولا أسوار . هي غابة صغيرة نمت تحت نوافذ دارك والسماق البرى وكروم العليق الاسود تظل تمتد حتى لتدخل عليك «كيلارك» ، وأشجار الصنوبر القطراني الصلبة ، وهي تحتك بسدايب البيت وتصيت من جراء ضيق المكان ، وتصل جذورها الى ما تحت البيت . فبدلا من باب كوة ، أو ضلفة نافذة من النوافذ اقتلعتها الرياح الهوج العاصفة وأزالتها عن مكانها ، لتكن ثم شجرة صنوبر تتقصف وتنزع من جذورها خلف دارك لتكون وقودا لنازك ، وبدلا من عدم وجود طريق تؤدى الى باب الردهة الامامية في أثناء « الثلج العظيم » ، فلا بوابة ـ ولا ردهة أمامه ـ حتى ولا ممر يؤدى الى العالم المتمدين .



الوحـــــدة

انه لمساء رائع ممتع ذلك الذى يكون فيه الجسم كله أشبه بحاسة واحدة ، يلتهم السرور بجميع ما فيه من مسام ، فأغدو وأروح بحرية غريبـــة فى الطبيعة ؛ فأنا جزء منها ؟ أو أسير على شاطىء البركة الصـخرى ، مرتديا قميصى الخفيف القصير الاكمام على الرغم من أن الجو بارد بقـــدر ماهـو غائم وريح ، وليس أمامى شىء يسترعى اهتمامى . فالعناصر جميعهـــا تلائمنى بشكل لا يعهده الناس . فالعلاجيم تنق مبشرة بدخول الليل ، والريح تحمل نغمـــات السيد الفرجينى* فوق سـطح الماء الذى غضنته بهبوبها عليه ، ويكاد عطفى على الاوراق الخفاقة من أشجار الحور وأضرابه يجعلنى مبهـــور الانفاس ؛ ومع ذلك فهدوء نفسى ، وان تأثر ، لا يضطرب ، مثلى فى ذلك مثل البحيرة التى قد يتغضن سطحها ، ولكنها مع ذلك لا تجيش ولا تضطرب ولا تتعكر . فهـــذه الامواج الصغيرة التى تحدثها رياح المساء بعيـــدة كل البعد عن أن تكون رياحا عاصفة ، بعـد السطح العاكس الاملس عنها . ومع أن الظلام قد خيم عـــلى كل شىء فلا زالت الريح تهب وتزأر فى الغابة ، ولا زالت الامواج تصطفق ، وتعمل بعض المخلوقات عـلى تهدئة سائر الكائنـــات بألحانها ونغماتها . فليس السكون هنا بسـكون مطلق أبدا . فأشد الحيوانات توحشـا وضراوة لا تستريح ، بل تسعى وراء رزقهـــا تتطلب فرائسها وتطوف الآن الثعالب والظـــرابى والارانب البرية بالحقول والغابات فى غير تهيب ولا خوف ، فهى حراس الطبيعة ، وحلقات اتصال تربط بين أيام حياة الحيوان .

وعندما أعود الى بيتى أجد زوارا قـد عرجوا على ، وتركوا لى بطاقاتهم فى شـكل باقة من الزهر ، أو تاج من النبات الدائم الخضرة ، أو كتبوا أسـماءهم بقلم الرصاص عـلى ورقة مصفرة من أوراق شجر الجوز ، أو على شظية من خشب . فعادة الذين لا يزورون الغابات الا نادرا أن يأخذوا معهم فى أيديهم قطعة ممـا يرونه فيها ، يعبثون بها وهم فى الطـريق ، ثم يتركونها قصدا أو عرضا . فقد قشر أحـدهم فرعا من الصفصاف وجعل منه حلقة مسـتديرة ألقاها على مائدتى . وكنت أستطيع دائمـا أن أعرف ان كان قد حضر زوار لى فى أثنـــاء

غيبتي أو لم يحضروا . وذلك من أغصان الشجر المحنية ، أو من الكلأ ، أو من انطباع آثار أحذيتهم . وكذلك أستطيع عادة أن أعرف ان كان الذين زاروني ، رجالا أو نساء ، وصغارا أو كبارا . وأعرف صفاتهم ، وجنسيتهم ، وسنهم من جراء ما قد يتركونه من أثر طفيف ، مثل وردة وقعت منهم أو باقة من الكلأ اقتطفت ثم ألقيت على مسافة ما ، حتى وان بلغت تلك المسافة السكة الحديدية ، على بعد نصف ميل مني ، أو أعرفهم من آثار رائحة « السيجار » أو الغليون الذي يدخنونه ، بل كثيرا ما كنت أعرف أن مسافرا قد مر في الطريق العام على بعد ثلاثمائة ياردة مني ، وكل ذلك من رائحة غليونه .

وعادة ، يكون حولنا فضاء كاف . فليس أفقنا من الضيق على مرمى من ذراعنا دائما ، وليست الغابة الكثيفة ، ولا البحيرة على أبوابنا تماما . بل كان ثمة أرض فضاء قطعت منها الاشجار ، وأضحت معهودة لنا ، بليت من جراء الاستعمال ، وضعنا عليها أيدينا ثم سورناها بشكل ما ، فانتزعناها من أيدي الطبيعة واستصلحناها . فلماذا كان كل هذا المدى الواسع البعيد ، وكانت تلك الدائرة المترامية الاطراف لي وحدي ـ بضعة أميال مربعة من غابات غير مطروقة تركها الناس لي خاصة ، لانفرد فيها بنفسي ؟ كان أقرب جار لي على بعد ميل من حيث أسكن ، وليس ثم بيت يرى من أي مكان ، غير قمم الربى والتلال ، الا على بعد ميل ونصف ميل من بيتي . فأفقي محفوف بالغابات، وكله لي وحدي ، ـ منظر بعيد للسكة الحديدية عندما تمس البركة من جهة ، والاسيجة التي تمس طريق الغابة من جهة أخرى . فالمكان الذي أعيش فيه مكان منعزل انعزال البراري . فهو آسيا وافريقية بقدر ما هو نيو انجلند . فكأنما كانت لي شمسي وقمري ونجومي ، ودنيا صغيرة ، كلها لي اذا جاز هذا التعبير ؟ واذا ما جن الليل ، فما من سائح يمر ببيتي ، أو يطرق بابي الا كنت أنا أول من يصادفه من الناس ، أو آخرهم ، اللهم الا اذا كان ذلك في الربيع ، عندما يجيء بعض الناس من القرية على فترات بعيدة ليصيدوا بعض أنواع السمك في بركة والدن . (ولكن من الجلي أنهم انما اصطادوا أكثر من ذلك في برك طبائعهم هم، وألقموا صنانيرهم طعما من الظلام) . على أنهم كانوا سرعان مايعودون أدراجهم خفاف الاسفاط ويتركون الدنيا للظلام ولي[1]. وبذلك تظل فحمة الليل المظلمة على ما هي عليه لم يدنسها قط جيران لي من بني الانسان . وفي اعتقادي أن الناس مازالوا يخشون الظلام ويخافونه بعض الخوف ، مع أن الساحرات كلهن قد شنقن ، ودخلت المسيحية والشموع البلاد .

---

(١) من مرثية شهيرة في اللغة الانجليزية للشاعر توماس جراي .

ومع ذلك كنت أشعر أحيانا أن خير الاجتماعات وأعذبها ، وأطهرها ، وأكثرها تشجيعا ، قد يكون الاجتماع بأى شىء طبيعى ؟ وان ذلك ليصدق حتى على الرجل المسكين الذى يمقت البشر ، كما يصدق على أكثر الناس اكتئابا وأشدهم حزنا . فليس ثمة مجال للسوداء ، والاكتئاب لرجل يعيش بين أحضان الطبيعة وهو محتفظ بحواسه وقواه . فلم تحدث بعد عاصفة من هذا القبيل ، ولكنها كانت موسيقى « ايوليه* » لمن كان ذا آذان سليمة طاهرة ، فليس ثمة شىء يجبر بحق الرجل البسيط الشجاع على الحزن المبتذل . فما دمت ممتعا بصداقة فصول السنة فأنا موقن بأن لا شىء يستطيع أن يجعل الحياة عبئا ثقيلا على نفسى . فالمطر الخفيف الذى يروى فولى ويحجزنى فى البيت طيلة هذا اليوم ، ليس مدعاة للسوداء والاحزان ، بل فيه خير كثير لى أنا كذلك . فان منعنى المطر عن مشط فولى فهو لا شك أفيد لى من الفول وأنفع منه بكثير . وان ظل فى الارض طويلا حتى يجعل البذور تتعطن ، والبطاطس المزروع فى الارض الواطئة يتلف ، فانه لا يزال مع ذلك نافعا للكلأ الذى ينبت فى الارض المرتفعة . وما دام يصلح للكلأ فهو صالح لى أنا أيضا . وكان يخيل الى أحيانا عندما أوازن بين نفسى وبين غيرى من الناس أنى صاحب حظوة لدى الآلهة ومقرب منها أكثر منهم ، وأعظم مما أنا شاعر به من الفضل فى نفسى ، كأنما كان عندى من الالهة رخصة وضمان ليسا عند زملائى ، وكأنما كنت موفقا كل التوفيق ومصونا بوجه خاص . هذا ، وأنا لا أتملق نفسى ولكنهم هم الذين يتملقوننى ان كان ذلك ممكنا ؟ فلم أشعر قط بوحشة فى وحدتى ، ولم أضق ذرعا بشعورى بعزلتى اللهم الا مرة واحدة ، وذلك بعد حضورى الى الغابة ببضعة أسابيع ، فقد بقيت ساعة أتساءل عما اذا كان القرب من الناس وجيرتهم أمرا ضروريا ، ولابد منه للحياة الهادئة السليمة ؟ فلا شك أن الوحدة شىء لا يسر ، ولكنى كنت شاعرا فى الوقت نفسه بشىء من الجنون ، فى حالتى الوجدانية هذه ، وبدا لى أنى كنت مع ذلك أتوقع لنفسى شفاء منه وابلالا . ففى وسط مطر خفيف ، وهذه الافكار غالبة على ، شعرت فجأة بما فى الاجتماع بالطبيعة من حلاوة ومن خير .

ففى وقع قطرات المطر ، وفى كل صوت وكل منظر حول بيتى ، قامت صداقة لا حد لها ولا سبيل الى تعليلها ، كأنها كانت جوا يحفظنى ، مما جعل ما فى جيرة بنى الانسان الموهومة من ميزات ، أمورا تافهة لا معنى لها ، ولم يحدث أن فكرت فى هذه الجيرة بعد . فكل ورقة صغيرة من أوراق شجر الصنوبر كانت تتمدد وتنفتح عطفا على حتى صارت لى صديقة ، وكنت أشعر شعورا واضحا بوجود شىء يمت الى بصلة قرابة ، حتى فى المناظر التى درجنا على أن نعدها وحشية باسرة متجهمة . كما كنت أشعر بأن أقرب قريب الى ، وأكبرهم انسانية

لم يكن شخصا ولا قرويا ، حتى خطر بفكري أنه لن يكون أي مكان غريبا على بعد ذلك .

« فالحداد يخترم المحزون قبل الاوان ،
وتصبح أيامه في دار الاحياء قليلة معدودة ،
يا ابنة توسكار الجميلة »[1]

كان من أسعد الاوقات التي مرت بي ، تلك الساعات التي قضيتها في أثناء العواصف المطيرة الطويلة ، في فصل الربيع أو في الخريف ، التي حجزتني في البيت المساء كله والصباح كله ، فقد كان زئيرها المتواصل يواسيني ويهدئني ؟ وكذلك عندما يؤذن شفق مبكر بمساء طويل تجد فيه كثير من الافكار مجالا لان ترسخ ثم تتفتح وتفصح عن نفسها . ففي تلك الامطار الشمالية الشرقية الجارفة التي كانت ترهق بيوت القرية وتبلو مدى احتمالها ، وتجعل الخادمات متأهبات باستمرار معهن المكانس والجرادل واقفات ، عند مداخل البيوت الامامية ليبعدن آثار الفيضان ، كنت أنا جالسا خلف باب بيتي الصغير — وبيتي كله مدخل — أستمتع بقدرته على حمايتي ، كل الاستمتاع . وذات مرة في أثناء احدى تلك الشآبيب المرعدة أصاب البرق شجرة كبيرة من أشجار الصنوبر الراتنجي عبر البركة ، فأحدث فيها أخدودا حلزوني الشكل واضحا ومنتظما كل الانتظام يمتد من رأس الشجرة حتى جذعها ، ويبلغ عمقه بوصة أو أكثر ، وعرضه أربع بوصات أو خمس ، كما لو كنت تحفر عصا من تلك العصي التي يتوكأ عليها الناس في مشيهم . ثم مررت بها مرة أخرى منذ عدة أيام فأفزعني كل الفزع أن أرفع اليها بصري فأرى هذه العلامة واضحة جلية الآن أوضح منها في أي يوم مضى ، حيث هبطت منذ ثمانية أعوام صاعقة مريعة جارفة من السماء الوادعة غير المؤذية . وكثيرا ما قال لي أحد الناس : أظن أنك تشعر بالوحدة هنا وتتمنى لو كنت أكثر اتصالا بالناس ، ولا سيما في تلك الليالي المطيرة المثلجة . فكان مثل هذا السؤال يغريني بأن أجيب سائله وأقول له : ليست هذه الارض كلها ، التي نقطنها ، سوى نقطة في الفضاء ، فعلى أي بعد تظن يقطن أبعد الساكنين في ذلك النجم البعيد الذي لا تستطيع آلاتنا أن تقدر سعة قرصه ؟ فما الذي يدعوني الى الشعور بالوحدة ؟ أليست أرضنا كوكبا من تلك الكواكب التي في المجرة ؟ اني ليخيل الى أن هذا السؤال الذي تسأله ليس بأهم سؤال تستطيع أن تلقيه . فقل لي بربك أي نوع من الفراغ ، ذلك الذي يفصل الرجل عن بني جنسه ، ويجعله يستشعر الوحدة ؟ لقد استبان لي أن أي مجهود تبذله أرجلنا لن يقرب بين عقلين

---

(١) للشاعر الايرلندي البطل أوشيان الذي يقال انه كان موجودا في القرن الثالث الميلادي . وقد جمعت أشعاره ونشرت سنة ١٧٦٠ ، ولكن من النقاد من يرى انها موضوعة ثم عزيت الى أوشيان هذا .

اثنين أكثر مما هما عليه . فما ذلك الذى نود كل الود أن نسكن على مقربة منه يا ترى ؟ انا لا شك لا نود أن نســكن على مقــربة من رجال كثيرين ، ولا بالمحطة أو مكتب البريد ، أو المقهى ، أو النادى ، أو المدرسة ، أو محل بيع البقالة أو « بيكون هل* » أو « فايف بوينتس* » حيث يشتد احتشاد الناس ؟ لا ! ولكنا نود أن نسكن على مقربة من منبع حياتنا الخالد ، حيث دلتنــا كل خبرتنــا على أنها تصدر عنه ، كماتقف الصفصافة على مقــربة من الماء ، وترسل بجذورها فى ذلك الاتجاه . وهذا أمر يختلف باختلاف الطبائع ؟ ولكنه هو المكان الذى يختار الرجل العاقل أن ينشىء فيه بيته ... وفى مساء يوم من الايام لحقت برجل من أهـل بلدتى ، كان قد اقتنى مايسمونه « أملاكا طيبة » وان لم أكن ألقيت عليها نظرة عادلة . لحقت به وهـو يسير فى الطريق العام الذى يؤدى الى البركة ، وكان يسوق زوجا من البقر الى الســـوق . فسألنى كيف بلغ بى الامر أن أهجر كثيرا من وسائل الراحة والمتعة فى الحياة ؟ فأجبته بأنى واثق من حبى لحياتى هذه ، لدرجة لا بأس بها . وما كنت فى قولى هذا مازحا . ثم مضيت الى مخدعى فى بيتى ، وتركته يسير فى طريقه وسط الظلام والوحل الى برايتن (أو برايت تاون*) التى سيبلغها فى وقت ما فى الصباح .

لو أن رجلا ميتا استيقظ ، أو عادت اليه الحياة لكانت كل الامكنة وجميـع الازمنة سواء فى نظــره . فالمكان الذى يمكن أن يحدث فيه هذا الأمر هو هو دائما ، ويسر حواســـنا كلها ويبهج مشاعرنا بهجة لا توصـف . انا غالبـــا ما نجعل الظروف العـابرة ، والبعيــدة المتطرفة وحدها ، هى التى تتحكم فى فرصنا ؛ على حين أنها فى الواقع مدعاة لتشتيت انتباهنـا وبعثرة أفكارنا وتفريقها . ان أقرب ما يكون الى الاشياء كلها توجد تلك القوة التى تشـــكل وجودها . وعلى مقربة منا نحن تعمـــل أعظم القوانين وتنفذ باستمرار . وعلى مقربة منا يوجد الصانع الذى نحن من صنعه ، لا ذلك العامل الذى استأجرناه ، والذى نحب كل الحب أن نتحدث اليه ونسمر معه .

« فما أعمق سلطان القـــوى الخفية التى للسماء والارض ، وما أوسع ذلك السلطان ! »

« انا نحاول أن نشاهد هذه القوى فلا نراها . ونحاول أن نسمعها فلا نسمعها ؛ فاذا كانت هى ، وروح الاشياء واحـــدا ، فلا يمكن أن نفصل عنها بحال من الاحوال » .

« وهذه القوى هى التى تدفع الناس فى الكون كله الى تنقية قلوبهم وتطهيرها ، والى أن يرتدوا خير ملابسهم التى يتزيون بها فى أيام الاعياد خاصة ، ليقدموا الضحايا ويقربوا القرابين لاجدادهم . انها لبحر واسع محيط من ضروب الذكاء الخفى . انهـــا فى كل مكان — فهى فوق رؤسنا ، وعن شمائلنا وأيماننا ، وتحيط بنا من كل جانب » .

فنحن موضوع تجربة ليست بالقليلة الاهمية لى . ألا نستطيع أن نستغنى عن الاجتماع بالثرثارين فترة قصيرة فىهذه الظروف ، ونرضى بأن ندع أنفســـنا لافكارنا تبهجنا وتشرح صدورنا ! قال كونفوشيوس حقا : « انالفضيلة لا تظل مثل اليتيم المنبوذ ، بل لابد واجـدة لها جيرانا بالضرورة » .

انا قد نستطيع ، بفضلالتفكير ، أن نخرج عن أنفسنا بمعنى صادق سـليم . فبمجهود عقلى واع نستطيع أن نقف بمنأى عن الافعال ،وعما يترتب عليها من نتائج ، فتمر بنا الاشـياء جميعا ، صالحها وطالحها ، مرور السيل ؛ فلسنامرتبطين بالطبيعة ارتباطا كليا مطلقا . فقد أكون العصافة التى فى مجرى النهر ، أو أكون مثل «اندرا*» فى الجو أطل عليهـــا من عل . وقد يجوز أن أتأثر بعرض مسرحى أراه ، على حين قد لا أتأثر مطلقا بأية حادثة واقعية تبدو أنهـا تعنينى أكثر مما يعنينى ذلك العرض المسرحى.أنا لاأعرف غير نفسى من حيث هى وحـــدة بشرية ـ هى مسرح أفكار ووجدانات ؛ وأشعربنوع من الازدواج أستطيع به أن أقف بعيـدا عن نفسى هذه بعدى عن أى واحــد غيرى ؛ومهما كانت خبرتى عظيمة مركزة فأنا شاعر بوجود جزء من نفسى ، وبانتقاده اياى ، كأنهليس جزءا منى بل متفرجا على ؛ فهو لايقاسمنى خبرتى فى سخاء ، وانما يلاحظها ويراقبها . وليس هذا أنا ، بأكثر مما هو أنت . وعنـدما تنقضى مسرحية الحياة هذه ـ وهى مسرحيـــةقد تكون مأساة ـ يمضى هذا المتفرج الىسبيله . فهى ، من حيث مايختص بهذا المتفرج ، ليستالا قصة أو رواية ، أى مجرد عمل من أعمال الخيال . وقد يجعلنا هذا الازدواج فى ســهولةجيرانا مساكين ؛ وقد يجعلنا أصدقاء مخلصين .

من الخـــير أن يكون المرء وحيـدا منفردا بنفســـه فى أغلب الاوقات . أما أن يكون مع الجماعة ، حتى ولو كانت خير جماعة ، فذلك يجعله يمل ويتضايق ويترهل . فأنا مغرم بالوحدة والانفراد بنفسى ، ولم أجد قط مثـلالوحدة رفيقا مواتيا يعاشر . اننا غالبـا مانكون أشد وحدة وأكثر وحشة عندما نســـافر الىالخارج ونتصل بالناس ، أكثر مما لو بقينـــا ملازمين لحجراتنا . ألا ترى أن الرجل يكون دائما وحده ، اذا ماكان يفكر ، أو يشـــتغل شـــغلا ما ؟ فدعه اذن حيث أراد أن يكون ،فالوحدة لا تقاس بالاميال التى تفصـل امرىء عن بنى جنسه . فالطالب المجتهد حقا ، فىفصلمن فصول كلية كمبردج* المزدحمة بالطلاب ، منفرد بنفسه فى الواقع ، ووحيـــد وحـــدةالدراويش فى الصحراء . ويستطيع الفلاح أن يشتغل وحده فى الحقل ، أو فى الغابات ، طولاليوم يعزق الارض أو يقطع الاخشاب دون أن يشعر بالوحدة . وما ذلك الا لانه مشغول ، علىحين أنه اذا ما عاد فى المســـاء الى منزله شـق عليه أن يجلس فى الحجرة وحده تحت رحمةأفكاره ، بل يجب أن يكون حيث « يرى الناس».

وحيث يستجم ويجدد نفسه ؛ وحيث ، بحسب رأيه ، يعوض نفسه عن اليوم الذى قضاه فى الوحدة • ومن ثم كان يعجب كيف يستطيع الطالب أن يبقى وحده فى البيت طول الليل وأكثر النهار من غير أن يشعر بسأم أو ملل ؛ولكنه لم يدرك أن الطالب وان كان فى البيت ، فانه لا يزال يشتغل فى حقله هو ، ولا يزال يقطع الاخشاب فى غاباته هو ، كما يفعل الفلاح فى حقله ؛ أنه يسعى بدوره وراء الاستجمام نفسه ، ووراء المجتمع ، الامرين اللذين يسعى وراءهما الآخر ، وان كان هذا من نوع أشد تركزا •

ان الاجتماع بالناس أمر رخيص كل الرخص عادة ؛ ألا ترى أنا نتقابل معهم فى فترات قصار كل القصر حتى لايكون لدينا وقت كاف نحصل فيه على شىء ذى قيمة جديدة لكل منا ؟ فنتقابل عند تناول الوجبات ثلاث مرات كل يوم، يذيق فيها كل منا الآخر لونا غير مستساغ من ذات نفسه العتيقة العفنة • لقد كان واجبا علينا أن نصطلح على مجموعة معينة من قواعد الآداب العامة التى يسمونها «بالاتيكيت» تهدف الى جعل هذه الاجتماعات الكثيرة الحدوث محتملة مستساغة من غير أن يكون بنا حاجة لأن نصبح فى حرب صريحة • فنحن نتقابل فى مكتب البريد ، وفى الحفلات الاجتماعية حول الموقد كل ليلة ، ونعيش متزاحمين يقف بعضنا فى سبيل بعض ، نتعثر ويقع كل منا فوق الآخر • وليس من شك لو كان تلاقينا أقل من هذا المكان كافيا لجميع الاتصالات القلبية الهامة • تأمل حالة أولئك الفتيات اللواتى يعملن فى مصنع ما • فهن لسن وحدهن أبدا ، ويندر أن ينهمكن فى الاحلام والرؤى • فخير من ذلك كله لو كان فى كل ميل مربع من الارض ساكن واحد ليس الا ، كما هى الحال حيث أسكن • فقيمة الرجل ليست فى جلده حتى نسعى لنلمسه ،ونحتك به •

سمعت مرة عن رجل ضل طريقه فى الغابات حتى كاد يموت جوعا ، ويهلك تعبا عند جذع شجرة ؛ ولم يكن يخفف عنه وحدته ،ويؤنسه فى وحشته سوى أضغاث أحلام غريبة يفيضها عليه خياله المريض بسبب ما يعانيه جسمه من ضعف ، حتى خالها أمورا حقيقية • وكذلك نحن ؛ فقد نظل بما نتمتع به من سلامة الجسم وصحة العقل مبتهجين مسرورين باستمرار بمثل هذه الاجتماعات ، ولكنها أكثر منها سوية وأقرب الى الطبيعة ، ثم نعرف فى النهاية أننا لا نكون وحدنا أبدا .•

وكانت تنعقد فى بيتى اجتماعات ، وتجرى مقابلات كثيرة ، ولا سيما فى الصباح عندما لايزورنى أحد • ومعذرة ان أنا اتجهت الى أن أعقد بضع مقارنات ، فلعل واحدة منها تنقل اليكم فكرة صحيحة عن موقفى • فأنا لست وحيدا هنا بأكثر من وحدة «الغطاس*» فى البركة ، ذلك الذى يقهقه بصوته العالى ؛ ولا أنا وحيد أكثر من وحدة بركة «والدن» نفسها،

فأي رفقة لهذه البركة المنعزلة الوحيدة ياترى ؟ومع ذلك فهى لا تشكو مما فيها من شـــياطين زرق ، لا ! ان مافيها ملائكة زرق في لون صباحها اللازوردى ؟ والشمس وحيدة ، اللهم الا فيالجوالقاتم حيث تبدو مزدوجة ، ولكن لا شك في أن احـدى الشمسين وهمية زائفة ؟ والله واحد أحد ، أما الشيطان فما أبعـــده عن أن يكون واحدا ! فهو يجتمع بالنـاس اجتماعات عدة ، بل هو فرقة من الناس بأكملها . فأنالست وحيدا أكثر من وحدة عشب البوصير * ، أو وحدة «أسنان السبع*» التى تنبت في المراعى، أو من ورقة من أوراق الفول ، أو الحميض* أو التعرة * ، أو من نحلة متواضعة . أنا لسـت وحيـــدا بأكثر من مجرى ميل[1] ، ولا من وحدة ذلك «الديك» القائم على أسطحة المنازل يبين لنا اتجاه الريح ، ولا وحدة النجم القطبى، ولا ريح الجنوب ، وشآبيب ابريل ، أو ذوب الثلج في شهر يناير ، أو وحدة أول عنكبوت في بيت جديد .

وفي أمسيات الشتاء الطويلة عندما تسقط الثلوج بكثرة وقوة ، وتزأر الريح في الغابة ، كان يزورني الفينة بين الفينة شيخ كبير من النازلين في تلك النواحى ، ومن الملاك الاصـليين فيها ، يقال عنه انه ممن اشـــتركوا في حفر بحيرة والدن وفي بنائها بالحجر ، وزرعوا على حافاتها غابات الصنوبر حولها . وكان هـــذا الشيخ يقص على قصصا عن الازمنة القديمة ، وعن الابدية الجديدة ؟ وكنا نقضى معـــا مساء بهيجا في سرور اجتماعى ، وفي وجهات نظر سارة الى مختلف الاشياء . وكل ذلك كان يتم من غير أن يكون معنا تفـــاح ولا حتى خمر التفاح . لقد كان هذا الشيخ صديقا حكيما كل الحكمة ، وفكها حـــلو النادرة ، فلا عجب ان أحببته كل الحب وان كان يخفى نفسه أكثر مما كان يختفى «جف*» أو «هوالى*» . ومع أن الناس يعتقدون أنه قد توفى ، فليس منهم من يستطع أن يدلنـــا على قبره * . كذلك كانت تزورني سيدة نصف تسكن على مقربة منى ، ولم يكن يراها كثيرون ، وكنت أحب أن أسـير أحيانا في حديقة أعشابها أجمـــع النباتات الطبية ، وأصغى الى ما تقصه على من أساطير ؟ فهى ذات عقل خصب لا مثيل له ، وترجع ذاكرتهـا الى أبعد مما ترجع اليه الاساطير نفسها ؟ وكان في استطاعتهـا أن تخبرني عن أصل كل خرافة ، والاساس الذى قامت عليه كل أسطورة ، ذلك لان حوادثها وقعت في صغرها وشبابها . لقد كانت سيدة عجوزا قوية تبتهج بكـل نوع من الاجواء وبكل فصـل من الفصول . ومن المحتمل أنها ستعيش بعد جميع أبنائهـا أمدا طويلا[2] .

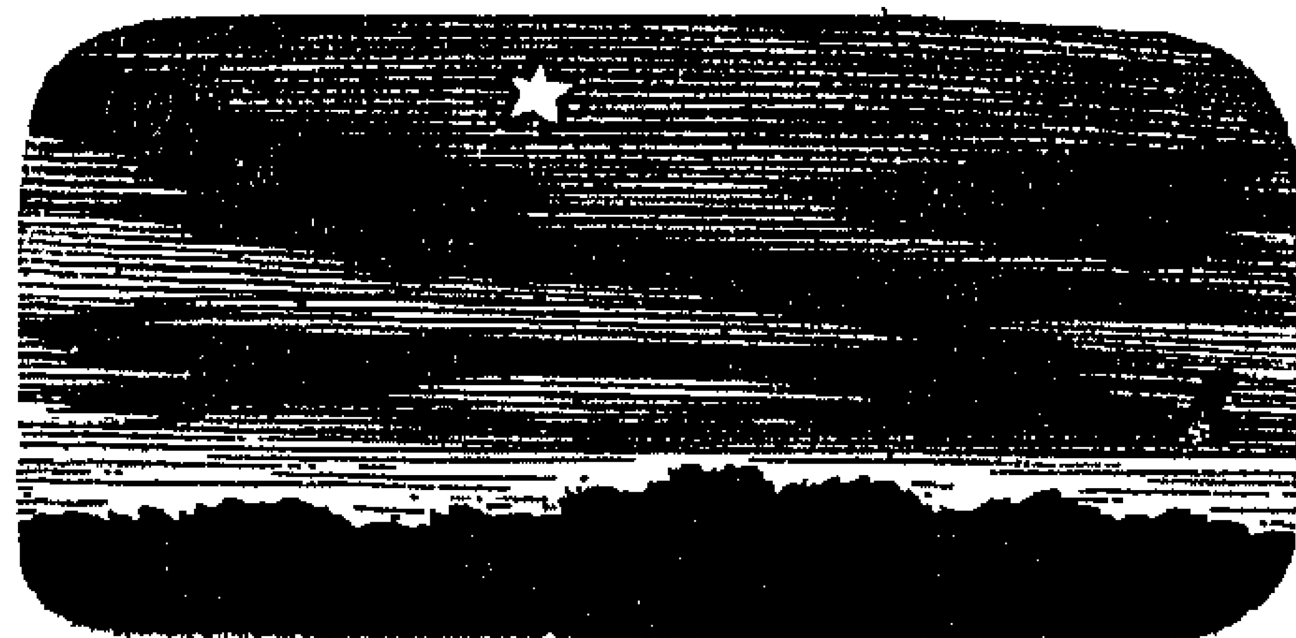
---

(١) جدول صغير يخترق بلدة كنكورد .

(٢) واضح أن السيدة التى يشير اليها المؤلف هنا هى الطبيعة (المترجم)

فما أطهر الطبيعة وما أسخاها علينا ! فما تقدمه لنا الشمس والريح والمطـــر والصيف والشتاء من صحة ومن بهجـــــة ، انما تقدمه باستمرار وعلى الدوام • وان لها لعطفا على بنى جنسنا عظيما ، حتى اذا ما حزن انسان منا من أجل سبب عادل صحيح ، تأثرت الطبيعة كلها أيما تأثر ، وخبا لألاء الشمس وكبـــا ، وأنت الريح أنات مؤثرة ، وبكت السـحب بدموع المطر ، وألقت الاشجار بما عليها من أوراق ، وارتدت ثياب الحداد وسط الصيف • أليس لى أن أتفاهم مع هذه الارض ؟ ألست أنا نفسى من ورق الشجر والمدر الى حد ما ؟

فما تلك الحبة التى ان تناولناها جعلتنا فى صحة جيدة مطمئنى النفس راضين ؟ انهـــا ليست حبة من تلك الادوية التى عند جــدك الاعلى أو عند جـــدى ، ولكنها من الادوية النباتية التى عند جدتنا العليـا ـ الطبيعة ، التى حافظت على نفسها فتية شابة عـــلى الدوام ، فعاشت أطول مماعاش أمثال آل «بار*» العجائز فى عصرها ، وكانت تزود صحتها وتغذيها بمـا يتعفن من شحم أمثال أولئك العجـــائز • أماعلاجى الشافى من جميع الادواء والاسقام ، فليس قنينة من تلك القنينات الزائفة التى يصنعها الدجالون من مخلوط يؤخذ من نهر «آخرون*» ومن « البحر الميت » • فبـدلا من هذه أعطنى جرعة من هواء الصباح النقى الخالص • تقول هواء الصباح ! نعم ، فان كان الناس لا يشربون من هذا عند رأس عين النهار فقد وجب علينا أن نعبىء بعضـــا منه فى زجاجات ونبيعها فى المتاجر والدكاكين لخير أولئك الذين أضاعوا تذكرة اشتراكهم فى الصباح فى هذه الدنيا • ولكن ينبغى ألا ننسى أن هـــذا الهواء لا يظل هادئا الا الى الظهيرة ، حتى ولو كانت الزجاجات موضوعة فى أرطب « كيلار » ، بل أنه ليطرد سدادات زجاجاته هذه قبل ذلك بوقت طويل ، ثم يتجه غربا مقتفيا آثار خطوات «أورورا*» • أنا لست من عباد الالاهة «هايجيا*» ابنة طبيب الاعشاب الشيخ « اسقلابيوس *» التى تراها ممثلة عادة على الآثار ممســـكة حية باحدى يديها وفى الأخرى فنجانة تشرب منها أحيانا ، ولـكنى من عباد « هيبه * » الالاهة التى تحمل الكأس « ليـوبيتير * » ابنـــة « يونو * » و«الخس البرى*» التى لها القدرة على اعادة الآلهة والناس الى نشاط الشباب • ولعلها كانت المرأة الوحيدة الشابه الصحيحة البـدن كل الصحة التى وطئت هذه البسيطة • فأينمـــا حلت حل معها الربيع •



زوّار

أظنني أحب المجتمعات كما يحبها أكثر الناس ، فأستطيع أن أتشبث كالعلقة بأي انسان ممتلىء دما أصادفه في طريقي ـ فلست بطبعي راهبـــا ، بل في مقدوري أن أجلس في الحانة أطول مما يستطيع أن يجلس فيها أكثر الناس ارتيادا لها ، اذا ما دعتني اليها أشغالي ٠

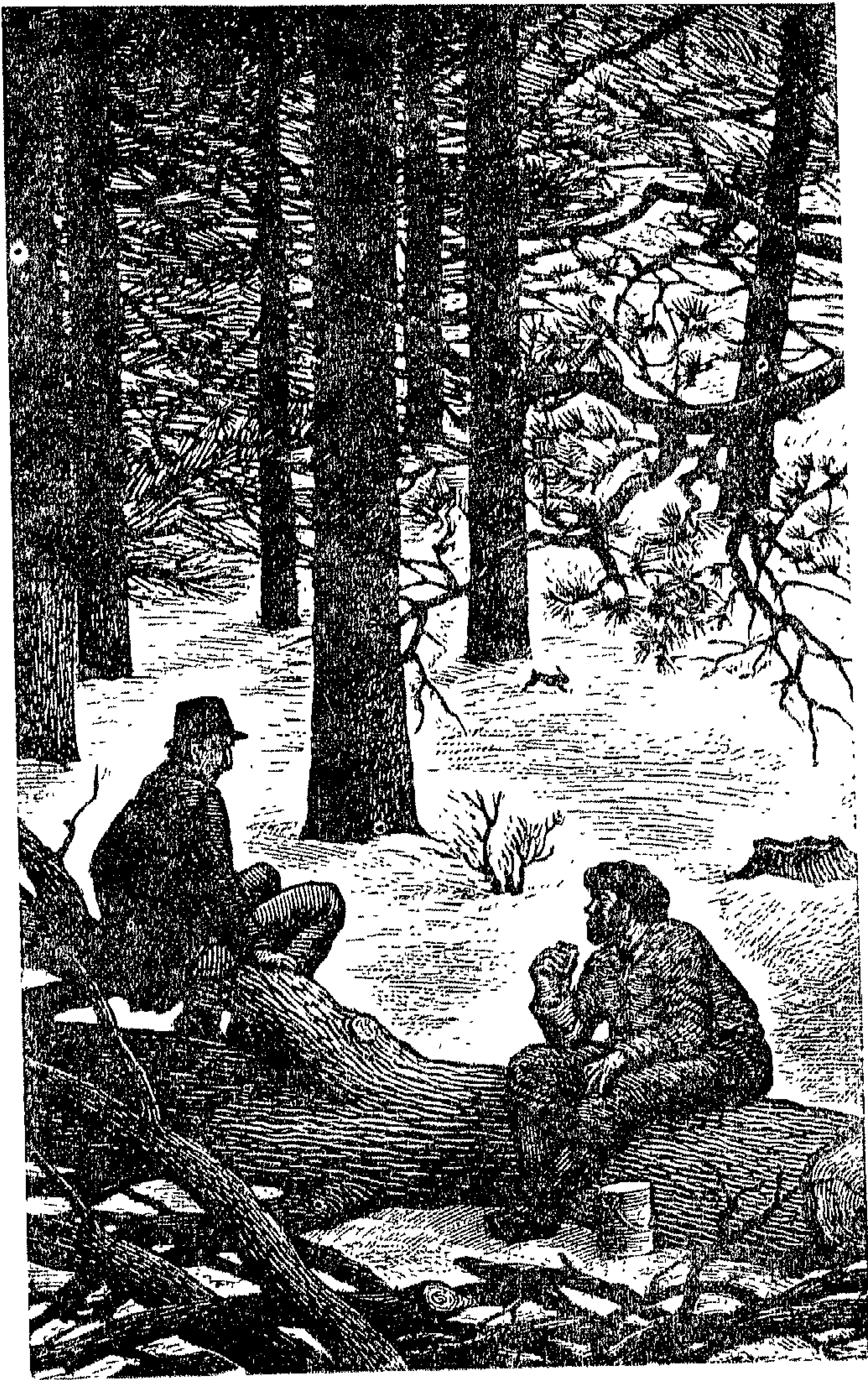
وكان في بيتي ثلاثة مقاعد ، واحدللعزلة، واثنان للصـداقة وثلاثة للاجتمـــاع ٠ فاذا تصادف ووفد على زوار أكبر عددا ، وأكثر مما أتوقع لم يكن لهم جميعا سوى المقعد الثالث، على أنهم كانوا يراعون الاقتصاد في المكان عادة بأن يظلوا واقفين على أقدامهم ٠ ومن عجب أن يتسع بيت صغير لعدد كبير من عظماء الرجال وعظيمات النساء ٠ حدث مرة أن اجتمع تحت سقفي خمس وعشرون أو ثلاثون نفسا بكل أجسامهم دفعـــة واحدة ؟ ومع هذا كنا نفترق من غير أن نشعر أننا قد اقتربنا بعضنا من بعض اقترابا كبيرا ٠ فالكثرة من بيوتنا ، الخاصة منها والعامة ، بما فيها من شقق تكاد لا تحصى ، وردهات فسيحة مترامية الأطراف، و (كيلارات) لاختزان الانبذة وغيرها من ذخائر السـلم ـ كانت تبدو لى مسرفة في سعتها بالاضـافة الى عدد الذين يسكنونها ، فكأنهم فيها حشرات تؤوفها ٠ وكنت أدهش كل الدهشة اذا ما نادى المنادى أمام دار من الدور الكبيرة ، أن أرى فأرامضحكا يخرج منها الى فنائها الأمامي، بدلا من سكانها ، جميعا ثم يعود ويتسلل الى جحر لهفي أرضيتها ٠

وثم مضايقة شعرت بها أحيانا في بيت صغير كل الصغر مثل بيتي هذا ٠ وتلك هي صعوبة الابتعاد عن ضيفي مسافة كافية عندما نأخذ في التعبير عن أفكارنا الجليلة بعبارات جزلة جليلة مثلها ٠ فأنت لا شك بحاجة الى مكان لأفكارك حتى تتهيأ التهيؤ الواجب للانطلاق ، فتجـرى شوطا أو شوطين قبل أن تبلغ مرفأها ٠ فرصاصـة أفـكارك يجب أن تكون قد تغلبت على حركتها الجانبية الوثابة وسقطت في اتجاهها الثابت والأخير، قبل أن تصل الى آذان السامع، والا عادت وشقت طريقها مخترقة رأسه من الجنب ٠ وكذلك جملنا وعباراتنا ٠ فهي تقتضي مكانا لها لتنتشر فيه وتكون أعمدتها ونهرها في أثناء ذلك الانتشار ٠ فالأفراد كالامم يجب أن يكون لهـم تخوم وحدود ملائمة ، عريضـةوطبيعية ٠ فهم بحاجة الى شقة حرام واسعة

بينهم . ولقد شعرت وأنا أخاطب زميلا واقفا عبر البركة ، بمتعة أي متعة ، وترف أي ترف . أما في بيتي فقد كنا قريبين كل القرب من بعضنا بعضا ، حتى أنا لم نكن نبدأ في أن يسمع أحدنا الآخر يتكلم ، ولم نكن نستطيع أن نتكلم بصوت منخفض انخفاضا كافيا ، مثلنا في ذلك مثل من يلقي حجرين في ماء ساكن أحدهما على مقربة من الآخر فيتلف كل منهما المويجات التي يحدثها الآخر . فان كنا ثرثارين نتكلم بصوت عال ليس الا ، لرضينا أن نقف قريبين بعضنا من بعض كل القرب يشعر كل واحد منا بأنفاس زميله ؟ على حين ان كنا نتحدث بتحفظ وروية لوجب علينا ان نجعل بين واحد منا والآخر مسافات أطول حتى تجد كل حرارة حيوانية فينا ، ويجد كل بخار ماء ، مجالا كافيا للبخر . فان شئنا أن ننعم بعشرة ذلك الذي في كل منا أوثق عشرة وأصدقها ، والذي هو خارجنا أو فوقنا ، عندما يواجه الينا الخطاب ، وجب ألا نكون صامتين فحسب ، بل ينبغي أن تكون أجسامنا بعيدة كل البعد حتى لا يكاد أحدنا أن يسمع صوت الآخر بحال من الاحوال . فعلى هذا الاساس يكون الكلام راحة لكل من كان ثقيل السمع . على أن ثمة أمورا سامية لا نستطيع أن نتلفظ بها اذا كان علينا أن نجهر بها ونتحدث بصوت عال . وكنا اذا اتخذ الحديث صبغة أسمى وأجل دفعنا بكراسينا الى مسافات أبعد فأبعد حتى تمس الجدران من زاويتين متقابلتين وعندئذ لا يكون عندنا عادة مكان كاف .

وكانت حجرة استقبالي ، أو ان شئت حجرة انزوائي وابتعادي ، مهيأة دائما لاستقبال الضيوف ، وكان من النادر أن تقع الشمس على بساطها . فما هذه الحجرة سوى غابة الصنوبر التي خلف بيتي . فعندما يفد على زوار من سراة القوم ووجهائهم في أيام الصيف ، أخذتهم اليها ، وقام خادم ، لا يقدر بثمن ، يكنس الارض ويزيل الغبار من على الاثاث ، ويرتب كل شيء خير ترتيب وأحسنه .

فان حضر ضيف واحد أشركته معي في وجبتي البسيطة ، ولم يقطع علينا حديثنا أن نقوم بتحريك « عصيدة » نعملها على عجل ، أو أن نرقب ، ونحن نتحدث ، رغيفا من الخبز يقب وينضج على الملة . أما ان حضر عشرون ضيفا وجلسوا في بيتي فاني لا أذكر لهم شيئا عن الغداء ولو كان عندي من الخبز ما يكفيني ورجلا آخر معي ، حتى لكأن الأكل أصبح عادة قديمة مهجورة . على أنا كنا نزاول التقشف عادة ، من غير أن يشعر أحد منا بأن هذا التقشف ذنب نقترفه في حق الضيافة وحسن القرى ، بل هو خير طريقة وأدخلها في باب اللباقة . ففي مثل هذه الحالة كان ما يتحطم من الحياة الفيزيقية ويضيع منها سدى ، والذي كثيرا ما يستلزم اصلاحا ويقتضي تجديدا ، يبدو أنه قد تأجل بشكل خارق للعادة . ويظل النشاط الحيوي قائما صامدا يؤدي عمله . وبذلك يتيسر لي أن أدعو ألف شخص أو أدعو عشرين



فحسب • وان حدث وعاد بعض الأضياف الى بيوتهم خائبي الآمال أو جائعين اذا ما جاءوا ووجدوني في البيت ، فليكونوا على ثقة من أني أعطف عليهم على الاقل ، وآواسيهم •

وانه لمن العسير الهين علينا أن نقيم عادات جديدة لتحل محل العادات القديمة التي ألفناها، على الرغم من أن الكثيرين من أرباب البيوت يرتابون في امكان ذلك • فلست بحاجة الى أن تقيم شهرتك وصيتك على أساس الغداء الذي تقدمه الى ضيوفك • أما أنا فلم يعقني عن التردد على بيت أي رجل ما ، أي سر بروس* كان ، مثلما عاقني ذلك الاستعراض الذي يقوم به بعضهم عندما يغديني مما أعده ايماءة مهذبة كل التهذيب ، ولفتة غير مباشرة الى أنه يجب على ألا أضايقه بعد ذلك مرة أخرى • وأعتقد أني لن أعود الى مشاهدة مثل هذه المناظر ثانية • هذا ، واني لأفخر أن أجعل شعار كوخي أبياتا للشاعر سبنسر كتبها أحد زواري مرة على ورقة صفراء من أوراق شجر الجوز الامريكي فتركها لي عند زيارته اياي على أنها بطاقته •

وما ان وصلوا حتى ملأوا البيت الصغير ،
وأخذوا يبحثون عن تسلية فيه ، حيث لا يوجد شيء من هذا القبيل ؟
ولكنهم كانوا ينشدون الراحة ، فكل شيء كان على ما يشتهون ،
فأنبل العقول خيرها صناعة واحسنها رضى(1)

لما مضى وينسلو (وهو الذي صار فيما بعد حاكم مستعمرة بليمث*) مع رفيق له لزيارة « مساسويت » زيارة رسمية ، وسارا على الاقدام يخترقان الغابات ، وقد أخذ منهما النصب والجوع كل مأخذ استقبلهما الملك خير استقبال واحتفى بهما أيما احتفاء ، ولكنه لم يذكر لهما شيئا واحدا عن الغداء في ذلك اليوم • فلما جن الليل ـ ولندع الكلام لوينسلو نفسه ـ « جعلنا ننام معه وزوجته ، فناما هما في أحد طرفي الفراش ، ونمنا نحن في الطرف الآخر ؛ ولم يكن السرير الذي قضينا فيه ليلتنا سوى بضعة ألواح من الخشب أقيمت على ارتفاع قدم من الارض ، وبسط عليها حصير رقيق • واذ لم يكن ثم مكان في البيت ، جاءنا اثنان من كبار رجاله يزحماننا ، فناما معنا الى جانبنا وجعلا يضغطان علينا كل الضغط حتى كان ما عانيناه من مسكننا أسوأ مما قاسيناه من التعب في رحلتنا • وفي الساعة الواحدة من اليوم التالي جاءنا مساسويت بسمكتين صادهما ، حجم كل واحدة منهما ثلاثة أضعاف سمكة الأبراميس*• وبعد أن سلقتا ، أكل منهما أكثر الجماعة ، فكانت هذه الأكلة الوجبة الوحيدة التي طعمناها

(١) من الفصل الخامس والثلاثين من كتاب The Faerie Queene للشاعر الانجليزي سبنسر المتوفي سنة ١٥٩٩

فى ليلتين ونهارين ، ولولا أن أحدنا قد استحضر معه حجلة لقضينا رحلتنا صائمين . ثم غادر الضيفان المكان خشية أن يكونا غير مالكين لقوتهما العقلية من قلة الغذاء وقلة النوم ، ومن جراء ما سمعاه من غناء المتوحشين الهمجى (فقد كان من عادة القوم أن يغنوا حتى يغلبهم النوم) ورحلا حتى يستطيعا أن يبلغا بلدهما ، ولا يزال لديهما شيء من القدرة على السفر . أما من حيث المسكن فيصح أنهما لم يكرما فيه أى اكرام ، مع أن ما اعتبراه مضايقة كان المقصود به اكرامهما لا شك . أما من حيث الطعام فلست أرى كيف يستطيع الهنود أن يفعلوا خيرا مما فعلوا ، فلم يكن عندهم شيء يأكلونه أنفسهم . وكانوا أعقل من أن يظنوا أن الاعتذار قد يحل محل الطعام يقدم الى ضيوفهم ، وعلى ذلك شدوا أحزمتهم على بطونهم ولم يدكروا عن الامر شيئا . ولكن لما عاد وينسلو هذا وزارهم مرة أخرى ، وكان الموسم رخاء عندهم ، لم يكن ثم أى نقص أو تقصير فى هذه الناحية .

أما الرجال فانك تكاد تجدهم فى أى مكان تحل به . فقد زارنى فى الغابات أناس أكثر عددا مما زارونى فى أية فترة أخرى من فترات حياتى ، وأقصد بذلك أنه زارنى بعض الزوار . فقد قابلت كثيرين هناك فى ظروف أنسب مما أستطيع أن أقابلهم فيها فى أى مكان آخر . على أن الذين جاءوا لزيارتى لاعمال تافهة كانوا قليلين ، وفى هذه الحالة كان بعديتى عن البلدة كافيا لان ينخلهم ويصفيهم ، فقد أبعدت بعدا كبيرا ، وتوغلت فى محيط الوحدة والعزلة التى تصب فيه أنهار المجتمع ، حتى صار من حيث ما يتعلق بحاجاتى وشئونى ، لا يرسب حولى فى الغالب سوى أرفع الرواسب وأدقها . وزيادة على ذلك حمل الى أدلة على وجود قارات فى الجانب الآخر لم تستكشف بعد ولم تزرع .

ومن يجيء الى كوخى هذا الصباح سوى رجل هو « مرى بفلاجونى* » حقا ؟ له اسم شعرى يناسبه كل المناسبة . ولكن يؤسفنى أن لا أستطيع ذكره هنا فى هذا الكتاب مطبوعا . وهذا الزائر رجل كندى حطاب صانع قوائم خشبية ، وكان يستطيع أن يثقب من هذه القوائم خمسين فى اليوم الواحد . وكان آخر عشاء أصابه « مرموطا » صاده له كلبه . وهو ممن سمعوا بهومر ؟ فلو لم تكن الكتب لما عرف ماذا يصنع فى الايام المطيرة ، وربما لم يقرأ مع ذلك كتابا واحدا بأكمله منذ فصول كثيرة مطيرة كثيرة . وقد علمه قسيس يعرف كيف ينطق اللغة الاغريقية نفسها ، أن يقرأ أسفاره من الوصية فى القرية التى ولد فيها والتى تبعد مسافة طويلة عن هنا ، وصار على أنا الآن أن أقوم له وهو ممسك بالكتاب فى يده ، بترجمة عتاب أخيل* لباتروكلوس* على اكتئابه وحزنه البادى على وجهه .

لماذا تبكى يا بتروكلوس بكاء الفتاة الصغيرة ؟

أوصلتك أنت وحدك آخبار من افتيا* ؟
انهم يقولون آن فتونيوس* بن آكتور*لا يزال على قيد الحياة •
وان بليوس* ابن أياكوس* لا يزال حياعند المرميدون* •
فلو ان واحدا منهما توفى لحزنا عليه أشدالحزن •

ثم يقول « هذا حسن » وكان يتأبط حزمة كبيرة من خشب البلوط الابيض جمعها صباح هذا الاحد ليحملها الى رجل مريض ، ثم قال :أظن أن لا ضرر من السعى وراء شيء من هذا لقبيل اليوم ؟ فقد كان هوميروس* في نظره كاتبا عظيما ، وان لم يكن يدرى عما كانت كتاباته• من العسير أن نجد رجلا أبسط وأقرب الى الطبيعة من هذا الرجل ، والظاهر أن الرذيلة والمرض ، الامرين اللذين يلقيان صبغة أخلاقيةقاتمة على هذا العالم ، لم يكن لهما أى وجود بالنسبة اليه • وهو يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاما ، كان قدترك كندا بلاده منذ اثنى عشر عاما، وجاء الى الولايات المتحدة ليعمل ويكسب مايكفيه من المال لشراء ضيعة له ، ولعله كان ينوى أن يشتريها فى كندا نفسها • لقد كان مخلوقا صيغ فى قالب خشن كل الخشونة ، فجسمه مكتنز قوى على الرغم مما فيه من بطء ومن خمول • على أن هذا لم يمنعه آن يكون رشيقا فى حركاته ، له رقبة لوحتها الشمس ،وشعر كث قاتم اللون ، وعينان زرقاوان كابيتان ناعستان ، ولكنهما كانتا أحيانا تفصحان عن شيء مما وراءهما • وكان يلبس قبعة مفرطحة مصنوعة من قماش رمادى اللون ، ويرتدى معطفا كبيرا قذرا قاتما ، لونه لون الصوف الطبيعى ، وينتعل حذاء من جلد البقر ، ويستهلك مقدارا كبيرا من اللحم • ومن عادته أن يحمل معه غداءه فى جردل من صفيح مسافة ميلين من بيتى ؟ فقد كان يقضى طيلة الصيف فى قطع الاخشاب • ويتكون غذاؤه من لحم بارد عادة من لحم المراميط* ، وقهوة فى وعاء من فخار يربطه بقطعة من الحبل ويتركه يتدلى من حزامه ، وكان أحيانا يقدم الى شرابا مما فيه • جاءنى هذا الرجل مبكرا بعد أن اخترق حقل فولى فى غير عجلة أو تلهف على آن يبدأ عمله، كما هى عادة الامريكيين المحدثين • فهو لا يريد أن يؤذى نفسه ، ولا يبالى ان كان لا يكسب سوى قوته • وكثيرا ما كان يودع غذاءه أغصان الشجر اذا ما تصادف وصاد له كلبه مرموطاوهو فى الطريق ، ولا يهمه آن يعود ميلا ونصف ميل ، ليسلخه وينظفه ويتركه فى « كيلار » البيت الذى يتناول فيه طعامه ، وذلك بعد أن يكون قد فكر نصف ساعة فى هل يغمره فى البركة ويكون آمنا عليه حتى الليل • فقد كان مغرما بالتفكير فى أمثال هذه الموضوعات ، ويقول لنفسه وهو يسير فى الصباح : ما أكثر الحمام هنا ! فلو لم يكن العمل مهنتى فى كل يوم لاستطعت الحصول على ما آريده من اللحم من طريق الصيد ، فأصيد الحمام والمراميط*

والارانب والحجل .. يا الهي ! انى لاستطيع أن أحصل فى يوم واحد على ما يكفينى أسبوعا.

وكان حطابا ماهرا يروق له آن يقوم بعدة أشكال من ضروب المهارة فى فنه هذا. وكان يقطع الاخشاب من قرب سطح الارض كي تكون الفسائل التى تنبت بعد ذلك أقوى وأبلغ نشاطا عما كانت عليه سابقاتها ، وكي يسهل دفع الزحافات لتسير على أعجاز الشجر . وبدلا من أن يترك شجرة برمتها كي تسند أخشابه المربوطة بالحبل ، كان يبريها وينحتها نحتا شديدا حتى تصير وتدا رفيعا تستطيع آن تقصفه بيدك آخر الامر .

وقد همنى شأن هذا الرجل لانه كان هادئا بالغ الهدوء ، وحيدا ، منفردا ، ومع ذلك سعيدا . فهو نبع من الفكاهة والقناعة اللتين كانتا تفيض بهما عيناه . وكان فرحه خالصا لا يشوبه شيء ، فأراه أحيانا وهو يقوم بعمله فى الغابات يسقط الاشجار ويحتطب، وكان يحيينى بابتسامة تنم عن رضى لا يمكن التعبير عنه ، ويحيينى باللهجة الفرنسية الكندية ، وان كان يتكلم الانجليزية كذلك . فاذا ما اقتربت منه توقف عن العمل ورقد على طول جذع شجرة من أشجار الصنوبر قطعها من قبل ، وهو يكاد يكتم ما فى نفسه من الفرح والسرور بلقائى . وبعد أن يقشر عن الشجرة لحاءها الداخلى اذا به يلفه ويجعل منه كرة صغيرة يضعها فى فمه ويمضغها وهو يضحك ويتحدث . وقد يبلغ فيض ما فيه من روح حيوانية أن يلقى بنفسه على الارض ويظل يضحك ويقهقه من خاطر سنح له واستثار ضحكه ، ثم ينظر الى الاشجار ويصيح ياربا ه ! انى أستطيع أن أستمتع بنفسى هنا كل الاستمتاع، وأنا أقطع هذه الاشياء . فما أنا بالراغب فى نوع آخر من اللعب خيرا من هذا . وأحيانا كان يتسلى طول اليوم فى وقت فراغه فى الغابات بطبنجة معه يظل يعبث بها ويطلقها عدة مرات فى فترات منتظمة وهو يمشى ، تحية منه لنفسه. واذا حل الشتاء أوقد نارا يسوى عليها قهوته عند الظهر ، فى مغلاة معه . وكان عندما يجلس على كتلة من كتل الخشب ليتناول غداءه أقبلت عليه القرافف[1] لتلتقط ما قد يكون تخلف بين أصابعه من البطاطس . وكان يقول آنه يروق له أن يرى هذه الصغار حوله .

ان الجانب الحيوانى منه قد نما وترقى ترقيا عظيما ، فهو من حيث قوة الاحتمال البدنى، ومن حيث القناعة والرضى من أبناء عمومة أشجار الصنوبر والصخر . حدث آنى سألته مرة ان كان يشعر أحيانا بالتعب عندما يعود الى بيته ليلا بعد عمل شاق طول النهار . فأجابنى بنظرة تنم عن اخلاص وجد : «ياربا ه !انى لم أشعر قط بالتعب فى حياتى» . أما من حيث الناحية العقلية ، وما يسمونه بالناحية الروحية فقد كانتا ـ هاتان الناحيتان ـ هاجعتين فيه هجوعهما فى الطفل . فهو لم يتعلم الا بتلك الطريقة البريئة القاصرة التي يصطنعها القسس

(١) نوع من صغار العصافير تقطن الولايات المتحدة .

الكاثوليك فى تعليم سكان البـــلاد الاصليين البدائيين ، والتى لا يمكن أن توصل أحدا الى الدرجة التى تجعـله يتفطن الى نفسه ، وانماغايتهـــا أن توصله الى درجة الايمان بغـيره وتوقيرهم واجلالهم • فهى طريقة يعد بهـــا الطفل ليظل طفلا ، لا ليكون رجلا • فعندما صاغت الطبيعة هذا الرجل جعلت نصيبه جسماقويا ، ووهبته القناعة والرضى ، وسندته من كل ناحية من نواحيه بالتوقير والتوكل حتى يستطيع أن يقضى السبعين سنة المقدرة له فى حالة الطفولة لا يرتفع عنها • وقد كان صريحا مخلصا خاليا من كل تكلف وتصنع حتى لا توجد مقدمة تصلح للتعريف به اكثـــر مما لو كنت تقدم « مرموطا » الى جارك •فعليك أن تستكشفه بنفسك وتتعرف كنهه كمافعلت أنا • هذا ، وهولا يعرف كيف يمثل أى دراما ، فالناس يدفعون اليه أجرا نظير عمله وبذلك عاونوا على اطعامه وكسوته ، ولكنه لم يتبادل معهم أى آراء ، فقد كان بسيطا متواضعا ــ ذلك اذا سمينا متواضعا من لا يطمح الى شىء أبدا ــ لدرجة أن التواضع لم يكن صفة متمايزة ظاهرة فيه ، ولا يستطيع هو أن يفهم له معنى ما • وكان يعد كل من هم أعقل منه وأحكم أنصاف آلهة ، فاذا قلت له آن رجلا عاقلا سيحضر ، سلك مسلك من يظن آن شيئا يمثل هذه العظمة لا يمكن آن ينتظر منه شيئا ما بل يتحمل التبعة كلها • ولم يحدث أنه سمع مرة كلمة مدح وثناء ، وكان يوقر بصفة خاصة كلا من الكاتب والواعظ ويجلهما ، فأعمالهما فى نظره معجزات خارقة للعادة • فعندما أخبرته أنى كتبت كثيرا ظل مدة طـويلة معتقـــدا أنى أقصـد بالـــكتابة مجرد الخط وحده لانه كان يحسن الخط ويتقنه الى درجة عظيمة ، فكنت أرى أحيانا اسم بلدته مكتوبا بخط جميل على الثـــلج فى الطريق العام بالعبـــارة الفرنسية الصحيحة ، فأدرك عندئذ أنه قد مر من هنا •وسألته ان كان قد خطر له مرة أن يدون ما يعن له من أفكار ، فقـــال انه قرأ وكتب خطابات للذين لا يقرأون ولا يكتبون ، ولكنه لم يحاول أن يدون أفكاره هو • لا ! انه لا يستطيع أن يدونها فليس يدرى أى شىء يجب عليه أن يدونه أولا ، فذلك شىء يكاد يقتله ويقضى عليـــه •هذا ، ولا تنس مشكلة رسم الحروف وهجائها ، فهى أمر يجب أن يعنى به فى الوقت نفسه •

وسمعت مرة أن رجلا عاقلا ومصلحا معروفا سأله مرة ان كان يريد من هـذه الدنيا أن تتغير ، فما كان منه الا أن ضحك وأجابه بلهجته الكندية من غير أن يخطر بباله أن هـذه المشكلة قد طرأت على فكر أحد من قبل ، وقال : لا انى أحبها بالشكل التى هى عليه حبا جما • فكان جوابا يصلح لان يوحى الى فيلســوف بأشيـــاء كثيرة اذا ما تحدث اليه واختلط به • فهو يبدو للغريب الذى لا يعرفه كأنه لا يدرى شـــيئا مطلقا عن أمور الدنيا فى جملتهـا • ومع ذلك فقد كنت أرى فيه رجلا لم أره من قبل • فلم أدر ان كان عاقلا عقـــل شكسبير ، أم ساذجا

سذاجة الطفل الصغير ، وهل فيه شاعرية رفيعةأم به غبـاء وضعف عقل • وذكر لى واحد من أهل البلدة أنه اذا ما قابله وهو يتسكع فى طرقالقرية لابسا قبعته الضيقة يصفر لنفسه ، ذكره بأمير متخفف •

وكان كل ما عنده من الكتب تقويما ، وكتاب حساب • وكان ماهرا فى هذا العلم الى حد كبير • وكان التقويم أشبه بدائرة معارف فىنظره ، ويرى أنه يحوى خلاصة العلم البشرى، وانه لكذلك الى حـــد كبير • وكنت أحب أنأختبره فى شئون الاصلاح الجديدة التىيتحدث عنها الناس فى هذه الايام ، فلم يحدث أنه فشلمرة فى أن ينظر اليها نظـــرة عملية بسيطة • وسألته ان كان يستطيع أن يستغنى عنالمصانع •فقال أنه لبس حلة مصنوعة فى المنزل من قماش خشن غليظ غير مجهز ، وكانت حلة طيبــةصالحة • وسألته أيستطيع أن يستغنى عن شرب القهوة والشاى فقال : وهل زودتنا هــذه البلادبمشروب آخر خلاف المـاء ؟ هذا ، وقد سبق له أن نقع أوراق الشوكران * فى الماء وشربهاوكان ذلك فى رأيه أفضل من شرب المـاء فى الجو الحار • وعندما سألته ان كان فى استطاعتهأن يستغنى عن النقود ، شرح لى مزاياها بشكل يذكرنى بالاسباب الفلسفية التى تذكر عن نشأةهذا النظام فى التعامل•وكانقوله ينطبق على هذا النظام ، كما أنه ذكرنى باشتقاق كلمة «نقود»ذاتها • قال لو أنه كان يملك ثورا ، وأراد أن يشترى من المتجر ابرا وخيطا ، فمن غير الملائمفى رأيه ، بل من المستحيل أن يرهن جزءا من هذا الحيوان نظير ثمن الخيط والابر • لقد كانفى استطاعته أن يدافع عن كثير من المؤسسات والنظم خيرا مما يستطيع أن يدافع عنهــا أىفيلسوف ، لانه عندما يصفها من النواحى التى تعنيــه وتهمـــه كان يدلى بالسبب الحقيقى فىانتشارها ، ولم يوح اليه التفكير بأى سبب آخر غير ما ذكر • وقد سمع مرة تعريف أفلاطونللانسان بأنه حيوان من ذوات الاثنين خال من الريش — وعرف أن شخصا عرض ديكا منتوفالريش أسماه رجل أفلاطون — فقال عندئذ أنه لفرق هام بين الاثنــين ، ان الركبتين تنثنيـــانبطريقة عكسية • وقد يصيح أحيانا . « ما أشد غرامى بالكلام ! انى والله أستطيع أنأظل اليومكله أتكلم ! » وسألته ذات يوم بعد أن انقطعت عن رؤيته عدة شهور ، ان كانت قد سنحت لهفكرة جديدةهذا الصيف فقال يا الهى ! انرجلا مضطرا الىالعمل اضطرارى اليه ، يكون ، اذالم ينس الافكار التى سبقأن خطرت بباله••• يكون قد أحسن وأجاد •

وقد يبدأ هو ويسألنى فى مثل هذه الظروف أحيانا ، عما ان كنت قداستحدثت تحسينات جديدة • وسألته مرة فى يوم من أيام الشتاء انكان دائما راضيا عن نفسه قانعا بأحواله ، وكان قصدى من هذا السؤال أن أوحى اليه ببديلفى باطنه ليحل محل القسيس خارجه ، وأحرك

فى نفسه حافزا آخر ساميا يدفعه الى الحيـــاة فقال : « تسألنى أراض أنا ؟ ان بعض النـاس يقنعون بشىء معين ، ويقنع سواهم بغيره ، وقديرضى رجل أن يجلس طول يومه ، مادام عنده ما يكفيه ، وقد وجه ظهره نحو النـار وبطنه نحو المائدة • يا الهى ! » ومع ذلك فلم أستطع بأية حيلة ولا بأية مناورة من عندى أن أجعله يتجه الى الجانب الروحى من الاشياء ، فأسمى شىء بدا أنه يستطيع أن يتصوره كان وســيلة بسيطة من النوع الذى يصـــح أن نتوقع من حيوان أن يقدره ويدركه • وهو مايكاد ينطبق على الكثرة من الناس ، فان أنا اقترحت عليه أى تحسين فى طريقة معيشته اكتفى بأن يجيب بأن الوقت قد فات • ومع ذلك فقد كان مؤمنا كل الايمان بالشرف وأمثاله من الفضائل •

وكان يتجلى فيه لاشك نوع من الاصالة الايجابية ، وان كانت قليلة • فقد كنت ألاحظ فى بعض الاحيان أنه كان يفكر لنفسه ، ويعبر عن رأيه الخاص ـ وهى ظاهرة نادرة فى الناس حتى انى ليهون على أن أسير عشرة أميال كى أشاهدها ، فانها قد تؤدى الى اعادة تكوين الكثير من مؤسساتنا ونظمنا الاجتماعية وتجديدها •ومع أنه كان كثير التردد فى التعبير عن نفســه تعبيرا واضحا ، وربما فشل فيه ، فقـــد كانت لديه دائما فكرة صالحة يمكن عرضها ، ومع ذلك فقد كان تفكيره بدائيا ومتصلا أوثق اتصال بحياته الحيوانيه • ومع أنه تفكير يرجى منـــه أكثر مما يرجى من تفكير الرجـل العـــالم فحسب ، فقلما كان يصل الى درجة من النضج يمكن معها نشره والتحدث فيه • وقد اقترح مرة أنه من الممكن أن يكون ثمة عباقرة فى أدنى مراتب الحيـاة مهما بلغوا من الامية والجهل ،ومهما كانوا وضيعين ضعة دائمة ، يتبعــون دائما ما توحى اليهم به عقولهم من آراء ، أو هم يدعون أنهم لا يرون شيئا مطلقا ، فهم عميقون كل العمق أو لا قرار لهم ، مثل بركة والدن التى كان الناس يظنون من قبل أنها لا قاع لها ولا قرار ، وان كان يصح أن يكونوا مظلمى الجوانب كثيرى الاوحال •

وكم من سائح غير طريقه رغبة منـه فى أن يزورونى ، ويرى داخل بيتى ، وكان يتذرع لهذه الزيارة بحجة أنه انما جاء يطلب قدحا من الماء • فكنت أقول له انى أشرب من البركة ، وأشير اليها بيدى ، وأعرض عليه أن أقرضـه كوزا يستقى به • ومع انى كنت أقطن فى مكان ناء فلم أكن أعفى من تلك الزيارات الســنوية التى تحدث على ما أظن فى أوائل ابريل عندما يكون كل الناس قد أخذوا فى التحـــــرك والنشاط • ولم أعدم نصيبى من حسن الحـظ عـلى الرغـــم من أن بعض زوارى كانوا من أغرب أنواع خلق الله • فكان منهـــم رجال ضعاف العقول من ملاجىء الفقـــراء ، جعلت أحاول أن أستغل كل ما لديهم من فطنة ومن ذكاء ، وأطلب منهم أن يصارحونى ويعترفوا الى بما عندهم • فكنت أجعل موضوع الذكاء ،

محور حديثنـــا ، وبذلك أنال ما يعوضني عن جهودي . وفي الحق وجدت فيهم من هم أعقل من أولئك الذين يسمون أنفسهم بالمشرفين على شئون الفقراء ، ويوصفون بأنهم خيرة رجال البلد وصفوتها .

وخطر لي أن الأوان قد آن لتغيير الاوضاع ولانقلاب الآية . أما من حيث الذكاء فقد علمت أنه لا يوجد فرق بين ذوى الذكاء الكامل وبين ذوى أنصـــاف الذكاء . فذات يوم جاءني صعلوك ساذج لاخطر منه ولا ضرر، كثيرا ما كنت أراه ورجلا آخر معه يستخدمان كسياج ، فيقف الواحد منهم أو يجلس ، على مكيال من مكاييل الحبوب ، في الحقول يمنع الماشية أن تضل ، أو يمنع نفسه هو من ذلك . زارني هذا الصعلوك مرة وأبدى رغبة في أن يعيش بالطريقة التي أعيش بهـــا ، وقال في بساطة بالغة ، وبصدق لا خفاء فيه أسمى كثير أو أقل كثـيرا من أي شيء يسمونه تواضعـــاوانكسارا ، قال انه قاصر العقل ، واليك عبارته نفسها قال « هكذا خلقه الله » ومع ذلك فكان يرى أن الله يعنى بشأنه بقدر ما يعنى بشـــأن أي مخلوق آخر ، فنسمعه يقول « لقد كنت كذلك منذ نعومة أظفاري ، فأنا رجل ضعيف العقل ، وأظن أن هذه هي ارادة الله » . وها هو يبرهن على صدق أقواله ، لقد كان أحجية ميتافيزيقية لي ، ويندر أني قابلت رجلا في مثل هذه الظـروف الطيبـــة ، اذ كان كل ما قاله بسيطا مخلصـــا وصادقا . وحقا كان يسمو ويرتفع بقدر ماكان يتظاهر بأنه يقلل من شأنه نفســـه . ولم أكن أعرف ذلك من البـــداية ، ولكنه كان نتيجة سياسة رشيدة عاقلة . ويبدو لي أن أحاديثنـا يمكن أن ترقى من مثل هذا الاساس الـــذي وضعه ذلك الصعلوك المسكين الضعيف العقـل حتى تصل الى مستوى أرقى من أحاديث العلماء والحكماء .

هذا ، وقد زارني بعض الضيوف ممن لا يعدون عادة من بين فقراء البلدة ، ولكنهم عـلى أي حال يعدون من فقراء هذا العالم — ويجب أن يكونوا ضيوفا ممن يلجـــأون لا الى كرمك وحسن قراك — ولـــكنهم يلجأون اليك كما يلجأون الى المستشفى ، انهم يرغبون حقا وجدا في أن يعانوا ، ولكنهم يقدمون بين طلبهم للعون أن يحيطوك علما بأنهم قد أجمعوا أمرهم عـلى ألا يعاونوا أنفسهم أبدا بحال من الاحـوال . هذا واني أتطلب من الزائر ألا يكون فعـلا على وشك الموت جوعا ، حتى لو كانت له خير شهية في العـــالم ، وأيا كانت الطريقة التي حصـل بها على هذه الشهية . فالذين تجب لهم الصدقة ليســوا ضيوفا . كان زوارى رجالا لا يدرون متى تنتهي زيارتهم ، حتى ولو عدت أنا لشأني وأعمالي ، وجعلت أجاوبهم من مســافات ظلت تزداد بعدا على بعد . هذا ، وقد زارني رجال من كل درجة من درجات الذكاء والفطنة ، في موسم المهاجرة . وكان لبعضهم من الذكاء أكثر مما كانوا يعرفون ماذا يصنعون به ، فمنهم عبيد

آبقون تلمس في سلوكهم ما سبق أن ألفوه في المزارع ، فكانوا ينصتون الفينة بعد الفينة كما ينصت الثعلب في الاسطورة المعروفة ، كأنهم قد سمعوا عواء الكلاب التي تقتفي آثارهم فنظروا الى متضرعين ولسان حالهم يقول :

« أيها المسيحي ، هل لك أن تردني الى ما كنت فيه ؟ »

وكان من بين الزوار عبد آبق فعلا كنت عاونته على أن يتجه نحو النجم القطبي . ومنهم رجال ذوو فكرة واحدة استولت عليهم فكانوا مثل الدجاجة التي ليس لها فرخ واحد وذلك الفرخ بطيطة ، ومنهم رجال لهم ألف فكرة ، ورؤوس مشعثة غير مرتبة ، مثل تلك الدجاجات التي كلفت أن ترعى مائة فرخ كانت كلها تطارد بتة واحدة . وكان يضيع منها عشرون في ندى كل صباح ، ثم أصبحت متقلصة متغضنة جرباء من جراء ذلك ، ورجال لهم أفكار بدلا من الارجل كأنهم أشبه بحشرة ذهنية من حشرات « أم أربعة وأربعين » تجعلك تزحف كلك . هذا وقد اقترح أحد الزوار ايجاد دفتر ليدون فيه الزوار أسماءهم كما هي الحال في « الجبال البيض » . على أن ذاكرتي والحمد لله قوية تجعل مثل هذا الدفتر أمرا لا لزوم له .

ولم يكن يسعني الا أن ألاحظ بعض مافي زواري من خصائص وميزات . فالبنات والصبيان والشواب كان يحلو لهم عادة أن يكونوا في الغابات ، فكانوا ينظرون في البركة والى الازهار ويستفيدون من وقتهم . أما رجال الاعمال ، وحتى الزراع منهم ، فلم يكونوا يفكرون الا في الوحدة وفي الشغل وفي تلك المسافة الشاسعة التي تفصل بيني وبين هذا الشيء أو ذاك . ومع أنهم كانوا يقولون انه يطيب لهم أن يطوفوا بالغابة أحيانا ، فقد كان واضحا أنهم لم يكونوا يحبون ذلك الطواف . وكان من بين الزوار رجال قلقون ، ذوو ارتباطات ومصالح كثيرة يستغرقون كل وقتهم في السعي وراء الرزق ، أو في المحافظة على ما حصلوا عليه منه وصيانته ، ومنهم قسس يتكلمون عن الله كأنهم كان يلذ لهم أن يحتكروا الكلام في هذا الموضوع وحدهم ، ولا طاقة لهم بالصبر على مختلف ضروب الآراء ، ومنهم أطباء ومحامون ، وأرباب بيوت غير مطمئنين ، دفعهم الفضول الى الاطلاع على مافي صوان طعامي ، وعلى فراشي عندما أكون خارج البيت . فكيف حدث أن عرفت فلانة أن ملاءات سريري لم تكن نظيفة نظافة ملاءات سريرها هي ؟ ومنهم شبان وقف بهم الزمن فلم يعودوا شبانا ، اذ استنتجوا أنه من الاسلم لهم أن يسيروا على الدرب ويسلكوا الطرق المألوفة التي يتبعها أصحاب المهن . وكان هؤلاء كلهم يقولون أنه من المستحيل على رجل في مثل موضعي أن يعمل هذا الخير الكثير . نعم ، تلك هي العقدة في الامر كله . وكان الشيوخ والمرضى ،

والمتفيهقون أيا كانت سنهم ، وأيا كان جنسهم ذكورا كانوا أو اناثا ، يفكرون أكثر ما كانوا يفكرون ، في الامراض وفي الحوادث الفجائية وفي الموت . فالحياة في نظرهم حافلة بالاخطار، ولكن أى خطر يمكن أن يكون ، اذا لم تكن أنت نفسك تفكر في الخطر ؟ وكانوا يظنون أن الرجل الكيس الحازم يجب أن يحرص كل الحرص على أن يختار لسكناه أكثر المواقع أمنا ، حيث يستطيع الطبيب فلان أن يبادر فورا الى تلبية طلبهم اذا ما استدعوه . لقد كانت القرية في نظرهم حلفا للدفاع المشترك عن أنفسهم ، وانك لتستطيع أن تتصور أنهم لن يذهبوا في رحلة لجمع التوت البرى من غير أن يكون معهم صندوق أدوات الاسعاف . ومدى هذا هو أن الانسان ، ان كان حيا ، يكون في خطر أن يلحقه الموت . على أنا يجب أن نسلم بأن هذا الخطر يقل نسبيا بقدر مايكون المرء « حيا وميتا » من البداية . ان الانسان ليواجه من الاخطار وهو جالس بقدر ما يقابله منها وهو يجرى . وأخيرا ، كان من بين زوارى ، أولئك الذين يسمون أنفسهم بالمصلحين وهم أثقل الثقلاء جميعا ، فقد كانوا يظنون أنى انما أتغنى باستمرار بقول القائل :

هذا هو البيت الذى بنيته (١)
وهذا هو الرجل الذى يسكن البيت الذى بنيته ،
ولم يدروا أن البيت الثالث كان :
وهؤلاء هم الناس الذين يضايقون الرجل
الذى يسكن البيت الذى بنيته .

فلم أكن أخشى مرز الدجاج* ، لانى لا أقتنى دجاجا ما ، بل كنت أخشى أولئك الذين يزعجون الناس ويضايقونهم .

ولقد زارنى زوار آخرون يشرحون الصدر ويبهجونه أكثر من أولئك الاخيرين . فمنهم أطفال يأتون لجمع التوت البرى بأنواعه ، ومنهم رجال من رجال السكك الحديدية عليهم قمصان نظيفة جاءوا ليتنزهوا في أيام الآحاد ، وسماكون ، وصيادون ، وشعراء ، وفلاسفة . وفي الجمله ، وفد على زوار من كل نوع من أنواع الحجاج المخلصين الذين قصدوا الغابة حبا في الحرية ، وخلفوا القرية وراءهم فعلا . وكنت أنا على استعداد لان أحييهم وأقول لهم مرحبا بكم أيها الانجليز (٢) ! مرحبا بكم أيها الانجليز ! فقد كنت على اتصال بهذا الجيل من الناس .

(١) اشارة الى أنشودة صغيرة للاطفال مطلعها : هذا هو البيت الذى بناه « جاك » ...

(٢) يقال ان هذه هى العبارة التى استقبل بها « ساموست » رئيس جماعة من الهنود الحمر « الآباء الحجاج » الذين هاجروا من انجلترا الى امريكا على ظهر السفينة الشهيرة « مايفلاور » ، واسسوا مستعمرة لهم عند بلد « بليموث » سنة ١٦٢٠ (المترجم)



حقـــل الفــول

بلغت جملة أطوال ما زرعته من صفوف الفول سبعة أميال • وكان الفول ينتظر « التمشيط » بفارغ الصبر • فقد نما ما زرع منه أولا نموا عظيما قبل أن يظهر على سطح الارض ما زرع منه أخيرا • والحق أن تأجيل تمشيطه أطول من ذلك لم يكن بالامر الهين • ولكن ما معنى كل هذا الشغل الجبار المتواصل المحترم لنفسه ياترى ؟ لست أدرى • الا أننى أصبحت مغرما بصفوف فولى هذه كل الغرام ، وان كانت تزيد كثيرا على حاجتى • فقد ربطنى هذا الفول بالارض حتى صار لى من القوة مثل ماكان لانتايوس* • ولكن ما الذى يدعوننى الى الزراعة ؟ هذا مايعلمه الله وحده • فقد كان شغلى الغريب طول فصل الصيف كله أن أجعل هذا الجزء من سطح الارض يخرج هذا النوع من القطانى ، وكان من قبل لايخرج من أنواع النبات الا « رجل الوزة* » ، والعليق الاسود* ، وحشيشة حنا* ، وما اليها ، وكلها كما ترى فاكهة برية حلوة ، وأزهار رائعة مؤنقة • وماعساى أن أتعلم من الفول ، أو يتعلم الفول منى ؟ فهانذا أعزه وأتعهده وأمشطه وأعزقه وأراقبه بكرة وعشية • كان هذا شغلى اليومى • وانها لصفحة جميلة عريضة رائعة تسر الناظرين • وكان يعاوننى فى عملى هذا ، الندى والمطر ، اللذان يرويان هذه التربة الجافة ، كما عاوننى ماقد يكون فى التربة ذاتها من خصب قليل ؟ لانها تربة أكثرها هزيل مجهد عقيم • أما أعدائى فكانت الديدان ، والايام الباردة ، وألذهما جميعا المراميط ، فقد قرضت ربع فدان ، وأتت على كل ما فيه من الفول • ولكن أى حق يخول لى أن أطرد هذه الحشيشة وأمثالها ، وأفسد عليها حديقة أعشابها القديمة ؟ فالفول لايلبث أن يصبح شاقا عليها أن تقرضه ، ولسوف يمضى فى سبيله يواجه أعداء جددا غيرها •

لقد جاءوا بى من مدينة بوسطن[1] الى بلدتى هذه وأنا فى الرابعة من عمرى على

---

(١) انتقلت اسرة ثورو من كنكورد الى بلدة تشلمسفرد سنة ١٨١٨ ومنها الى مدينة بسطن (المترجم)

ما أذكر ، فاخترقنا هذه الغابة عينها ، وعبـرنا هذا الحقل نفسه حتى وصلنا الى البركة ، فكان ما شاهدته منظرا من أقدم المناظر الراسخة فى ذاكرتى . وهأنذا الليلة أوقظ بشبابتى الصدى على هذا الماء عينه ، وها هى ذى أشجار الصنوبر لاتزال قائمة هنا ، وهى أكبر منى سـنا ؟ وان كان بعضها قد سقط ، فكثيرا ما طهوت عشائى بأعجازها . وأخذت أشجار جدد تظهر فى كل مكان حولها ، فتهيىء منظرا آخر سوف تستمتع به أنظار أطفال جدد كذلك . وتكاد « حشيشة حنا » ذاتها تنبت فى هـذا المرعى ، ومن نفس الجذور السـابقة الدائمة . وأخيرا عاونت بنفسى على تكوين هذا المنظر الطبيعى الذى يكاد يكون من مناظر الاساطير ، والذى كنت أشاهده وأحلم به فى طفولتى ، وان نتيجة من نتـائج وجودى هنا لتتجلى واضحة فى أوراق الفـول هذه كما تتجلى فى أوراق الاذرة والبطاطس .

وزرعت قرابة فدانين ونصف فدان من الارض فى النجود والمرتفعات . واذ لم يكن قد مضى سوى خمسة عشر عاما على تخليص هذه الارض مما كان بها من أشجار ، (فقد استخرجت بنفسى ثلاثة أحمال من أعجـاز الشجر التى بقيت فى الارض) فانى لم أزودها بشىء من السماد . وقد تبين لى من رؤوس السهام التى استخرجتها فى أثناء قيامى بعـزق الارض فى الصيف ، أن ثمة أمة انقرضت كانت تسكن هذه البقعة فى الازمنة العتيقة وكانت تزرع فيهـا الاذرة والفول ، قبل أن يأتى الانسان الابيض ويعيش فيها . فلا بد أن تكون هـذه الارض قد أجهدت الى حد ما ولم تعد تصلح لهذه الغلة عينها .

ومع ذلك ، فقبل أن يعبر الطريق « مرموط » أو سنجاب ، وقبل أن تطلع الشمس عـلى شجيرات البلوط ، والندى لا يزال على الاشجار ، وعلى الرغم من تحذير المزارعين اياى منه - (وانى أنصح لكم أن تقوموا بأعمالكم الزراعية والندى لايزال موجودا) - قبل ذلك كله ، كنت بدأت أسوى بين صفوف العشب الشامخة فى حقول الفول ، وأهيل التراب على رؤوسـها ، وأجعلها كلها سواسية . وفى الصـباح الباكر اشتغلت حافى القدمين ، وجعلت ألمس الرمال الندية الهشة برفق ولين ، كما يفعل المثـال عندما يصب الصلصال . ولكن اذا جاء الضحى ومتع النهار أخـذت الشمس ترمضنى وتكوى قدمى ؟ ومع ذلك فقد كانت هى التى تعاوننى بضوئها على عزق الفول . فكنت أذهب وأجىء بخطوات بطيئة فى تلك الاراضى المرتفعـة الصفراء التربة الكثيرة الحصباء بين صفوف الفول الطويلة الخضراء التى بلغ طولها ٧٥ مترا ، وكانت أطرافها تنتهى من ناحيـة بأكمة من شجيرات البلوط كنت أتفيأ ظلالها وأسـتريح تحتها ، وتنتهى من الناحية الاخرى بحقـل من أشجار العليق الاسود حيث كانت الثمار الخضر قد ازداد لونها قبل ان أتم طوافى بالفول مرة أخرى . فكان عملى اليومى يشمل تنقية الارض

من الحشائش ، ووضع تربة جديدة حــول سيقان الفول ، وأن أستحث العشب الـــذى زرعته من قبل ، وأحمل التربة الصــفراء على أن تعبر عن خواطرها الصــيفية بأوراق فول وأزهار ، بدلا من أن تعبر عنهــا بحشائش من الشيح وحشيشة الدخن وأمثالها . لقـد كنت أجعل الارض تقول فولا ، بدلا من أن تقــول حشيشا . هذا ماكان من شأن عملي اليــومى . واذ لم أستعن كثيرا بالخيل أو بالماشــية ، ولم أستأجر الا اثنين من الرجال والصبيان للعمـل فى الحقل ، ولم أســتخدم الآلات الزراعية الحديثة ، فلا عجب ان كان عملى أبطأ كثيرا من عمل غيرى ، وأصبحت على صلة وثيقة بالفـول الذى زرعته ، أكثر من المألوف . ولكن ليس العمل باليد ، مهما بلغ حــد الكفاح والارهاق أو كاد ، بشر أنواع الكسل ، اذ أن له مغزى أخلاقيا خالدا لا يزول ، وان كان القائم بهـذا العمل اليدوى عالما أثمر له ثمارا كلاسـيكية . لقد كنت فى نظر المسافرين المتجهين نحو الغرب عن طريق لينكولن وواي لاند الى حيث لا يدرى أحد أين يقصدون ، فلاحا حقيقيا ؛ وعلى حين كانوا هم جالسين مستريحين فى عرباتهم الخفيفة متكئين بمرافقهم على ركبهم ، وقد أرخوا أعنة الخيل ارخاء جعلها تبدو شبه أقواس النصر ـ كنت أنا الملازم لعقــر بيتى ، وحلس دارى ، أعمل بجد فى التربة التى أنا ابنها حقا . ولكن سرعان ما تغيب دارى عن أنظـــارهم وعن أفكارهم كذلك . فقــد كان حقـلى الحقـــل الوحيــد المكشوف المزروع لمســافة طويلة عــلى جانبى الطـــريق . ولا غرو اذن أن كانوا يعملون على أن يستفيدوا منه أقصى الفائدة . فأحيانا كان الرجل يسمع ، وهو فى حقـله ، من أحاديث المسافرين وتعليقاتهم أكثر مما كان مقصــودا به أن يصل الى آذانه ، فتســمعهم يقولون : أفول هذا الذى يزرع فى وقت متأخر الى هذا الحد ! وهل هذه بسلة التى تزرع فى وقت متأخر الى هذا الحـد ؟ ذلك لانى ظللت أزرع على حين كان غيرى يعزق زرعه فلم يكن يخطر ببـــال ذلك الموظف الذى فى وزارة الزراعة أن ذلك أمر يجوز أن يحدث . ازرع أذرة يابنى للعلف ! ازرع أذرة للعلف . وسأل مرة رجل عليه قبعة سوداء وســترة رمادية اللون : هل يعيش هنا ؟ وكان الفلاح ذو التقاطيع القاســـية يشد زمام جواده الشكور ، ليسأل عما أفعل ، فهو لم ير أى سماد فى أخاديد الارض ، ثم ينصح لك بأن تضع فيها قليلا من الســـماد الطبيعى أو قليلا من الفضلات ، أو ربمــا قال قليلا من الرماد والملاط . ولكن ها هما فدانان ونصف فدان من الاخاديد ، ومعـزقة واحدة للعربة ، التى لا يجرها غير عاملين اثنين . فثم نفور من الخيل والعربات الاخرى . أما السماد الطبيعى فكان يؤتى به من مكان بعيد جـدا عن هنا . وكان زملاؤه المسافرون يقارنون بصـوت عال مسموع بين أرضى وبين الحقول التى مروا بها ، مما جعلنى أدرك حقيقـــة موقفى فى عالم الزراعة . فها هو حقل لم يذكره السيد كولمان،

في تقريره ذاك • ومن الذى يقــدر قيمـة المحصول الذى تغله الطبيعة فى شتى حقولها البكر التى لم يستصلحها انسان بعـد ؟ نعم ان محصول الدريس فى انجلترا يوزن بعنـاية وحرص ، ويحسب مقدار مافيه من الرطوبة ، وما فيـه من السليكات والبـوتاس • أما فى الاودية الصـغيرة ، وفى أحضـان البرك ، وفى الغابات والمراعى والمنافع المختلفة فكان ينبت محصول حافل متنوع أيما تنوع • ومع ذلك لم يحصده انسان قط • فكأن محصـولى كان الحلقة الموصله بين الحقول المزروعة والحقول البكر التى لا تزال على حالتها الطبيعية • وكما أن بعض الدول متحضر متمدين وبعضها نصف متحضر وغيرهما متوحش ، فكذلك كان حقلى ، وان كان كذلك بغير معنى سيىء ـ فقـد كان حقلا منزرعا ، وان فوله ليسره أن يعود الى حالته البدائية المتوحشة ـ ذلك الفول الذى زرعتـه وقامت معزقتى تعزف له لحنا من ألحان الرعيان السويسريين •

وعلى مقربة منى جعلت سمنة غريدة تصدح بألحانها طول الصباح من أعلى فرع فى شجرة بتولا ، وكانت مغتبطة بالاجتماع بك اغتبـاطا يجعلها تسـعى للبحث عن حقـل فلاح آخر ان لم يكن حقلك هنا • فبينا أنت مشغول ببذر الحب ، تصيح بك أن ألقـه ! ألقه ! غطه غطه ! اسحبه ! اسحبه ! على أن هـذا لم يكن بالاذرة ، ومن ثم كان بمـأمن من الاعـداء أمثالها • وانك لتعجب وتقـول ما علاقة هـذه السمنة وهرائها المضطرب الذى يشبه عـزف الهواة الذى يحاكون به باجانينى* ، عـلى وتر واحد ، أو على عشرين وترا ، بغـرس الفول ؟ ومع ذلك فأنت تفضله على الرماد ، أو الملاط المغسول • انه نوع رخيص من السماد أومن به كل الايمان •

وكنت كلما سحبت بالمشط تربة جديدة كى أضعها حول صـفوف الفـول حملت الرماد الذى سبق أن خلفته وراءها أمم كانت تعيش من قبل تحت قبة هذه السماء فى الازمنة البدائية السحيقة ، ولم يذكر لنا التاريخ عنهـا شيئا • وها هى ذى أدواتهم الصغيرة التى كانوا يستعملونها فى الحرب وفى الصيد تظهـر على سطح الارض ، وترى الضوء فى هـذه الايام الحديثة ، وكانت مختلطة فى الارض بأحجار أخرى طبيعية على بعضها سمات تدل عـلى أن نيران الهنود قد أحرقتها ، وكان على بعضـها الآخر آثار من فعل الشمس ، وكذلك كانت مختلطة بقطع من الفخار والزجاج التى جلبها معهم زراع هذه الارض الجـدد • واذا ما اصطدمت معزقتى بالاحجار رنت موسـيقاها ودوى صداها فى الغابات وفى أجواز الفضاء ، فكانت مصاحبة موسيقية ترافق عمـلى ، ذلك الذى أغل لى فى الحال محصولا عظيما لايمكن تقديره ، حتى لم يعد ما أعزقه فولا ، ولم أعد أنا ذلك الرجل الذى يعزق الفول • فتذكرت

بشيء من الأسى والحسرة ـ وبمثلها من الفخر والاعتزاز ـ ذلك ان كنت قد تذكرت ـ معارفي الذين مضوا الى قاعات الموسيقى والانشاد في المدينة • وكانت عصافير السباد تهوم فوق رأسي في الآصال المشمسة ـ لاني كنت جعلت من ذلك اليوم يوم عطلة ـ كأنها قذى في العين ، أو قذى في عين السماء ، وكانت تهبط الفينة بعد الفينة وتنقض محدثة صوتا كأن السماء قد انشقت وتمزقت في النهاية اربا اربا • ولكن السماء ظلت مع ذلك سليمة كاملة لا دروز فيها ولا فتوق • فما هذه العصافير سوى شياطين صغار تملأ الهواء ، تبيض على الارض في الرمال المكشوفة ، أو على الصخور في قمم الربى والتلال حيث لا يقترب منها سوى القليل من الناس • وهي طيور رشيقة نحيلة كأنها أمواج صغار ، انتزعت من البركة مثلما تنتزع الريح أوراقا من الشجر لتسبح في أجواز الفضاء • ومثل هذه القرابة قائمة في الطبيعة • فالصقر أخ هوائي للامواج التي يسبح فوقها ، أو ينظر اليها من عل ، وتلك أجنحته الكاملة المتفخة بالهواء التي تعادل ريشات البحر البدائية غير المتكامله • وأحيانا كنت أرقب اثنين من اناث الصقور تهومان في أجواز السماء العالية فترتفعان مرة وتهبطان أخرى ، وتقتربان تارة وتفترقان أخرى ، كأنما كانتا تجسيما لأفكاري وخواطري • أو قد يجذب انتباهي مرور الحمام البري من هذه الغابة الى تلك ، محدثا صوتا ضعيفا مترددا خفاقا ، وهو يطير بسرعة حمام الزاجل ؛ أو قد تثير معزقتي من أسفل عجز من أعجاز الشجر سمندرا أرقط بطيئا مشئوم الطلعة ، هو أثر من آثار مصر القديمة ومن نيلها ، ومع ذلك فها هو معاصر لنا • وعندما أقف هنيهة كي أتكيء على معزقتي ، أحس أن كل هذه الاصوات التي سمعتها ، وتلك المناظر التي شاهدتها في موضع ما من الصف ، انما هي جزء من تلك التسلية التي لا تنفد والتي يقدمها لنا الريف •

وكانت البلدة تطلق مدافعها الضخمة فيدوي صداها في الغابات ، كما لو كانت بنادق تعمل بالهواء ، وفي بعض الاحيان قد يصل الى هذه النواحي بضعة ألحان من الموسيقى الحربية التي ضلت طريقها • فكان صوت المدافع الضخمة يرن في سمعي ، وأنا أعمل في حقل فولي على مسافة بعيدة ، في الطريق النائية من البلدة كأنه انفجار بعض أنواع من الفطر • واذا ما أقيم استعراض حربي ، لم أكن قد علمت به ، كنت أحس طول النهار باحساس غامض كأنه نوع من الحكة أو مرض شاع في الجو ، وكأن وباء سينتشر فيه سريعا ، مثل حمى قرمزية أو طفح خبيث ، الى ان تقوم آخر الامرريح مواتية لي فتهب على الحقول وتصعد في طريق «وايلاند» حاملة الى أنباء عن المجندين وهم يتدربون • ويبدو لي الأمر ، من الضوضاء البعيدة ، كأن نحلا لشخص ما قد تجمع ، وأن الجيران قد حاولوا بحسب نصيحة فرجيل ـ أن

يحدثوا ضجة وأصـــواتا بواسطة أعلى أدوات مطبخهم رنينا ليحاولوا استدعاء النحل ليهبط ، ويعود الى خلاياه • ولما خفت الصوت وسكت ،وامتنعت الضوضاء ، ولم تعد خير الرياح المواتية تنم عن شيء ، أدركت أنهم قد أدخلوا آخـر زنبار منها الى خلية مدلسكس بسـلام ، وأن عقولهم تتجه الى العسل الذى تضمخت به •

وكنت أزهى وأشعر بالفخار عند ما أعرف أن حريات مساتشوستس ، وحريات وطننا كله فى مثل هذه الأيدى الأمينة • فلما استأنفت العـزق من جـديد كنت ممتلئا ثقـة يصعب التعبير عنهـا ، فعدت الى عملى منشرح الصدر مؤمنا ايمانا مطمئنا من حيث ما سيأتى به المستقبل •

وعند ما تحضر عدة فرق موسيقية تبدو المدينة كأنها منفاخ ضخم ، ويخيـل الى أن جميع مبانيها كانت تنتفخ وتهبط ، ثم تنتفـخ وتهبط ، وهكذا دواليك ، محـدثة ضجة غير قليلة • على أن الأمر لم يكن يخلو من أن تصل أحيانا الى هذه الغابات نغمة نبيلة ملهمة حقا، ولحن يتغنى بالشهرة وبعد الصيت ، وشـعرت كأنى أستطيع أن أهيىء لنفسى طعاما ألتهمه بشـهية عظيمة • فما الذى يدعونا الى الاهتمام بالسفاسف والتفاهات ؟ وجلست أبحث حولى لعلى أجد مرموطا* أو ظربانا* أوجه اليه شجاعتى ،وأجرب فيه بطولتى ، ولكن خيل الى أن هذه الالحان الحربية كانت بعيدة عنا بعد فلسطين ، وذكرتنى بمسير جماعة من الصليبيين عند الأفق ، مع حركة اندفاعية مضطربة صادرة من قسم أشجار الدردار التى تطل على القرية • لقد كان يوما من الأيام العظيمة ، مع أن الجو كان يبدو فيه من أرضى ، هو هو ، المنظر العظيم الخالد ذاته ، الذى يتجلى فيه كل يوم ، من غير أن أرى فيه أى فرق يذكر •

كانت خبرة عجيبـة فذة تلك المعـرفة الطويلة التى عقدتها بينى وبين الفول من حيث الغرس والعزق ، والحصاد ، والتذرية والجمع ،والبيع • وكانت مسألة البيع أصعب المسـائل كلها ، ولى أن أضيف الى ذلك مسـألة أكله أيضا ، فقد ذقت الفول فعلا ، اذ أجمعت أمرى عـلى أن أقف على شئونه كلهـا ، وأعلـم بهاجميعا • ففى أثناء نموه كنت أقوم بعـزقه ، من الساعة الخامسة صـباحا حتى الظهر ، ثم أقضى بقية النهار فى شئون أخـرى غيره • فتصور تلك الصلات الوثيقة الغريبة التى يعقدها امرؤ مع أنواع شتى من النبات • فالحديث عنها يحتمل الاعادة والتكرار ـ ذلك الى أن العمل نفسه لم يكن فيه منهما الا القليل • فالانسان منا يعكر نظام الأعشاب الرقيق فى غير رحمة أو شفقة ، ويميز بين بعضها وبعض تمييزا خبيثا ضارا ، بمعزقته فيهبط بمراتب بعض أنواعهـا ويسوى بينها تسوية تامة ، على حين يوالى بعنايته ورعايته الدائبة نوعا آخر • فهذا الشيح البرى أو ما يسمونه بالأفسنتين ، وهذا الحميض وهذا

حشيش آخر وذلك غيره فعليك بكل منهـا !اقطعه اربا اربا ، اقتلع جذوره ، وعرضـها للشمس ، ولا تدع منه شـيئا يبقى في الظل ،لانك ان فعلت انقلب على جنبه الآخر وعاد في يومين اثنين أخضر ناضرا مثل الكرات . انهـاحرب طويلة المدى ، ولكن ليست مع العمالقة ، بل مع الأعشاب التي هي مثل أولئك التروادييين الذين كانت الشمس والندى والمطر في جانبهم تؤازرهم . وكان الفول يراني كل يوم أسارع الى نجدته ، وقد تسلحت بالفأس والمعـزقة ، فأضعف صفوف أعدائه ، وأملأ الخنـادق بالأعشاب الميتة . فكم من هكتور* قوى صلب، تخفق الريش على رأسه ، وكان يفـرع زملاءه الذين يزحمونه بأكثر من قدم كاملة ـ قد سقط أمام سلاحي مجندلا في التراب .

وكانت أيام الصيف ، تلك التي خصصها بعض معاصري للفنون الجميلة في بوسـطن أو في رومية ، وخصصها آخرون في الهند للتأمل والتفكير ، وخصصها آخرون في لندن ونيويورك للتجارة ، خصصتها أنا والفلاحون في نيوانجلند للزراعة . ولم يكن ذلك لأن بي حاجة لأكل الفول ، لا ! فاني فيتاغورسي* بطبعي ، من حيث مايخص الفول هذا ، فقد استبدلت به أرزا ، ولكن لما كان لا بد لبعض الناس من أن يعملوا في الحقول ان لم يكن ذلك الا حبا في الاستعارات والتعبيرات ، فلعل ذلك يعاون يوما ما واضعي القصص ذات المغزى الأخلاقي . وفي الجملة، كان تسلية نادرة لي ، استمرت أكثر مما ينبغي لها أن تستمر ، وكان من الجائز أن يصبح فتنة لي واغراء . على أني ، وان لم أسمد الفول ولم أعزقه في الحال . كنت عندما أفعل أجيـد العزق عادة جهد طاقتي ، وبذلك كنت أنال في النهاية جزائي . فكما قال «افلين*» ، « لايوجد حقا أي سماد طبيعي يضـاهي هذه الحـركة المستمرة ، وتقليب المدر بالفأس » ثم يضيف الى ذلك في موضع آخر قوله ان في الارض ،ولاسيما ان كانت أرضا جـديدة بكرا ، نوعا من المغناطيس ، تجتذب به الملح والقوة والفضيلة ـ وسمها أنت ما شئت أن تسميها ـ ويفيض عليها الحياة ، وهو الأصل في كل ذلك العمل وكل تلك الحركة التي نقوم بها لتغذيتنا واقامة أودنا. فكل التجاء الى استعمال السماد الطبيعي ، وكل عبث قذر بالأرض ، ليس سوى بديل قصد به أن يحل محل هذا التحسين المنشود . وزيادة عـلى ذلك ، فاذ كانت هـذه الأرض من « الأراضي المنهوكة القوى ، وتستمتع الآن بعطلة » فلعلها ، كما قال السير كنلم ديجبي* ، قد اجتذبت اليها « أرواحا حيوية » من الهواء .فقد حصلت منها على اثنتي عشرة كيلة من الفول.

وكي أكون دقيقا كل الدقة في حسابي، فضلا عن أن الناس قد تشكوا من أن (المستر كولمن) لم يصف لنا أساسا سوى تجربة غالية كثـيرة النفقات ، قام بها السراة من الزراع ، فسأذكر هنا تفصيلات نفقاتي ، واليك هي :

دولارات	
٠ر٥٤	ثمن معزقة
٧ر٥٠	للحرث ، والسلف ، و « التخديد » ، وهو مبلغ أكثرمما ينبغي
٣ر١٢٥	« تقاوى الفول »
١ر٣٣	« البطاطس
٠ر٤٠	« البسلة
٠ر٠	« اللفت
٠ر٠٢	خيط أبيض لصيانة الزرع من الغربان
١ر٠٠	أجر رجل وحصان وصبى مدة ثلاث ساعات
٠ر٧٥	أجر عربة وحصان
١٤ر٧٢٥	**الجملة**



هذا ، وكان دخلي :

١٦ر٦٤	من بيع مقدار من الفول
٢ر٥٠	خمس كيلات من البطاطس الكبير الحجم
٢ر٢٥	تسع كيلات من البطاطس الصغير الحجم
١ر٠٠	عشب
١ر٧٥	تبن
٢٣ر٤٤	**دولارا الجملة**

وذلك يدع لى ربحا ماليا ، كما ذكرت من قبل فى موضع آخر ، مقداره **٨ر٧١٥** دولارا .

واليك ثمرة خبرتى فى زراعة الفول : ازرع الفول الصغير العادى ، صفوفا يبعد كل منهما عن الآخر ثلاث أقدام فى قدم ونصف ، واحرص كل الحرص على اختيار البذور الطازجة المستديرة الخالصة غير المخلوطة ، واحذر الديدان قبل كل شيء ، واملأ الفجوات بأن تغرسها من جديد ، ثم راقب المراميط* ان كنت فى موضع مكشوف ، فانها ستقرض ، وهى سائرة ، الاوراق الغضة الاولى قرضا كاملا ، ثم تعود وتلاحظ الفريعات قبل ظهورها وتأتى عليها كلها بما فيها من البراغم والقرون الصغار . كل ذلك وهى منتصبة كأنها السناجيب . وقبل كل شيء ، يجب أن تبكر بحصاد الفول ما استطعت كى تتفادى الصقيع وتحصل على غلة طيبة يتسنى لك أن تبيعها . فبهذه الطريقة تتحاشى كثيرا من الخسارة . .

وزيادة على ذلك ، فقد حصلت على خبرة أخرى . فقلت لنفسى لن أزرع الفول ولا الأذرة صيفا آخر بمثل هذا الجد والنشاط ، ولكنى سأبذر فى الارض بذورا من نوع آخر (ذلك ان لم تكن هذه البذور قد ضاعت) مثل الاخلاص ، والصدق ، والبساطة ، والايمان ، والطهارة ، وما اليها ، وأرى ان كانت تجود زراعتها فى هذه التربة ، حتى مع سماد أقل وبتعب أقل ، وتغذينى مع ذلك وتحفظ على حياتى . اذ لا شك فى أن الارض لم تعد

منهوكة مجهدة لدرجة أنهـــا لا تنبت مثـــل هـــذه الغـــلات • ولكن واحسرتاه ! اني انمـــا قلت هذا لنفسي • والآن وقد مضى صيف آخر ، وآخر ، فآخر • وهآنذا مضطر أن أقول لك أيهـــا القارىء ان البـــذور التي غرستها ـ ان كانت هي حقا بذور تلك الفضائل التي ذكرتها ـ كانت مؤوفة ، تالفـة من أثر ماأكلتها الديدان ؟ وكانت قد فقـــدت ما فيها من حيوية ، ولذا لم تفلح ولم تنبت • لا يخفى أن الناس لايكونون شجعانا أو جبناء الا بقـــدر ماكان عليـــه آباؤهم من الشجاعة أو الجبن من قبل ؟ فمن المؤكد أن هـــذا الجيـــل واثق كل الوثوق من أنه سيظل يزرع الاذرة والفول في كل سنة جديدة ، كما كان يزرعهما الهنـــود من عدة قرون مضت ، وكما علموا المستعمرين الاول أن يزرعوهما ، كأن للقدر يدا في ذلك • ومنذ أيام رأيت رجلا شيخا ، فدهشت أن أراه يعمل الثقوب بمقحاة معه للمـــرة السبعين على الاقل ؛ ولم يكن يعملها لنفسه كي يرقد فيها ! ولكن لماذا لايحاول سكان نيو انجلند أن يقوموا بمغامرات جديدة ، ولا يعنون كل العنـــاية ، ويحرصون كل الحرص على بطاطسهم وحبوبهم وحشيشهم وبساتينهم ؟ لماذا لا يزرعون غلات أخرى غير هذه ؟ لماذا نهتم هدا الاهتمام الكبير بتقاوى فولنا ، ولا نهتم مطلقا بجيـــل جـديد من بني الانسان ؟ لا شـــك في أننا يجب أن نطعم وأن نبتهج حتى اذا ما قابلنا رجـــلا كنا واثقين من أن بعضا من الصفات التي ذكرتهـــا على الاقل قد تأصلت فيه ونمت ـ وهي صفات نقدرها كلنا بأكثر مما تقدر غيرها من المنتجات التي ننتجها ، ولكننا مع ذلك نرى أن أكثرها لا يزال مبعثرا في الهواء سابحا فيـــه • وقد نصادف في الطريق صفة لطيفـــة لا تنمحي ولا تزول كالصدق أو العدالة مثلا ، حتى ولو كان ما نصادفه منها أقل مقدار ممكن ، أو نوعا جديدا منها • أننا يجب أن نكلف سفراءنا جميعا أن يبعثوا الينـا بأمثال هذه البذور ، وأن يعمل الكنجرس* على توزيعها على البلاد كلها • وينبغي ألا نراعي مطلقا شيئا من التكلف والرسميات مع الاخلاص ، ويجب ألا يدفعنا ما فينا من خسة ومن لؤم الى أن نغش ونهين ويطرد بعضنا بعضا ان كان فينا شيء من بذور الفضـــل والمحبة • انا يجب ألا نتقابل في عجلة وتسرع ، كمـــا هودأبنا ؟ فأنا لاأقابل معظم الناس أبدا لانهم يبدون كأنهـــم لا وقت عندهم لمقـــابلة أحد ، فكلهم مشغول على الدوام بشئون فوله ، فاننا لا نرضى أن نتعامل مع آحد يكدح هـذا الكدح المرهق ، وقد انثنى على معـزقه أو على معـول يتخذه تكأة يستند اليه ويتوكأ عليه في الفترات التي تتخلل شغله ، كما يتوكأ الناس على العصي ؟ انا لا نتعامل مع شيء مثـل القطير ، ولـكن مع شيء ظهر جزء منه من الارض ـ شيء أكثر من أن يكون منتصبا فحسب ، بل مع شيء مثـــل عصافير الجنة حطت على الارض وجعلت تسير عليها •

« وبينا يتكلم كانت أجنحته تنتشر الفينةبعد الفينة ،
كأنه كان يعتزم أن يطير ، ثم تعود فتنطبق من جديد »

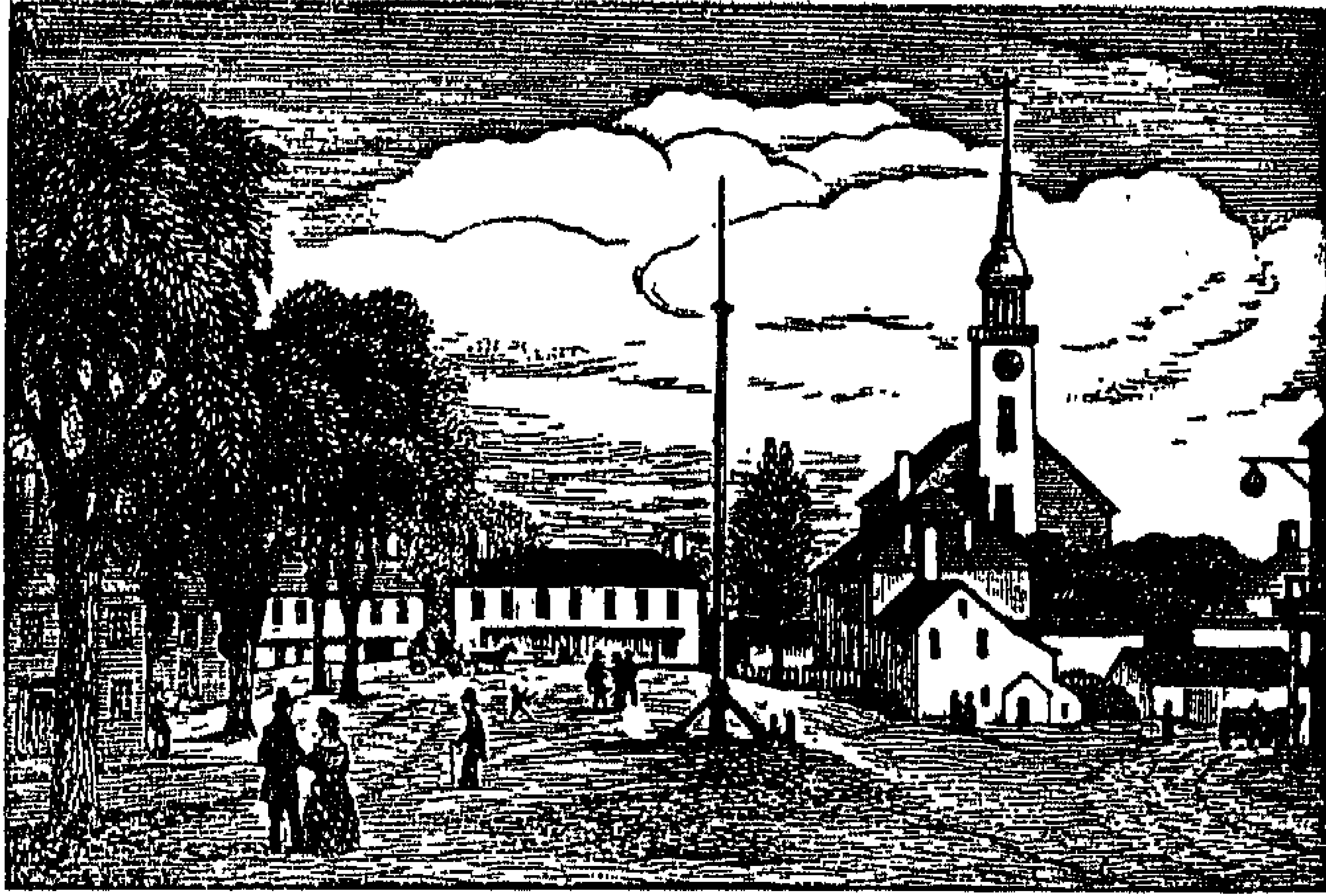
حتى لتظن أنا انما كنا نتحدث الى ملك من الملائكة . قد لا يغذينا الخبز دائما ، ولكنه يفيدنا على الدوام ؛ بل انه ليزيل عنا ما قد يكون في مفاصلنا من جمود وتصلب ، ويجعلنا مرنين وثابين ، مرحين ، عندما لا ندرى ماذا يؤلمنا ولانعرف مما نشكو ، كما ييسر لنا ادراك ماضى الانسان ، أو مافي الطبيعة من كرم ، وأن نشارك الناس فى أفراحهم الجريئة الخالصة من كل شائبة .

هذا ، وتوحى الينا الاشعار والاساطير القديمة على الاقل ، بأن الزراعة كانت تعد فى يوم من الايام فنا من الفنون المقدسة ، ولكننا أصبحنا نزاولها فى عجلة وغير اكتراث ، مما يتنافى مع ما يجب لها من توقير واجلال . فليس غرضنا من القيام بها سوى الحصول على المزيد من الضياع الواسعة المترامية الاطراف ، وعلى غلات وفيرة . فلم تعد لدينا أعياد لها ولا مواكب ولا احتفالات ـ غير مستثنين معارض الماشية ،ولا مايسمونه بحفلات الشكر التى يعبر بها الفلاح عن شعوره بقداسة مهنته ، أو التى يتذكر بها أصلها المقدس . فالمكاسب والولائم هى التى تغريه ، فهو لا يضحى بما يريد أن يضحى به ، لسيريز* أو ليوبيتر* الارضى ، وانما يفضل أن يضحى به الى بلوتوس* الجهنمي فمن جراء البخل والاثرة ، ومن جراء تلك العادة الوضيعة التى لا يخلو منها أحد منا ،والتى تجعلنا نعد التربة متاعا يملك أو وسيلة لحيازة الاملاك بوجه خاص ، تشوهت المناظر الطبيعية وانحطت الزراعة بانحطاطنا ، وصار الفلاح يعيش أدنى عيشة وأحطها . فهو لايعرف الطبيعة الا من حيث هو سراق ينتهبها انتهابا . ويقول كاتو* « ان مكاسب الزراعة مكاسب طاهرة قائمة على التقوى أو العدل بوجه خاص». وبحسب ماقاله فارو* كان الرومان القدامى يسمون الارض (أما) . كما يسمونها (سيريز*) وكانوا يرون أن كل من يتعهدها ويفلحها يعيش عيشة صالحة تقية نافعة . فهؤلاء وحدهم هم الذين بقوا من سلالة الملك ساتورن *» .

انا كثيرا ما ننسى أن الشمس تنظر الى حقولنا المزروعة ، والى المراعى والغابات نظرة واحدة من غير تمييز أو تفضيل ، فكلها فى نظرها سواء ، وكلها تعكس أشعة الشمس وتمتصها ، وليست سوى جزء صغير من تلك الصورة الرائعة التى تشاهدها الشمس فى مسراها اليومى . ففى نظرها أن الارض كلها مزروعة كما تزرع الحديقة ، ولذا يجب أن نقابل ما تنعم علينا به من ضوئها وحرارتها بما يعادله من ثقة ومن سعة عقل . . وما على ان كنت أقدر بذور هذا الفول حق قدرها وأحصدها فى فصل الخريف من السنة ؟ ان هذا الحقل

الواسع الذى كثيرا ما نظرت اليه ، لا ينظر الى بوصفى مزارعه الاول الذى يتعهده ويواليـــه بعنايته ، بل يتخطانى وينظر الىعوامل ومؤثراتأنسب به وأقرب اليه ـ العـوامل التى ترويه وتجعله أخضر ناضرا . وللفول هذا نتائج وثمار لا تجنيها يداى . آفلا ينمو هذا الفول الى حد ما « للمراميط » ؟ فلا يجب آن تكون سنبـــلةالقمح وحدها هى آمل الفلاح ، فنواتها أوحبتها ليست كل ما فى السنبـــلة . فكيف اذن يخيب محصـــولك ؟ أليس لى أن أغتبـــط من كثرة الاعشاب والحشائش التى تعـد بذورها أهراء الطيور ومخازن حبوبها ؟ فليس من الاهميـة بمكان نسبيا ، أن تملأ الحقول مخازن الفلاحبالغلات أو لا تملأها . فالمزارع القدير يتحاشى كل قلق ، مثـــله فى ذلك مثل السناجيب التىلا تبدى أى قلق أو اهتمام بأن كانت الغـابات ستغل لها هذا العـــام قسطا وافرا أم لا تغل .فعلى المزارع أن ينتهى من شغله والتفكير فيه ، بانتهاء اليوم ، وأن يدع كل مطالبة له بأى حقفى محصول حقوله ، وأن يضحى ـ فىعقله ـ لا بثماره الاولى فحسب ، بل بثماره الاخيرةكذلك .





القريـــة

وفى المساء ، بعـد أن أفرغ من عملية عزق الفـول ، أو بعـد القراءة والـكتابة ، كنت أعود الى الاستحمام فى البـركة ، عبرخليج من خلجانها الـكثيرة ، أختتم به عملى وأنفض به عن جسمى ما عسى أن يكون قد علق به من غبار العمل ، وأزيل عنه آخر تجعيدة تكون الدراسة قد خلفتها فيه • ذلك لان المساء كان خالصا لى كله ، وكنت فيه حرا كل الحرية • واعتدت أن أسير كل يوم أو يومين الى القرية لاستمع الى بعض تلك الاحاديث التى تجـرى فيها موصولة من غير انقطاع ، تنتقل من فم الى فم ، أو من جريدة الى جـريدة ، والتى ان تناولها الناس جرعات صغيرة كانت منعشة لهـم ومنشطة حقا ؟ مثلها فى ذلك مثل حفيف أوراق الشجر ، ونقيق الضفادع الخافت • فكما كنت أسير فى الغابات حبا فى رؤية الطير ومشاهـدة السناجيب جعلت أسير فى القرية حبـا فى مشاهدة الرجال والصبيان ؟ وبدلا من أن أسمع الريح تهب خـلال أشجار الصنوبر ، كنت أسمع صوت العربات • وفى احدى الجهات من منزلى كانت مستعمرة من فئران المسك عند احدى بطائح النهر • وفى جهـة أخرى منه كانت قرية أخرى عند أجمة الوردار والدلب يسكنها رجال نشيطون دؤوبون • وكانوا فى نظرى غريبين كل الغرابة وكانوا فضوليين فيما يختص بشأنى فضول كلاب المراعى ، وكان كل واحد منهم جالسا عند باب داره ، أو يسعى الى جاره ليسمر معه ويستمع الى هرائه • فجعلت أتردد على القرية كى ألاحظ عادات أهليها ، فكانت تبدو لى فى صورة حجرة واسعـة من حجرات الجرائد والصحف ؟ وكان النـاس يحتفظون فى ناحية منها بمقادير من البنـدق

والزبيب والملح والدقيق والاذرة وما الى ذلك من صنوف البقالة لتموينها كما كانت الحال من قبل عند ردنج وشركاه في شارع أستيت . ومنهم من كانت له شهية عظيمة للسلعة الاولى ـ للاخبار ـ وله أعضاء هضم قوية ، حتى كانوا يجلسون في الشوارع العامة باستمرار من دون أن يتحركوا ، ويدعونها تندفع الى نفوسهم كأنها الرياح التجارية ، أو كأنهم يستنشقون الاثير ، ولم تكن تحدث فيهم سوى الخدر وعدم الحس بالالم من غير أن تؤثر في وعيهم وتفطنهم، ولولا ذلك لكان سماعها مؤلما لهم . وكان يندر ألا أرى ، وأنا أتجول في القرية ، صفا من هؤلاء الفضلاء ، اما جالسين على سلم يتشمسون ، وقد مالوا بأجسامهم الى الامام ، ومدوا عيونهم ينظرون الى هذه الناحية أو تلك ، الفينة بعد الفينة ، تبدو عليهم أمارات الاستمتاع الحسى ، واما كانوا واقفين مستندين الى جدار أهرائهم وأيديهم في جيوبهم كأنهم خشب مسندة أو تماثيل زخرفية وقفت تسند الجدران حتى لا تهوى . واذ كانوا دائما خارج بيوتهم فقد صاروا يسمعون كل نأمة يحملها الهواء . فكأنهم أشبه بالطواحين الخشنة تجرش فيها الاحاديث أو تهشم بادىء ذي بدء قبل أن تهال في طواحين أخرى ذات أقماع داخل البيت حيث تطحن طحنا أدق وأنعم . ولاحظت أن أهم أجزاء القرية وأكثرها حيوية ، كانت محال البقالة والحانات ومراكز البريد والمصرف . وقد أقاموا جرسا ومدفعا ضخما ، وآلة لاطفاء الحريق في عدة مواضع منها مناسبة ، على أنها أجزاء ضرورية من جهاز القرية . أما منازلها فقد رتبت بشكل يجعل الجمهرة الكبرى من الناس يعيشون في أزقة ، يواجهون بعضهم بعضا ، فصار كل سائح يمر بها مضطرا الى المخاطرة بنفسه . فقد كان كل رجل أو امرأة أو طفل ينال منه ويصطدم به . وطبعا كان الذين اتخذوا مراكزهم أقرب ما تكون الى أول الزقاق حيث يمكن أن يروا أكثر من سواهم ، كانوا أول الذين يصدمونه ويضربونه ، كما كانوا هم الذين يدفعون أغلى ثمن لمراكزهم هذه . أما أولئك السكان القليلون المبعثرون في الاطراف حيث تبدأ فجوات كبيرة تظهر في الصفوف ، وحيث يتسنى للسائح أن يهرب بالقفز من على الاسوار ، أو بالانحراف الى الطرق الضيقة التي تمر منها الابقار ، فكانوا يدفعون ضريبة صغيرة جدا على قطعة الارض التي يشغلونها أو النافذة التي يطلون منها . هذا، وقد علقت اللافتات على كل جانب لتستهوى المارة وتغريهم . فبعضها يستهويهم من ناحية بطونهم وشهيتها مثل الحانات والمطاعم ، وبعضها يغريهم من ناحية خيالهم وتصوراتهم مثل محال الخردوات أو محال الجوهرية ، وأخرى تستهويهم من حيث شعرهم أو أقدامهم أو ملابسهم ، مثل الحلاقين والحذائين والخياطين . وزيادة على ذلك كانت ثم دعوة مريعة قائمة تدعو لزيارة كل بيت من تلك البيوت . وكان من المتوقع أن يصادف المرء فيها جماعة من الناس

ليتحدث اليهم ويتحدثوا اليه ، ولكنني كنت في الغالب الاغلب أتخلص من هذه الاخطار وأتحاشاها بشكل عجيب ، وذلك بأن أتجه مباشرة نحو الغرض الذى أهدف اليه في جرأة وتهور وعدم تفكير كما ينصح الناصحون للذين سيبارزون غيرهم ؟ أو بأن أستبقي أفكارى موجهة الى أمور سامية مثل ما كان يفعل أورفيوس* عندما تغنى بمدائح الآلهة بصوت عال على قيثارته ، واستطاع بذلك أن يغرق أصوات «السيرينات*» ، فأصبح بمنجى من أخطارهن • وكنت أحيانا أهرب فجأة حتى لم يكن أحد يدرى أين مقرى • وما كنت من الذين يحفلون كثيرا بالرشاقة ، فلم يحدث أن ترددت مرة أمام ثغرة في السياج • بل كان من عادتي أن أقتحم بعض البيوت حيث كنت أجد تسلية وقرى طيبا ، وبعد أن أعرف أهم الاخبار وصفوتها ، وأدرك مستقبل الحرب والسلام ، وأعرف ان كان من المحتمل أن تظل الدنيا قائمة متماسكة لمدة أطول ـ بعد ذلك كانوا يخرجونني من الطرق الخلفية ، فتمكنت بهذه الطريقة من الهرب ومن العودة الى الغابات من جديد •

وقد سرني كل السرور بعد قضاء سهرة طويلة في البلدة أن ألقي بنفسي في غمار ظلمة الليل ، ولا سيما ان كان ليلا حالكا عاصفا ، فأقلع فيه ، وأظل أتنقل من بهو من أبهاء القرية المتألقة بالانوار ، او من قاعة من قاعات المحاضرات فيها ، حاملا على عاتقي حقيبة ملأى بدقيق الجاودار ، أو دقيق الاذرة وميمما شطر مرفئي المريح في الغابات •

وذلك بعد أن أكون قد أحكمت وثاق كل شيء في الخارج وآويت الى قمرتي في الداخل ، من غير أن يكون معي من الملاحين سوى طائفة مرحة من الافكار ، ولم أترك سوى ملاح واحد عند السكان (الدفة) ، بل كنت أربط هذا السكان اذا كان الطريق سهلا مأمونا • وكم من فكرة أصيلة عنت لى وأنا بجانب موقد النار في قمرتي ، « أسبح » في لجة أفكارى ، ولم يحدث قط أن عرتني الكآبة واستولى على الحزن ، أو قذفني اليم ، في أى جو كان من الاجواء ، مع أني صادفت بضع عواصف هوج شداد • هذا ، والظلام في الغابات أكثف وأشد حلكة مما يظنه غالبية الناس ، حتى في الليالى العادية • فكثيرا ما كنت أضطر الى رفع بصرى لأرى ما قد يكون بين الشجر من فتحات فوق الطريق كي أعرف الاتجاه الذى يجب أن أسلكه • أما حيث لا توجد ممرات للعربات فكنت أتحسس بقدمي الاثر الضئيل الذى سبق أن خلفته في الطريق من كثرة مرورى فيه ، أو كنت أسير بحسب العلاقة المعهودة بين بعض الاشجار الخاصة التي كنت أتحسسها بيدى ، وأنا في وسط الغابات • فكنت أمر في أحلك الليالى بين شجرتين من شجر الصنوبر مثلا لا تعدو المسافة بينهما أكثر من قدم ونصف • وأحيانا ، بعد أن أعود الى بيتي في ليلة حالكة ، رطبة ، خانقة الهواء ، عندما كانت قدماى

تتحسس الطريق الذى لم تكن عينـاى تراه ،غارقا فى بحر أحلامى ، مشتت الفكر ، طيلة الطريق الى أن أتيقظ فجأة من جراء رفعى يدى لأحرك سقاطة الباب • لم أستطع أن أتذكر خطوة واحدة من خطوات مسيرى فى نزهتى هذه ، حتى عن لى أن جسمى قد يستطيع أن يجد طريقه الى البيت حتى ولو هجره صاحبه ، مثله فى ذلك مثل اليد التى تجد سبيلها الى الفم من غير عون من أحد • هذا ،وقد حدث مرات عدة عندما يتصادف ويأتينى ضيف فيبقى عندى حتى يجن الليل ، ويتضح أنه ليل حالك الظلام ـ أن أضطر الى مرافقته الى طريق العربات الذى عند مؤخرة البيت ،ثم أبين له بطريقه بأن أشير الى الاتجاه الذى ينبغى له أن يسير فيه ، فان اتبعه اهتدى الى الطريق بقدميه أكثر مما لو استرشد بعينيه • فذات ليلة اشتد ظلامها أرشدت شابين بمثل ذلك الى طريقهما ، وكانا قد حضرا ليصيدا فى البركة ؛ وكانا يسكنان على بعد يقرب من الميل وراء الغابات ؛ وكانا معتادين كل الاعتياد على السير فى هذا الطريق • وبعد يوم أو يومين لقيت أحد الشابين فأخبرنى بأنهما ظلا يطوفان الهزيع الاكبر من الليل على مقربة من حيث يسكنان ، فلم يبلغا بيتهما الا عند طلوع الفجر • واذ أمطرت السماء فى أثناء ذلك مرات ، وكانت أوراق الشجر قد تشبعت بالمياه ، فقد تبللا كذلك حتى بلغ البلل جلديهما • هذا ، وقد بلغنى أن رجالا ضلوا طريقهم حتى فى شوارع القرية عندما يكون الظلام حالكا كثيفا متراكبا بعضه فوق بعض ، حتى لتكاد تقطعه بسكين كما يقولون • فكم من رجل من سكان الاطراف جاء الى المدينة مستقلا عربته ليبتاع ماقد يلزمه من حاجيات ، فاضطر الى قضاء ليلته فى المدينة !وكم من سيدات ورجال جاءوا للزيارة ، وساروا نصف ميل فى طريقهم ثم جعلوا يتحسسون المشى الجانبى بأقدامهم وحدها ، من دون أن يدركوا متى انحرفوا عن الجادة • انها خبرة لا تنسى ، بقدر ما هى قيمة نافعة ، أن يضل الانسان طريقه فى الغابة فى وقت ما • فكثيرا مايحدث أن يسير المرء وسط عاصفة ثلجية حتى فى النهار ، ويكون مسيره فى طريق معهودة له يعرفها حق المعرفة ، ومع ذلك يجد من المستحيل عليه أن يعرف أى طريق ينبغى له أن يسلك ، حتى يصل الى القرية • ومهما كان واثقا من أنه قد طرق هذه السكة وسار فيها آلاف المرات من قبل ، فانه لا يستطيع أن يتثبت من أى معلم من معالمها ،بل تكون غريبة عليه كل الغرابة ، كأنها سكة فى سيبريا ، ولا شك فى أن الحيرة فى الليل تكون أشد منها فى النهار وأبلغ • ففى أبسط أنواع رياضتنا وأتفهها ، وهو المشى على الاقدام ،نسترشد دائما ، على غير وعى منا ، بصوى ومعالم معينة محدودة مثلما يهتدى مرشدو السفن بأمثال المناورات والرءوس المعهودة لهم • فان نحن سرنا أبعد من الطريق المألوف لنا ، فلا زلنا نحمل فى ذاكرتنا علاقتنا بمعلم قريب منا •

هذا ، وانا لا ندرك سعة الطبيعة وعظم مداهاوغرابتها ، الا بعد أن نكون قد ضللنا طريقنا تماما ، أو جعلنا ندور حوله ، فحسب الانسانأن يدور دورة واحدة وأيناه مطبقتان حتى يضل تمام الضلال • فعلى كل منا أن يعرف جهات الابرة البحرية مرات كلما استيقظ ، سواء كان قد استيقظ من نومه أو من أى شرود ذهنى • انا لا نبدأ فى أن نعرف أنفسنا الا بعد أن نكون قد ضللنا وتهنا ـ أو بعبارة أخرى ـ بعد أن نكون قد فقدنا الدنيا ، وعندئذ ندرك أين نحن ، وندرك أن امتدادعلاقاتنا امتداد لا نهاية له •

وذات مساء ، فى آخر أول صيف قضيته فى الغابة ، ذهبت الى القرية كى أسترد حذائى من عند الاسكاف،فقبض على أولو الامر وزجوابى فى السجن بحجة أنى ، كما ذكرت فى موضع آخر ، لم أكن أدفع المستحق على من الضرائب التى تفرضها الدولة • انى لا أعترف بسلطان تلك الدولة التى تخول لنفسها حق بيع الرجال والنساء والاطفال ، بيع الماشية عند مدخل مجلس شيوخها • لقد ذهبت الى الغابات لاغراض أخرى ، ولكن أنى يذهب الانسان يجد الناس وراءه يتبعونه ويضايقونه ويسيئون معاملته بنظمهم ومؤسساتهم القذرة • ولو استطاعوا لأكرهوه على الانضمام الى مجتمعهم الغريب المستيئس • كان لا شك فى مقدورى أن أقاوم أولى الأمر هؤلاء بعنف وشدة ، ويكون لمقاومتى أثرها القليل أوالكثير؛ وكان فى استطاعتى كذلك ، أن أثور وأندفع اندفاعا جنونيا ضد المجتمع نفسه • ولكنى فضلت أن يثور المجتمع نفسه على،ويندفع ضدى كالمجنون،لانه هو الفريق المستيئس • ومهمايكن من شيء فقد أطلقوا سراحى فى اليوم التالى ، وحصلت على حذائى بعد اصلاحه ، وعدت الى الغابات فى الوقت الملائم لأتناول غدائى من الجايلوساقيا التى تنمو على تل فيرهافن ؛ ولم يحدث أن آذانى أحد أبدا غير أولئك الذين يمثلون الحكومة ، ولم يكن عندى غلق أو مزلاج الا فى مكتبى الذى أحتفظ فيه بأوراقى ، بل لم يكن عندى مسمار أضعه فوق « السقاطة » أو النافذة • ولم يحدث أنى أحكمت اغلاق باب بيتى ليلا ، أو نهارا ، على الرغم من أنى كنت أتغيب عن البيت عدة أيام متوالية ، حتى ولا عندما قضيت فى الخريف التالى خمسة عشر يوما فى غابات «مين» ومع ذلك كله ، كان بيتى آمنا محترما أكثر مما لو كان محوطا بكوكبة من الجند • ففيه يستطيع السائح أن يستجم ويستريح ، ويصطلى أمام نارى • وفيه يستطيع الاديب أن يتسلى ببضعة الكتب ، التى على منضدتى ؛ كما يستطيع الفضولى أن يفتح باب خزانتى ليرى ماينتظرنى فيها من عشاء •ومع أن كثيرين من الناس من شتى الطبقات جاءوا الى البركة من هذا الطريق ، فان أحدا منهم لم يحدث لى أية مضايقة ، ولم أفقدشيئا ما

سوى كتاب مجلد لهوميروس ولعـل السبب في ضياعه أنه كان مذهبا بأكثر مماينبغى . وفى ظنى أن جنديا من معسكرنا قد وجده بعـد ذلك .

وفى يقينى أن الناس لو عاشوا جميعـا عيشة بسيطة مثل تلك التى كنت أعيشها وقتئذ ، لاختفت السرقة وزال النهب . فهما لا يحدثان الا فى المجتمعات التى يكون فيهـا عند بعض الناس أكثر ما يكفيهم ، وعند البعض الآخر ما لا يكفيهم ، وعندئذ توزع كتب هوميروس* من ترجمة الشاعر بوب* توزيعا عادلا .

« فما كانت الحروب لتؤذى النـاس ،
ان كان كل ماينشدونه لا يعدو صحافا من خشب الزان » [1]

« فأنتم يا من فى أيديكم تصريف الشئون العامة ، ما حاجتكم الى الالتجاء الى العقـاب ؟ أحبوا الفضيلة يصبح النـاس فضلاء ، ففضائل الرجل العظيم كالريح ، وفضـائل الرجـل العـادى كالعشب ، والعشب ينحنى ويميل اذاما هبت عليه الريح» [2]

---

(١) البيوس تيبولوس (٥٤ ـ ١٨ ق. م) شاعر رومانى رقيق كان معاصرا لفرجيل وهوراس وصديقا لهما . يقول العارفون بالشعر وتاريخه انه لم يصلنا من كتبه الكثيرة سوى كتابين اثنين . والبيتان المقتبسان هنا من المرثية العاشرة من الكتاب الثانى (المترجم)
(٢) عن كونفوشيوس الفيلسوف الصينى (المترجم)



البرك

وبعد أن استوفيت حظى وزيادة من الاجتماع بالنـــاس والثرثرة معهم ، وأتعبت كل أصدقائى من أهل القرية ، وأثقلت عليهم ـ كنت أمضى فى بعض الاحيان لأتجول غربا ممعنـا فى السير الى أبعد مما كنت أسكن عادة ، حتى أصل الى مواضع فى البلدة كانت لا تزال غير مطـروقة . فأمضى « الى غابات ناضرة ومروج جديدة » وأحيـــانا ، والشمس قد مالت الى الغروب ، كنت أتخذ عشائى من الجايلوساقيا* ومن العليـــق الازرق عـلى تل « فيرهافن » وأدخر منه مايكفينى عدة أيام . هذا ، والفاكهة لا تبدى مذاقها الصحيح لمن يشتريها ، ولا هى تبديه لمن يزرعها ليبيعها آخر الامر فى السوق . فليس ثمة طريقة واحدة للحصول على مذاقهـا الصحيح ، ومع ذلك فما أقل من يتبعون هـــذه الطريقة ! فان شئت أن تعرف طعم الجايلوساقيا فسل راعى البقر ، أو سل ان شئت الحجـــل ينبئك . فمن الخطأ الشـائع أن تظـن أنك قد تذوقت طعم هذه الثمار ، ان لم تكن قد قطفتها بيديك قط . وهى لن تصل الى مدينة بوسطن ، فلم تعرف فيها منذ أن زرعت على تلالها الثلاثة ، ذلك لان الجزء الرحيقى الجدير بالآلهة منا ، والاصل فيها يزول بزوال روعتها التى تضيع من جراء الاحتكاك فى العربة التى تنقلها الى السوق ، فيصبح مجرد عليق للحيـــوان . فما دامت العدالة الاجتماعية قائمة فى الوجود ، فلن تنتقل حبة واحدة بريئة من هـــذه الفاكهة من تلال الريف الى مدينة بوسطن .

وكنت بعد أن أفرغ من عزق الفول ، ألحق أحيانا برفيق لى هلوع قليل الصبر ، كان يصيد فى البركة منذ الصباح ، وهو ساكن لا يتحرك ، سكون البطة على الماء ، أو سكون ورقة شجرة طافية عليه • فبعد أن زاول هذا الرفيق شتى أنواع الفلسفة استنبط أنه من طائفة النساك* القدامى التى يعيش أفرادها معا • وكان ثمة رجل أسعد منه ، صياد ماهر ، وخبير بكل فنون الغابة ، يسره أن يعتبر بيتى مبنى أقيم لخير صيادى السمك وراحتهم • ولم أكن أقل عنه سرورا عندما أشاهده جالسا عند باب دارى يرتب آلة صيده • وذات مرة جلسنا معا عند البركة ، فجلس هو فى أحد طرفى القارب وجلست فى الطرف الآخر ، ولم تجر بيننا ألفاظ كثيرة ، فالرجل قد أصيب بوقر فى أذنيه فى السنوات الاخيرة ، الا أنه كان يترنم أحيانا بمزمور من المزامير ينسجم كل الانسجام مع فلسفتى ، وبذلك كان حديثنا انسجاما كاملا لا يشوبه شىء • ويسرنى أن أتذكر هذا الحديث أكثر مما لو جرى عن طريق الكلام • واذا لم أجد من أتحدث اليه ـ وكانت هذه هى الحال غالبا ـ عمدت الى استحداث صدى للصوت بأن أضرب جنب القارب بالمجداف فأملأ الغابات المجاورة أصواتا دائرية متمددة ، وكنت أحركها كما يحرك صاحب ملعب الحيوانات الضارية وحوشه • وأظل على ذلك الى أن أستحدث صدى فى كل واد شجير ، ومن كل سفح من سفوح التلال •

وكثيرا ما كنت أجلس فى قاربى فى الليالى الدافئة أعزف على الناى وأشاهد سمك الفرخ ، الذى كان يبدو كأنى قد سحرته ، فيهوم حولى ؛ وأرى القمر سابحا فوق القاع المتغضن المنثور عليه كثير من حطام الغابة • وكثيرا ما كنت أحضر فى الماضى الى هذه البركة حبا فى المغامرة ، فآتى اليها من آن لآخر فى ليالى الصيف المظلمة مع رفيق لى ، فنوقد نارا عند حافة الماء لنجتذب السمك الينا ـ فهكذا ظننا ـ ونصيد الصلور بطائفة من الديدان ننظمها كلها فى خيط واحد • وبعد الفراغ من الصيد ـ وقد سلخنا من الليل أكثره ـ نقذف بالمشاعل المحترقة عالية فى الهواء ، فتكون أشبه شىء بالصواريخ ، حتى اذا ما عادت وهبطت فى البركة انطفأت جذوتها وسمعنا لها أزيزا عاليا ، وجدنا أنفسنا بغتة نعيث فى الظلام الحالك الذى شملنا فنأخذ فى أن نصفر لحنا أو أكثر ، ثم نعود ونأخذ سبيلنا الى حيث يحتشد الناس ويتجمعون • أما الآن ، فهأنذا قد اتخذت بيتى على شاطىء البركة •

وبعد أن ألبث فى ردهة من ردهات القرية الى ما بعد أن يمضى جميع أفراد الاسرة الى مخادعهم ، كنت أعود الى الغابات أحيانا وأقضى فيها الساعات التى قبيل منتصف الليل وبعده فى مركب أصيد السمك فى ضوء القمر رغبة فى الحصول على غدائى فى اليوم التالى • وكانت الثعالب والبوم تغنى لى ، وأسمع الفينة بعد الفينة نغمة رفيعة حادة صارخة تصدر

عن طير على مقربة مني ، وليس لهذا الطير اسم معروف • فهذه كلها خبرات لا تنسى ، ولها قيمتها في رأيي ــ وأنا راس بسفينتي على بعد مائة ياردة أو مائة وخمسين من الشاطىء في ماء يبلغ عمقه الاربعين قدما ، تحيط بي أحيانا آلاف من صغار سمك الفرخ وسمك النيتروبيس* الامريكي وهي تحرك سطح الماء بذيولها في ضوء القمر ، ويتصل بعضها ببعض بخيط كتاني طويل مع أسماك أخرى ليلية غريبة تعيش على عمق أربعين قدما • وكنت أسحب أحيانا ما طوله ستون قدما من خيوط الصيد حول البركة ، يدفعني نسيم الليل العليل ، شاعرا آنا بعد آن باهتزاز خفيف في الخيط ينم عن وجود ضروب من الاسماك تحوم حول طرفه لغرض مبهم غير مؤكد • وكانت هذه الاسماك بطيئة في أن تجمع أمرها وتعقد عزمها على شيء • وآخر الامر أسحب الخيط ببطء ، وأجره المرة بعد المرة ، واذا بصلور أقرن* يصيح ويتلوى في الهواء العالي • وانه لغريب كل الغرابة ولا سيما في الليالي الحالكة الظلام ، وقد ندت بك أفكارك الى موضوعات واسعة عن أصل الكون ونشأته ، وشردت الى آفاق أخرى ــ غريب أن تشعر بهذه الجذبة الخفيفة التي جاءت تقطع عليك مسرى أحلامك وترجع بك الى الطبيعة تربطك بها من جديد • ويبدو لي أن علي في المرة الآتية أن ألقي بخيطي في الهواء كما ألقي به في الماء ــ هذا العنصر الذي لا يكاد يزيد على الهواء في كثافته ، وبذلك أكون قد اصطدت سمكتين بصنارة واحدة •

والمنظر الطبيعي عند والدن منظر مصغر متواضع لا يبلغ حد الفخامة والجلال ، على مابه من جمال وروعة ، وليس يعني أحدا ممن لا يكثرون التردد على البحيرة أو لا يعيشون على شواطئها فعلا • ومع ذلك فقد اشتهرت هذه البحيرة بعمقها ونقاء مياهها شهرة تقتضينا أن نعنى بوصفها ونهتم بحسن تصويرها اهتماما خاصا • فهي بئر صافية الماء ، بعيدة الغور ، طولها نصف ميل وعرضها ثلاثة أرباع الميل ، ومساحتها واحد وسبعون فدانا ونصف فدان ، فهي عين ثرة دائمة وسط غابات الصنوبر والبلوط ، ليس لها مدخل ولا مخرج مرئي اللهم الا عن طريق السحب والبحر • وتقوم التلال المحيطة بها ، وعرة وفجأة من عند الشاطىء فترتفع الى علو يتراوح بين أربعين وثمانين قدما ، وقد تصل في الجنوب الشرقي والشرق الى مائة قدم ، ومائة وخمسين قدما على الترتيب ، في نطاق مداه ربع ميل ، وثلث ميل • وهي أراض كلها غابات ليس غير • هذا ، ولمياه كنكورد جميعها لونان على الاقل ، لون عندما ترى من بعد ، وآخر وهو أنسب بها وأليق ، عندما ترى من كثب • ويتوقف اللون الاول على الضوء ، ويساير الجو في أحواله • فعندما يكون الجو صحوا في الصيف ، تتجلى البحيرات كلها

زرقاء من مسافة قريبة ، وبخاصة ان كانت المياه مضطربة . أما من على مسافات بعيدة فكلهـا واحد . أما في الجو العاصف فتبدو أحيانا في لون اردوازي غامق ، ومع ذلك يقال أن البحر يبدو أزرق اللون في يوم وأخضره في آخر من غير أن يكون ثم أي تغيير ملحوظ في الجو . هذا ، وقد رأيت نهرنا ، عندما تكتسي الارض بالثلوج ، قد صار أخضر اللون ماء وجليدا ، وفي خضرة الكلأ تقريبا . ومن النـاس من يعدون الزرقة لون المـاء الصافي ، سائلا كان أو متجمدا ، على أنا ان كنا في سفينة وأطللنا على أمواهنا من عل مباشرة ، تبين لنا أنها تبدو في ألوان مختلفة متبـاينة . فوالدن زرقاء في وقت ، وخضراء في وقت آخـر ، حتى ولو نظرت اليها من وجهة نظر واحدة . واذ تقع بين الارض والسماء فقد صارت تشتـرك مع الاثنين كليهما في لونيهما . أما ان نظرت اليها من قمة تل ، وجدتها تعكس لون الجو نفسه ، على حين أنها تبدو من قرب ، عند الشاطىء ، في لون ضارب الى الصفـرة حيث يمكنك أن تشاهد الرمال ، ثم اذا بها ذات لون أخضر فاتح يظل يزداد شيئا فشيئا حتى يصبح أخضر غامقا موحدا في جسم البركة . وفي بعض الاضواء يكون لونها أخضر ناضرا عند الشاطىء ، حتى ولو نظرت اليها من قمـــة ربوة . وقد رأى بعضهم أن مرد هذا كله الى انعكاس الخضرة . ولكن المياه عند جسر السكة الحديدية الرملي ، ترى كذلك خضراء ، وكذا في الربيع قبل أن تتجدد أوراق الشجر . وقد يكون ذلك كله نتيجة اللون الازرق السائد مختلطا بصفـرة الرمال . وذلك هو لون حدقتها ، وهو أيضا لون ذلك الجزء من البركة حيث يذوب الثلج أولا ثم يحدث قنـــاة ضيقة عند الوسط الذي لا يزال متجمـدا . وهذا يحـدث في الربيع عندما يكون الثـلج قد أخذ يدفأ من حـرارة الشمس المنعكسة من القاع ، ومن الحرارة التي تنتقل اليـه عن طريق الارض كذلك . هذا وانها لتبدو لك من على بعد قليل زرقاء غامقة ، أشد زرقة من الجو نفسه ، مثلها في ذلك مثل مياهنا اذا ما هاجت واضطربت اضطرابا شديدا في الجو الصحو ، بحيث يعكس سطح الامواج الجو بزاوية قائمة ، أو من جراء مقدار أكبر من الضوء امتزج بها . وفي مثل هذا الوقت ، وأنا على سطحهـا أنظر نظرات موزعة كي أستطيع أن أرى الانعكاس ، استطعت أن أميز زرقة خفيفة منقطعة النظير وتجل عن الوصف مثل تلك الزرقة التي توحي الينـا بهـا تلك الاقمشة الحريرية المتماوجة اللون (المعـروفة بالمواريه) ، ومثل تلك التي توحي الينا بهـا كذلك نصول السيوف زرقة أكثر لازوردية من الجو نفسه ، تتعـاقب مع اللون الاخضر الغامق الاصلي على الجوانب الاخرى المقـابلة من الأمواج ، التي تبدو عكرة اذا ما قورنت بها . فهي أشبه ما تكون بزرقة الزجاج المـائلة الى الخضرة ؛ فهي كما أتذكرها ، مثل البقع التي تشاهد في جو الشتاء خلال مناظر السحب

فى الغرب ، قبيل مغيب الشمس • ومع ذلك،فانك اذا ما عرضت ملء قدح واحد من مياهها للضوء أصبح عديم اللون مثل مقدار مساو لهمن الهـــواء ، فلا يخفى أن اللوح الـكبير من الزجاج يكون ذا لون أخضر ، وسبب ذلك ،كما يقول الزجاجون أنفسهم ، يرجع الىجسمه نفسه ، على حين أن القطعة الصغيرة من هذااللوح ذاته تكون لا لون لهـا • أما من حيث مقدار المـاء اللازم من مياه والدن ليعكس لوناأخضر ، فاننى لم أستطع أن أعينــه على وجه التحديد ، فماء نهرنا أسود أو أسمر غامق لكلمن ينظر اليه من عل مباشرة ، وهو مثل لون الغالبية من البرك ، يضفى على جسم السابحفيه لونا يميل الى الصفرة • أما صفاء هذا المـاء فبللورى لدرجة أن جسم من يسبح فيه يبـدوفى بياض « الالباستر » • وهذا نفسه لون غير طبيعى ، لما يحدثه من أثر فظيع مريع حقا ،فهو يكبر الاعضاء ويعظمها ويشوهها مما يجعل الامر موضوعا لدراسة فنية خليقـة بميخائيلأنجليو*

وقد بلغ من صفاء الماء وشـــفوفه أنك تستطيع أن ترى القاع فى يسر واضـــحا كل الوضوح ، على عمق خمسة وعشرين قدما أوثلاثين • وان أنت جدفت سفينتك فوق سطحه ، استطعت أن ترى على بعد أقدام كثيرة جموعامن سمك الفرخ ، و « التروبيس » قد لا يزيد طول الواحدة على بوصة واحدة ، ومع ذلكلا يعسر عليك أن تميز الاولى من الثـانية بما يبدو علىأفرادها منخطوط مستعرضة ؟ ويخيلاليك أنها لابد أن تكون أسماكا متقشفة قانعة حقا ، تلك التى تجد لها ما تعيش عليه هنـا •هذا ، ومن عدة سنين خلت كنت ذات مرة فى الشتاء ، أصنع ثقوبا فى الجليد كى أصيد سمكالكراكى الصغار • فلما اتجهت نحو الشاطىء ألقيت بلطتى على الجليد ، فكأن شيطانا خبيثـاقام بتوجيه هذه البلطـــة فانزلقت عشرين أو خمسا وعشرين ياردة ، ثم سقطت مباشرة فىثقب من هذه الثقوب كان عمق الماء فيه خمسا وعشرين قدما • فمن قبيل الفضول ، انبطحتعلى الثلج ، وألقيت نظرة من خلال هذا الثقب ، فشاهدت البلطة قائمة على رأسها ومائلة قليلاعلى جنبها ، ويدها منتصبة ، ولكنها كانت لاتزال تتأرجح فى رفق تأرجحا يتمشى مع نبضـــاتالبركة • وكان من الجائز أن تظل حيث هى ، قائمة متأرجحة الى أن تتعطــــن اليد بمرورالزمن ، لو لم أحركها • فقد عملت ثقبا آخـر فى الجليد فوقها مباشرة بأزميـــل كان معى من نوع تلك الأزاميل التى تستعمل للعمـل فى الجليد خاصة ؟ وبعد أن قطعت بسكينى أطـولشجرة من أشجار البتولا استطعت الحصـــول عليها من الاراضى المجاورة لســـكنى ، عملتأخية وربطتها فى طرف البتولا هذه • وأرسلتها أسفل برفق وحذر ، وأمررتهـــا فوق رأسيد البلطة ، ثم سحبتها بخيط علىطولالشجرة • وبذلك تمكنت من سحب البلطة واستخراجهامن الماء •

ويتكون الشاطىء من منطقة كلها حجارة بيض مستديرة ، ملساء مثل تلك الاحجار التى تستعمل فى رصف الشوارع ، وذلك فيماعدا شاطىء رملى قصير - أو شاطئين - يبلغ من الوعورة ، وسرعة الانحدار ، أن كان به مواضع كثيرة حسبك قفزة واحدة منها لتنقلك الى المياه ، فتقع على أم رأسك . ولولا شفوف الماء البالغ ، لكان ذلك آخر مايرى من قاع البركة ، الى أن تعود وترقى الى الشاطىء المقابل . وقدخيل لبعض الناس أن البركة لا قاع لها . فهى ليست عكرة ولا وحلة فى أية بقعة فيها . وقديقول من يلاحظها عرضا أنها خلو من الاعشاب خلوا مطلقا . أما من حيث النباتات التى ترى فيها ، اللهم الا فى البطائح والاراضى المستوية الصغيرة التى غمرها الفيضان حديثا ، والتىلا تعد فى الواقع جزءا من البركة - فان انعام النظر والفحص الدقيق لا يوصلانك الى رؤيةأى أسلة ، أو سوسنة ، صفراء كانت أوبيضاء . ولكنك قد ترى بضع أوراق من نباتات أخرى .

ومع ذلك فقد لا يرى المستحم فى البركة شيئا ما من هذه . وكلها نباتات نظيفة ، لامعة لمعان ذلك العنصر (الماء) الذى تعيش فيه . وتمتد الاحجار نحو خمس أقدام أو عشر فى الماء ؛ وعندئذ يتبين لك أن القاع يتكون من رمل خالص ، الا فى أكثر أجزائه عمقا ، حيث يكون فيه عادة قليل من المواد الرسوبية ،التى قدتكون ناشئة من تعفن أوراق الشجرالتى نقلت اليها فى فصول الخريف الكثيرة المتتالية .وثم عشب أخضر لامع يخرج مع المرساة ، حتى فى أواسط فصل الشتاء .

وعندنا بركة أخرى تشبه هذه تمام الشبه هى بركة « هوايت » . وتقع عند « ناين ايكر كورنر » على بعد ميلين ونصف ميل غربا .وعلى الرغم من الملمى بأحوال معظم البرك التى تقع فى دائرة اثنى عشر ميلا من هذا الموضع فلست أعرف بركة ثالثة لها مثل هذا الصفاء الذى يشبه صفاء العين . ولعل شعوبا متوالية قد استقت منها ، وأعجبت بها ، وسبرت عمقها ثم ولت ودالت ومازال ماء البحيرة أخضر رائعا شفافا مثلما كان من قبل .

فهى ليست بعين متقطعة ! وربما كانت بحيرة والدن موجودة فى ذلك الصباح من الربيع عندما طرد آدم وزوجه من الجنة .وكانت البحيرة تتكسر حتى فى ذياك الوقت ، عندما تسقط أمطار رقيقة من أمطار الربيع المصحوبة بالضباب والريح الجنوبية ، وكانت مغطاة بآلاف مؤلفة من البط والاوز التى لم تسمع بطرد آدم وزوجته ، عندما تكون مثل هذه البحيرات الصافية كافية لها . وحتى فى ذلك الوقت بدأت البحيرة تعلو وتهبط ، وكانت قد صفت مياهها وصبغتها بذلك اللون الذى تتلون به الآن ، وحصلت على براءة من السماء بأن تكون هى وحدها بحيرة والدن الفذة فى الدنيا ، وأن تقوم بتقطير ذلك الرحيق

السماوي .. فمن يدرى فى آداب كم من الامم التى لم يع التاريخ ذكرها كانت هذه هى العين الكاستالية* ؟ ومن يدرى أية حورية قد أشرفت عليها ورأستها فى العصر الذهبى* ؟ أنهـا جوهرة من الماء الاول تحملهـا كنكورد* فى تاجها .

ومع ذلك فربما ترك أوائل الناس الذين جاءوا الى هذه العين شيئا من آثار مواقع أقدامهم فيها ، فقد دهشت أن أرى حول البركة ، حيث كانت غابة كثيفة حول الشـاطىء قطعت توا ، طريقا يشبه الرف الناتىء فى سفح التل الوعر، يرتفع وينخفض مرة بعد أخرى ؟ وقد يقترب من حافة الماء مرة ، ويتراجع عنهـا أخـرى ، وربما كان هـذا الطريق قديما قدم الجنس البشرى كله ، فقد أبلته أقدام الصـيادين من السكان الاصـليين ، ولا تزال تطأه من وقت لآخر أقدام الناس الذين يحتلونه الآن عـلى غير علم منهم بالامر . ويتضح هـذا جليا ، ولا سيما لمن يقف وسط البركة فى فصـل الشتاء عقب سقوط ثلج خفيف ؟ اذ يبدو فى شكل خط واضح أبيض تحجبه الاعشـاب والاغصان ، يتراءى واضحا كل الوضوح عـلى بعد ربع ميل فى كثير من المواضع لا يكاد يبين فيها فى الصيف على القرب . فكأن الثلج كان يعيد « طبعه » من جديد بحروف واضـحة ، اذا جاز لنا أن نعبر بمثل هذا التعبير . ولسوف تظل أراضى الفيلات المزخرفة ، التى سـتقام هنا يوما ما محتفظة بآثار من هذا .

ويرتفع سطح البركة وينخفض ؟ ولكن لا يعرف أحد ان كان ارتفاعها وانخفاضها هذان يحدثان بانتظام أم لا ، كما لا يعرف أحـد فى أية فترة يحدثان ، عـلى كثرة من يدعون أنهم يعلمون ، كما هى عادة الناس . وسطح البحيرة فى الشتاء أعلى منه فى الصيف عادة ، ويكون أكثر انخفاضا فى الشتاء ، من غـير أن يكون ذلك متفقا مع فترة الجفاف العام ، أو المطر العام . وانى لأذكر عندما كان السطح أعـلى قدما أو قدمين مما هو عليـه الآن ، وكذلك أذكره عندما كان ارتفاعه أعلى بخمس أقدام على الاقل مما كان عليه عندما كنت أقطن على مقربة منها . فثم جسر رملى ضيق داخل فيها الماء فى جانب منه عميق كل العمق ، وقد اشتركت مرة فى غلى قدر مليئة « باليخنى » فوق هذا الجسر ، عـلى بعد نحو خمس وثلاثين ياردة من الشـاطىء الاصلى ، نحو سنة ١٨٢٤ ، مما لم يكن ممكنا عليه قبل ذلك بخمس وعشرين سـنة . ومن جهة أخرى ، كان أصدقائى يستمعون الى وهم لا يكادون يصدقون ، عندما قلت لهم انى اعتدت بعد ذلك ببضع سنوات أن أصطاد السمك من قارب فى خليج منعزل فى الغابات ، عـلى بعـد قرابة ثمانين ياردة من الشاطىء الوحيد الـذى يعرفونه . وقد تحول هذا المكان ، منـذ ذلك الوقت ، الى بطيحة مستوية ؟ على حـين ظلت البركة ترتفـع باسـتمرار منذ سـنتين . والآن ، ونحن فى صيف سـنة ١٨٥٢ ، فهى تعلو خمس أقدام تماما عما كانت عليـه عندما

كنت أقطن هناك ، أو بعبارة أخرى انها كانت عالية العلو الذى كانت عليه منذ ثلاثين سـنة مضت . وقد عاد الناس الى صـيد السمك من جديد فى تلك البطيحة . ويحدث هـذا فى مستوى سطح الماء فرقا ، من الجهة الخارجية ، مقداره ست أقدام أو سبع ، ومع ذلك فارتفاع خط تقسيم المياه عند التلال المحيطة قليل تافه ، فيجب أن نرجع هذا الفيضان الى الاسـباب والعوامل التى تؤثر فى عيون الماء العميقة . هذا ، وقد أخذت البركة تنخفض من جديد هذا الصيف عينه . ومن الغريب أن حدوث هـذا الارتفاع والانخفاض ، سـواء كان يتم فى مواسم منتظمة أو لا ، يبدو لى أنه يقتضى عـدة سنوات . وقد لاحظت ارتفاعا واحدا ، وجزءا من انخفاضين ؛ وانى لأتوقع أن يعود الماء بعد مضى اثنتى عشرة سـنة أو خمس عشرة ، وينخفض الى أكثر ما عرفت عنه من الانخفاض . وبركة فلنت التى تقع على بعد ميل شرقا تساير والدن فى ارتفاعها وانخفاضـها ، مع مراعاة ما تحدثه مداخلها ومخارجها من اضـطراب . وكذلك تسايرها البرك المتوسطة الاخـرى . وحديثا بلغت هذه البرك أقصى ارتفاع لهـا فى الوقت الذى ارتفعت فيه والدن الى أقصاها . وهذا ، بقدر ما تصل اليه ملاحظتى ، يصـدق على بركة هوايت أيضا .

فارتفاع والدن وانخفاضها هذان فى فترات طويلة ، يفيدان هذه الفـائدة على الاقل . ان بقاء الماء عند هذا الارتفاع العالى سنة أو أكثر ، يجعل المشى حولها شاقا ، ولكنه يقتل الاشجار والشجيرات التى تكون قد برضت عند حافتـه منذ الارتفاع السابق ، مثل أشجار الصـنوبر الراتنجى والبتـولا وبعض أنواع الحـوروغيرها ؛ ثم عندما تعود وتنخفض ثانيـة تترك الشواطىء خاليـة ليس فيها ما يعوقهـا . فعلى خلاف كثير من البرك ، وعلى خلاف جميع المياه المعرضة لمد يومى ، يكون شاطىء هـذه البركة أنظف ما يكون عنـدما يبلغ الماء منتهى انخفاضه . وعلى جانب البركة عند بيتى ، قتل صف من أشجار الصنوبر الراتنجى ، ارتفـاع كل شجرة منها ١٥ قدما وسقطت كلهـا كأنما حدث ذلك بفعل رافعة . هذا ، وان حجم هذه الاشـجار لينم عن عدد السنين التى مضت منذ ذلك الارتفاع الاخير . وبهذا التذبذب ـ هذا الارتفاع والانخفاض ـ تؤكد البحيرة ما لهـا من حق فى الشـاطىء ، وبذلك يكون هـذا الشاطىء قد قص منه جـزء ، فلا تسـتطيع الاشجار أن تستمسك به ، بحق الحيـازة ووضع اليد . تلك هى شـفاه البحيرة ، التى لا تنمو عليها لحية ما ، فهى تلعق مشافرها من وقت لآخر . فعندما يبلغ الماء أقصى منسوب له أرسلت أشجار الحور والصفصاف والاسفندان مقدارا كبيرا من الجذور الليفية الحمر تبـلغ طولها عدة أقدام من كل جانب من جـوانب سيقانها ـ أرسلتها فى الماء من على ارتفاع ثلاث أقدام أو أربع من الارض ، محاولة بذلك أن

تستبقى نفسها قائمة . هذا وقد سبق لى أن رأيت عند الشاطىء شجيرات العليق الازرق العالية التى لا تثمر أية ثمار عادة ، تحمل فى هذه الاحوال محصولا وفيرا .

وقد تحير بعض الناس فى أمر هذا الشاطىء . فكيف صار مرصوفا هذا الرصف المنتظم ؟ لقد سمع أهل بلدتى جميعهم بالرواية الآتية وهى رواية أخبرنى الشيوخ المسنون أنهم سمعوها فى شبابهم . فقديما أقام الهنود حفلة « باو واو » على تل هناك كان يرتفع فى السماء بقدر ما تغور البحيرة فى أعماق الارض، وانتهكوا فى تلك الحفلة الكثير من المحرمات ، كما تقول الرواية ، وان كان ذلك رذيلة ممالا يمكن أن يقع فيها الهنود . وبينا هم مشغولون بقصفهم وعبثهم هذا اهتز التل من تحتهم ، وسرعان ما ساخ فى الارض ، فلم يسلم منهم سوى امرأة عجوز اسمها (والدن) ، فأطلق اسمها على البحيرة . وقيل : فلما اهتز التل تدحرجت هذه الاحجار على سفحه فأصبحت الشاطىء الحالى . ومهما يكن الامر ، فمن المؤكد أنه لم تكن هنا بركة فى يوم من الايام ، والآن توجد أمامنا . ولا تتعارض هذه الاسطورة الهندية بأى حال من الاحوال مع ما يقوله ذلك النزيل القديم الذى سبق أن أشرت اليه ، والذى يذكر كل الذكر ، أول ما جاء الى هنا ، ومعه عصاه التى يستنبىء بها مواقع الماء فى الجليد . فقد شاهد دخانا خفيفا يخرج باستمرار من المرج ، وأن شجر البندق كان يشير باستمرار الى أسفل . فاستنتج من ذلك أنه يجب أن يكرى بئرا هنا . أما من حيث الاحجار ، فلا يزال كثيرون يرون أنه لا يمكن تعليلها بعمل الامواج فى هذه التلال ، ولكنى ألاحظ أن التلال هذه مليئة بأمثال هذه الاحجار ذاتها ، حتى أنهم اضطروا الى أن يكوموها على شكل جدران تقوم على جانبى قطع السكة الحديدية الذى عند أقرب مكان الى البركة . وزيادة على ذلك توجد أكثر الاحجار حيث الشاطىء أوعر مايكون ؟ وبذلك لم يعد الامر ، لسوء الحظ ، سرا خافيا على فقد عرفت الراصف . فان كان اسمه لم يشتق من اسم موضع انجليزى ما ـ مثل صافرون والدن ، فللمرء أن يتصور أنها سميت فى الاصل Walled - in - pond أى البركة المبطنة بسور .

كانت البركة بئرا لى وأعدت من قبل . فماؤها يظل أربعة شهور فى السنة باردا بقدر ماهو صاف باستمرار . وهو فى رأيى ماء صالح مثل أى ماء آخر ، ان لم يكن خير ماء فى البلدة كلها . فكل ماء معرض للهواء يكون فى فصل الشتاء أبرد من مياه العيون والآبار المحجوبة عنه ؟ ودليلى على ذلك أن حرارة ماء البركة الذى ظل فى الحجرة التى أجلس فيها ، من الساعة الخامسة مساء حتى ظهر اليوم التالى (وهو اليوم السادس من مارس سنة ١٨٤٦ ، وكان ميزان الحرارة قد ارتفع برهة حتى بلغ ٦٥°ف أو ٧٠°ف من تأثير

حرارة الشمس في السقف) - كانت درجة الحـــرارة ٤٢°ف • أى أنه كان أبرد درجة واحدة من مياه أخرجت توا من بئر من أبرد الآبار التى فى البلدة • وكانت درجة حرارة «العين الساخنة» في اليوم نفسه ٤٥°ف ، وكان ماؤها أدفأ ماء جربناه ، وان كان أبرد ماء عرفته فى الصيف ، مادام الماء الراكد الضحل من الماء السطحى المعرض للهواء لم يكن قد اختلط به • وفضـــلا عن ذلك ، فوالدن لا تسـخن أبدا في الصيف بقدر ما تسخن أكثر المياه المعرضة للشمس ، وذلك بسبب عمقهـــا • وكان من عادتى ، فى أكثر الاجواء دفئا ، أن أضع جردلا مملوءا بالماء فى « كيلار » بيتى كى يبرد فى أثناء الليل ، ثم يظل محتفظا ببرودته طيلة النهـــار (ذلك مع انى كنت ألجأ أحيـــانا الى عين ماء مجاورة) وصالحا للشرب بعد مضى أســـبوع عليه ، كما كان يوم استخرجته ، ومن دون أن يتغير شيء من مذاقه من أثر المضخة • هـذا ، وليس على كل من عسكر فى الصيف أسـبوعا عند شاطىء بركة الا أن يدفن جردلا من الماء فى الارض على بعد بضعة أقدام فى ظل معسكره ، فيستغنى بذلك عن ترف استعمال الثلج •

هذا ، وقد صاد بعضهم من والدن سمكا من نوع الكراكى كان وزن الواحدة منه سبعة أرطال ، ذلك فضلا عن ســمكة أخرى هربت بكرة الصيد بسرعة فائقة ، قدر الصائد وزنها بثمانية أرطال ، وهو تقدير راعى فيه الحيطة ، اذ أنه لم ير السمكة • وكذلك اصطيد فيهـــا الفـــرخ والصلور وكان وزن بعضه أكثر من رطلين ، والترويس ، ونوع من الشبوط وقليل من الابراميس وزوج من الانقليس أو ثعـابين الماء أحدهما يزن أربعة أرطال • ولقد حرصت على ذكر هذه التفاصيل لان وزن السمكة هـو سبيلها الوحيد الى الشهرة • وهذان الثعبـــانان المائيان ، هما الوحيدان اللذان سمعت بهما هنا • وانى لأذكر بعض الذكر سمكة صغيرة طولها خمس بوصات ذات جوانب فضية وظهر ميال الى الخضرة ، لم أشر اليها هنـــا الا لأربط ما أقوله من الحقـــائق بالاساطير • ومع ذلك فليست هذه البركة غنية بالسمك ، فما فيهـــا من صغار الكراكى على قلته هو مفخرتهـا التى تزهى بها • وحدث أن رأيت مرة ثلاثة أنواع على الاقل من الكراكى راقدة على الجليـد أما نوع منها فضحل طويل الجسم ، فولاذى اللون مثل ذلك الذى يصاد فى النهر عادة ؛ وثم نوع ذهبى زاهى اللون ذو انعكاسات خضراء ، عميق بشكل يلفت النظر وهو النوع المألوف هنـا ، وآخر ذهبى اللون كذلك مثل شكل النـــوع الثانى الا أن جوانبه منقطة بنقط سود أو سمر تختلط بها نقط حمر فى مثل حمرة الدم ، وهو شبيه كل الشبه بسمك الأريوان ، فالاســـم النوعى «رتيكولاتس» لا يصدق عليه وخير منه أن يسمى «جتاتوس» • وكل هذه الاســـماك جاسدة ، وتزن أكثر مما يدل عليه حجمهـــا • فأسماك الترويس والصلور والفرخ وســـائر الاسماك التى تعيش فى هذه البركة تعد بحـــق

أنظف وأجمل وأجسد لحما من الأسماك التي تعيش في النهر ، بل وفي أغلب البرك الأخرى، ويسهل تمييزها عنها ؛ لان الماء فيها أنقى مما في غيرها . ولعل بعض الاخصائيين في الاسماك سيجعلون من بعضها أنواعا متمايزة . وبها كذلك أجناس نظيفة من الضفادع والسلاحف ، ومن بعض أنواع من المحار . وقد ترى آثار الفئران المسكية والمنك* حولها . وقد تزورها في بعض الاحيان سلحفاة مائية لينة الدرقة ، وأحيانا أخرى عندما أدفع بقاربي في البركة صباحا ، كنت أستثير سلحفاة مائية ضخمة كانت قد استخفت تحت القارب في الليل . وفي الربيع والخريف يتردد البط والاوز على البحيرة ، وكذلك تتردد عليها الخطاطيف البيض البطون Hirondo bicolor فتسف على سطحها كما يتردد عليها الطيطوى المنقط Totanus muscularis يغرد على طول شواطئها الحجرية طيلة الصيف ، وكذلك كنت أستثير أحيانا عقابا نسارية* من مجثمها على شجرة صنوبر بيضاء تطل على الماء . على أني ليساورني الشك في أن كان قد خفق عليها جناح نورس واحد فانتهك حرمتها كما هي الحال في بركة فيرهافن . فأقصى ما تأذن به هذه البركة هو أن تسمح بمرور طير واحد من نوع الغطاس* في السنة . تلك هي جميع الحيوانات الهامة التي تتردد على البحيرة .

وفي الجو الهادىء ، قرب الشاطىء الرملي الشرقي حيث يبلغ عمق الماء ثماني أقدام أو عشرا ، وكذلك في مواضع أخرى ، قد ترى من القارب الذي أنت فيه بضعة أكوام مستديرة قطرها ست أقدام ، وارتفاعها قدم واحدة ، تتكون من أحجار صغار يقل حجم الواحد منها عن حجم بيضة الدجاجة ، على حين أن ما حولها رمال عارية . فيأخذ منك العجب كل مأخذ ، وتتساءل عما ان كان الهنود الحمر هم الذين كوموها بهذا الشكل على الجليد لغرض خاص من أغراضهم ؟ فلما ذاب الثلج هبطت هذه الاجسام الى القاع . ولكنها كانت أجساما منتظمة كل الانتظام ، فلا يمكن أن يصدق عليها هذا الرأي . فقد كان واضحا أن بعضها حديث ، ولا مجال للقبول بأنه كان من عمل الهنود ، فهي تشبه تلك الاحجار التي تتكون في مجاري الانهار . واذ كان لايوجد هنا جلكي* فلست أدري أي نوع من أنواع الاسماك هو ، ذلك الذي أحدثها . فلعلها كانت أعشاش نوع من سمك الشبوط جعلت لقاع البحيرة سرا خافيا .

والشاطىء غير منتظم ، وذلك يجعله غير نمطي يجري على وتيرة واحدة ، واني لأتصور بعين عقلي الآن الشاطىء الغربي المضرس ذا الخلجان العميقة ، والشاطىء الشمالي الوعر ، والشاطىء الجنوبي المضرس كذلك على نحو جميل تتوالى فيه الرؤوس وتتلاحق بشكل يوحي الينا بوجود خلجان بينها لم تستكشف بعد . فلم يكن للغابة قط



مثل هـذا الوضع الرائع المحيط بها ، ولم تكن جميلة ذلك الجمـال الباهر بمثـل ما ترى من وسط بحيرة صغيرة بين التلال التى ترتفـع من قرب حافة المياه ؟ فليس يجعلهـا الماء الذى تنعكس فيه خير ظهارة فى مثل هـذه الحالة فحسب ، بل انه ، بما له من سواحل متعرجة ، يجعلها خير حد طبيعى رائع . هذا ، وليس فى حافاتها أى خشونة حوشـية ، ولا أى نقص ، مثلما تكون البلطة قد عرت جزءا منها ، أو مثلما يحف بها حقل مزروع . وللاشجار مجـال فسيح كاف كى تمتد على جانب الماء ، فترسـل كل شجرة بأقوى فروعهـا وأنشطها فى هذا الاتجاه . فهنا نسجت الطبيعة أهـدابا وحواشى طبيعية فينتقل البصر صعدا فى مراحل متدرجة خير تدرج من الشجيرات القصـار التى عند الشاطىء الى أعظم الدوح وأسـمقها . فأنت لا ترى هنا سوى آثار قلائل من صنع الانسان ، ولا زال الماء يتكسر على الشواطىء كمـا كان يتكسر منذ ألف سنة خلت .

والبحيرة خير مافى المنظر الطبيعى من ظواهر وأقواها تعبيرا ؟ فهى عين الارض التى يستطيع من ينظر فيها أن يسبر عمق طبيعته هو ، فما الاشجار النهرية التى تنمو عند الشاطىء سـوى الاهداب الرفيعة التى تحف بها ؟ وما التـلال والصخور المكتسية بالغابات حولهـا الا جباهها المطلة عليها .

فبينما أنا واقف عنـد الشاطىء الرملى المنبسط ، فى الطرف الشرقى من البركة ، مساء يوم هادىء من أيام شهر سبتمبر ، وكان ثمـة ضباب خفيف جعل الشاطىء المقابل غير واضح ، رأيت من أين جاءت عبارة « سطح البحـيرة الزجاجى » . فانك اذا ما لويت رأسك تبـدت لك البحيرة كأنها خيط رفيـع كل الرفع من خيوط العنكبوت ، ممتـد عبر الوادى ، يلمع قبالة غابات الصنوبر البعيدة ، ويفصـل كل طبقة من طبقات الجو عن الاخرى ، ويخيـل اليك أن فى مستطاعك أن تسير تحتها حتى تبلغ التلال المقابلة من دون أن تبتـل ، وأن فى استطاعة عصافير الجنة التى تسف طائرة فوقهـا أن تجثم عليها . والحق أنها كانت تغطس أحيانا تحت هذا الخط ، كأنما فعلت ذلك خطأ منها ، ثم يتبين لها الامر بعد فتدرك أنها كانت واهمة . وان أنت نظرت الى البركة ، ووجهت نظـرك صـوب المغرب وجـدت نفسك مضطرا الى استعمال يديك كلتيهما لتقى عينيـك من وهـج الشمس المنعكسة ، ومن الشمس الاصلية ذاتها كذلك . فهما سيان فى التوهج واللألاء ؟ وان أنت فحصت عن سطحها ، بين هاتين الشمسين ، فحصا دقيقا بعين الناقد ، لوجدتهـا صـقيلة مستوية كالزجاج ، بالمعنى الحرفى لهذه العبارة ، اللهم الا حيث تنتشر حشرات الزخارف* ، فى فترات متساوية على امتداد سطحها كله فتحدث عليها ، بحركاتهـا فى الشمس ، أجمل لألاء تتصوره ؟ أو ربما تأخذ بطة فى تسوية ريشها ،

أو ـ كما قلت من قبل ـ قد يسف فوقهـــاعصفور من عصافير الجنــة حتى يكاد يلمسها . وقد ترسم سمكة على بعد قوسا في الهواء طولهاثلاث أقدام أو أربع عنـــدما تلمس الماء ؟ وفي بعض الاحيان تبدو لك القوس الفضية كلهــاواضحة كل الوضوح ؟ أو قد نرى هنا ، وهناك زغابة حسكة طافية على سطحها ، فيهجم عليهــاالسمك وينغض سطح الماء من جديد . وهــذا أشبه مايكون بالزجاج الســـائل الذى برد ولميختر ولم يتجمد بعد ؟ وما فيه من الشـــوائب القليلة تبدو صافية جميلة ، مثل ما قد يكون فيالزجاج من قصور وعيوب . وكثيرا ماترى ماء أغمق لونا ، وأملس سطحا كأنه قد انفصـــلعن سائر المياه بواسطة خيوط عنكبوت غـــير مرئية . فما أشبهه برمث أو حاجـــز لحوريات‌البحار يجثمن عليه ! وكذلك تستطيع أن ترى من قمة تل من التلال سمكة تقفز في أى مكان‌تقريبا ، فما أن يلتقط « كركى » أو «نتروبيس» حشرة من على هذا السطح الا أخـــل باتزان‌البحيرة كلهـــا بشكل جلى واضـــح . ومن العجب العاجب أن هــــذه الحقيقـــة البسيطةتعلن وتنشر بكل دقة واحكام ؟ فكل حادث قتل مثل هذا يرتكب فى البركة سوف يفتضح أمره‌وينكشف . وانى لا أستطيع من مجثمى البعيد هذا أن أميز التموجات الدائرية عنـدما يكون‌قطرها نحو الثلاثين ياردة ، بل انك لتستطيع أن ترى بقة*مائية تسير قدما وبلا انقطاع عـــلى السطح الاملس ، على بعد ربع ميـــل ؟ وذلك لان هذا البق يخدد الماء تخديدا خفيفا ، ويحدث مويجـــات واضـحة يحدها خطان مستقيمان متباعدان ، ومع ذلك ينزلق البق المائى فوقها من غير أن يحدث فيها أى تموجات ترى . واذا ما اضطرب السطح اضطرابا كبيرا لم تجد عليه«زخارف*» ولا أى بق مائى*من أى نوع كان، اذ يبدو أنها تترك مرافئها فى اليـــوم الصحو ،وتغامر بنفسها فتنزلق من الشاطىء بوثبـــات قصار حتى أنها لتغطيه كله تغطية تامة . وانهـــاالتسلية لطيفة مريحة فى يوم من أيام الخـــريف الجميلة ، عندما يقدر الناس دفء الشمس حق‌قدره ــ أن تجلس على عجز شجرة فى مثـــل هـــذا الارتفاع ، وتطل على البركة وتدرس‌الدوائر « الغمازة » التى ترتسم على الســــطح باستمرار ، والذى لولا ذلك لم يكن يرى وسط الاجواء والاشجار المنعكسة . فليس فى هذا الســـطح المائى المترامى الاطـــراف أى‌اضـــطراب ، فهو يســـوى فورا فى رفق ، فيصبح أملس كما لو حركت جرة ماء ، فتسعى‌الدوائر المرتجفة نحـــو الشـــاطىء ، ثم يعود كل شيء من جـــديد أملس هادئا كمـــا كان ؟فلا تستطيع سمكة أن تقفـــز ، أو حشرة أن تسقط على البركة ، من غير أن يبين أثر ذلك‌فى شكل غمازات دائرية ــ فى خطـــوط من الجمال ، كأنه فيض مستمر نابع من عينهـــا ــبل كأنه نبض حياتها الرفيـــق ، أو ارتفـــاع

صدرها . فما يحدثه الفرح من طرب ونشوة ،وما يحدثه الالم من تهيج لايتميزان بعضهما عن بعض . فما أروح ظواهر البحيرة ،وما أهدأها !

وتعود أعمال الانسان تتألق ، كما تتألق في الربيع . بل ان كل ورقة من أوراق الشجر ، وكل غصن ، وحجر ، وكل خيط من خيوط العنكبوت ليتألق الآن بعد الظهيرة ، كما لو كان مغطى بالندى في صباح يوم من أيام الربيع . فأي حركة تحدث من حركات المجداف ، أو من حشرة ، تحدث ومضة من نور . أما ان سقط مجداف ، فما أحلى رنة صداه !

وفي مثل هذا اليوم من شهر سبتمبر أو أكتوبر تصبح والدن مرآة من مرايا الغابة ، بالغة حد الكمال ، مرصعة الاطار بأحجار تعد في نظري أحجارا كريمة ، كما لو كانت أقل أو أندر مما هي عليه . ولعله لا يوجد شيء رائع في جماله ، بالغ في صفائه ونقائه ، واسع الرقعة مترامي الاطراف ، مثل بحيرة على سطح الارض . فهي سماء سائلة في غير حاجة الى سور أو سياج يسندها . فالامم تغدو وتروح من غير أن تدنسها ؟ فهي مرآة ليس في استطاعة أي حجر أن يشققها . ولا يبلى زئبقها ، فقد تكفلت الطبيعة بأن تصلح من شأن تذهيبها باستمرار . فلا العواصف ، ولا الغبار تستطيع أن تغبر صفحتها . فهي مرآة يغرق فيها كل قذى ويزول ــ تزيله عنها « فرشاة » الشمس الخفيفة الندية . فهذا هو القماش اللين الذي يزيل الغبار عنها ، ولا يبقي أثرا لأي نفس ينفث في وجه سطحها ، بل ترسل أنفاسها هي فتطفو سحابا عاليا فوق سطحها ،وتنعكس صوره على صدرها .

ان كل صفحة من الماء تنم عما في الهواء من روح ، وتستقبل على الدوام حياة جديدة ، وحركة جديدة من عل . فهي من حيث طبيعتها وسط بين الارض والسماء . فعلى الارض يتماوج الكلأ والاشجار وحدهما ، ولكن الماء نفسه يتغضن بالريح . واني لأرى أين يندفع النسيم عبر المياه ، بما يتراقص عليها من خطوط الضوء وندف النور . فمن عجب أنا نستطيع أن نطل على سطحها ، ولعلنا نستطيع آخر الامر أن نطل على سطح الهواء نفسه ، ونلحظ المواضع التي قد تمر عليها روح ألطف منه وأدق .

هذا ، وان حشرات «الزخارف*» والبق المائي لتختفي كلها في أواخر شهر أكتوبر ، عندما يشتد الصقيع . ثم في شهر نوفمبر ، وفي يوم هادىء من أيامه عادة ، لا يكون ثمة شيء مطلقا يحرك السطح ويغضنه . وذات مساء ،في يوم من أيام نوفمبر وسط ذلك السكون ، كانت السماء لا تزال غائمة كلها ، والجو مشبعا بالضباب ــ لاحظت أن البركة كانت هادئة هدوءا يسترعي النظر ، حتى ليصعب عليك أن تميز سطحها ، وان كانت لم تعد تعكس ألوان

أكتوبر الزاهية بل ألوان نوفمبر القاتمة من التلال القريبة . ومع أني مررت عليها بكل ما أستطيع من رفق ، فقد كانت التموجات الخفيفة التي يحدثها مرور قاربي تمتد الى أبعد مدى يمكن أن يمتد اليه بصري ، وجعلت الانعكاسات تبدو في شكل مضلع . وبينا أنظر من فوق السطح رأيت على بعد مني لمعانا خفيفا يبرق في أماكن متفرقة ، كأن بعض حشرات من «الزخارف*» التي قد ولت خشية الصقيع ، يمكن أن تتجمع هنا ، أو ربما كشف السطح عن المكان الذى قد ينبثق فيه نبع من القاع ، وذلك لان السطح أملس الى حد كبير ؟ فجدفت الهوينى حتى بلغت أحد هذه المواضع ، فأدهشنى أن أجد نفسي محوطا بآلاف من صغار أسماك الفرخ التي لايزيد طول الواحدة منها على خمس بوصات ، لها لون برنزى ناضر ، تلعب وتمرح في الماء الاخضر ، وتظل ترتفع الى السطح باستمرار فتغضنه ، وتترك عليه في بعض الاحيان عدة فقاعات . ففي مثل هذا الماء الشفاف الذي يبدو كأنه لا قاع له ولا قرار ، والذي تنعكس عليه السحب خيل الى أني أسبح في الهواء كأنى في منطاد ، وبدا لي عومها نوعا من الطيران أو التحليق ، كأنها كانت سربا من الطير يمر من تحت مستواى مباشرة عن يمينى أو يسارى ، وقد نصبت زعانفها حولها كأنها القلوع . هذا ، وفي البركة كثير من أمثال هذه المجموعات ، ويبدو أنها كانت تستفيد أقصى ما تستطيع أن تستفيده من الموسم القصير الاجل قبل أن يلقى الشتاء ستارا من الثلج على مسقط ضوئها العريض ، وكانت في بعض الاحيان تجعل السطح يبدو كأن نسيما خفيفا قد هب عليه ، أو أن قطرات قليلة من المطر قد نزلت عليه . ولما اقتربت منها في غير اكتراث وأزعجتها ، تدفقت بغتة وأخذت تغضن الماء بذيولها ، كما لو ضربه أحد بغصن مورق ، وسرعان ما لاذت بأعماق البحيرة . وأخيرا هبت الريح ، وتكاثر الضباب ، وطفقت الامواج تندفع وتجرى ، وأسماك الفرخ تقفز وتثب الى أعلى ، كما كانت تقفز من قبل ، ونصفها خارج الماء ــ مائة نقطة سوداء طول كل منها ثلاث بوصات تبدو على سطح الماء في الحال . وحتى في موعد متأخر ، مثل الخامس من ديسمبر ، شاهدت في احدى السنين بضع « غمازات » على سطح الماء ، فخيل الى أن السماء ستمطر في الحال مطرا غزيرا ، لان الهواء كان مشبعا ببخار الماء ، فسارعت واتخذت مقامى أمام المجاديف لأمضي بالقارب صوب المنزل . وفعلا ، لم يلبث المطر أن انهمر وأخذ يزداد ويغزر ، وان كنت لم أشعر بشيء منه على وجهي ، فتوقعت أن أبتل منه ، حتى يصل البلل الى عظامي . ولكن الغمازات توقفت فجاءة ، لانها انما حدثت بسبب أسماك الفرخ التي ذعرت من أصوات المجاديف فلاذت بأعماق البحيرة ، واختفت جموعها بشكل

غامض لم أعرف سره • ومهما كان الامر فقدقضيت على هذا النمط مســاء يوم من دون أن يصيبنى أى مطر •

صادفت مرة رجلا شيخا اعتاد أن يتردد على هذه البحيرة من ستين سنة تقريبا ، عنـدما كانت مظلمة من جراء ما كان يحيط بهـا من غابات كثيفة • فروى لى هذا الشيخ أنه كان يرى البحيرة فى تلك الايام حافلة بالبط وغيره من صنوف دجاج المـاء ، ويهوم عليها كثير من النسور ، وكان هو يحضر اليها لصيد السمك ،ويستعمل لذلك الغرض قاربا قديما صـنع من كتل الشجر ، وجـــده ملقى على الشاطىء ،وكان مصنوعا من كتلتين من شجر الصـنوبر حفرتا وألصقتا الواحدة بالاخرى ، وقطعتــاقطعا مربعا عند الطرفين • فكان قاربا غليظـا بعيدا كل البعد عن الرشاقة ، ولكنه مع ذلك عاش سنين قبل أن يتشبع بالماء ، ولعله كان قد غرق وهوى الى القاع • ولم يكن الشـــيخ يدرى من صاحب هذا القارب ، فقد كان ملكا للبركة • وكان الرجل يصنع حبلا لمرساته من شرائح من لحاء خشب الجوز الامريكى ، يربطها بعضها ببعض • قال له مرة صانع فخار عجوز كان يسكن عند البركة قبل قيـام الثورة* ان صندوقا من حديد كان فى قاع البحيرة ، وانه شاهده بنفسه ، وكان الصندوق يصـل أحيانا الى الشاطىء طافيا ، ولكنه كان يعــود الى الماء العميـــق ويختفى عن الانظار اذا ما اتجهت نحوه • وقد طاب لى أن أسمع عن القـــارب هذا المصنوع من كتل الشجر ، والذى حـل محـــل قارب آخر هندى مصـــنوع من المادة نفسها ، ولكنه كان من حيث الصنعة أرشـــق منه وأجمل • ولعله كان فى الاصـل شـــجرة قائمة على الضفة ، ثم وقعت فى الماء وظلت طافية فيه جيلا كاملا ، مما جعله أصـــلح مركب للبحيرة • وأذكر أنى لما نظرت الى هذه الاعماق لاول مرة كان بها جــــذوع أشجار كثيرة ضخمة ، يمكن أن ترى بشكل غير واضـــح راقدة على القاع • فهى اما أســـقطتها الريح من زمن قديم ، واما تركت على الجليد بعـــد قطعه فى المرة الاخـــيرة ، حين كان الخشب أرخص مما هو عليه اليوم • أما الآن فقــد اختفى أغلب هذه الجذوع وزال •

وأول مرة جدفت فيها مركبا فى والدن ، كانت البحيرة كلها محوطة احاطة تامة بغابات من أشجار الصنوبر والبلوط السميكة العالية ، تنبت فى بعض خلجانها كروم العنب ، تسلقت على الاشجار القريبة من المياه وكونت عرائش يتيسر للقارب أن يمر من تحتها • وكانت التلال التى تتكون منها شـــواطىء البحيرة وعرة كل الوعورة ، والغابات القائمة عليها سامقة ، حتى لتبدو لك أشبه شىء بمدرج عمل لمنظـــر من مناظر الغابات ، ذلك اذا ما نظـــرت اليها من ناحية الغرب • فكم من ساعة من ساعات شبابى قضيتها طافيا على سطح البركة يدفعنى النسيم

أني شاء ، بعد أن أكون قد جدفت قاربي ووصلت به الى وسط البركة ورقدت على ظهـــري بين مقاعده في عصر يوم من الايام ، وظللت راقدا الى أن يمس القارب الرمال فأستيقظ من غفـوتي لأرى أي شط دفع بي القـــدر اليه . فكانت أياما للكسل فيهـا روعتـه واغراؤه ، كما كان العمل فيها مثمرا كل الاثمار . وكم من عصاري يوم تسللت فيه مفضـــلا أن أقضي خير أوقات اليوم كله ، أو أثمنها على هـذا النحو ! لقـد كنت غنيا ، ان لم أكن بمالي ، فبتلك الساعات المشمسة وبأيام الصيف التي جعلت أنفقها بغير حساب ؟ ولست بآسف على أني لم أنفق أكثر منها في المصنع أو على منصة التدريب . ولكن بعد أن تركت هذه الشواطىء أكثر فيهـــا الحطابون الفساد ، وستمضي الآن أعوام كثيرة قبل أن أعود لأطوف بطرقات الغابة ، وأرى بعيني المناظر التي قد تلمح المياه من خلالهـــا أحيانا . فلا لوم على شـيطاني اذن ، ان لزم الصمت من الآن . اذ كيف تتوقع من الاطيار أن تصدح ، وقد قطعت أيكاتها ؟

لقد زالت الآن سيقان الاشجار التي في القاع ، وزال القارب القديم المصنوع من كتل الخشب ، وكذا الغابات المظلمة المحيطة بالبحيرة ، وها هم القرويون الذين لايكادون يعلمون أين موضع هذه البحـــيرة يفكرون ـ بدلا من أن يذهبوا اليها ليستحموا ويشربوا ـ يفكرون في ارسال مياهها التي ينبغي أن تكون موضـــع تقديس واجلال مثل مياه نهر الكنج ـ عـلى الاقل ـ في أنابيب الى القرية ليغسلوا بهـــا أطباقهم ، وبذلك يحصلون على مياه بحيرتهـم بمجرد ادارة صنبور أو نزع سدادة . ان ذلك الحصان الحديدي الجهنمي الذي يدوي صهيله الخارق للآذان ، فيسمع في طول البـــــلد وعرضها ، قد عكر العين الساخنة بأقدامه ، ذلك الذي رعى جميع الغابات التي على شاطىء والدن حتى أتى عليها ؟ ذلك الحصان التروادي الذي يحمل في بطنه ألف رجل والذي أدخـله بيننا المرتزقة من جنود اليونان . فأين بطل البلاد ؟ أين « مور صاحب مورهال » ليقابله عند (ديب كط) فينتقم من هذه الآفة اللعينـــة المنتفخة ويطعنها بحربة بين أضالعها ؟

ومع ذلك ، فوالدن خير جميع الشخصيات التي عرفتها وأوفاها جميعا ، وأقدرها عـلى الاحتفاظ بصفائها . لقد شبه بها كثيرون من الناس ، ولكن ما أقل الجديرين منهم بهذا الشرف! فمع أن الحطابين قد عروا هـــذا الشاطىء ، ثم أتبعوه بذاك ، وأقام الايرلنديون مساكنهم عـلى حفافيها ، واعتدت السكة الحديدية على أطرافها وتحيفتها ، وأزال الثلاجون عنها سطحها مرة ـ مع ذلك كله ظلت هي هي لم يعتورها تغيـــير يذكر ، ومازالت مياهها هي نفس الميـــاه التي رأتها عيناي في شبابي . فالتغيير الذي حـــدث انما حدث كله في نفسي أنا ، عـــلى حـين لم يحدث فيها أي تجعد دائم بعـــد جميـــع تلك المويجات . فهي شابة شبابا خالدا . وقد أقف

فأشاهد عصفورا من عصافير الجنة يغطس فيهـاليلتقط حشرة من على سطحها ، كما يبدو ، وكما كان يفعل من قديم ، فأدهشتني وراعتنيهذه الليلة من جديد ، كأني لم أكن أراها كل يوم تقريبا طيلة عشرين عاما أو أكثر . ولـكنلماذا ؟ فها هي والدن نفسها ـ البحيرة المحوطة بالغابات التي استكشفتها من سـنين عديدةخلت .. فحينما قطعت منها غابه في الشـتاء الماضي نبتت أخرى على شاطئها بقوة ، كدأبهـاوديدنها . وها هي الفكرة ذاتها تبرز وتتجلى على صفحتها ـ تلك التي كانت في خاطـرهاولصانعها . نعم ! ولعلهـا مصدر سرور لي أنا كذلك . انها لا شك من صنع رجل مقـدام لايعرف غشا ولا خداعا . فقـد جعل هـذا الماء مستديرا بيده ، وعمقه وصفاه في فكره ،وذكره في وصيته على أن يكون من نصـيب كونكورد . واني لأقرأ في صـفحتها أنها قد خطر لها مثل هذا الخاطر بعينه ، وأكاد أقول : والدن ! أهذه أنت ؟

ليس حلما من أحلامي ،
أن أدبج سطرا ؟
فلست أستطيع أن أتقرب الى الله ولا الىالسماء ،
بأكثر من سكناي عند والدن .
فأنا شاطئها الصخري ،
وأنا نسيمها الذي يهب عليها ،
وفي راحة يدي
استقرت مياهها ورمالها ؟
وقد تبوأ أعمق موئل فيها
أسمى موضع بين أفكاري

ان عربات السكة الحديديه لا تقف أبدا لتنظر الى والدن ، ومع ذلك فاني أتخيـل المهندسين ورجال المطافيء و « الفرملجيــة »وأولئك الركاب الذين معهم تذاكر اشـتراك ، ويرونها مرارا ـ أتخيل أن هؤلاء كلهم سوفيصبحون بالنظر اليها رجالا خيرا مما كانوا . فالمهندس لاينسى ليلا ، أو أن طبيعته لا تنسى ،أنه قد شاهد هذا المنظر ـ منظر الصفاء والوقار مرة واحدة على الاقل في أثناء النهار . فرؤيتهامرة واحدة فحسب تساعد على محو ما قـد يخلفه « شارع الدوله » (ستيت[1]) ، وسناج القاطرة من آثار حتى أن بعضـهم اقترح أن تسمى « قطرة الله ».

(١) شارع في مدينة بسطن تكثر فيه المصارف ومحال رجال الاعمال .

ذكرت من قبل أن والدن لا مدخل لها ولا مخرج يرى ، ولكنها من جهة ، تتصل من بعد ، وبطريق غير مباشر ببحيرة « فلنت » التي هي أعلى منها ، بسلسلة من برك صغار تأتي من تلك الناحية • وتتصل ، من جهة أخرى ، اتصالا واضحا ، وبطريق مباشر بنهر كونكورد الذي يقل عنها ارتفاعا ، بوساطة سلسلة مشابهة من البرك ، وربما كان هذا النهر يمر بها في عصر جيولوجي سابق • فان حفرنا قليلا ـ لا قدر الله ـ استطعنا أن نجعله يمر بها من جديد • فان كانت البحيرة قد عاشت هذه المدة الطويلة وهي متحفظة هكذا، ومتقشفة تقشف الراهب وسط الغابات ،وحصلت على مثل هذا الصفاء العجيب ، فمن ذا الذي لا يأسف اذا ما اختلطت بها مياه بحيرة «فلنت» وهي مياه لا تعادلها صفاء ، أو اذا ما ذهبت حلاوتها ضياعا في مياه المحيط ؟

تعد بحيرة فلنت ، أو « ساندي بند » ، التي في لينكولن أعظم بحيراتنا ، وأكبر بحارنا الداخلية ؛ وتقع على بعد ميل شرقي والدن • وهي أكبر منها بكثير ، اذ يقال ان مساحتها مائة وسبعة وتسعون فدانا ، ذلك الى أنها أحفل منها بالسمك وأغنى ، وان كانت أضحل منها نسبيا ؛ وليست صافية صفاء والدن ، ذلك الصفاء الذي يسترعي الانظار • وكثيرا ما كانت رياضتي مقصورة على السير اليها على الاقدام ،فأجوس خلال الغابات • وهي رياضة خليق بك أن تقوم بها ، ان لم يكن ذلك الا لتشعر بالريح تهب في وجهك بحرية وانطلاق ، وترى الامواج تجري فتذكرك بحياة الملاحين •وحدث أني ذهبت اليها مرة في الخريف أجمع ثمار القسطل في الايام التي تشتد فيها الريح فتسقط تلك الثمار على الماء فتقذفها الامواج عند قدمي • وذات يوم بينما أنا أزحف على شاطئها المكسو بالعشب ، والرذاذ يلفح وجهي ، وصلت الى حطام سفينة معطنة زالت عنها جوانبها ولم يبق منها الا ما لا يزيد على قاعها الاول ، وسط الحشائش ، ومع ذلك فقد كان شكلها واضحا محددا كل التحديد كما لو كانت ورقة شجرة مائية كبيرة متعفنة ، عروقها واضحة جلية • فقد كان منظر هذه السفينة المحطمة مؤثرا بقدر ما تستطيع أن تتخيل تأثير حطام سفينة ملقى على شط البحر ، وان لها لمغزى طيبا مثلها • فهي ليست الآن سوى نبات متعفن ، امتزج بالتربة ، وجزء لا يتميز من شاطىء البركة في شيء ، فقد نمت من خلالها بعض النباتات المائية ، مثل الاسل والسوسن • وكنت أعجب بآثار المويجات على القاع الرملي ، عند الطرف الشمالي من هذه البحيرة ، بعد أن صيره ضغط الماء ثابتا صلبا ، اذا ما مسته أقدام الخائض في الماء • وكانت بعض الحشائش من الاسل والقصب التي نمت هنا على شكل «تابور» هندي تبدو صفوفا متعرجة تضاهي تلك الآثار والعلامات ، صفا بعد صف ، كأن الامواج هي التي غرستها • وكذلك وجدت فيها كريات

عجيبة بمقادير عظيمة يظهر أنهـا تكونت من حشائش رفيعة ومن جذور بعض النبـاتات ، يختلف قطرها من نصف بوصـة الى أربع بوصات ، وكانت مستديرة كاملة الاستدارة ، تتحرك ذهابا وجيئة فى المياه الضحلة على القاع الرملى • وفى بعض الاحيان ، كانت الامواج تقذف بها على الشاطىء • فهى اما حشـائش صلبة خالصة ، واما بها نواة من بضـع حبات من الرمل • وقد تتوهم لاول وهلة أنها تكونت من أثر فعل الامواج ، كما يتكون الحصى ، ومع ذلك فأصغر كرية فيها تتكون من مواد خشنة كذلك ، طول كل منها نصف بوصة ؟ ذلك الى أنها لا تتكون الا فى موسـم واحد معين فى السنة • وفضلا عن ذلك ، فالامواج كما يخيل الى ، لا تكون المواد ذات القوام المتماسك بقدر ما تحطمها ، أما هذه الكريات فتحتفظ بشكلها بعد جفافها مدة طويلة •

بحيرة فلنت ! هل بلغ بنا فقـر اللغة فى التسمية هذا الحد ؟ أى حق للفلاح الغبى القذر الذى تحف مزرعته « ماء السماء » هذا ، والذى عرى شواطىء البحيرة من الشجر فى غير رحمة ـ أى حق له فى أن يطلق اسمه على هذه البحيرة ؟ أنسميها باسم بخيل شحيح يفضل سطح الدولار البراق العاكس للضوء ، أو سطح السنت اللامع ، الذى يستطيع أن يرى فيه وجهه هو النحاسى الصفيق ـ ذلك الذى اعتبر حتى البط البرى الذى استقر فيها معتديا عليها ظالما لها ـ الـذى تحولت أصابعه الى مخالب قرنيـة معقوفة من طول ما اعتاد أن يمسك بها الاشياء ، كما تمسك النسور الضارية فرائسها ؟ لا ! ليست هـذه التسمية لى ! انهـا لا ترضينى ، ولا أنا أذهب الى البحيرة كى أرى هذا «الفلنت» أو أسـمع عنه شيئا ـ ذلك الرجـل الذى لم يرها قط ، ولم يحدث أن استحم فيها مرة ، ولم يشعر لها بحب مطلقا ، بل لم يحمها ولم يدافع عنها قط ، ولم يقل كلمة طيبة واحدة فيها ، ولم يشـكر الله الذى خلقها • فخير لها أن تسمى بأسماء الاسماك التى تسبح فى مياهها ، والحيوانات ذوات الاربع التى تألفها وتتردد عليها ، أو بأسـماء الازهار البرية التى تنمو على حفافيها ، أو باسم رجل أو طفل متوحش يمت تاريخه اليها بصلة وثيقة ـ لا باسم من لا يستطيع أن يدلل على أى حق له فيها الا بحجة سلمه اياها جار له يشبهه فى عقليته ، أو خوله اياها القضاء والقانون ـ ذلك الرجل الذى لم يفكر فى شىء سـوى قيمتها المالية ، والذى ربما كان وجوده نقمـة ولعنة حلت بالشاطىء كله ـ ذلك الذى أرهق الاراضى التى حولها وأنهكها ، ولم يمانع فى أن يستنفد المياه التى فيها ، ولم يأسف على شىء أسفه على أنها ليست مرعى للدريس الانجليزى فيستطيع أن يبيعه فى الاسواق ، ولا بطيخة من البطائح التى ينمو فيها بعض العليق ؟ فليس لها فى نظره أى حق يبرر وجودها ، ويود لو أنه صرف كل مياهها ، ثم يبيعها هى من أجـل ما فى قاعها من طين ومن غرين ، اذ هى لا تدير

طاحونا ، ولا هو يعد رؤيته اياها ميزة خاصة له • فأنا لا أحترم عمل هذا الرجل وكده ، ولا أحترم مزرعته تلك التي كل شيء فيها له ثمنه ـ ذلك الذي يود أن ينقل ما فيها من مناظر طبيعية الى السوق كي يبيعها فيها ان استطاع الى بيعها سبيلا ؟ ذلك الذي لا ينبت في مزرعته شيء حر ، والذي لا تحمل حقوله أية محصولات ، ولا تحمل مراعيه أي أزهار ، ولا أشجاره أي فاكهة ، وانما تحمل دولارات فحسب ؟ ذلك الذي لا يحب جمال فاكهته ، والتي لا تكون الفاكهة قد نضجت في نظره الا اذا ما تحولت الى دولارات • أعطني ذلك الفقر الذي يستمتع بالثروة الحقة • فما المزارعون بمحترمين في نظري ، ولا هم يهمونني الا بقدر ما هم عليه من فقر ـ أي الا من حيث هم مزارعون فقراء • أهذه ضيعة نموذجية! تلك التي يقوم فيها البيت مثل ما تقوم كمأة في كومة سماد قذر ؟ بها حجرات للناس ، ومرابط للخيل والثيران والخنازير ، بعضها قد ينظف وبعضها لا ينظف مطلقا ، وكلها متجاورة تقوم الواحدة الى جانب الاخرى ، تفهق بالناس وتزدحم بهم • انها لبقعة كبيرة من الشحم تفوح منها رائحة السماد واللبن الماضر ! أفي حالة عالية من الثقافة والحضارة ، تسمد الضيعة بقلوب الرجال وأمخاخهم ، كما لو كنت تزرع بطاطسك في ساحة كنيسة ؟ تلك هي الضيعة النموذجية اذن •

لا ! لا ! انا ان سمينا أجمل ملامح المناظر الطبيعية بأسماء الرجال ، فلتكن هذه أسماء أشرفهم وأفضلهم دون غيرهم • لتكن أسماء بحيراتنا أسماء حقيقية صادقة مثل بحر ايكاروس* على الاقل حيث لا يزال الشاطىء « يدوي بمحاولة جريئة » •

أما « جوس بند » فبحيرة قليلة الاتساع ، تقع على طريقي الى بركة فلنت • ويقال ان مساحة فيرهافن ، وهي امتداد لنهر كونكورد ، تبلغ نحو السبعين فدانا ، وتقع على بعد ميل الى الجنوب الغربي منها • وتبلغ مساحة « هوايت بند » الاربعين فدانا ، وتقع على بعد ميل ونصف ميل من بحيرة فيرهافن • تلك هي بلاد بحيراتي ، وهي مع نهر كونكورد ، ميزاتي المائية التي اختصصت بها • فهي تعمل ليل نهار ، وسنة بعد سنة في طحن ما أرسله اليها من ضروب الحب •

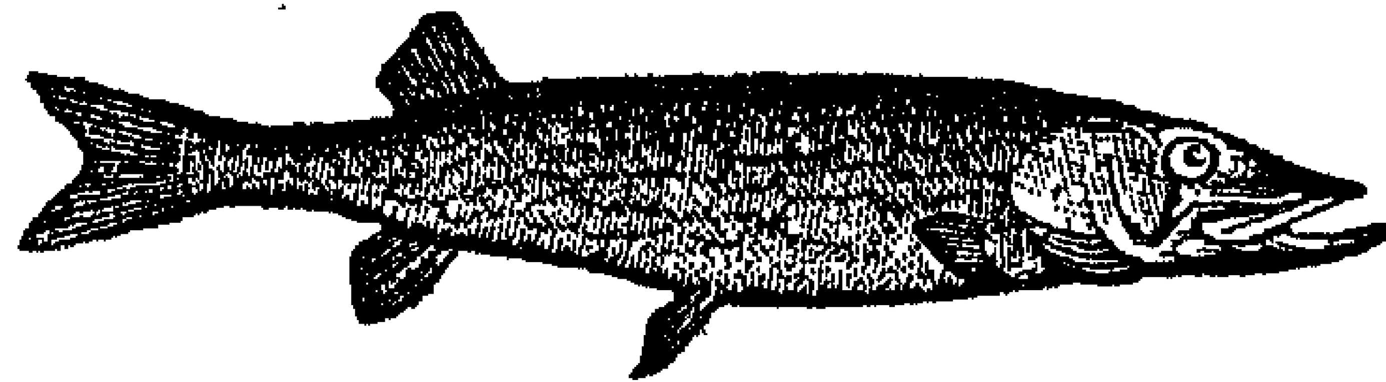
ومنذ انتهك الحطابون ، والسكة الحديد ، حرمة والدن ، ومنذ انتهكتها أنا نفسي كذلك ، كانت بركة هوايت أروع بحيراتنا ان لم تكن أجملها كلها • فهي درة الغابات ، وأن اسمها بسيط لكثرة ما ابتذلته شفاه الناس سواء اشتق من صفاء مياهها العجيب ، أو من لون رمالها • ومع ذلك فهي من هذه الوجوه ، ومن وجوه أخرى غيرها ، توأم لوالدن أصغر منها ، اذ بينهما من وجوه الشبه الشيء الكثير ، حتى لتقول أنهما لابد كانتا متصلتين بعضهما

ببعض بصلة ما تحت الارض ، فلها الشاطىءالصخرى ذاته ، ولمياهها اللون عينه . وهي مثل والدن ، تبدو في الجو القائظ ذات لونأزرق بنفسجى قاتم ، وذلك عندما تطل من خلال الغابات على بعض خلجانها القريبة الغور ، فما ينعكس عليها من القاع ، هو الذى يجعل لها هذ اللون . فمن سنين طويلة ، عندماكنت أذهب اليها أجمع الرمال بمقادير عظيمة كي أصنع « ورق الصنفرة » وأنا دائب الترددعليها . وقد اقترح أحد زوارها أن يطلق عليها اسم بحيرة (فيريد) . ولعل الاولى بنا أن نسميها بحق وصدق بحيرة « الصنوبر الاصفر » وذلك بسبب الظروف الآتية : فمنذخمس عشرة سنة كنت تستطيع أن ترى شجرة من أشجار الصنوبر الراتنجى الذى نسميه هنا« بالصنوبر الاصفر » ، وان لم يكن نوعا قائما بذاته ، بارزة من سطح الماء ، على بعد بضع عشرات من الياردات من الشاطىء . وقد ظن بعضهم أن البحيرة كانت قد غارت فيالارض ،وأن هذه الشجرة ليست سوى واحدة من الاشجار البدائية التى كانت قائمة فيها من قبل.هذا ، وقد وجدت أنها ، قد ذكرت من زمن طويل أى من سنة ١٧٩٢ ، فى « وصفطوبوغرافى لمدينة كنكورد » بقلم مواطن من مواطنيها ، ضمن مجموعة « جمعيةمساتشوستس التاريخية » . فيقول المؤلف بعد كلامه عن بحيرتى والدن وهوايت : « عندماكان الماء منخفضا رأيت وسط الثانية منهما شجرة تبدو لك كأنها قد نمت حيث هى ، وان كانت جذورها على بعد خمسين قدما من سطح الماء.وقمة هذه الشجرة مقطوعة ، ويبلغ قطرهاحيث هى أربعا وعشرين بوصة » . وقد تحدثت في ربيع سنة ١٨٤٩ الى رجل يعيش فى بلدة صدبرى* - وهى أقرب مكان الى البحيرة - فقال انه هو الذى استخرج هذه الشجرة من البحيرة منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة ، وبحسب مايستطيع أن يتذكر كانت على بعد ستين أو خمس وسبعين قدما من الشاطىء حيث كان عمق الماء ثلاثين قدما أو أربعين ،وكان ذلك فى الشتاء ، وهو يعمل فياستخراج الجليد قبل الظهر . فعزم علىأن يخرج الشجرة فى المساء - تلك الشجرة العجوز الصفراء ، بمساعدة جيرانه . فشق فيالجليد قناة تتجه نحوالشاطىء ، ثم أتى بالثيران وسحب الشجرة على الجليد بطول تلك القناة . وقبل أن يقطع شوطا طويلا فى هذا العمل أدهشه أن يرى أن الشجرة كانت مقلوبة رأسا على عقب ، فأصول الفروع كانت متجهة الى أسفل ، وكان طرفها الرفيع مغروزا ثابتا فى قاع البحيرة الرملى ،وكان قطرها عند طرفها الضخم قدما واحدا . وقد توقع محدثى أن يحصل منها على كتلةخشب كبيرة تصلح للنشر ألواحا ، ولكنه وجدها مشبعة بالماء ، فلا تصلح الا للوقود ان كان ذلك ميسورا . وكان لايزال بعضها عنده فى حظيرته فى ذلك الوقت. وفى ساقها علامات بادية من آثار بلطة ، ومن آثار نقر طائر

القراع* • وقال محدثى ، ان الرياح لابد أن تكون قد ألقتها آخر الامر فى البركة ، فبعد أن تشبعت أطرافها العليا بالمياه ، وظلت أسافلها جافة خفيفة ، انساقت صبوب البحيرة ، ثم سقطت فيها رأسا على عقب • هذا وكان أبوه ـ وهو شيخ فى الثمانين من عمره ـ لا يستطيع أن يتذكر الوقت الذى لم تكن فيه الشجرة موجودة فى القاع • ولا تزال عدة كتل من الخشب ترى راقدة فى قاع البحيرة ، وتبدو للرائى كأنها حيات كبار ميتة ، من أثر تموج سطح المياه •

ومن النادر أن يكون ثم قارب قد دنس البحيرة ، فليس فيها ما يغرى الصيادين سوى القليل • فبدلا من السوسن الابيض الذى يقتضى نموه طميا كثيرا ، أو بدلا من « ألوج » فان « الايرس » الازرق Iris versicolor ينمو هنا فى الماء الصافى مخففا غير متكاثف ، فيرتفع من القاع الحجرى ، حول الشاطىء كله حيث تزوره العصافير الطنانة صيفا فى شهر يونيه • فلون أوراقه الخنجرية المائل الى الزرقة ، أو لون أزهاره ، ولا سيما انعكاساتها ، تنسجم كلها آنق انسجام وأعجبه مع لون الماء اللازوردى المشوب بالصفرة •

إن بركتى هوايت ووالدن بلورتان عظيمتان على سطح الارض ، هما بحيرتان من نور ، فلو أنهما خثرتا وتجمدتا تجمدا كاملا ، ولو كانتا صغيرتين يتيسر تناولهما باليدين لتوهمهما العبيد حجرين كبيرين ولاختطفوهما لتزدان بهما رؤوس الاباطرة ، ولكن اذ كانتا مائعتين وواسعتين ومصونتين لنا ولذرارينا الى الابد فقد أهملنا شأنهما ، ولم نحفل بهما ، وصرنا نسعى وراء ماسة كوه النور* ، انهما لأنقى من أن يقدرا بثمن فى السوق ، فليس بهما أية شائبة تشوبهما ، فهما أجمل من حياتنا وأشف من أخلاقنا ، فما عرفنا عنهما دنية أو نقصا قط• فهما يبزان جمال البركة التى أمام بيت ذلك الفلاح التى يسبح فيها بطه • أما هما فيجىء اليهما البط البرى النظيف • فليس فى الطبيعة كلها ساكن من البشر يستطيع أن يقدرهما حق قدرهما ، فالطيور بريشها وأنغامها تنسجم هنا مع الازهار ، ولكن أى فتى ، أو أية فتاة يأتلف مع جمال الطبيعة ذلك الجمال البرىء الاخاذ ؟ • إنها لتزدهر أكثر ما تزدهر وهى وحدها منفردة بنفسها بعيدا عن البلدان التى يقطنها هؤلاء • قولوا يا قوم ما شئتم عن السماء فانكم انما تهينون الارض !





مزرعة بيكر

وكنت أصل في تجولى الى أجمات الصنوبر أحيانا ، وهي أجمات تقوم أشجارها منتصبة كأنها المعابد أو الاساطيل في البحـــر ، كاملة العدة بما تتمايل به من أغصان وفروع ، وتتألق بما عليها من الضوء ، فهي غضة خضراء وارفة الظلال يفضل نساك الدرود أن يهجروا أشجار بلوطهم ـ التي يعبدون فيها آلهتهم ـ ويأتوا هنا ليتعبدوا في هذه الاشجار . وكنت أمضى أحيانا أخرى الى الغابة التي تقع خلف بركة فلنت فأجد الاشجار قد اكتست بثمار العليق الازرق المشوبة بالبياض ، وقد سمقت أشجارها وطالت حتى صارت جديرة بالوقوف أمام قالهالا* . كذلك كنت أمضى الى حيث أرى شجيرات العرعر الزاحفة تغطى الارض بتيجان حافلة بالثمار ، أو الى المستنقعات حيث تتدلى جبال الحزاز من أشجار التنـــوب الفضية على هيئة أقواس النصر المعهودة ، وحيث الكمأة ، تلك الموائد المستديرة التي تجلس اليها آلهة المناقع ، كانت تغطى الارض وتملأها ، وحيث تجـد أنواعا أخرى من الفطر أجمل من هذه وأروع ، تزين أعجاز الشجر كأنها الفراش المنتشر ، أو كأنها أصداف ومحارات نباتية ـ وحيث ينمو قرنفل المستنقعات ، والقرنوس* وتتألق ثمار الحور الحمراء فتبدو كأنها عيون الشياطين ، أو حيث يؤثر الصـــمغ المفرز فيخدد أصلب الاخشاب ، ويسحقها في مطاويه . وان ما في ثمار شرابة الراعي البرية* من جمال لينسي الناظر اليها وطنه . وهناك ثمار أخرى برية لا أسماء لها تبهر من يراها وتستهويه اذ هي أجمل من أن يتذوقها انسان من البشر . وبدلا من أن ألجأ الى أحد علماء النبات أسأله عنهـا جعلت أكثر من زيارة أشجار معينة نادرة كل الندرة في هذه النواحي على مسافات بعيدة من هنا ، منعزلة وسط مرعى ، أو في أعماق غابة ، في مستنقع ما ، أو ذروة تل من التلول ، مثل شجرة البتولا السوداء التي عندنا منها بضعة نماذج رائعة يبلغ قطرها القدمين ، ومثل ابنة عمهـا شجرة البتولا الصفراء وهي عطرية مثلها ولها حلة ذهبية فضفاضة ، ومثل الزان ذي السـاق الرائع المنتظم المطلى بلون الحزاز طلاء جميـلا

والكامل فى جميع تفاصيله • ولست أعرف من نوعه سوى أجمة صغيرة أشجارها متوسطة الحجم ، هي كل ما بقى منه فى نطاق المدينة ،اللهم الا بضعة أشجار أخرى مبعثرة هنا وهناك • هذا ، وقد خيل لبعض الناس أن أشجار هذه الاجمة قد زرعتها الحمائم التى كانت تطعم من ثمار شجر الزان القريب • وانه ليسرك أن ترى شعيرات هذا الخشب الفضية وآنت تشقه، وثم أشجار أخرى غير ما ذكرت مثل الزيزفون والكاربينوس والدردار الكاذب الذى لا يوجد عندنا منه سوى شجرة واحدة مكتملة النمو •وثم أشجار أخرى أعلى منها مثل شجرة صنوبر أو شجرة جوز أمريكى كاملة كمالاغير عادى ترتفع عالية كأنها معبد هندى قديم ، وسط الغابات•ذلك الى كثير غيرها من الاشجار التى أستطيع أن أسرد عليك أسماءها ان شئت• تلك هي المعابد والاضرحة التى كنت أترددعليها لزيارتها فى الصيف وفى الشتاء •

وحدث أني وقفت مرة فى وسط قوس قزح ملأت الطبقة الدنيا كلها من الجو وصبغت الكلأ وأوراق الشجر التى حولها بشتى الالوان ، فبهرنى الامر وسرنى أيما سرور ، وخلت أنى أنظر من خلال بلورات ملونة ، أو انى كنت فى بحيرة من أضواء قوس قزح • فلو أن القوس دامت أطول ممادامت لصبغت أفعالى وحياتى كلها ولونتها • وكلما سرت على جسر السكة الحديدية كنت أعجب من مرأى طفاوة من نور تحيط بظلى ، فخلت نفسى واحدا من صفوة الناس أولى الحظ • وقال لى أحد الذين يترددون على أن ظلال بعض الايرلنديين الذين قبله لم تكن ترى حولها طفاوة ما • فالأهالى من الامريكيين وحدهم هم الذين كانوا يمتازون بها • قال بنفنوتو تشلليني* فى مذكراته ، انه بعد حلم مريع ، أو رؤيا ارتآها فى نومه ، عندما كان معتقلا فى حصن سانت انجيلو ، ظهر ضوء باهر متألق أحاط بظل رأسه فى الصباح وفى المساء ، وسواء كان فى ايطاليا أو فى فرنسا • وكان هذا الضوء يبدو جليا بشكل خاص اذا ماتبلل الكلأ بالندى • فلعل هذه الظاهرة هي نفسها التى أشرت اليها من قبل ، والتى ترى فى الصباح خاصة ، وان كانت ترى أحيانا فى أوقات غير الصباح ، وتظهر كذلك حتى فى ضوء القمر • ومع أنها ظاهرة كثيرة الحدوث ، فيندر أن يلاحظها أحد • وقد تتخذ أساسا لكثير من الخرافات والاساطير ، ولا سيما فى حالة خيال حاد متهيج مثل خيال تشلليني هذا وبخاصة أنه يقول لنا انه لم يطلع عليها سوى عدد قليل من الناس • ولكن ، أليسوا بممتازين حقا أولئك الذين يدركون ان الناس لا ينظرون اليهم بشكل ما ؟

خرجت مساء يوم من الايام قاصدا صيد السمك فى بركة فيرهافن ، مخترقا الغابات كى أحصل بكدى على الكفاف من الخضر ؟ وكان طريقى خلال «فيزانت ميدو» وهو مرعى

ملحق بضيعة بيكر ، وملاذ رائع تغنى به الشاعر فى قصيدة [1] مطلعها :

مدخلك حقل رائع يسر الناظرين ،
تنبت فيه بعض أشجار الفاكهة الغضة .
وعن طريق جزء من مجرى أسمر الصفحة ،
حاول فأر من فئران المسك أن ينزلق ليصل اليها
وبالمجرى نوع زئبقى من «أسماك سليمان» .
يندفع فيه كالسهم متجها هذا الاتجاه أو ذاك

فقبل أن أذهب الى والدن ، خطر لى أن أتخذ هنا سكنى ، فاستنزلت التفاح وقفزت من على المجرى ، وأزعجت فئران المسك ، وسمك سليمان . كان ذلك فى مساء يوم من تلك الايام التى تبدو للمرء طويلة طولا لا آخر له ، والتى قد تحدث فيها أحداث عدة . ولا يخفى أن هذا اليوم جزء كبير من حياتنا الطبيعية ، وان كان نصفه قد فات قبل أن أبدأ رحلتى . واذ أمطرت السماء وأنا فى طريقى فقد لجأت الى شجرة صنوبر حجزنى المطر عندها نصف ساعة ، فطفقت أجمع أغصانها فوقى بعد أن وضعت منديلا على رأسى كظلة أحتمى بها من الماء . وفى النهاية ، وبعد أن ألقيت نظرة على الاعشاب المائية ، وأنا واقف حتى وسطى فى الماء ، وجدت نفسى فى ظل غمامة ، وأخذ الرعد يقصف قصفا متتاليا لم يسعنى معه الا أن أصيخ اليه ، وخطر لى أن الآلهة لا بد أن تكون فخورة بمثل هذه الومضات الشائكة تستخدمها للتغلب على سماك أعزل مسكين ؟ فأسرعت الى أقرب خص وكان على بعد نصف ميل من طريقى ، لأعتصم به من الماء ، ولكنه قريب مثل هذا القدر من البركة . وكان خصا خاليا من السكان من مدة طويلة .

« هنا ابتنى شاعر خصا ،
فى السنوات الاخيرة ،
فانظر هناك خصا وضيعا
يسعى الى التداعى والدمار [2] .

وهكذا تخيلت عروس الشعر وقالت ، الا أنى وجدت الخص الآن مأهولا . فقد سكنه (جون فيلد) وهو رجل ايرلندى له زوجة وعدة أطفال ، منهم ذلك الصبى العريض الوجه الذى يعاون أباه فى شغله ، وها هو يعود من المستنقع مسرعا هربا من المطر ليكون الى جانب

---

(١) للشاعر الأمريكى وليم الرى تشاننج صديق المؤلف (المترجم)
(٢) من قصيدة للشاعر الامريكى وليم الرى تشاننج صديق المؤلف (المترجم)

أبيه ؛ ومنهم ذلك الطفل المتجعد الوجه الذى يشبه «سبيل*» ذا الرأس المخروطى الشكل • وكان يجلس فى حجر أبيه كما تجلس الاطفال الذين فى قصور النبلاء • ففى وسط المطر والجوع جعل يطل من بيته هذا ، بشكل فضولى ، على ذلك الغريب بما للطفل من حق وميراث ، من غير أن يدرى أنه آخر سلالة من السلالات الشريفة ، وأنه أمل العالم ومعقد أنظاره وليس طفل جون فيلد الجائع المسكين • وهنا جلسنا معا تحت ذلك الجزء من السقف الذى كان أقل الاجزاء نضحا ، فقد كانت السماء تمطر وترعد خارج البيت • هذا ، وقد سبق لى أن جلست هنا مرات عدة فى الزمن الماضى ، قبل ان تبنى السفينة التى أقلت هذه الاسرة الى أمريكا • كان جون فيلد رجلا أمينا دؤوبا كادحا ، الا أنه كان ضعيفا قليل الحيلة ، وكانت امرأته جريئة شجاعة فى أن تطهو له الغداء المرة بعد المرة فى ذلك الموقد العالى ، وكان وجهها مستديرا مليئا بالشحم ، وصدرها عاريا سافرا ؛ وكانت لاتزال تفكر فى تحسين أحوالها والنهوض بشئونها يوما ما ، فكانت المكنسة فى يدها لا تفارقها أبدا وان لم يظهر أى أثر لعمل هذه المكنسة فى أى مكان • وكانت الدجاجات قد لجأت هى الاخرى الى هذا المكان الذى نحن فيه هربا من المطر وجعلت تسير فى الحجرة كأنها من أعضاء الاسرة فعلا ، حتى أصبحت لها بذلك صفة انسانية تجعلها غير صالحة للشى فى نظرى ؛ فكانت تقف وتنظر الى وجهى ، أو كانت تنقر حذائى بشكل له دلالته • وفى أثناء ذلك كان مضيفى يقص على قصته فيقول انه كان يعمل كادحا عند مزارع مجاور يقلب أرض المرعى بمعول أو بمقحاة خاصة للعمل فى الاراضى السبخة نظير أجر قدره عشر دولارات لكل فدان ، فضلا عن حقه فى الارتفاق بالارض مع السماد لمدة سنة واحدة • وكان ابنه الصغير ذو الوجه العريض يعمل مبتهجا الى جانب والده طيلة الوقت كله من غير أن يدرك ضآلة الصفقة التى عقدها ذلك الوالد ؛ فحاولت أن أعاونه بشىء من خبرتى وقلت له انه واحد من أقرب جيرانى الى ، وانى ماجئت هنا الا سعيا وراء رزقى مثله ، وان كنت أصيد السمك ، وأبدو فى شكل آفاقى صعلوك • وذكرت له انى أسكن بيتا خفيفا محكما نظيفا لم يكلفنى أكثر من الكراء السنوى الذى يدفع عادة فى مثل خربته التى يسكنها هو ، وشرحت له الطريقة التى يستطيع بها أن يبنى لنفسه قصرا ، ان شاء ، فى مدى شهر أو شهرين ، كما قلت له انى لا أتناول الشاى ولا القهوة ، ولا الزبد ولا اللبن ، ولا حتى اللحم الطازج ، ومن ثم لم أكن بحاجة أن أشتغل كى أتمكن من الحصول على هذه الاشياء ، هذا ، واذ لم أكن اشتغل بكدح وجد فلم أك بحاجة الى أن آكل كثيرا ، فطعامى لا يكلفنى سوى مبلغ تافه ؛ ولكن لما كان هو قد بدأ بالقهوة والشاى والزبد واللبن ولحم البقر فقد تحتم عليه أن يعمل بجد ونشاط كى يحصل على النقود اللازمة لشرائها • واذ كان يكدح ويعمل بنشاط وجد ، كان لا بد له من

أن يأكل كثيرا ليعوض ما فقده من جسمه ،وهكذا كان جسمه هذا عريضا بقدر ما هو طويل • والحق أن عرضه هذا أكبر من طوله ،لانه لم يكن قانعا ولا راضيا بما هو فيه • وفضلا عن ذلك فقد أضاع حياته سدى • وكان يحسب أن مجيئه الى أمريكا مكسب له ؟ ففيها يستطيع المرء أن يحصل على الشاى والبن واللحم فى كل يوم • ولكن أمريكا الحقيقية الوحيدة هى حيث يكون المرء حرا كل الحرية يزاول طريقة الحياة التى تيسر له أن يستغنى عن هذه الاشياء كلها ، وحيث لا تحاول الدولة أن تجبرك على استعباد الرقيق والعبيد وتضطرك الى الحرب وغير ذلك مما يستدعى نفقات كثيرة لا لزوم لها ، وينشأ مباشرة أو بالواسطة من استخدام مثل هذه الاشياء • لقد تحدثت اليه قصدا ، كما لو كان فيلسوفا أو يرغب فى أن يكون فيلسوفا ، وانى ليسعدنى لو كانت جميع المراعى التى فى العالم قد تركت على حالتها البرية الطبيعية ان كان ذلك نتيجة بداية عمل الناس على استصلاح أنفسهم • ليس المرء بحاجة الى دراسة التاريخ ليعرف ماهو خير لثقافته • ولكن وا أسفاه ! ان ثقافة الرجل الايرلندى مغامرة يزاولها بما يشبه مقحاة أخلاقية مما يستعمل فى المناقع والمستنقعات • وأخبرته كذلك أنه لما كان يكدح ويكد فى العمل فى المناقع بمثل هذه القوة كان بحاجة الى اتخاذ أحذية سميكة طويلة الساق ، وملابس متينة ، ولكن سرعان ما تبلى هذه وتتسخ على الرغم من متانتها • على حين أنى لا آلبس غير أحذية خفيفة ، وأرتدى ملابس خفيفة لا تكلفنى أكثر من نصف ما تكلفه ملابسه وأحذيته وان كان يظن أنى أتزيا بزى السراة الوجهاء (وذلك بعيد عن الحقيقة والواقع) وانى أستطيع فى ساعة أو اثنتين من غير حاجة الى القيام بشغل ما، ولكن على سبيل التسلية والاستجمام ـ أستطيع أن أصيد من السمك مايكفينى يومين ، أو أربح من المال ما يكفينى لاعالتى اسبوعا كاملا • فلو أنه وأسرته عاشوا عيشة بسيطة لاستطاعوا أن يذهبوا كلهم يجمعون ثمار العليق الامريكى فى الصيف ليكون لهم من وراء ذلك المسرة والاستجمام • فتنهد جون فيلد ، وحملقت زوجه ، ويداها فى خاصرتيها ، وجعلا كلاهما يتساءلان ان كان عندهما من رأس المال ما يكفيهما لتنفيذ هذه الخطة ، أو كان عندهما من المقدرة الحسابية ما يعينهما على ذلك • لقد بدا لهما هذا الامر ارتجاليا ، ولم يعرفا بوضوح كيف يمكنهم ان يصلا الى مرفأ السلامة بمثل هذه الطريقة ، ولذا فأغلب الظن أنهما سيظلان يسيران فى الحياه بشجاعة بشكل ما ، على طريقتهما الخاصة فيقابلان الحياة وجها لوجه ويكافحان فيها بالمخلب والناب ، اذ ليس لديهما من المهارة وسعة الحيلة ما يجعلهما يشقان أعمدتها الضخام بأن يدخلا فيها اسفينا رفيعا ، ويتغلبان على مافيها من عقبات ، تفصيلا وجزءا جزءا •

كانا يظنان أن فى استطاعتهما أن يعالجا شئون هذه الدنيا بشكل اجمالى خشن بمثل

الطريقة التى يتناول بها المرء حسكة ما ، ولكنهما كانا يكافحان ضد عقبات كأداء لا قبل لهما بها • انهما كانا يكافحان ضدالحياة ذاتها • وكان جون‌فيلد يحيا مع الاسف بدون « حساب » ويفشل هذا الفشل الذريع •

وحدث أن سألته مرة : «ألا تصيدالسمك أبدا ؟ » قال : « نعم أصيد طائفة منه أحيانا عندما أكون خاليا من العمل ، فأصيد أسماكا طيبة من نوع الفرخ » • ولما سألته عن الطعم الذى يستخدمه فى صيد الفرخ هذا ، قال : أصيد أولا « النتروبيس » بواسطة الديدان ، ثم استخدم ما اصطاده منها فى صيدالفرخ ، وعندئذ قالت له زوجته : « خير لك أن تقوم الآن يا جون » • ثم أشرق وجهها وبدت عليها علائم الامل وأمارات الرجاء ، ولكن جون اعترض عليها •

انتهى المطر وطلعت قوس قزح على الغابات الشرقية تبشر بمساء صحو جميل ، فاستأذنت وخرجت • ولما صرت خارج الدار طلبت وعاء راجيا أن أرى قاع البئر ، لاستكمل بحوثى التى أقوم بها عن المكان وما يحيط به ؛ولكن مع الاسف ، كانت فيه هناك أجزاء ضحلة ، ورمال منهالة ، وحبل مقطوع وجردل لا سبيل الى انقاذه • وفى أثناء ذلك تم اختيار الوعاء المطلوب • وكان الماء يبدو مقطرا صافيا • وبعد التشاور ، وبعد تأخر طويل ، قدم الوعاء الى من كان عطشان ، ولم يكن قد ترك حتى يبرد ويستقر ، فعن لى أن مثل هذه «العصيدة» لابد تقيم الأود هنا ، وتحفظ على الناس حياتهم ،(فتوكلت على الله) وأطبقت عينى ، واستبعدت ما فى الماء من قذى وغبار بوساطة تيار سفلى استحدثته فيها ووجهته بمهارة ، ثم شربت (نخب القرى الكريم الخالص) ، أشهى جرعة أستطيع أن أشربها ، فلست بالمتأنق المتزمت فى مثل هذه الاحوال من حيث مراعاة آداب اللياقة وحسن السلوك المألوفة •

وبينما أنا أغادر منزل ذلك الرجل الايرلندى عقب انقطاع المطر ، ووليت وجهى من جديد شطر البركة ، مرت بى لحظة بدا لى فيها أن اسراعى الى صيد سمك الكراكى ، والخوض فى البطائح المنعزلة ، وفى المناقع والاوحال ، والمواضع المهجورة الموحشة ــ هذه كلها أمور تافهة فى نظرى ــ أنا ذلك الذى تعلمت فى المدارس وفى الكلية • وعندما أخذت أصوب منحدرا فى التل ، متجها نحو الغرب وقد أخذ يصطبغ بالاحمرار ، وقوس قزح على كتفى ، وقد حمل الهواء النقى الى سمعى أصواتا خافتة ، لا أدرى من أى موضع جاء بها ، هبت نفسى الطيبة تقول لى : امض وصد السمك والحيوان فى طول البلاد وعرضها ، يوما تلو يوم ، وأبعد ما استطعت أن تبعد ، واسترح عند مجارى المياه الكثيرة ، وفى كثير من البيوت،

من غير أن يساورك أى ضيق أو حرج ، فاذكر خالقك فى أيام شبابك وفتوتك[1] ، وانهض من نومك قبل انبثاق الفجر ، خلوا من كل شجى وهم ، واسع وراء المغامرات ، وليجدك الظهر عند بحيرات جديدة ، وليلاحقك الليل فى كل مكان وأنت عائد الى بيتك ، فليس ثمة حقول أوسع من هذه ، ولا أنواع من اللعب أروع ولا أفضل مما يمكن أن تقوم به هنا . كن برياً متوحشا بحسب ما توحيه اليك طبيعتك ، مثل نبات السعد هذا ، ومثل تلك الادغال والاحراش التى لن تكون فى يوم من الايام دريسا انجليزيا . فدع الرعد يقصف ويهزم ، وما عليك ان هدد محصول الفلاح بالتلف والدمار ؟ فليست هذه وظيفة الرعد بالنسبة اليك ، فالجأ أنت الى ظل سحابة تحتمى بها ، ودع الناس يهربون الى العربات والحظائر . لا تجعل حرفتك الحصول على رزقك وطعمتك، بل اجعل هذا مسلاتك ولعبك : استمتع بالارض ما شئت ، ولكن لا تمتلك منها شيئا ، فما زال الناس من جراء احجامهم عن المغامرة ، وبعدهم عن الايمان ، حيث هم ، يشترون ويبيعون ويقضون حياتهم كما يقضى عبيد الارض حياتهم .

يا ضيعة بيكر !
« منظر طبيعى رائع ، أغنى عنصر فيه
قليل من ضوء الشمس البرىء الطاهر ...
« ليس ثمة أحد يهرع اليك ليقصف ويمرح ،
عند مرجك المحوط بأسيجة من الاخشاب ....
أنت لا تتناقشين مع أحد ،
ولا تحيرك المسائل وتقلقك المشكلات .
أنت هادئة عند أول مرآك ، هدوءك الآن ،
وعليك حلتك الجابردينية السمراء
تعالوا يا من تحبون ،
وأنتم يا من تكرهون ،
يا أطفال اليمامة المقدسة
وجاى فوكس* رجل الحكومة
واشنقوا المتآمرين
على فروع الشجر القوية الخشنة (١)

(١ جامعة الاصحاح ١٢/١ .
(٢) من قصيدة للشاعر وليم الرى تشاننج (١٥٧٠ - ١٦٠٦) صديق المؤلف (المترجم)

يعود الناس الى بيوتهم فى هدوء ودعة راجعين من الحقل القريب أو الشارع المجاور الى حيث أهليهم وذويهم ، وحيث تشقى حياتهم وتضمحل من جراء ما تتنفسه دائما من أنفاسها هى ، من جديد ، وتصل ظلالهم فى الصباح وفى المساء الى مدى أطول مما تصل اليه خطواتهم اليومية • انا يجب أن نعود كل يوم الى بيوتنا من مسافات بعيدة ، من المغامرات ، والمخاطرات والاستكشافات التى نضطلع بها ، فنعود اليها بخبرة جديدة وبخلق جديد •

وقبل أن أصل الى البركة قامت حوافز أخرى فى نفس جون فيلد جعلته يغير رأيه ، ويعزم على ترك عمله فى المناقع ، قبل أن تغرب شمس هذا اليوم • على أن هذا الرجل المسكين لم يكن موفقا فى الصيد ، فلم يصطد غير سمكتين اثنتين على حين اصطدت أنا « طائفة » صالحة • فقال ان هذا هو حظه المقسوم له ، فتبادلنا مقاعدنا فى السفينة ، ولكن الحظ غير كذلك مقعده مثلنا • مسكين جون فيلد هذا ! انى لأرجو ألا يطلع على هذه العبارة الا اذا كان سيفيد منها وتصلح بها أحواله • لقد تخيل أنه يستطيع أن يعيش فى هذه البلاد البدائية الجديدة بطريقة بدائية عنيفة ، فيصيد الفرخ بطعم من « التروبيس » • لا شك فى أنه طعم صالح فى بعض الاحوال ، ولا يسعنى الا أن أسلم له بذلك ، ولكنه على الرغم من أن أفقه كله ملك له فهو لايزال رجلا فقيرا ، ولد لان يكون فقيرا ، فقد ورث فقره الايرلندى أو ورث الحياة الايرلندية الفقيرة ، وطرق الحياة التى كان يعيش عليها أجداده الاولون ، وكتب عليه ألا يسمو فى هذه الدنيا ، لا هو ولا أحد من ذريته الا بعد أن تتزود أقدامهم المكفنة التى دأبت على الخوض فى المستنقعات ، بالتالاريا* •





قوانين سامية

بينما أنا عائد الى بيتي في ليلة ظلماء ، مخترقا الغابات ، وساحبا قصبة الصيد خلفي ، وفي يدي « طائفة » السمك الذي صدته ـ اذا بي ألمح « مرموطا » يتسلل عبر طريقي ، فعرتني هزة فرح متوحش عارم ، وأحسست بميل قوي في نفسي ، يغريني بأن أنقض عليه وألتهمه نيئا . وما كان ذلك عن جوع ، وانما عن شعور بميل دفعني اليه ذلك التوحش الذي يتمثل في هذا الحيوان . ومع ذلك ، حدث مرة أو مرتين، وأنا عند البركة ، أن وجدتني أهيم على وجهي في الغابات ، كما يهيم الكلب الجائع ، وقد أسلمت نفسي لسجيتها بشكل غريب ، وجعلت أبحث عن شيء من لحم صيد لألتهمه التهاما ؛ فلم يكن ثمة طعام ما ، كائنا ما كان ، يمكن أن يعد متوحشا في نظري وقتئذ . فقد وجدت في نفسي ، ومازلت أجد ، غريزة تحفزني الى حياة أسمى ، أو كما يسمونها حياة روحية ، كالتي يجدها أكثر الناس في نفوسهم . وكذلك وجدت غريزة أخرى تدفعني الى حياة بدائية خشنة متوحشة . وكلتا الغريزتين موضع اجلالي ، فأحب المتوحش الضاري حبا لا يقل عن حبي للخير الصالح . فما في صيد السمك من ناحية وحشية ، وما فيه من مغامرة ، لا تزالان تحببانه الي . وكانت تمر بي أوقات وددت فيها لو أن لي سيطرة واسعة عنيفة على الحياة ، فأقضي أيامي بالشكل الذي تقضي به الحيوانات أيامها . ولعل فيما نلتة من خبرة بالطبيعة وثقة بها منذ نعومة أظفاري ، يرجع الى مثل هذا الميل العارم ، كما يرجع الى غرامي بالصيد . فهذان الامران يعرفاننا منذ الصغر بمناظر الطبيعة ويستبقياننا فيها ، وهي مناظر ما كنا لنعرف عنها الا القليل ونحن في تلك السن الغضة . فالسماكون ، والصيادون ، والحطابون وغيرهم ممن يقضون أوقاتهم بين الحقول والغابات هم بمعنى خاص ، أجزاء من الطبيعة نفسها ، وكثيرا مايكونون في وضع

نفساني ييسر لهم أكثر من غيرهم أن يلاحظوهافي فترات قيامهم بأعمالهم وأكثر مما يستطيع أن يلاحظها الفلاسفة أو حتى الفراء أنفسهم الذين يتصلون بها آملين أن يحصلوا منها على الكثير . هذا ، وهي لا تخشى أن تعرض نفسها عليهم . فالسائح في البراري صياد بطبعه ، وهو عند منابع الميزوري* ، وكولومبيا* ، صياد للحيوانات ذات الفراء ، وصياد سمك عند مساقط مياه سنت ماري* . أما من لم يكن سوى سائح فحسب ، فلن يعرف الاشياء الا بطريقة غير مباشرة ، ويعرفها معرفة جزئية ناقصة ، ولن يكون سوى حجة ضعيفة فيها . ويبلغ اهتمامنا ذروته ، عندما يصف لنا أهل العلم ماسبق أن عرفه هؤلاء الرجال عمليا ، أو أدركوه بفطرتهم . فهذا وحده هو « الانسانية » الحقة ، أي هو وصف حق لخبرة بني الانسان .

يخطيء الذين يؤكدون أن الامريكي لا يملك سوى القليل من وسائل التسلية ، لانه ليس لديه عطلات عامة كثيرة ، ولان الرجال والصبيان لا يقومون بألعاب كثيرة من تلك الانواع التي يقوم بها أمثالهم في بلاد الانجليز . فوسائل التسلية البدائية ، الفردية ، كصيد الحيوان ، وصيد السمك وغيرهما ، لم يستبدل بها غيرها بعد من أمثال الوسائل الاولى . ويكاد كل ولد من معاصري في نيو انجلند يحمل على عاتقه بندقية صيد وهو بين العاشرة والرابعة عشرة من عمره . وليست المواضع التي ننتجعها للصيد بمحدودة ولا معينة مثل مناطق الصيد الخاصة التي يتصيد فيها الشريف الانجليزي ، بل هي أوسع من الاراضي التي يصطاد فيها المتوحشون أنفسهم . فلا غرو ان كان الامريكي لا يكثر من البقاء في الميادين العامة ليلعب فيها أكثر مما يفعل . على أن ثمة تغييرا أخذ يطرأ عليه ، من جراء قلة الحيوانات التي تصطاد ، لا من جراء تزايد الانسانية والشفقة فيه عليها ، فربما كان الصياد خير صديق للحيوانات التي يسعى وراءها ليصطادها ، وذلك من غير استثناء جمعية الرفق بالحيوان نفسها .

وزيادة على ذلك فقد كنت ، وأنا عند البركة ، أميل أحيانا الى اضافة السمك الى قائمة طعامي من قبيل التغيير ، فقد صدته فعلا بدافع من تلك الضرورة التي كانت تدفع صيادي السمك الاولين الى صيده . وأيا كانت تلك «الانسانية » التي أدعو اليها ، وأتخذ منها حجة على صيد السمك ، فانها لم تكن في الحق الا تكلفا ، وصادرة عن فلسفتي أكثر من صدورها عن شعوري ووجداني . ولست أتكلم هنا الا عن صيد السمك فحسب . أما من حيث صيد الطيور فقد ظللت مدة طويلة أشعر بما يخالف ذلك كل المخالفة ، حتى اني بعت بندقيتي قبل أن أمضي الى الغابات . ولم يكن ذلك لاني أقل انسانية ورفقا بالحيوان من غيري ، ولكن لاني لم أدرك أن وجداني قد تأثر بذلك الى حد كبير ، فلم أشعر برأفة على الاسماك ولا على الديدان ، فلم يخرج الامر عن أنه مجرد عادة ليس الا . أما من حيث صيد الطير في السنوات الاخيرة التي

كنت أحمل فيها بندقيتي ، فقد كان عذرى أني كنت أدرس علم الطيور • ولم أكن أنشد غير الطيور الجديدة أو النادرة • ومع ذلك فأعترف بأني الآن أميل الى الاعتقاد بوجود طريقة أخرى أبدع من هذه الطريقة لدراسة علم الطيور ، هذا فضلا عن أنها تقتضى انتباها أشد الى عادات الطير وطبائعه ، وقد رضيت ، لهذا السبب وحده أن أدع البندقية • ومع ذلك فقد كنت ، على الرغم من الاعتراض بحجة الانسانية مضطرا الى التشكك فى أن ضروبا أخرى من التسلية يمكن أن تحل محل الصيد بشكل ما ، وان كانت لا تقل عنه قيمة • ولما سألنى بعض أصدقائى ان كان ينبغى لهم أن يسمحوا لابنائهم بمزاولة الصيد أجبتهم بالايجاب ، لانى أعلم أن الصيد كان من خير الوسائل فى تربيتى وتهذيبى • فقلت لهم نعم ! اجعلوهم صيادين ، ولكن ابدأوا بأن تجعلوهم هواة أولا ان أمكن ، ثم صيادين كبارا آخر الامر حتى لا يجدوا حيوانا ما ـ مهما كان حجمه ـ أكبر من أن يستطيعوا صيده فى هذه البرية أو فى أية برية نباتية غيرها •

فثمة فترة فى تاريخ الفرد ، وفى تاريخ الجنس كله ، يكون فيها الصيادون خير الناس كما يقول الالجلكويون* • ولا يسعنا الا أن نشفق على ذلك الفتى الذى لم يطلق فى حياته بندقية قط ، فانه لن يكون بذلك أعظم شفقة ، فتربيته قد أهملت اهمالا مؤسفا • لقد كان هذا جوابى من حيث ما يتعلق بهؤلاء الشبان الذين اعتزموا السير فى هذا الطريق ، وآمل أن سوف يشبون عنه بعد قليل • هذا ، ولا يوجد انسان فات عهد الصبا وما فيه من نزق ، يرضى أن يقتل اعتباطا مخلوقا حصل على حياته بالحق الذى حصل به هو على حياته • فالارنب البرية تصيح فى شدتها وحرجها كما يصيح الطفل الصغير ، وانى لأنذركن ، أيتها الامهات ، بأن شفقتى لا تفرق دائما ذلك التفريق الذى يقوم على أساس تفضيل النواحى الخيرية •

تلك هى فى الغالب بداية تعريف الشاب بشئون الغابة ، وانها لاكثر نواحى نفسه اصالة • فهو يذهب الى الغابة أولا بوصفه صائد سمك أو صائد طير ثم ينتهى به الامر ، ان كان فيه استعداد لحياة أرقى ، أن يميز أهدافه الخاصة التى ينبغى أن يرمى اليها ، كأن يكون شاعرا ، أو عالما من علماء الطبيعة ومحبيها ، فيترك البندقية ، وآلة صيد السمك وينبذهما • هذا ، ولا يزال أكثر الرجال شبانا ، من هذه الوجهة وسيظلون كذلك •

وقد دهشت أن أرى أن صيد السمك هو الشغل الوحيد الظاهر ـ ما عدا العمل فى قطع الاخشاب وقطع الجليد وما اليهما ـ الذى يمكن أن يستبقى فى بركة والدن أحدا من مواطنى ، سكان المدينة (ما عدا واحد منهم) نصف يوم كامل ، سواء كانوا آباء أو أطفالا • فهم لا يرون عادة أنهم كانوا سعداء الحظ ، أو نالوا جزاء ما أنفقوا من وقتهم ، الا اذا صادوا

مقدارا كبيرا من السمك ، وان كانت الفرصة أمامهم ليشاهدوا البركة ويتملوا بها طيلة الوقت الذي يلبثونه عندها . وانهم ليستطيعون أن يذهبوا الى البركة ألف مرة قبل أن يزايلهم الغرام بالصيد ويرسب الى القاع ، فيدع غرضهم نقيا صافيا . ولكن لا شك في أن عملية تنقية وتصفية كهذه ستكون قائمة الوقت كله . فالحاكم وأعضاء مجلسه لا يكادون يتذكرون البركة الا ذكرى حائلة طفيفة ، لانهم ذهبوا اليها ليصطادوا وهم صغار . أما الآن فقد كبروا وصاروا أسمى من أن يذهبوا ليصطادوا ، وبذلك لم يعودوا يعرفونها ، ولن يعرفوها مطلقا . ومع ذلك ، فحتى هم ، يأملون أن يدخلوا الجنة آخر الامر ! واذا ما عنى رجال التشريع بالبركة ، فما ذلك الا لينظموا عدد الصنارات التي يمكن أن تستعمل فيها في الغالب ، ولكنهم لا يعلمون شيئا ما عن صنارة الصنانير التي يستطيعون أن يصيدوا بها البركة نفسها ، متخذين الهيئة التشريعية نفسها طعما لذلك . وهكذا نرى الطفل يمر في ترقيه ونموه بمرحلة الصيد والقنص ، حتى في المجتمعات المتحضرة نفسها .

وفي السنوات الاخيرة ، وجدت أني ماذهبت الى صيد السمك مرة الا فقدت شيئا من احترامي لنفسي . فقد جربت ذلك المرة بعد المرة . فاني أحسن الصيد ، ولي فيه مهارة ، ولي ، كما للكثيرين من أمثالي ، ميل فطري اليه ، يتيقظ في نفسي الفينة بعد الفينة ، ومع ذلك فقد كنت من المخطئين . فهذا ايماء ضئيل ، ولكن كذلك تباشير الصباح . وليس من شك في وجود هذه الغريزة في ، وهي غريزة من غرائز الطبقات الوضيعة من الخليقة . ومع ذلك ، فكل سنة تمضي أجدني أضعف من حيث أنا صياد ، على الرغم من أني لم أزدد بذلك انسانية ، ولا حكمة . والآن ، فما أنا بصياد البتة . على أني ، اذا قدر لي أن أعيش في برية من جديد ، فقد يستهويني الامر فانقلب صيادا للسمك والوحوش حقا وجدا .. ذلك ، الى أنه ثمة شيء قذر في ذاته في هذا الغذاء ، وفي كل أنواع اللحم ، وأخذت أدرك أين يبتدىء العمل المنزلي ، ومن أين جاءت الجهود التي تتكلف كثيرا ، والتي تبذل في سبيل ظهور الانسان في زي مرتب محترم كل يوم ، وفي سبيل جعل البيت مجلوا خاليا من كل الروائح المستكرهة ، والمناظر القبيحة المستهجنة . ولما كنت أنا نفسي الجزار « والمرمطون » والطاهي ، وفي الوقت نفسه السيد الذي تقدم اليه صنوف الطعام ، ففي استطاعتي أن أتكلم عن خبرة كاملة كمالا غير عادي . فالاعتراض العملي على أكل اللحم هو ، من ناحيتي ، نجاسة . وزيادة على ذلك فانه لم يبد لي ، بعد أن أكون قد صدت الحيوان ، ونظفت لحمه ، وطهوته ، وأكلته ، أنه قد غذاني غذاء حقيقيا صحيحا ، بل كان تافها وغير ضروري ، وكانت نفقاته وتكاليفه أكثر من فائدته ، على حين أن قليلا من الخبز والبطاطس ليقوم مقامه ، ويحدث أقل مما يحدث

من المتاعب والاقذار • هذا ، وقد ظللت سنين عدة ، مثل الكثيرين من معاصرى لا أتناول غذاء حيوانيا ، ولا شايا أو قهوة ، وما اليهما الا نادرا • ولم يكن ذلك راجعا الى ما يعزى اليهما من مضار ، بقدر ما كان راجعا الى أنها لم توافق خيالى وهواى • فالنفور من الغذاء الحيوانى لا يرجع الى نتيجة من نتائج خبرة الانسان ، ولكنه غريزة أصيلة فى النفس ، وانه لا جمل وأروع أن يعيش الانسان عيشة متواضعة ، ويتجشم الكثير من المشقات من نواح عدة • ومع أنى لم أفعل ذلك أبدا ، فقد سرت شوطا بعيدا نحو ارضاء مطالب خيالى • وفى اعتقادى أن كل من يعنى عناية صادقة جدية بصيانة مواهبه السامية أو الشعرية ، ويحافظ عليها سليمة على أحسن أحوالها ، يميل ميلا خاصا الى الامتناع عن أكل اللحم ، وعن الاستكثار من أى طعام كان • وتلك حقيقة هامة لها مدلولها ، رأيتها مذكورة فى كتاب « كيربى وسبنس » حيث يقولان : ان بعض الحشرات البالغة المستكملة النمو تلجأ الى عدم استخدام أعضاء التغذية على الرغم من أنها مزودة بها • ويقررها المؤلفان قاعدة عامة : ان جميع الحشرات تقريبا التى فى هذه الحالة من النضج تأكل أقل جدا مما لو كانت فى طور اليرقة • أما الدودة النهمة اذا ما تحولت الى فراشة ... وكذلك اليرقة الشرهة اذا ما تحولت الى ذبابة ، لتقنع بنقطة واحدة أو بنقطتين من العسل ، أو من أى سائل حلو آخر • وما زال البطن الذى تحت جناحى الفراشة يمثل اليرقة • فتلك هى قطعة الحلوى المغرية التى تستهويها الى ما قدر عليها من أكل الحشرات • وما الرجل الاكول النهم سوى انسان فى طور اليرقة • هذا ، وثم دول بأسرها لا تزال فى هذا الطور ، لا خيال لها ولا تصور لديها ، وان كروشها الواسعة لخير شاهد عليها ينم عنها ويفضح مستورها •

من العسير أن يحصل المرء على طعام بسيط نظيف ويطهوه من غير أن يؤذى خياله ، على أنى أظن أن هذا الخيال يتغذى فى الوقت الذى نغذى فيه الجسم بالطعام • فينبغى أن يجلس الاثنان معا ـ الجسم والخيال ـ على مائدة واحدة • ولعل هذا ممكن ميسور ، فان أكلنا الفواكه باعتدال لم نكن بحاجة الى أن نخجل من عظم شهيتنا ، ولا أن نعطل خير أعمالنا وأعظمها جدارة وشأنا • أما ان زدت بعض التوابل فى طعامك ، فقد يكون ذلك داعية الى تسممك • فليس مما يستحق العناء أن يعيش الانسان على الطعام المطهو الثرى الدسم ، ألا ترى أن أكثر الناس يشعرون بالخجل ان رآهم غيرهم يعدون بأيديهم الطعام نفسه الذى يعده لهم سواهم كل يوم من الايام ؟ اننا لن نكون متحضرين ولا متمدينين حقا الا بعد أن يتغير هذا النظام • فان كنا سادة وسيدات ، فلسنا برجال حقيقيين ، ولا بسيدات حقيقيات • وهذا الامر يوحى الينا بكل تأكيد بالتغيير الذى ينبغى أن يتم • فقد يكون من العبث أن تسأل

لماذا لا يمكن التوفيق بين الخيال وبين تناول اللحم والدهن ، فأنا قانع راض عن عدم امكان ذلك التوفيق • ألا ترى أن القول بأن الانسان حيوان من أكلة اللحوم ، لوم له وعتاب عليه ؟ حقا ان في مستطاعه أن يعيش ، الى حد كبير فعلا بالاعتداء على الحيوانات الاخرى ، ولكن هذه طريقة من العيش منكودة تعسة ، كما يدرك كل من يذهب الى صيد الارانب بالفخاخ، أو يقوم بذبح الحملان • ان كل من يعلم الناس أن يقتصروا على طعام أطهر وأصح يعد من بين خدام الانسانية المصلحين العاملين على خير بني جنسهم • وأيا كان ما أعمله أنا ، فليس من شك في أنه مقدور على بني الانسان في تطورهم وتقدمهم التدريجي ، أن يبتعدوا حتما عن أكل الحيوان ، كما كان محتوما على القبائل المتوحشة أن تدع أكل بعضهم بعضا ، بعد أن ازداد اتصالهم بمن هم أكثر منهم حضارة وأعظم رقيا •

فلو أن الانسان أصغى الى أضعف خاطر ظل عقله يوحي اليه به باستمرار (ولا شك في صحة ما يوحى اليه به) لم ير الى أى مدى متطرف بعيد ، بل وقد يبلغ الجنون ، يمكن أن يؤدى به ذلك • ومع ذلك ، فان هذا الطريق هو طريقه الذى ينبغي أن يسير فيه ، كلما ازداد عزما وايمانا • ان أضعف اعتراض مؤكد يشعر به الرجل الصحيح البدن سوف يتغلب في النهاية على حجج بني الانسان وعلى عاداتهم التي ألفوها • فلم يحدث أن انسانا سار بحسب ما توحي اليه به عبقريته الا بعد أن تكون قد أضلته من قبل • وعلى الرغم من أن النتيجة كانت ضعف جسمه ، فلربما لا يوجد انسان واحد يقول ان العواقب كانت أمرا يندم عليه ويأسف له ، ذلك لان هذه العواقب حياة تتفق مع مبادىء أسمى • فان كان الليل والنهار يقبلان بما يجعلك تستقبلهما بفرح واستبشار، وكانت الحياة ترسل شذى وأريجا مثل ما تبعثه الازهار والاعشاب العطرية ، وكانت أكبر مرونة ، وأكثر نجوما وكواكب ، وأدوم خلودا ـ كان ذلك نجاحك وفوزك • فالطبيعة كلها تهنئة لك ، وحق لك مؤقتا أن تبارك نفسك وتغبطها • فأعظم الارباح وأكبر القيم أبعد من أن يقدرها الناس حق قدرها • فاننا سرعان ما نتشكك في أمر وجودها ، بل سرعان ما ننساها فهي أكبر الحقائق كلها وأعظمها ، وربما كانت أغرب الحقائق وأصدقها هي التي لا يبلغها الانسان أبدا لأخيه الانسان • ان الغلة الحقيقية لحياتي اليومية شيء لا يحس ،ولا يوصف ، مثلها في ذلك مثل ألوان الصباح أو ألوان المساء ، انها شيء قليل من تراب النجوم حصلت عليه ، وقطاع من قوس قزح تعلقت به وأمسكته •

ومع ذلك فان أنت سألتني عن نفسي ، فاني لم أكن قط مسرفا في التأنق والتزمت ، فقد آكل أحيانا فأرا مشويا بشهية عظيمة اذا اقتضت الحال • ويسرني أني ظللت أشرب الماء

القراح زمنا طويلا للسبب عينه الذى جعلنى أفضل الجو الطبيعى على سماء رجل يتناول الافيون ، وأفضل أن أبقى دائما صاحيا غير ثمل ، ففى السكر درجات لا نهاية لها ، وفى اعتقادى أن الماء هو الشراب الوحيد الذى يليق بالرجل العاقل وليس النبيذ شرابا يعادل الماء نبلا وشرفا . فتأمل حالة رجل يحطم آمال الصباح بفنجان من القهوة الساخنة ، أو يحطم آمال المساء بقدح من الشاى . فويحى ، ما أشد انحطاطى وسقوطى اذا ما استقوتنى هذه المشروبات ، ان الموسيقى نفسها قد تكون مسكرة . فهذه الاسباب التى تبدو تافهة فى ظاهرها ، هى التى حطمت اليونان وأهلكت الرومان ولسوف تحطمن أمريكا وانجلترا فمنذا الذى لا يؤثر أن يثمل من الهواء الذى يستنشقه على أن يسكر من أى شراب آخر . لقد تبين أن أقوى اعتراض لى على القيام بالاعمال الخشنة المتأصلة أنها تضطرنى أنا أيضا الى أن آكل وأشرب بشكل خشن كذلك . ولكن الحق أنى أجد نفسى فى الوقت الحاضر أقل حرصا لهذه النواحى وأقل احتفالا بها .

فأنا أذهب الى المائدة من غير أن أمارس طقوسا دينية كثيرة ، فلست أطلب بركة ولا أرجو نعمة ، لا لأنى أصبحت أعقل مما كنت، ولكننى مضطر الى الاعتراف ، بأنى أصبحت بمرور الزمن أكثر خشونة وعدم مبالاة ، وان كان ذلك أمرا يؤسف عليه كل الاسف ، ولعل هذه أمور لا يزاولها الانسان الا فى الشباب ، كما يرى الكثيرون فيما يختص بشعر . أما عملى أنا ففى « غير مكان » وأما رأيى فهنا . ومع ذلك فأنا أبعد من أن أعد نفسى واحدا من بين أولئك المحظوظين الذين تشير اليهم الفيدات* بقولها : « ان من آمن ايمانا حقا بوجود الكائن الاسمى فى كل مكان ، له أن يأكل ما يجده » ، أى ليس له أن يسأل عما يكون طعامه، ولا عمن أعده له . ويلاحظ حتى فى حالة هؤلاء ، كما أشار أحد المفسرين الهندوكيين ، أن المؤمن المخلص انما يقصر ميزته هذه على أوقات الشدة .

فمنذا الذى لم يشعر أحيانا بلذة لا يمكن التعبير عنها ، من جراء تناوله طعاما لم يكن للشهية فيه أى دخل ؟ فقد شعرت بهزة فرح وأنا أفكر فى أنى مدين لحاسة الذوق بصورة ذهنية ، وحاسة الذوق هذه خشنة عادة ، وفى أنى قد ألهمت وأوحى الى عن طريق الحلق ، وأن بعض أنواع التوت التى تناولتها على سفح أحد التلال قد غذت عبقريتى . قال تسنج تسوى : « لما لم تكن الروح سيدة نفسها ، ومالكة أمرها ، صار المرء ينظر ولا يرى ، ويصغى ولا يسمع ، ويأكل ولا يدرك لطعامه مذاقا » فمن يدرك مذاق طعامه ادراكا صحيحا لايمكن أن يكون شرها ، على حين أن من لا يستطيع ادراكه لا يمكن أن يكون الا كذلك . وقد يمضى الرجل « البوريتانى » المتقشف الى كسرة من خبزه الاسمر يتناولها بشهية عظيمة

لا تقل عن شهية شيخ من الاعيان ، وهو يتناول طعامه من سلحفاة بحرية . وليس ذلك لان الطعام الذى يدخل من الفم يدنس الانسان ،ولكنها الشهية التى بها يأكل طعامه هى التى تدنسه . فليس الامر أمر نوع أو كم ، ولكنه الاسراف فى الاهتمام بالطعوم الحسية ، اذا لم يكن ما يؤكل طعاما يغذى الناحية الحيوانية فينا ، أو يلهم الناحية الروحية ، وانما هو غذاء لما قد يستولى علينا من صور وأشكال . فان كان الصياد مغرما بأكل صنف السلاحف المائية ، وبالفئران المسكية وأمثالهما من اللذائذ الوحشية ، وكانت السيدة الراقية مغرمة بالهلام المتخذ من « كوارع » العجول ، أو بالسردين الوارد من وراء البحار ، فانهم جميعا سواسية . فالسيد يذهب الى البركة التى تزود الطاحون بالماء ليديرها ، وتذهب السيدة الى العلية التى تضع فيها أطعمتها المحفوظة . ولكن العجيب هو كيف استطاعوا هم ، وكيف استطعنا ، أنت ، وأنا ، أن نحيا هذه الحياة البهيمية المترهلة نأكل ونشرب .

ان حياتنا كلها حياة أخلاقية الى حد يثير الدهشة . فلم يحدث قط أن هدنة عقدت بين الفضيلة والرذيلة . فالعمل الصالح نوع الاستثمار الوحيد الذى لا يخيب . ففى موسيقى القيثارة التى تدوى أوتارها حول العالم ، يكون الالحاح على هذا الامر وتوكيده هو الذى يطربنا ويشجينا . فما القيثارة سوى ذلك المنادى الذى كلفته «شركة التأمين العالمية» أن يمتدح قوانينها ويوصى باتباعها ، وما نعمله من خير قليل هو كل المقدر علينا دفعه . قد يصبح الشاب آخر الامر مستهترا لا يبالى بشىء ولا يحفل بشىء ، ولكن قوانين الكون ليست كذلك ، بل هى دائما فى صف أكثر الناس حساسية . فأصغ الى كل نسيم من أجل عتاب أو لوم ، فانه لا شك موجود فيه ، وما أتعس من لم يسمعه ! اننا لا نستطيع أن نلمس وترا ، أو نحرك مفتاحا الا والاخلاق الرائعة من ورائنا . فكم من ضوضاء مؤلمة سارت شوطا بعيدا حتى سمعت على أنها موسيقى ، انها لمسرحية ساخرة شامخة كلها تهكم وسخرية على ما بلغته حياتنا من ضعة وانحطاط .

كلنا يشعر بوجود ناحية حيوانية فى نفسه ، تستيقظ وتتحرك كلما هجعت حياتنا السامية وأغفت . فهى أشبه ما تكون بحياة الزواحف ، حياة حسية جثمانية قد لا يمكننا استبعادها كلها والتخلص منها ، فهى مثل الديدان التى استوطنت أجسامنا ، حتى فى حياتنا وكامل صحتنا . قد نستطيع أن ننسحب منها ، ولكننا لا نستطيع أن نغير من طبيعتها . وأخوف ما أخافه أن تكون متمتعة بنوع من الصحة خاص بها ، وأنا قد نكون أصحاء سالمين ولا نكون مع ذلك طاهرين نقيين . فمنذ أيام التقطت من الطريق فكا سفليا لخنزير برى ، به أسنان بيضاء سلام وأنياب ضخام ، مما أوحى الى بوجود صحة جثمانية حيوانية

متمايزة عن الصحة الروحية . فقد نجح هـذا المخلوق بوسائل غير وسائل العفة والاعتـدال والطهار . يقول منسبوس* . « ان الفارق بين الانسان والبهيم شيء ليس بالكبير ، فالرجل العادي يفقده بسرعة ، على حين أن الممتازين من الرجال يحرصون عليه كل الحرص ، فمن يدرى أى نوع من الحياة يحدث ان وصلنا الى مستوى الاخذ بالطهارة والنقاء ؟ فلو أنى عرفت رجلا بلغ من الحكمة درجة يستطيع فيها أن يعلمنى كيف تكون الطهارة لقمت من هـذه اللحظة أسعى اليه وأبحث عنه . « ان سيطرتنا على شهواتنا ، وعلى مشاعر البدن الخارجية ، وعلى الاعمال الصالحة هى ، كما تقول الفيدات* ، ضرورية ولا غنى عنها فى اقتراب العقل من الله » . ومع ذلك فالروح تستطيع أن تسـودوقتا ما وتسيطر على كل جارحة وعلى كل وظيفة من جوارح الجسم ووظائفه ، وتحول ما يعـد شكلا أغلظ الشهوات الحسية الى طهارة وتقوى . ان الطاقة التناسلية التى تدعرنا وتدنسنا ان كنا منهمكين فى لذاتنا ، انما تنشطنا وتقوينا وتلهمنا ان كنا أعفاء طاهرين . فالعفة هى زهرة الانسانية ، وما نسميه نبوغا ، وبطولة ، وقداسة وما الى ذلك من الاسماء ، ليس سوى ثمرات تتلو هذه الزهرة . ان الانسان ليتجه فى الحال نحو الله متى كان طريق الطهارة مفتوحا أمامه . فطهارتنا تلهمنا ، على حين أن عدم طهارتنا يورطنا ، وهكذا دواليك . فسعيد من ضمن له أن الناحية الحيوانية تفنى فيه يوما بعـد يوم ، وأن الناحية الروحية آخذة فى أن ترسخ فيـه وتقوى . وربما لا يوجد شخص واحـد الا ولديه سبب يدعوه الى الخجل من جراء الطبيعة الدنيا البهيمية التى يمت اليها ويتصل بها ، وأخشى ألا نكون نحن آلهة أو أنصاف آلهة الامن حيث نحن حيوانات فى شكل انسان ليس الا ، فما هو قدسى سام فينا مرتبط بالنـاحية الحيوانية . فما نحن غير مخلوقات الشهوة ، وحياتنا ذاتها هى عارنا —

« فما أسعد من وضع حيوانيته فى المكانة الواجبة لها
وأخلى عقله من الادغال والغابات !
فهو يستطيع أن يستخدم حصانه وعنزه وذئبه وكل حيوان آخر ،
من غير أن يضعف هـو ويستخذى أمام سائرها ،
والا فليس الانسان نفسه سوى قطيع من الخنازير فحسب ،
بل كان تلك الشياطين ذاتها التى استثار[1]
غضبها العارم ، وجعلها أسوأ مما كانت عليه »

---

(١) من « رسالة » للشاعر الانجليزى جون ضن (١٥٧٣ — ١٦٣١) .

كل اللذائذ الحسية شيء واحد في الحقيقة ، وان اختلفت صورها وتعددت أشكالها ، وكذلك الطهارة كلها أمر واحد • فاللذات الحسية هي هي ، سواء كان الانسان يأكل أو يشرب أو ينسل أو ينام ، فكلها صادر عن شهوة واحدة ، وما علينا الا أن نرى شخصا يأتي أمرا من هذه الامور كي نعرف مدى اهتمامه بالشهوات الحسية • فالمرء الدنس لا يستطيع أن يقف ، ولا أن يجلس طاهرا • ألا ترى أن الحيوان من الزواحف اذا هوجم عند أحد أبواب جحره برز لك من باب آخر ؟ فان شئت أن تكون عفيفا وجب أن تكون معتدلا • ولكن ما العفة ؟ وكيف يتسنى للمرء منا أن يدرك أنه عفيف ؟ انه لن يدرك ذلك • لقد سمعنا من قبل عن هذه الفضيلة ، ولكنا لا نزال جاهلين بكنهها ، ولا نتحدث عنها الا وفق الاشاعات التي سمعناها • فمن المجهود الذي يبذل تنشأ الحكمة والطهارة ، على حين ينشأ الجهل والانهماك في الشهوات الحسية من التراخي والكسل • والشهوات الحسية عادات بطيئة كسلى من عادات العقل عند الطالب • والشخص الدنس بطيء وكسول ، تراه يجلس على مقربة من الموقد ، فتطلع عليه الشمس وهو متمدد يستريح من غير أن يكون متعبا • فان شئت أن تتحاشى النجس وسائر الخطايا ، فاشتغل بجد ، حتى ولو كان شغلك تنظيف اسطبل • فالطبيعة صعب قهرها ، والتغلب عليها ، ولكنها مع ذلك يجب أن تقهر • فما قيمة أن تكون مسيحيا ان لم تكن أطهر من الوثني ، وان لم تحرم نفسك أكثر مما يحرم هو نفسه ، وان لم تكن أشد منه استمساكا بالدين ؟ أعرف ديانات كثيرة يقال عنها أنها وثنية تملأ مبادئها القارىء خجلا وحياء ، ولكنها مع ذلك تحفزه الى بذل جهود جديدة ، حتى وان كانت جهودا مقصورة على القيام بالشعائر والمناسك الدينية وحدها •

اني أتردد في ذكر هذه الامور ، ولكن ترددي فيها لا يرجع الى موضوعها • فلست أحفل ان كانت عباراتي داعرة نابية ، مهما بلغت من الدعارة • ولكنني أتردد في ذكرها لاني لا أستطيع أن أتحدث عنها من غير أن أكشف عما في نفسي أنا من دنس وعدم طهارة • قد لا نتحرج في حديثنا عن التكلم بحرية ، ومن غير خجل ، عن نوع من الشهوات الحسية ، على حين نلتزم الصمت عن نوع آخر فلا نذكر عنه كلمة واحدة • لقد بلغ بنا الانحطاط درجة كبيرة أن لا نستطيع التكلم في بساطة عن الوظائف الضرورية للطبيعة البشرية ، على حين كان الناس في العصور القديمة يتحدثون في بعض الاقطار عن كل وظيفة من الوظائف الطبيعية البشرية بكل توقير واحترام ، وكان التشريع عندهم ينظمها لهم • فلم يكن شيء تافها في نظر المشرع الهندوكي ، مهما كان ذلك الشيء مما يجرح الذوق الحديث • فهو يعلمنا كيف نأكل وكيف نشرب وكيف تكون المعاشرة الزوجية وكيف نقضي ضروراتنا وما

الى ذلك ، وهكذا يسمو بكل ما هو وضيع ،ولا يعتذر الاعتذار الزائف عن هذه الاشياء بحجة أنها من توافه الامور .

فكل انسان بناء لمعبد معين يسمى جسمه ،يبنيه للاله الذي يعبده على نسق هو نسقه الخاص به وحده ، وليس ينجيه أن يعمل في حفر الرخام واعداده بدلا من بناء المعبد نفسه ، فكلنا مثال ، وكلنا نقاش . والمادة التى نستعملهافى الحفر والنقش هي لحمنا ودمنا وعظامنا . فكل نبالة تتجه فى الحال الى تحسين ملامح المرء ، وكل رذيلة أو شهوة حسية انما تتجه الى جعله وحشا متبلدا .

ففى مساء يوم من أيام شهر سبتمبر كان جون « فارمر » جالسا عند باب بيته ، بعد أن قضى نهاره فى كد مضن وشغل مجهد ، وكان عقله لا يزال مشغولا بالتفكير فى عمله هذا ، يفكر فيه قليلا أو كثيرا . وبعد أن استحم جلس ليجم الرجل العاقل فيه ، ويخلقه من جديد . وكان المساء باردانوعا ، حتى خشى بعض الجيران أن يكون ثم صقيع . ولم يلبث فارمر معنيا بمجرى تفكيره هذا طويلا ، فقد سمع رجلا يعزف لحنا على النـاى انسجم مع أفكاره التى تداعبه . ومع ذلك ظل يفكر فى أشغاله ،ولكن الذى حيره أن هذا التفكير لا يعنيه هو الا قليلا ، على الرغم من أنه ظل يعتلج فى خاطره طويلا ، وأنه وجد نفسه يضع الخطط ويدبر الامور على غير ارادة منه . انه لم يكن أكثر من هبرية على جلده ، سرعان ما تتبعثر وتسقط عنه باستمرار . ولكن نغمات النـاى قد بلغت أذنيه من جو يختلف عن الجو الذى كان يشتغل فيه أيما اختلاف ، وأوحت اليه بأن يقوم بعمل يشغل فيه بعض قدراته وملكاته التى كانت لا تزال هاجعه فى نفسه . فطردت هذه النغمات من فكره فى رفق وهوادة كل ما يتعلق بالشارع والقرية والحال التى يعيش فيها ، وهتف به هاتف يقول له : « ما الذى يدعوك الى البقاء هنا ، تعيش هذه العيشة الوضيعة ، تكد وتكدح وتشقى على حين أنك تستطيع أن تحيا حياة مجيدة »،فهذه النجوم ذاتها تضىء حقولا أخرى غير هذه الحقول وتتلألأ عليها.ولكن ما السبيل الى الخروج من هذه الحال والهجرة فعلا الى هنالك ؟. ان كل ما يستطيع أن يفكر فيه لايعدو أن يمارس ضربا جديدا من ضروب التقشف ،ويدع عقله يهبط الى جسمه فينفذه مما هو فيه، ويعامل نفسه باحترام يظل يزداد على الدوام .



جيران من الحيوان

كان يصحبني أحيانا في صيد السمك رفيق لي يأتي الى بيتي من الجانب الآخر من المدينة مخترقا القرية لهذا الغرض حتى أصبح صيد السمك برفقته عملا اجتماعيا مثل أكله .

قال الناسك : ترى ماذا يعمل العالم الآن ؟ فاني لم أسمع في هذه الساعات الثلاث شيئا ما ، حتى ولا أصوات الجراد على شجيرات « السرخس العطري » . ان الحمائم كلها نائمة على مجاثمها لا تكاد تسمع لها خفقة جناح . وهل هذا الذي يسمع الآن من وراء الغابات صوت صادر عن أبواق الفلاحين يؤذن بحلول الظهر ؟ فها هم العمال قد جاءوا ليتناولوا غداءهم من لحم البقر المقدد ومن نبيذ التفاح ، وخبز الاذرة . فلم يزعج الناس أنفسهم الى هذا الحد يا ترى ؟ فمن لا يأكل ليس بحاجة لان يعمل . ترى ما مقدار ما حصدوه ؟ ومن ذا الذي يرضى أن يعيش هنا حيث لا يستطيع انسان أن يفكر من جراء نباح الكلب (بوز) . ولا تنس تدبير شئون المنزل ! فعليك أن تصقل مقابض الابواب ، وتغسل الأوعية في هذا اليوم الصحو الجميل ! خير للانسان ألا يكون له بيت ، أو ليكن بيته في شجرة مجوفة مثلا . ثم ما قولك في زيارات الصباح ، وحفلات الغداء ، انها لاتعدو أن تكون مثل نقر القراع* . وها هم أولاء يتجمعون ، فالشمس حامية هنا أكثر مما يطيقون . لقد نشأوا في الحياة وانغمروا فيها بأكثر مما ينبغي في نظري . فعندي ماء من النبع ، ورغيف من الخبز الاسمر على الرف . أصغ ! فاني أسمع حفيف أوراق الشجر . فهل هو كلب جائع من كلاب القرية يا ترى دفعته غريزة الطراد فجعل ينبح ؟ أو هو ذلك الخنزير البري الذي يقال عنه انه لا يزال يهيم في هذه الغابات ، والذي رأيت آثاره غب المطر ؟ ها هو يأتي مسرعا ، فشجيرات السماق والعوسج عندي تضطرب . وأنت أيها الشاعر ما رأيك في العالم اليوم ؟

الشاعر ــ أنظر الى هذه السحب ، فما أبدع ما تسبح في السماء ! فهذا أعظم شيء رأيته اليوم ، وليس له نظير من النقوش والصور القديمة ، ولا مثيل له في البلاد الاجنبية ، اللهم الا عند شواطيء أسبانيا ، فثم جو حقيقي صاف من أجواء البحر المتوسط . وقد خطر

لى اليوم أن أتوجه لصيد السمك لعلى أكسب قوتى ، فانى لم أطعم اليوم شيئا • وهـذا هو العمل الحق الذى يليق بالشعراء ، وهو الحرفة الوحيدة التى تعلمتها فتعال • هلم بنا •

الناسك ـ ليس فى مقدورى أن أرفض ما طلبت ، فخبزى الاسمر على وشك النفاد • فسأمضى معك سريعا بكل سرور ، الا انى الآن على وشك أن أختم التأمل فى فكرة جديدة خطيرة الشأن أظننى قد قاربت نهايتها ، فذرنى وحدى برهة من الزمن • ولكن ، كى لاتتأخر فى الذهاب ، خذ أنت ، فى أثناء ذلك ، فى الحفر بحثا عن الطعم ، فدود الارض نادر ، قلما يصادفه المرء فى هذه النواحى حيث التربة لم تخصب بعد بالسماد ، حتى كاد جنس الدود أن ينقرض • هذا ، وان لذة العمل فى البحث عن الدود لتعادل لذة صيد السمك نفسه ، ما لم تكن شهية المرء مفتوحة أكثر مما ينبغى لها • ولك أن تأخذ الدود كله الذى تعثر عليه نصيبك اليوم ، على أنى أنصح لك أن تعمل بالفأس فى ذاك الموضع عند شجيرات « حب العزيز » حيث ترى تلك الحشائش وهى تتماوج • وأظننى أستطيع أن أكفل لك الحصول على دودة فى كل ثلاث مدرات تستخرجها بمعولك ، اذا ما أحسنت وأنعمت النظر بين جذور العشب . كما لو كنت معنيا بتنظيف الارض من الحشائش المؤذية وان شئت أن تستمر فى بحثك الى أبعد من ذلك الموضع لم تكن قد بعدت عن الحكمة وعين الصواب ، فقد وجدت أن الطعم يزداد بما يقرب من مربع المسافات •

الراهب يحدث نفسه ـ دعنى أر • أين كنت ؟ أظننى كنت أفكر فى أن الدنيا الآن تميل بمقدار هذه الزاوية ، فهل أمضى الى السماء أم أذهب وأصيد السمك ؟ فلو أنى أنجزت ما أنا بصدده من التفكير ، هل تتاح لى فرصة جميلة أخرى مثل هذه يا ترى ؟ لقد كنت على مقربة من أن أتحول الى جوهر الاشياء ، بقدر ما كنت قريبا من ذلك فى يوم من أيام حياتى ، وأخشى ألا تعود الى أفكارى • فلو كان الامر يجدى لصفرت لها ودعوتها لترجع الى • فاذا ما أتاحت لنا أفكارنا الفرصة ، فهل من الحكمة أن نقول سوف نفكر فى الامر ؟ ان آرائى لم تخلف وراءها أثرا ما ، ولا أستطيع أن أستعيد اتجاهها الذى سبق أن اتجهت اليه ، فما الذى كنت أفكر فيه يا ترى ؟ لقد كان اليوم غائما جدا ، ولأجرب هذه الجمل الثلاث التى قالها كن ـ فوت ـ تسى فلعلها تعيد الى الحالة الذهنية التى كنت فيها من قبل ، ولست أدرى ان كانت تلك حالة اكتئاب ، أم حالة طرب مقبلة

(حاشية) : لم توجد قط سوى فرصة واحدة من نوع واحد •

الشاعر ـ والآن أيها الراهب ! هل أنجزت عملى بأسرع مما كنت تتوقع • لقد حصلت على ثلاث عشرة دودة كاملة ، فضلا عن عدد من الدود غير الكوامل ، أو دون الحجم المنشود ،

ذلك ، الى أن الديدان التى جلبتها معى من القرية أكبر مما ينبغى، اذ يستطيع سمك التروبيس أن يتغذى بواحدة منها دون أن يجد للصنارة مسا .

الناسك ـ حسن ! فهلم بنا . هل نذهب الى نهر كونكورد ؟

لم كانت هذه الاشياء ذواتها التى نراها هى التى تكون دنيا ؟ ولم كانت هـــذه الانواع المعينة من الحيوان ، جيرة للانسان ؟ أفليس غير الفأر حيوانا يستطيع أن يملأ هذا الشق ؟ أظن أن « بلباى* » وشركاه قد أحسنوا استخدام الحيوانات فى خير ما يمكن أن تستخدم فيـــه ، فكلها حيوانات نقل ، من جهـــة ، فقد خلقت لتنقل جزءا من أفكارنا .

لم تكن الجرذان التى تتردد على بيتى بالجرذان العادية التى يقال انها أدخلت الى هذه البلاد من الخارج ، ولكنها كانت نوعا بريا أهليـــاليس فى القرية شىء منه . وقد بعثت بجـــرذ منها الى عالم ممتاز من علماء الطبيعـة فاهتم به كل الاهتمام . وبينما كنت أعمل فى بناء بيتى اذا بأحد الجرذان قد اتخذ عشه تحت البيت ؛ وقبل أن أقيم الدور الثانى ، وأزيل ما تجمـــع من نشارة الخشب كان هذا الجـــرذ يخـــرج بانتظام وقت الغداء ويلتقط الفتات الذى تنـاثر عند قدمى . ولعله لم ير انسانا قط من قبـــل ، اذ سرعان ما استأنس ورفع الكلفة بينى وبينـه تماما ، فكان يجرى على حذائى ويتسلق ملابسى، ويصعد فى جوانب الحجرة فى ســـهولة ويسر بوثبات قصار سريعة كما تفعـــل السناجيب . فهذه الجرذان تشبهها فى كثير من حركاتهـا . فذات يوم وأنا متكىء بمرفقى على الخوان صعد هذا الجرذ على ملابسى ، ودخل كمى ، ثم جعل يدور عدة دورات حول الورق الذى لففت فيه غدائى فما كان منى الا أن حافظت على هـذا الورق مطبقا ، وجعلت أعابث به الجرذ وألاعبه ، فأقرب الغذاء الملفوف منه ثم أبعده عنه . ولما أمسكت آخر الامر بقطعة من الجبن بين ابهامى وسبابتى وعرضتها عليه ، جاء وقرضها وهـــو جالس فى يدى . وبعد أن اكل نظف وجهـه ومخالبه كما تفعل الذبابة ، ثم انصرف .

وجاء طائر من نوع خاطفى الذباب (فوبة) وعشش فى ظلتى ، كما جاء أبو حنـــاء ليحتمى بشجرة من أشجار الصنوبر تنمو لصق البيت . وجاءت حجلة ـ وهى طائر خجـول كل الخجل ـ وجعلت تمر أمام بيتى وخلفهـاسلكاتها (أفراخها) يتبعنها ، وهى تقوقىء لهن وتناديهن كما تنـــادى الدجاجة أفراخهـا . وكانت بسلوكها وتصرفها تبرهن على أنها ابنـة الغابات حقا . فسرعان ما تتفرق صغارها فجأة اذا ما اقتربت منهـا ، وذلك عـــلى أثر علامة تصـــدرها لهن الام ، حتى لـــكأن دوامة قداجتاحتها ؛ وهى تشبه أوراق الشجر وأغصانه الجافة شبها كبيرا مما جعل الكثيرين من السياح يضعون أقدامهم على عش به أفراخها عـــلى غير علم منهم . ثم اذا بهم يسمعون صوت الام وهى تهب فزعة ، كما يسمعون صراخهـــا ودعوتها

اللاهفة ، أو يشاهدونها وهي تجر جناحيهـــالتلفت نظر السائح الغافل • وأحيانا ترى الأم تتدحرج أمامك وتدور بشـــكل غريب ، حتىانك لتلبث برهة وأنت لا تدرى أى مخلوق من المخلوقات هى • أما السلكات الصـــغار فتظل جاثمة هادئة منبطحة على الارض ، وكثـــيرا ما تدخل رؤوسها تحت أوراق الشجر غـــير حافلة بشيء غير ما تصدره أمهن من التوجيهات من بعيد ، ولايعود اقترابك منها يجعلها تجرى ثانية ، وتفضح نفسها • وقد تطأها قدمك ، أو قد تنظر اليها برهة من غير أن تكشف أمرها ،وتقف على حقيقتها • وقد حـدث أنى أمسكت بها مرة فى مثل ذلك الوقت ووضعتها فى راحة يدى ، ومع ذلك فقد كان همها الوحيـــد أن تطيع أمها ، وتجرى وراء غريزتها التى فطرت عليها ، فتظل جاثمـــة حيث هى من غير خوف أو ارتجاف • وقد بلغ من كمال هـذه الغريزة فى هذا الطير ، أنى لما أعدت السلكات الى أوراق الشجر وقعت منها واحدة عرضا على جنبهـــا ،وبعد عشر دقائق وجدتها مع أخواتها فى الوضع ذاته • وليست هذه السلكات غرة ناقصة النمو مثل صغار الكثرة من سائر الطير ، بل هى أكمل ترقيا وأكثر نموا وابتسارا من أفراخ الدجاج•والتعبير الواضح الذى يتجلى فى عيونها الساجية المفتوحة يفصح عن مثل ما تنم عنه عيون الكبار البالغين ، ولكنه انما يفصح عن طهارة ونقاء على الرغم من ظاهر نضجه واكتماله • وانه لتعبـير لا ينسى ، كأن الذكاء كله يتبـــدى فى عينيها وينعكس فيهما • فهى لا توحى الينـــا بطهارة الطفولة وبراءتها فحسب ، بل توحى الينا كذلك بحكمة أنضجتها التجارب والحنكة • فمثـــل هذه العين لم تخلق عندما خلق الطير ، وانمـــا خلقت مع السماء التى تعكس زرقتها وصفاءها • ويندر أن تجود الغابات بجوهرة أخرى مثلها ؛ وقد بلغ الامر بالصائد الجاهل أو المستهتر أن يصيد الأم فى مثل هذا الوقت ويترك هــــذه الصغار الأبرياء تروح فريسة لوحش كاسر أو طائر جارح أو تندمج شـــيئا فشيئا مع الاوراق المتعفنة التى تشبهها فى شـــكلها كل الشبه • قيل ان هذه الأفراخ اذا فقست من تحت دجاجة تفرقت مباشرة عند أول هيعة تفزعها وتثيرها ،وبذلك تضل وتضيع ، لانها لن تسمع صـيحة أمها التى تهيب بها وتدعوها لتلم شعثها وتجتمع بها من جـــديد • تلك كانت أفراخى ، وتلك كانت دجاجاتى •

ومن عجب أن مخلوقات كثيرة تعيش أحرارا عيشة متوحشة ، وهى مختفيـــة فى أعماق الغابات ، وتظل مع ذلك تحـــافظ على نفسهاوتصون كيانها بجوار المدن ، من غير أن يشتبه فى وجودها عندها أحد غير الصيادين • فكيف استطاع القندس* أن يعيش منزويا هنا ! مع أنه قد ينمو حتى يبلغ طوله أربعة أقدام ويصـــل حجمه الى ما يعادل حجم طفل صـــغير ، ومع ذلك فربما لا تراه عين بشر • هذا ، وقد سبق لى أن رأيت الرواقين* فى الغابات خلف المكان

الذي أقمت فيه بيتي ، وربما سمعت أصواتها في الليل • وكان من عادتي أن أقيل ساعة أو اثنتين في الظل عند القيلولة ، عقب الفراغ من الغرس والزرع فأتناول غدائي ، وأقرأ قليلا ، على مقربة من عين ماء كانت منبعا لمستنقع ومجرى ، وكانت تخرج هي من تحت « تل بريستر » على بعد نصف ميل من حقلي • وكانت السبيل اليها عن طريق سلسلة من حفر مكسوة بالعشب ، حافلة بفسائل الصنوبر الراتنجي ، وتنحدر حتى تصل الى غابة كبيرة عند المستنقع ؛ وبذلك تهيأت هنا بقعة ظليلة منعزلة كل الانعزال • وتحت شجرة صنوبر بيضاء وارفة الظلال كانت قطعة أرض مسطحة وطيدة مكسوة بالخضرة يتيسر الجلوس عليها • وكنت احتفرت هذه العين من قبل ، وكريت بئرا ذات ماء رمادي اللون صاف ، كنت أغترف منها ملء جردل من الماء من غير أن أحرك مياه البئر ولا أعكر صفوها • فالى هذا المكان ، كنت أحضر كل يوم في أواسط الصيف ، والبركة أدفأ ماتكون • وهنا كانت تأتي دجاج الحرش* ومعها أفراخها تنقب في الطمي عن الديدان ، فتطير الام على ارتفاع قدم منهن متجهة نحو الشاطيء ، على حين كان الصغار يجرين صفا تحتها • وأخيرا عندما شاهدتني تركت صغارها وطفقت تدور حولي المرة بعد المرة ، وتقترب مني شيئا فشيئا حتى صارت على بعد أربع أقدام مني أو خمس زاعمة أن جناحيها وساقيها قد كسرت ، كي تسترعي انتباهي وتيسر الهرب لصغارها ، على أن هذه الصغار كانت قد أخذت تسير في طريقها فعلا في صف واحد ، فاخترقت المستنقع بحسب توجيه الأم ، وهي تصيح بأصوات رفيعة خافتة ، أو كنت أسمع صوت الصغار من غير أن ألمح أمها • وكذلك كانت تأتي القمريات لتقضي الربيع هنا ، أو كانت تنب طائرة من فنن الى فنن على أشجار الصنوبر الابيض الغض ، فوق رأسي ، أو كنت أرى السنجاب الاحمر يجري منحدرا من على أقرب غصن • وكان هذا السنجاب ، بوجه خاص ، قد ألفني ورفع الكلفة بيني وبينه ؛ لقد كان فضوليا حقا • وما عليك الا أن تلبث ساكنا برهة كافية في بقعة رائعة جذابة في الغابات فتأتيك سكانها جميعا فتستعرضها الواحد بعد الآخر •

شاهدت أحداثا أخرى غير هذه ، ولكنها لم تكن مثلها أحداث أمن وسلام • فذات يوم وأنا ذاهب الى كومة أخشابي ، أو بعبارة أدق ، الى كومة من أعجاز الاخشاب ، شاهدت نملتين كبيرتين ، احداهما حمراء والاخرى سوداء ، والثانية أكبر من الاولى اذ كان طولها يبلغ نصف البوصة ، وكانتا تصطرعان اصطراعا وحشيا ، اذا ما تماسكتا مرة لم تدع احداهما الاخرى تفلت من يديها ؛ بل ظلتا تجاهدان وتصطرعان وتتدحرجان على كسارة الخشب باستمرار • فلما نظرت وراءهما دهشت أن أرى كسارة الخشب زاخرة بأمثال تلك المحاربات • فلم يكن الامر مبارزة بل كان حربا بين جنسين من النمل : الجنس الاحمر والجنس

الأسود ، كما هي الحال دائما . وكثيرا ما كان ثمة نملتان حمراوان ضد نملة واحدة سوداء ، وكانت جحافل هذه الميرميدون* قد ملأت النجود والوهاد التي في كومة أخشابي ، وانتثرت على الارض أشلاء الموتى ، وأجسام الجرحى اللواني ما زلن في النزع من كلا الجنسين : الاحمر والاسود . فهذه المعركة كانت الوحيدة التي شاهدتها في حياتي ، كما كانت ساحة القتال* هي الساحة الوحيدة كذلك التي وطئتها قدماي والحرب مستعرة دائرة الرحى فيها . لقد كانت حربا أهلية :الجمهوريون الحمر من جهة ، والامبراطوريون السود من جهة أخرى . وكان الفريقان ملتحمين بعضهما ببعض في معركة مريرة طاحنة تجرى مع ذلك في غير ضوضاء أستطيع أن أسمع لها صوتا . ولم يحدث أن جنودا من البشر حاربت بمثل هذا العزم ، فقد راقبت قرنين التحما أحدهما بالآخر التحاما وثيقا في واد صغير مشمس بين كسارة الخشب وجعلا يتطاحنان من بعد الظهيرة وكانا على استعداد أن يظلا يتطاحنان حتى مغيب الشمس أو حتى الموت . وكان البطل الاحمر الصغير قد تعلق بمقدم خصمه وأخذ بتلابيبه . وبينما كانت هذه المعركة دائرة ، يسقط في ساحتها من يسقط ، ويقوم فيها من يقوم ، لم ين واحد منهما لحظة واحدة عن أن يقرض أحد قرني استشعار خصمه من جذوره بعد أن أطاح بالقرن الثاني ؛على حين كان البطل الاسود القوى يصرع زميله ، فيقذف به على جنبه هذا مرة وعلى جنبه ذاك أخرى . ولما أمعنت النظر فيهما وجدت أنه قد جرده من بعض أطرافه . لقد حاربا بعريمة ماضية وبتصميم أقسى مما تفعل الكلاب المعروفة « بالبل دج » فلم يكن أحد منهما يبدى أقل ميل للتراجع والنكوص .فكان واضحا أن هجيراهما في الحرب كانت النصر أو الموت! وبينما هما كذلك جاءت نملة وحيدة تسير على سفح التل المؤدى الى هذا الوادى ، ولم يك خافيا أنها كانت ثائرة متهيجه . فهي اما أن تكون قد فرغت توا من القضاء على خصمها واما أنها لم تشترك بعد في المعركة . ولعل الامر الثاني كان أرجح لانها لم تفقد بعد شيئا من أطرافها كأن أمها قد أوصتها بألا تعود الا حاملة ترسها أو محمولة عليه* أو ربما كانت مثل آخيل* انفردت بنفسها طاوية كشحها على مابها من احنة وغضب حتى تنفذ خياة باتروكلوس* ، فقد عز عليها أن ترى هذه المعركة غير المتكافئة من بعد ، فقد كان السود ضعفي الحمر . فما لبثت النملة أن اقتربت بخطى واسعة ثم وقفت حذرة على بعد نصف بوصة من الجند ، حتى اذا ما لاحت لها الفرصة سارعت وانتهزتها . فوثبت على البطل الاسود وأخذت تعمل فيه عند أصل ساقه الامامية ، تاركة لخصمها أن يختار من أعضائها هي ما شاءله ويحلو . وهكذا التحمت ثلاث نملات اجتمعن للدفاع عن حياتهن والتصقن بعضهن ببعض أوثق التصاق ، كأن نوعا حديثا من

المواد الملصقة والرابطة قد اخترع فأخجل ضروب الاقفال وأنواع الاسمنت . وما كان لى أن أعجب بعد هذا أن أرى أن كل فريق من المتحاربات كان له فرقته الموسيقية التى اتخذت مكانها على شظية عالية ، وجعلت تعزف الاناشيد الوطنية تحفز بها المتواثبة وتستثير حماستها ، وتدخل السرور على المحاربات المحتضرات . وكنت أنا نفسى متهيجا الى حد ما كما لو كن رجالا محاربين . فكلما فكرت فى الامر قل الفارق الذى بينهما وبين الناس . وفى الحق لم يحدث أن دونت معركة ما فى تاريخ كنكورد على الاقل ، ان لم يكن فى تاريخ أمريكا كلها ، يصح أن تقارن بهذه المعركة سواء من حيث عدد الجنود المشتركين فيها أو من حيث الوطنية والبطولة اللتين تجلتا فى أثنائها . فمن حيث العدد ومرارة القتال ، كانت مثل معركة أوسترليتز* أو معركة درزون* ــ نعم معركة كنكورد هذه . فقد قتل من الوطنيين اثنان ، وجرح فيها لوثر بلانشارد . ولكن اذ كانت كل نملة (بطريك) تصيح أن أطلقوا النار ! بالله أطلقوا النار ! واذا بآلاف تلقى مثل ما لاقاه دافيز وهسمر من الحظ ، فلم يكن فيها جندى واحد من المرتزقة المأجورين . ولايساورنى أى شك فى أنهن كن ينافحن من أجل مبدأ مقرر معلوم كما كان ينافح أجدادنا . ولم تكن حربا من أجل التهرب من ضريبة البنسات الثلاث المفروضة على الشاى . ولسوف تكون النتائج لمن يعنيهم الامر ، مثلما كان لمعركة بنكرهيل* على الاقل .

وتناولت الشظية التى كان يتقاتل عليها الثلاث نملات اللواتى وصفتهن بوجه خاص ، وحملتها معى الى المنزل ووضعتها على نافذتى تحت كوب ماء من تلك الاكواب ذات الساق كى أعرف نتيجة المعركة . ثم نظرت بالمجهر النملة الحمراء التى ذكرتها من قبل ، فاذا بها لا تزال دائبة تقرض ساق خصيمها الامامية القريبة منها بعد أن فصلت ما كان قد تبقى لها من قرن الاستشعار ، وكان صدرها قد تمزق شر ممزق ، وتعرضت مافيه من الاحشاء لفكى البطل الاسود الذى كانت درعه على ما يظهر أسمك من أن يخترقها خصمه . وكانت القروح والثآليل القاتمة فى عينى الجريح تلمع بوحشية لا تستثيرها الا الحروب . وظل البطلان يصطرعان تحت الكوب نصف ساعة أخرى زيادة على ما اصطرعا من قبل . ولما عدت ونظرت اليهما كان الجندى الاسود قد فصل رؤوس أعدائه عن أجسامها . وكانت لا تزال حية ومعلقة على جنبيه كأنها أسلاب مريعة علقت على قربوس فرسه الذى كان يبدو أنه لا يزال ثابتا كعادته . وكان البطل يحاول بما يبذله من جهود هزيلة أن يخلص نفسه منها على الرغم من أنه فقد قرون الاستشعار ولم يبق له سوى جزء من ساق واحدة ، وتغطى جسمه بجراحات كثيرة قد أصابته مما لا أعرف لها عددا . وبعد نصف ساعة أخرى استطاع

آخر الامر أن يخلص نفسه.. وما أن رفعت الكوب حتى مضى فى سبيله على أسكفة النافذة وهو فى حالته الكسيح هذه . ولست أعلم ان كان قد عاش بعد هذه المعركة أو قضى مابقى له من عمره فى مصحة من مصحات الناقهين . على أنى ظننت أن ما عرف عنه من جد واجتهاد لم يعد ذا قيمة تذكر بعد ذلك . وكذلك لم أعرف أى الفريقين انتصر على خصمه وظفر به ، ولا ما كان سبب هذه الحروب ، ولكنى ظللت بقية ذلك اليوم وكأن شعورى كله قد تهيج وتأثر كل التأثر من مشاهدة هذه الوحشية وتلك المجازر التى حدثت فى معركة بشرية دارت رحاها أمام باب دارى .

قال لنا «كيربى واسبنس*» ان معارك النمل معروفة مشهورة من قديم الزمن ، وان تواريخها مسجلة مسطورة وان كان الناس يقولون ان «هوبر» هو المؤلف الحديث وحده الذى يبدو أنه شاهدها . قال هذان المؤلفان ان « اينياس سلفيوس*» قد وصف بكل دقة وتفصيل كبير معركة مريرة من هذه المعارك حارب فيها الطرفان بكل عناد ، على جذع شجرة من أشجار الاجاص . وكانا جنسين من النمل أحدهما كبير والآخر صغير . ثم بعد أن وصف سلفيوس هذه المعركة قال انها حدثت فى أيام بابوية يوجينيوس الرابع وبحضور نقولا بستورينيس المحامى البارع الذى ذكر قصة هذه المعركة كاملة بكل أمانة واخلاص» . هذا ، وقد ذكر أولاوس ماجنوس معركة من هذا القبيل نشبت بين نمال كبار ، وأخرى صغار ، فاز فيها الصغار على الكبار . ويقال ان الصغار قامت بعد انتصارها بدفن جثث جنودها، على حين تركت جثث أعدائها الكبيرات فريسة للطيور . وقد حدثت هذه الموقعة قبل أن يطير الجبار العاهل كريستيان الثانى من بلاد السويد . أما المعركة التى شاهدتها عيانا فقد حدثت فى أيام رياسة بولك خمس سنوات قبل مرور المشروع بقانون الذى قدمه « وبستر » * بشأن العبيد الآبقين .

وكم من كلب من كلاب القرية لا يصلح الا للسباق مع سلحفاة من سلاحف المياه والوحل، فى كيلار يتخذ مخزنا للمأكولات ، مضى الى الغابات يتصيد على غير علم من سيده . فجعل يتشمم عبثا جحور الثعالب القديمة وجحور المراميط* ومن المحتمل أن يكون الذى قاده الى تلك الغابات كلب نحيل يخترق الغابة ، بكل مهارة ، ومازال ينفث الرعب الطبيعى فى نفوس سكانها . والآن أصبح الكلب الاول متخلفا عن قائده ومرشده بمسافة طويلة ، وجعل ينبح ، كأنه ثور انقلب كلبا ، على سنجاب صغير لجأ الى الشجر ليكون بمأمن من الاخطار ؟ ثم يمضى الكلب بسرعة يلوى الاغصان بثقله ، ويتخيل أنه انما يقتفى أثر عضو ضال من أفراد أسرة جربيلا . وقد أدهشنى مرة أخرى أن أرى قطا يمشى على شاطىء البركة الحجرى . اذ من النادر

أن تبعد القطط عن مأواها بمثل هــــذه المسافة الكبيرة • وكانت الدهشــة متبادلة ، ومع ذلك فأكثر القطط استئناسا فى المنازل ، التى اعتادت أن تظل راقدة على السجادة طيلة أيامها ، كانت تبدو فى الغابة كأحد أهليها ، غير غريبة عنهــا ألبتة ، وانها بسلوكها المكير وطرق تسللها لتبرهن على أنها من بنات الغابة حقا ، بل انها لتبرهن على أنها أكثر خبرة بها من سكانها الحقيقيين • وحدث مرة ، وأنا أجمع أنواع التوت من الغابات أن صادفت قطة وصــــغارها فى الغابة ؛ وكانت الصغار كلها مثل أمها ، قد انتفشت واســتعدت لتنفخ فى وجهى • فقبل أن أسكن الغابة ببضع سنوات ، كان فى احدى مزارع لينكولن ، على مقربة من ضيعة السيد جيليان بيكر ، قطة يقال عنها أنها ذات اجنحة • فذهبت فى شهر يونية سنة ١٨٤٢ لأشاهدها ، ولكنها كانت قد خرجت للصيد فى الغابات كعادتها • ولســت متأكدا ان كانت قطة أو قطا ولذا سأشير اليها بالضــــمير الشائع الاستعمال •• فقالت لى سيدتها انهــا جاءت الى هذه النواحى منذ أكثر من سنة بقليل اذ جاءت فى شهر أبريل • فاقتنوها هم آخـــر الامر فى بيتهم • وكانت ذات لون بين الرمادى والبنى ، وبها بقعة بيضاء فى رقبتها ، وأقدامهــا بيض ، وذيلها كبير حافل بالشعر كأنه ذيل ثعلب • فاذا جاء الشتاء نما فروها كثيفا حتى يتدلى من على جنبيها وكون خصــلات طول كل منها نحو عشر بوصات أو اثنتا عشرة بوصة ، وعرضــها نحو بوصتين ونصف • وكان فروها هــذا ينمو من تحت ذقنها طويلا جزؤه العلوى مســـترخ والســفلى متداخل بعضه فى بعض ، حتى صار كاللباد • وتسقط هذه الاجزاء فى الربيــع عن القطة • وقد أهدانى أصحابها زوجا من هــذه الاجنحة لا زلت محتفظا بهمــا الى الآن • واذ لا يوجد أثر أو مظهر ما لغشاء بين هـــذه الاجنحة ، ظن بعضهم أنها لابد أن تكون جزءا من سنجاب طائر أو من حيوان برى آخـــر • وليس هذا بمستحيل • فعلى رأى العلماء الطبيعيين نشأت حيوانات هجينة كثيرة مخصبة من اجتماع الدلق* بالقطة الاليفة المنزلية • فتلك هى القطة التى يليق بى أن أقتنيها ، ان كنت سأقتنى قطة • فلماذا لاتكون قطة الشاعر مجنحة* مثـــل جواده •

وفى الخريف جاء الغطاس* كعادته ليغــير ريشه ، ويستحم فى البركة ، ويجعلهــا تدوى بضحكاته الوحشــــية العالية قبـــل أن أنهض من فراشى • فما أن ينتشر خبر وصـــوله الى البركة بين الناس حتى يتنبه هواة الصيد فى (ميل دام) ويجيئون فى عربات صغار ، أو سيرا على الاقدام مثنى وثلاث يحملون بنادقهم ورصاصا مخروطى الشــكل ، ومعهــم مناظيرهم ؛ فيخترقون الغابات ، وتسمع لهم حفيفا مثـــل حفيف أوراق الشجر فى الخــــريف • وكان عددهم يبلغ عشرة أضعاف عدد هذا الطير عـــلى الاقل • وسرعان ما يتخذ بعضهم مراكز عنـــد هذه العدوة من البركة ويتخذ آخرون مراكزهم على العدوة الاخرى ، فالطائر المسكين لا يستطيع

أن يكون فى كل مكان فى وقت واحـــد ، فان غطس هنا فلا بد أن يظهر هناك • على أن رياح شهر أكتوبر الرفيقة لا تلبث أن تهب فتحـــرك أوراق الشجر وتغضن سطح البحـــيرة حتى لا يكاد «غطاس*» يرى أو يســمع على الرغم من أن خصومه يحدقون فى البركة بمناظيرهم ويجعلونها تدوى بأصوات بندقياتهم • ثم ترتفع الامواج بنبالة وكرم ، وتندفع نحو الشـــاطىء غاضبة مزمجرة ، حدبا منها وعطفا عـــلى كل طائر من طيور الماء ، فكأنى بها تنضم الى صفوفه لتؤيده • وعندئذ يتحتم على الصيادين أن يعودوا أدراجهم الى المدينة ، والى متاجرهم وأشغالهم التى لم يكونوا قد أنجزوها بعد • ولكنهم مع ذلك كثيرا ما يصيبون نجاحا عظيما أكثر ممـــا كانوا



ينتظرون • وعندما كنت أذهب فى الصـــباح الباكر الى البركة لأملأ جردلا من الماء ، كثيرا ما كنت أرى هذا الطائر الوجيه يخـــرج من خليجى ، وعلى بعد ياردات قليلة منى • فان أنا حاولت اللحاق به فى قارب لأرى كيف يكون مسلكه معى ، وكيف يقـوم بمناوراته ، غطس واختفى عن الانظار اختفاء تاما ، حتى لم أكن أستطيع أن أقف على مكانه الا فى أواخر النهار أحيانا • على أنى كنت مع ذلك أمهـــر منه ، وأكبر من ند له على سطح الماء • فكان يغـادر المكان عند نزول المطر •

وبينما أنا أجدف حذاء الشاطىء الشمالى ، عصر يوم هادىء كل الهدوء من أيام شـــهر أكتوبر ــ وذلك لان هذا الطائر يستقر على سطح البركة فى مثل هذه الايام ، استقرار حشيشـة جذور السبيع أسفلها ــ بينما أنا كذلك ، وقد أعيانى البحث عن غطاس* فى البركة ، اذا بواحد

منها يخرج من الشاطيء فجأة ويتجه نحو وسط البحيرة على بعد عشرات من الياردات مني ، وضحك ضحكته الوحشية المعهودة فكشف بذلك عن نفسه ، فتبعته بالمجداف ، ولكنه غطس ، ولما عاد الى الظهور كنت أقرب اليه من قبل ، فعاد الى الغطس ، الا أني لم أحسن هذه المرة حساب الاتجاه الذي كان يمكن أن يتجه اليه ، فاذا بالشقة قد ازدادت بيننا ، فافترقنا الواحد عن الآخر بنحو مائتين وستين ياردة عندما ظهر على السطح هذه المرة ، فقد كنت سببا في توسيع الشقة بيننا ، وعاد ثانية يضحك ضحكة طويلة عالية ، وحق له أن يضحك هذه المرة ، أكثر مما كان يضحك من قبل ، ثم جعل يقوم بمناورات تنطوي على مكر وختل كبيرين ، حتى لم أعد أستطيع أن أقترب منه بضع عشرات من الياردات ، وكان في كل مرة يطفو فيها على السطح يدور برأسه متلفتا الى هذه الناحية ثم الى تلك ، وينظر الى الماء مرة والى الارض أخرى يتفحصهما بكل هدوء وثبات ، ويبدو أنه اختار الطريق التي تتيح له أن يطفو حيث سطح الماء أوسع ما يكون ، وحيث المسافة بينه وبين القارب أبعد ما يمكن أن تكون ، فمن عجب حقا أن يعزم رأيه وينفذه بهذه السرعة العظيمة ، وسرعان ما اقتادني الى أوسع جزء في البركة ، ثم لزمه ، وأبى أن يتزحزح عنه بحال من الاحوال ، وبينما كان يقلب أمرا في فكره كنت أحاول أنا أن أتنبأ بما يجري فيه بعقلي ، فكانت قصة جميلة حقا تجري على سطح البركة الأملس بين رجل وبين غطاس* ،

فأحيانا كان يطلع على غير ما كنت أتوقعه أن يطلع ، فيظهر في الجانب المقابل بعد أن يكون قد مر تحت القارب كما يبدو لي ، ولقد بلغ من طول نفسه ومدى احتماله وصبره على التعب ، أنه بعد أن يكون قد عام الى أبعد ما يستطيع أن يعوم ، يعود ويغطس في الحال من جديد ؟ وعندئذ لا يستطيع عقل بشر أن يتنبأ بأي موضع في البركة العميقة تحت سطحها الأملس، سيشق طريقه تحتها كالسمكة فله المقدرة وعنده الوقت الكافي ليزور قاع البحيرة في أعمق جزء منها ، وقيل ان الطائر الغطاس* هذا قد اصطيد في بحيرات نيويورك على بعد ثمانين قدما من السطح بواسطة صنانير أعدت لصيد السمك (الأريوان)* مع أن والدن أعمق من هذا ، وما أشد دهشة الاسماك وعجبها عندما ترى هذا الزائر غير الوسيم ، يأتي اليها من عالم آخر يشق طريقه بهذه السرعة بين جموعها ! ومع ذلك فقد كان يبدو أنه يعرف طريقه حق المعرفة، وهو تحت الماء ، كما يعرفه على سطحه ، بل لقد كان يعوم تحت الماء بأسرع مما يسبح على السطح ، وقد رأيت مرة أو مرتين مويجة صغيرة حيث اقترب من السطح فأتلع رأسه ليستكشف ما حوله ، ثم ما لبث أن غطس في الحال ، وأخيرا تبين لي أن الامرين يستويان : أن ألبث متكئا على مجدافي ، وأنا مستريح أنتظر ظهوره ، أو أن أحاول فأحزر المكان الذي ينتظر أن يطلع منه ،

فقد حدث المرة ، بعد المرة ، وأنا أجهد عيني ،وأركز بصري في سطح الماء في اتجاه معين ، أن يفاجئني هذا الغطاس*، فأسمع صوته خلفي،ولكن ما الذي كان يدعوه ، بعد أن يبدي كل هذا المكر وذاك الخداع ، لان يفضح نفسه باستمرار في اللحظة التي يظهر فيها بأن يضحك هذه الضحكة العالية ؟ ألم يكن صدره الابيض كافيا لان يكشف لنا عن أمره • فخطر ببالي أنه لابد أن يكون غطاسا أبله حقا • فقد كنت أسمع عادة صوت حركة الماء عندما يبدو على سطحه ، وبذلك كنت ألحظه وأتبينه كذلك ،ولكنه بعد مضى ساعة من الزمان ، كان يبدو أنه لايزال نشيطا كدأبه ؟ فيغطس كما كان يغطس،ويعوم كما كان يعوم مسافات أبعد مماكان يعوم من قبل • وكان مما يثير العجب حقا أن تراه يسبح في هدوء ووقار ، بصدر لم يتشعث عندما يظهر على سطح الماء وهو يعمل العمل كله برجليه المكففتين تحت سطح الماء • وكانت نغمته العادية هي هذه الضحكة الشيطانية ، وان كانت مع ذلك ضحكة قريبة من أصوات طيور الماء • ولكنه كان أحيانا ، بعد أن يفلت مني وينجح كل النجاح في أن يخيب أملي ويظهر على السطح على مسافة بعيدة ـ كان يصيح صيحة طويلة جهنمية أشبه بعواء الذئاب منها بأي طائر من الطير ، مثلما يضع أي وحش خطمه في الارض ويظل يصيح ويعوى عن عمد • ذلك كان صياح هذا الطائر ، ولعله كان أكثر وحشية من جميع الاصوات التي تسمع في هذه النواحي ، فقد كان يجعل الغابات تدوى من قرب ومن بعد ،فاستنتجت من ذلك أنه انما كان يضحك من جهودي ويسخر منها احتقارا لي وزراية علي ،وهو واثق كل الوثوق من سعة حيلته • ومع أن الجو أصبح غائما ، فقد ظلت البركة ساجية ملساء حتى كان في استطاعتي أن أراه عندما يخترق سطح الماء ليبرز منه ، وذلك عندما لا أسمع له نأمة ، لان صدره الابيض وسكون الهواء ، وملاسة الماء ، كانت كلها ضده تنم عنه وتفضح أمره • وأخيرا بعد أن يكون قد ظهر على مسافة كبيرة مني تقرب من الثلاثمائة ياردة،اذا به يصيح صيحة من صيحاته تلك الطوال ، كأنه كان يدعو رب «الغطاس» أن يأخذ بيده يعينه علي ، واذا بريح تهب من الشرق ـ عقب صيحته هذه مباشرة ـ غضنت سطح الماء ،وملأت الجو بالامطار والضباب ، فبلغ مني التأثر مبلغا كبيرا ، كأن دعوته قد استجيبت ،وكأن الهه كان غاضبا علي ناقما مني ، فتركت (الغطاس) يختفي على بعد كبير وسط سطح الماء المضطرب الهائج •

وقد ظللت ساعات طوالا في أيام الخريف أرقب البط وهو يصفح ويصلح ، كما يقولون ، بكل مكر ودهاء ، ملتزما وسط البحيرة ، بعيدا كل البعد عن الصياد • وكلها حيل لم يكن البط بحاجة ماسة الى ممارستها في خلجان لويزيانا* • فاذا ما اضطرت هذه الطيور أن ترتفع في الهواء رأيتها تدور أحيانا حول البحيرة ،وتطوف فوقها ، عدة مرات على علو شاهق

تستطيع منه أن ترى البحيرات الاخـــرى فى سهولة ويسر ، كما تســتطيع أن ترى كذلك النهر ، وعندئذ تبدو كأنها نكت سود فى الجو . فاذا ما ظننت أنها ولت من زمن طويل اذا بهـا تهبط طائرة فى خط مائل طوله ربع ميـــل ، وتنزل فى مكان بعيد كان قد ترك حرا . على أنى لست أدرى أى شىء حصلت عليـــه غير الأمن والسلامة بسبحها هذا وسط بحـــيرة والدن ، اللهم الا اذا كانت تحب مياه هـــذه البحيرة للسبب عينه الذى أحبها أنا من أجله .



تدفئة البيت

خرجت في شهر أكتوبر الى البطائح التي عند النهر أجني العنب من كرومه ، فجئت منه بحمل من العناقيد قيمتها في روعة جمالها ، وطيب نكهتها أكثر منها في أكلها . وقد أعجبت أيما اعجاب بثمار الآس البرى*، وان لم أجمع منها شيئا ، فهي جواهر غضة ، صفراء اللون ، بل هي قلائد يتحلى بها كلأ المراعي ، منها ماهو لؤلؤي اللون ، ومنها ما هو أحمره ، ومع ذلك يجنيها الفلاح بمسحاة قبيحة الشكل ، تدع المرعى السبط في حال متشعثة مضطربة ؛ ثم يكيلها في غير اكتراث بمكاييله ويقدرها بالدولارات وحدها ، ويبيع ما انتهبه من المروج الى بوسطن ونيويورك حيث تحول الى مربيات ترضي أذواق من فيها من محبي الطبيعة . وهكذا ينتزع الجزارون ألسنة الجاموس الوحشي من بين كلأ المراعي غير حافلين بالنبات الذابل الممزق الاوصال . وكذلك كانت ثمار «البربريس*» غذاء لعيني ليس الا . ولكني جمعت مع ذلك مقدارا صغيرا من التفاح البرى يصلح للطهي ، وهو تفاح كان المارة وصاحب الارض نفسه قد أغفلوا أمره . وعندما ينضج القسطل كنت أدخر منه نصف كيلة للشتاء ؛ وكان من المثير حقا أن أطوف بغابات القسطل هذه التي كانت لا تزال واسعة لا حد لها في لينكولن . أما الآن فهي تنام النوم الطويل تحت السكة الحديدية ، وكنت أحمل حقيبة على كتفي ، وأمسك بيدي عصي أفتح بها الثمار ، لاني لم أكن دائما أنتظر حتى الصقيع ، وأظل أطوف وسط حفيف الاوراق وعتاب السناجيب الحمر الصاخبة ، وما توجهه الى آباء زريق من اللوم ، على ما كنت أسرقه أحيانا من بندقها الذي استهلكته بعض الاستهلاك ، فقد كانت الثمار التي اختارتها تحتوي يقينا على حبات سلام . وكنت في بعض الاحيان أتسلق الاشجار وأهزها كي تسقط بعض ثمارها . وكانت بعض هذه الاشجار تنمو خلف بيتي ، منها شجرة ضخمة كادت أن تشرف عليه كله ، واذا ما ازدهرت كانت باقة من الزهر يعطر أريجها الحي كله ، وان كانت السناجيب وآباء زريق هي التي تجني الجزء الاعظم من ثمارها . فكانت هذه العصافير تأتي جماعات في الصباح وتلتقط الثمار من بين أغلفتها الشائكة قبل أن تسقط من الشجرة . فخطر لي أن أدع هذه الاشجار وأولي وجهي شطر الغابات البعيدة ، التي كل أشجارها من نوع القسطل . وثمار هذه الاشجار ، على ماهي عليه ، تعد بديلا من

الخبز صالحا • ومن الجائز أن نجد بدائل أخرى منه ، وان كنا لا ندرى عنهـا شيئا • وذات يوم وأنا أحفر فى الارض بحثا عن الديدان لأتخذمنها طعما للسمك ، استكشفت النبات المعروف (بحب العزيز) منتظما فى خيوطه • هـــذا النبات الذى كان بمثابة البطاطس عند الاقدمين من السكان الاصليين • وحب العزيز هذا نوع من الفواكه الاسطورية يساورنى الشـــك فى أن كنت فى طفولتى قد نقبت عنه فى الارض ثم أكلت منه ، كما ذكرت من قبـــل ، أو كنت أحلم به ليس الا • ومنذ ذلك الوقت وأنا أرى زهرته الحمراء المخمـــلة المجعدة مستندة الى جذوع نباتات أخرى ، من غير أن أدرك أنهـاهى • لقد كادت الزراعة تقضى على هذا الحب ذى الطعم الحلو الذى يشبه طعـــم البطاطس ، وقد قرسه الصقيع • هذا ، وقد وجدت أن أكله مسلوقا خير منه مشويا • وبدت لى درناته كأنها وعد ضعيف من الطبيعة بأن تقوم هى بتربيـة أبنائها فى المستقبل وتطعمهم هنا فى هــذا المكان طعاما بسيطا • أما فى هذه الايام ، أيام الماشـية المسمنة ، والحقـــول التى تتماوج بما فيها من غلال فقد أغفل أمر هذا النبات الجذرى الوضيع حتى نسى ، وقد كان من قبـــل طوتم* قبيـلة هندية من الهنود الحمر ولم يعـــد يعرف الا بكرومه المزهرة •

فلو أننا تركنا للطبيعة حريتها وسلطانها هنا مرة أخرى لكان من المحتمل أن تختفى تلك الغلال الانجليزية الرقيقة الزاخـــرة ، وتزول أمام ما يتهددها ويحدق بها من الآلاف المؤلفة من الاعداء ؟ فلولا عناية الانسان واهتمامه لعادت الغربان تنقل آخر حبة من الاذرة الى ذلك الحقل الكبير الذى كان لاله الهنود فى الجنـــوب الغربى ، والذى يقال ان الغربان كانت هى التى جلبتها منه فى البداية ، أما حب العزيز الـذى كاد أن ينقرض فلسوف يستعيد قوته ويزدهـر على الرغم من الصقيع ومن وحشيته ؟ وعنـدئذ يبرهن على أنه نبات أصيل هنا حقا • وسرعان ما يستأنف ما كان له من شأن ومن كرامة قديمة بوصفه غذاء قبيلة الصيادين ، ولا بد أن الهـا هنديا قديما مثل سيريز* ، أو مينرفا* كان قد اخترعه وقدمه للناس منحة منه • واذا ما صار للشعر سلطانه وحكمه ، فمن الجائز أن تمثـل أوراق هذا النبات وخيوطه فيما تنتجه هنـا من روائع الفن •

رأيت قبل أول سبتمبر شجرتين صـغيرتين أو ثلاثا من أشجار الاسفندان عبر البركة انقلبت قرمزية اللون ، وذلك تحت المـــكان الذى قامت فيه ثلاث أشجـــار من نوع من الحور ، وافترقت جذوعها بعضـــها عن بعض عند رأس صخرة قريبة من الماء • فكم من قصة ينم عنها لونها هذا ! وتدريجيا ، أسـبوعا بعـد أسبوع ، تجلت شخصية كل شـجرة من هذه الاشجار الثـــلاث وجعلت تعجب بصـــورها المعكوسة على مرآة البحيرة الملساء • وكان مدير

معرض الصور هذا يغير في كل صباح صورة من الصور التي على الاسوار ويضع محلهـا صورة أخرى جـديدة تتميز بألوان أزهى ، وبانسجام أكبر مما كانت عليه الاولى .

وما ان جاء شهر أكتوبر حتى وفدت الزنابير الى مسكنى آلافا مؤلفة ، كأنما جاءت الى مشتاها ، واستقرت على نوافذى من الداخـل كما استقرت على الجدران فوقى ، حتى بلغ بها الامر أن منعت الزائرين من دخـول البيت . وكنت أكنس بعضا منها في كل صباح بعد أن يكون البرد قد خدرها . على أنى في الواقـع لم أجشم نفسى مئونة التخلص منها ، بل بلغ بى الامر أنى شعرت بأن اعتبارها بيتى ملجأ مرغوبا فيه ، تحية منها لى . فهى لم تؤذنى قط أى أذى يذكر ، وان صحبتنى فى فراشى . وشـيئا فشيئا أخـذت تختفى ، ولست أعرف فى أى شقوق اختفت ، هربا من الشتاء والبرد القارس .

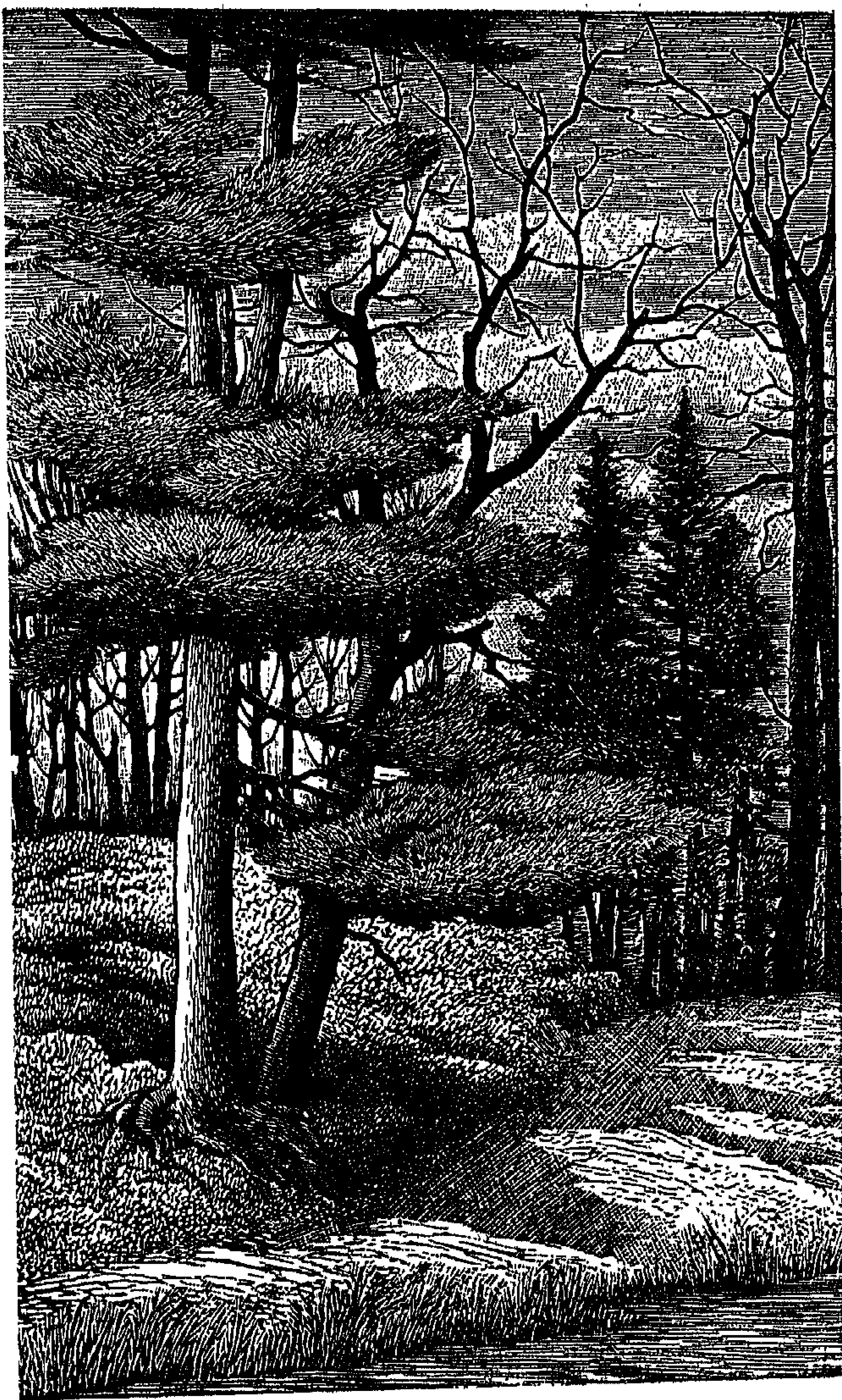
وكنت قبل أن أتجه نهائيا الى مشتاى فى شهر نوفمبر ، اعتدت ، كما اعتادت هـذه الزنابير ، أن ألتجىء الى الجانب الشمالى الشرقى من بحيرة والدن ، لان انعـكاس الشمس من غابة الصنوبر الراتنجى ، ومن الشاطىء الحجرى ، جعله جانب البركة الذى فيه الدفء . فخير لك وأصح أن تسـتدفىء بحرارة الشمس ما استطعت أن تستدفىء بهـا ، ولا تلجأ الى أية نار اصطناعية . وهكذا جعلت أستدفىء بما كان الصيف قد خلفه وراءه من جـذى ما زالت متوهجة بعد رحيله ، مثلها فى ذلك مثـل الجـذوات التى يتركها الصياد وراءه بعـد ارتحاله .

ولما شرعت فى بناء مدفأتى عمدت الى دراسة فن البناء . واذ كان ما عندى من الطـوب قد استعمل من قبل ، كان لا منـاص لى من تنظيفه ، بالمحارة ، فتعلمت الكثير عن صـفات الطوب وخواص المحارات ، وعرفت عنها أكثر مما يعرفه الناس عادة . وكان عمر الشيد الذى عليه ، خمسين عاما ، ويقال انه كان يزداد مع ذلك قوة ومتانة . على أن هذا قول من تلك الاقوال التى يحب الناس أن يلوكوها ويكثروا من الخوض فيها ، حقا كانت أو باطلة ؛ ومثلها يتجمد من تلقاء نفسه ويزداد تماسكا على مر الزمن . ولا يخفى أن تنظيف عقل رجل من أدعياء الحكمة يتطلب ضربات عدة من المحارة . هذا ، وأن الكثير من البيوت فى الجزيرة العراقية كان مبنيا بطوب مستعمل من صنف جيـد كل الجودة ، اذ أخذ من أطلال مدينة بابل ، وكان الاسمنت الذى عليـه أقدم منه عمرا ، ولعله لا يزال أقسى وأجود . ومهما كان الامر فقـد أدهشتنى قوة الفولاذ الخاصة التى جعلته يتحمل هذه الضربات الكثيرة من غير أن يلحقه البلى . واذ كان الطوب الذى عندى ، فى مدفأة من قبل ، وان لم أقرأ عليه اسم نبو خذ نصر*، فقد انتقيت أكبر عدد ممكن من طـوب المدافىء استطعت الحصـول عليه وذلك لأوفر الوقت

وأمنع « العادم » . ثم ملأت الخصاص التى بين كل طوبة وأخرى حول المدفأة بأحجار ، جئت بها من شاطىء البركة . وكذلك صنعت «مونتى» من الرمل الابيض الذى جئت به من المكان عينه . وقد استغرقت فى بناء المدفأة وقتاأطول مما استغرقته فى بناء أى جزء آخر من البيت ، وذلك لانها أهم أجزاء البيت ، وأكثرهاحيوية . وفى الحق ، لقد اشتغلت فيها بدؤوب وعزم . فمع أنى بدأت العمل من سطح الارض فى الصباح ، فلم أرتفع بالبناء سوى طبقة من الطوب لا تعلو عن الارض الا بضع بوصات اتخذتها وسادة لى قضيت الليل نائما عليها ، من غير أن أصاب بشىء من التصلب فى عنقى أستطيع أن أتذكره . أما ما كان عندى من تصلب فيها فيرجع الى تاريخ قديم سابق على هذا التاريخ . فقد استضفت فى القارب شاعرا أسبوعين حوالى تلك الايام مما جعلنى أشعر بالضيق من حيث المكان ، وكان الشاعر قد أحضر معه سكينه الخاص . وكان معى سكينان فجعلنا ننظفها بأن نغرزها فى التراب . وقد اشترك معى الشاعر فى عملية الطهى ،وطاب لى أن أرى عملى يتم ويصبح صلبا وطيدا شيئا فشيئا ، وخطر ببالى ، ان كان العمل قد سار سيرا وئيدا فالمقصود به أن يعيش زمنا طويلا . فالمدفأة تعد ، الى حد ما ، شيئا مستقلا بذاته ، يقوم على الارض ، ثم تصعد مخترقة البيت كله حتى تبلغ عنان السماء . وحتى اذا تصادف واحترق البيت ، ظلت المدفأة قائمة ؛ وعندئذ يستبين للناس جميعا ما لها من أهمية واستقلال . وكان ذلك كله يجرى قرابة أواخر الصيف . أما الآن فنحن فى شهر نوفمبر .

وقد بدأت ريح الشمال تبرد البركة ، وان كان ذلك قد استغرق منها عدة أسابيع وهى تهب باستمرار ، نظرا لعمق البركة البالغ . وعندما أخذت فى اشعال النار فى بيتى مساء ، وقبل أن أطليه بالملاط ، كانت المدخنة تخرج الدخان بشكل صالح كل الصلاح ، من جراء كثرة الشقوق التى بين ألواح الخشب . ومع ذلك فقد قضيت ليالى بهيجة مرحة فى هذه الشقة الهاوية الرطبة المحوطة بألواح من الخشب الاسمر الكثير العقد ، وتمتد « جوائز » السقف فوق رأسى وعليها لحاؤها لم ينزع عنها .

ولم يرق لى بيتى هذا ويسرنى بعد طلائه بقدر ما أعجبنى وسرنى قبله . ومع ذلك فلا يسعنى الا أن أعترف بأنه كان أكثر راحة لى . ألا ينبغى أن تكون كل شقة فى بيت يسكنه الانسان مرتفعة ارتفاعا كبيرا يحدث شيئا من الظلمة عند السقف فتطيف به الظلال والأخيلة فى المساء وتتراقص عند « جوايزه » ؟ فهذه الاشباح أمتع للخيال والوهم من النقوش الجصية أو غيرها مما على أى أثاث مهما غلا ثمنه وكثرت تكاليفه . وهأنذا الآن قد بدأت لاول



مرة أسكن بيتى هذا ، أى عندما شرعت أستخدمه من أجل الدفء ، كما استخدمته من حيث هو مأوى لى • وكنت قد استحضرت أثفيتين من الحديد لرفع خشب الوقود عن أرض الموقد ، وسرنى أن أرى السناج يتكون على ظهر المدخنة التى أنشأتها بيدى • وكنت أحرك النار وأحشها وأنا مغتبط مسرور أكثر من المعتاد • وكان مسكنى هذا صغيرا لا تكاد تسمع فيه صدى لصوت ، ولكنه ، على صغره ، كان يبدو أكبر من حقيقته من حيث هو شقة واحدة ، وبمنأى عن الجيران • وكان كل شيء رائع جذاب فى البيت مجموعا فى حجرة واحدة ، هى مطبخ وحجرة وبهو وحجرة استقبال • وكل متعة يمكن أن يستمتع بها فى البيت والد أو طفل أو سيد أو خادم كنت أستمتع بها أنا فى بيتى هذا • يقول كاتو : يجب أن يكون عند رب البيت فى بيته الريفى كيلار للخمر والزيت ، وبراميل كثيرة كى يستطيع أن يجد السرور فى نفسه من جراء ما يتوقعه من أوقات الشدة والضيق • ففى ذلك سيكون فائدته ومجده وفضيلته » • وعندى فى كيلارى نصف برميل من البطاطس وبعض من البسلة بما فيها من السوس ، وعلى رفى قليل من الارز ، وجرة ملأى بالعسل الاسود ، وقدحان من دقيق الجودا • ومثلهما من دقيق الاذرة •

وقد أحلم أحيانا بأن يكون لى بيت أوسع رقعة ، وأكثر مكانا ، يقوم فى عصر ذهبى ، مبنى من مواد صلبة عظيمة الاحتمال ، لا من مواد هشة زائفة ، على أن يكون هو الآخر من حجرة واحدة ، وردهة واسعة خشنة بدائية ولكنها متينة ، من غير سقف أو طلاء ، موائله المساعدة عارية ، « واستريباحه » يحمل شبه سماء منخفضة ، فوق رأسى تصلح لدرء المطر والثلوج ، وحيث « قوائم الملك »و « الملكة »* تتلقى تحياتك وعلائم خضوعك واحترامك بعد أن تكون قد قمت بمراسم التوقير والاجلال لساتورن* الاله المنبطح الذى ينتمى الى أسرة أعرق من أسرتيهما ، عندما تخطو على وصيد الباب • فهو بيت أشبه مايكون بمغارة حيث تضطر فيه الى رفع شعلة عالية على رمح طويل كى تتمكن من رؤية السقف ، وحيث يتسنى للبعض أن يعيشوا فى المدخنة ، ولآخرين فى كوة النافذة ، ولبعضهم على دكك ، وبعض آخر عند أحد طرفى البهو ، وغيرهم عند الطرف الآخر • كما يتسنى لبعضهم كذلك أن يقيموا على جوائز السقف مع العناكب ان شاءوا • فهو بيت تكون قد دخلته فعلا اذا ما فتحت بابه الخارجى ، وتكون مراسم الاستقبال قد تمت كلها ـ بيت يستطيع السائح المكدود أن يغتسل فيه ، ويأكل ويتحدث وينام من غير أن يحتاج الى أن يسافر أكثر مما سافر • فمأوى مثل هذا يسرك أن تصل اليه فى الليلة العاصفة • ففيه كل ما هو ضرورى وأساسى للبيت ، وليس به شيء مخصص لادارة المنزل ، وتدبير شئونه ؛ وحسبك نظرة واحدة لترى كل مافيه

من ذخائر . فكل شيء يجب أن يراه انسان تجده معلقا فى مشجبه الخاص به . فهو مطبخ ومخزن للاطعمة وبهو ، وحجرة ومخزن وعلية معا ؟ تستطيع فيه أن ترى أشياء ضرورية لا غنى عنها،مثل برميل أو سلم أوشيء نافع مريح كالصوان؟وتسمع أزيز القدور وهى تغلى ، وتقدم تحياتك واحترامك للنار التى تطهو عليها غداءك ، وللفرن الذى ينضج لك خبزك . فكل مافيه من حلى وزخارف لا يعدو الاثاث القروى والادوات المنزلية ، لا تحتاج فيه الى نشر الغسيل خارج البيت ، ولا الى اخماد النار ؛ أو طرد الزوجة . وربما يطلب منك فى بعض الاحيان أن تبتعد عن باب خوخة فى الارض عندما يريد الطاهى أن ينزل الى (الكيلار) ، وبذلك تعرف ان كانت الارض التى تحتك صلبة مصمتة أو جوفاء خاوية ، من غير حاجة منك الى أن تضربها بقدميك لهذا الغرض . فهو بيت داخله مكشوف ظاهر ، مثل عش الطائر ، ولا تستطيع أن تدخله من الباب الامامى ثم تغادره من الباب الخلفى من دون أن ترى بعض من فيه من السكان . اذا مانزلت ضيفا فيه معناه أن « حرية » المنزل تقدم اليك ، فلا حاجة لأن تستعبد بكل حرص وعناية عن سبعة أثمانه وتحتجز فى غرفة معينة ، ومع ذلك كله ، يؤذن لك أن تكون حرا فيه كما لو كنت فى بيتك الخاص - فتكون كالمحبوس فى سجن انفرادى . والمضيف لا يأذن لك بدخول بيته هو ، بل يطلب الى البناء أن يشيد لك بيتا آخر فى مكان ما فى حارته ،فليست الضيافة سوى فن استبقائك عند أكبر بعد ممكن من البيت . هذا ، وفى الطهى خفاء وسرية ، كأن النية كانت مبيتة على دس السم لك . انى أدرك حق الادراك أنى كنت فى أراضى ناس كثيرين ، وكان يصح أن أطرد منها شرعا ، ولكننى لاأذكر أنى كنت فى بيوت ناس كثيرين . وقد أزور ، وأنا بملابسى القديمة ، ملكا أوملكة يعيشان عيشة بسيطة فى بيت مثل ذلك البيت الذى وصفته ، ان تصادف وكنت سائرا فى الطريق المؤدى اليهما ؛ على أن الهرب من قصر حديث هو كل ما أود أن أتعلمه ، اذا حدث ووجدت نفسى فى قصر من تلك القصور .

وبدا الامر كأن اللغة نفسها التى نتحدث بها فى أبهائنا وصالوناتنا ، ستفقد كل ما فيها من قوة وحيوية ، وتنحط الى مجرد ملق وهراء ، وتصبح حياتنا بعيدة كل البعد عن رموز هذه اللغة ، لان مابها من مجازات واستعارات وكنايات بعيد متكلف بسبب ما نراه حولنا من ندل خرس لا يتكلمون . وبعبارة أخرى أضحى «الصالون» بعيدا كل البعد عن المطبخ والمصنع ، وصار العشاء نفسه مجرد « أمثولة » لعشاء عادة ، كأن المتوحش وحده هو الذى يعيش على كثب من الطبيعة والصدق ، اذا ما سمحنا لأنفسنا باقتراض استعارة من استعاراتهم .. فكيف يتسنى للرجل العالم الذى يسكن على بعد مسافة طويلة فى أقصى

غرب الولايات المتحدة أو فى جزيرة (مان)الانجليزية ـ كيف يتسنى له أن يعتبر شيئا مما يقال فى المطبخ لبقا وجديرا بأن يذكر فى وسط برلمانى ؟

ومع ذلك لم يتجرأ أكثر من ضيف واحد أو اثنين من ضيوفى على أن يبقى عندى ليتناول معى « بودنجة » سريعة . فاذا مارأى الضيوف اقتراب هذه الازمة منهم فضلوا أن يبادروا ويعودوا أدراجهم بسرعة ، كأنهم كانوا يخشون أن يهز ذلك البيت من أساسه . ولكن البيت على الرغم من ذلك صمد وقاوم كثيرا من أمثال هذه « البودنجات » السريعة وتحملها فى صبر وسلام .

لم أبدأ طلاء البيت الا عندما برد الجو وبلغ درجة الصقيع ، وعندئذ جلبت لهذا الغرض رملا أنظف وأنصع بياضا من المعتاد ـ جلبته فى قارب من العدوة الثانية للبركة ، والقارب وسيلة طيبة من وسائل النقل تغرينى بالسير أبعد مما سرت اذا لزم الامر . وفى أثناء ذلك أتممت سد خصاص المنزل بـ «السدابات» من كل جانب من جوانبه حتى أسفله . وعندما كنت أقوم بتركيب (البغدادلى) سرنى أنى استطعت أن أدق كل مسمار دقا محكما بضربة واحدة من القدوم ، فقد كنت أطمح أن أنقل الملاط من اللوح الى الجدار بكل سرعة واتقان ، ونظافة ؛ وتذكرت قصة ذلك المغرور الذى كان من عادته ، وهو مرتد خير ملابسه وأفخرها ، أن يتسكع فى طريق القرية ينصح العمال ويرشدهم ، فبلغ به الامر أن تجرأ واستبدل العمل بالقول فشمر عن أكمامه وحمل لوح الملاط ؛ وبعد أن ملأ (المحارة) فى أمان ومن غير حادث ، نظر الى الاخشاب البغدادلية فوقه نظرة تشف عن رضى واغتباط ، ثم أشار اشارة جريئة فى ذلك الاتجاه عينه فاذا بكل محتويات المحارة من الملاط تقع على صدره المزركش مما ضايقه كل المضايقة . فجعلت أنا أعجب من جديد بما فى طلاء البيت بالشيد من اقتصاد وبما فيه من راحة ، لأنه يمنع البرد عن البيت منعا تاما فضلا عن أن الملاط هذا يمكن أن يصقل الصقل الجميل . هذا ، الى أنى قد عرفت الاسباب التى تؤدى الى مختلف الاحداث التى قد يتعرض لها من يقوم بطلاء البيت بالملاط . وأدهشنى أن أرى مقدار ما كان يعانيه الطوب من عطش شديد ، فقد امتص كل ما فى الملاط من رطوبة قبل أن أسويه وأصقله ، كما أدهشتنى كثرة عدد جرادل الماء التى يستلزمها انشاء بيت جديد . هذا ، وقد صنعت فى الشتاء الماضى مقدارا صغيرا من الجير باحراق أصداف « الأونيو فلوفياتيلس » التى نجدها فى الانهار ، وكان ذلك من قبيل اجراء بعض التجارب ، مما جعلنى أقف على مصادر المواد الاولية التى أستعملها ، وقد كان فى مقدورى أن أحصل على أنواع جيدة من الجير أجلبها من مسافة ميل أو اثنين وأقوم باحراقها بنفسى ان شئت .

وفي هذه الاثناء تكونت طبقة من الجليد على سطوح أكثر الخلجان ظلا وأضحلها قاعا ، وذلك قبل أن يبدأ تجمد المياه العام ببضعة أيام ، ان لم يكن ببضعة أسابيع • فأول ما يتكون الجليد يكون رائعا حقا وبالغا مبلغ الكمال لانه يكون وقتئذ صلبا شفافا غامق اللون ، ويتيح لك خير فرصة ممكنة لفحص قاع البحيرة حيث يكون القاع ضحلا • لانك تستطيع أن تنبطح متمددا على جليد لا يزيد سمكه على بوصة واحدة كماتتمدد حشرة من «الزخارف*» على سطح الماء ؛ وتدرس القاع في أوقات فراغك ، وهو لا يبعد عنك بأكثر من بوصتين أو ثلاث ، ويتجلى لك كما تتجلى الصورة خلف المرآة ، فالماء يكون عندئذ دائما ساجيا بالضرورة فترى في الرمال عدة طرائق حيث طاف بها مخلوق من المخلوقات ثم عاد أدراجه فثنى بذلك ما خلفه من آثار أقدامه • أما من حيث ما فيها من حطام ، فقد كانت الرمال مرصعة بأغلفة ديدان (القمص)* ، وهي أغلفة تتكون من حبيبات دقاق من الكوارتز الابيض ، ولعل هذه الاغلفة هي التي غضنت القاع ، لانك ترى بعضها ملقاة في الطرائق التي في الرمال ، وان كانت هذه أعرض وأعمق من أن تكون من عمل الديدان • ومهما يكن الامر ، فالجليد نفسه هو موضع الاهتمام العظيم ؛ على أنه يجب أن تنتهز أول فرصة تسنح لك لتدرسه • فان أنت فحصت عنه فحصا دقيقا ، في الصباح عقب تجمده وجدت أن معظم الفقاعات التي بدت أول الامر كأنها داخلة ، كانت في الواقع تحت سطحه السفلى ، وأن كثيرا غيرها لا يزال يرتفع باستمرار من القاع ، وأن الجليد لا يزال صلبا وغامقا نسبيا — أي أنك تستطيع أن ترى الماء من خلاله • ويتراوح قطر كل فقاعة من هذه الفقاقيع بين ١/٨٠ من البوصة وبين ١/٨ منها ، وهي بالغة الجمال وصافية كل الصفاء حتى لترى وجهك منعكسا عليها من خلال الجليد • وقد يبلغ مايوجد منها في البوصة الواحدة ثلاثين أو أربعين فقاعة • وكذلك كان في الجليد من قبل فقاعات ، ضيقة مستطيلة وعمودية ، يقرب طول كل منها من نصف البوصة ، فهي مخاريط حادة رأسها الى فوق • وأغلب من ذلك ، عندما يكون الجليد جديدا كل الجدة — أن تجد فيه فقاعات دقاقا كروية الشكل ، كل فقاعة منها فوق الاخرى مباشرة ، كأنها سمط من الخرز • على أن هذه الفقاعات التي داخل الجليد ليست من الكثرة ولا من الوضوح مثل التي تحته • وأحيانا كنت ألقي بضعة أحجار لأمتحن قوة الجليد ، فكانت الاحجار التي تخترقه تحمل معها هواء يكون فقاعات بيضاء كبارا واضحة كل الوضوح تحته • وحدث ذات يوم رجعت فيه الى المكان نفسه بعد مضي ثمان وأربعين ساعة ، أن هذه الفقاعات الكبار كانت لا تزال كاملة ، على الرغم من أن سمك الجليد قد ازداد بوصة ، فقد كنت أرى ذلك واضحا من علامة الطبقة التي

تتكون على حافة القـــــرص . ولكن لما كان اليومان الاخيران دافئين كل الدفء كأنهما أيام صيف من أصياف الهند ، لم يكن الجليد الآن شفافا يظهر لك لون الماء الاخضر الغامق كما يظهر قاع البركة ، ولكنه كان مظلمـــاذا لون أبيض أو رمادى ؛ ومع أن سمكه قد تضاعف فلم يكن أصلب مما كان من قبل ، لان فقاعات الماء قد تمددت تمـــددا عظيما من تأثير الحرارة ، وتجمعت بعضها الى بعض وفقدت ماكان فيها من انتظام ، ولم تعـد ، كما كانت ، الواحدة فوق الاخرى . بل كثيرا ما كانت مثل النقود الفضية عندما تصب من كيس نقـود ، كل جزء من الواحدة راكبا مؤخرة الاخرى ،أو كانت ندفا رقاقا كما لو كانت تشغل شـقوقا طفيفة . لقد ولى جمال الجليد ، وفات الوقت الذى يتيسر فيه دراسة القاع . ولما كنت متلهفا على معـــرفة الموضع الذى احتلتـــه فقاقيعى الكبار ، بالاضافة الى الجليد الجـــديد كسرت قرصا يحتوى على فقاعة متوسطة الحجم وقلبته ظهرا لبطن ، فوجدت الجليد الجديد قد تكون حول الفقاعة وتحتها حتى أصبحت بين الجليدين، وكانت كلها فى الجليد الاسفل ولكنها ملتصـــقة بالاعلى ، وكانت مفرطحة الى حد ما ، أو محدبة بعض التحـــدب لها حافة مستديرة ، سـمكها ربع بوصة ، وقطرها أربع بوصات . ودهشت أن أجد الجليد الذى تحت الفقاعة مباشرة ، قد ذاب بانتظام كبير ، وصار فى شكل طبق فنجانه مقلوب ، ارتفاعه عند الوسط خمسـة أثمـان البوصـــة ، وقد ترك حاجزا رقيقـا بين الماء والفقاعة لا يزيد سـمكه عن ثمن بوصـــة . وكانت الفقاعات الصغار التى فى هذا الحاجـز الرقيق قد انفجرت فى كثير من المواضـــع ، متجهة الى أسفل ، وربما لم يكن أى جليـــد تحت الفقاعات الكبار التى يبلغ قطرها قدما . فتوصلت من ذلك الى أن هذا العـــدد الذى لايحصى من الفقاعات الصغار التى كنت قـــد شاهدتها فى البداية تحت سطح الجليد ، قـد تجمدت كذلك ، وأن كل فقاعة منهـــا كانت تعمل ، بحسب درجتها ، كما لو كانت عدسـة حارقة ، على الجليـــد الذى تحتها ، فتذيبـــه وتخلخله . تلك هى بنادق الهواء الصغار التى تعاون على تشقق الجليد وتحلله .

وأخيرا أقبل الشتاء بخيله ورجله عقب فراغى من طلاء بيتى بالشيد ، وانطلقت الرياح تتناوح البيت من كل جانب وتزأر حوله ، كأن لم يكن قد أذن لها أن تفعل ذلك الا الآن . وتوافد الاوز ليلة بعد ليلة فى الظلام بشـــكل بعيد عن الرشاقة ، فكنت تسمع له صـــياحا ، ولأجنحته صفيرا . وظل يجىء حتى بعد أن تتغطى الارض كلها بالثلوج ، فينزل بعض منه فى والدن ، ويطير البعض الآخر على ارتفـاع قليل فوق الغابات ، متجها نحو « فيرهافن » ، قاصدا بلاد المكسيك . وكم من مرة ، وأنا عائد من القرية ليلا فى الساعة العاشرة أو الحـادية عشرة ، سمعت وقع أقدام قطيع من الاوز ، أو من البط ، على أوراق الشجر الجافة فى الغابات

على مقربة من ثقب من الثقوب التي في البركة ، خلف مسكني ، حيث كانت تجيء لتطعم . وكنت أسمع صوت زعيمها الخافت عندما تبرح المكان . وفي سنة ١٨٤٥ تجمدت مياه والدن كلها لأول مرة ليلة ٢٢ ديسمبر . أما بحيرة فلنت وغيرها من البحيرات الضحلة الأخرى ، وكذا النهر ، فكانت قد تجمدت قبل ذلك بعشرة أيام أو أكثر . وتجمدت في سنة ١٨٤٦ في السادس عشر من الشهر ، وفي سنة ١٨٤٩ في الحادي والثلاثين منه ، وفي سنة ١٨٥٠ نحو السابع والعشرين من ديسمبر ، وفي سنة ١٨٥٤ في الخامس من شهر يناير ، وفي سنة ١٨٥٣ في الحادي والثلاثين من ديسمبر . هذا ، وكانت الارض قد اكتست من قبل بالثلج منذ الخامس والعشرين من نوفمبر ، وأحاطتني فجأة بمناظر فصل الشتاء . فانزويت في بيتي أكثر مما كنت أفعل من قبل ، وحاولت أن أوقد نارا متأججة فيه ، وفي صدري معا . وأصبح عملي خارج البيت مقصورا على جمع الحطب من الغابة أحمله في يدي ، أو على كتفي . فكنت أسحب أحيانا شجرتين ميتتين بأن أضع طرف كل واحدة منهما تحت ساعد من ساعدي ، وأمضي بهما الى حظيرتي . وثمة سياج قديم للغابات ، ولت خير أيامه وأسعدها ، كان لقية طيبة لي ، فضحيت به قربانا « لفلكان »* لانه لم يعد يصلح للقيام بتأدية وظيفة « ترمينوس »* على خير ما كان يؤديها من قبل . وانها لحادثة أهم من ذلك وأروع حقا ـ حادثة عشاء ذلك الرجل الذي كان يتصيد توا الوقود الذي يصلح به عشاءه هذا ، بل قل ، انه كان يسرقه ، ان شئت . فخبزه ولحمه يكونان حلوين لذيذين . ففي الغابات التي في كثير من بلادنا كسارات من الخشب ، وغيرها من أخشاب مهملة من شتى الانواع تكفي لايقاد نيران كثيرة ، ولكنها لم تعد الآن تدفيء أحدا ، مع أن من الناس من يرى أن هذه الاخشاب تقف عقبة في سبيل نمو الاشجار الخشبية الصغيرة . هذا ، وكان ثمة كذلك ما يكفي من الخشب طافيا على سطح مياه البركة . وقد اكتشفت في الصيف الماضي رمثا مصنوعا من عدة كتل من خشب أشجار الصنوبر الراتنجي ، مازالت محتفظة بلحائها ، كان قد سمرها الايرلنديون بعضها ببعض عندما كانوا يعملون في انشاء طريق السكة الحديدية ، فسحبت جزءا من هذا الرمث الى الشاطيء . وبعد أن ظل منقوعا في الماء سنتين ، وعلى الشاطيء ستة شهور أخرى ، أضحى سليما وصالحا كل الصلاح على الرغم من تشبعه بالماء تشبعا لا مجال معه أن يجف . وحدث أن تسليت ذات يوم من أيام الشتاء بأن أجعل هذا الرمث ينزلق قطعة فقطعة على الجليد عبر البركة مسافة نصف ميل على وجه التقريب ، وأنا خلفه أتزحلق كذلك على الجليد حاملا على كتفي طرف قطعة طولها خمس عشرة قدما ، وتاركا الطرف الآخر على الجليد . وتارة كنت أربط عدة كتل بعضها ببعض بحبل أتخذه من البيتولا

اللينة ، ثم بواسطة بيتولا أخرى أو بواسطة شجرة من أشجار الحور أطول منها ولها صناوة فى طرفها ، ثم أسحبها كلها على البركة . ومع أنها كانت متشبعة بالماء كل التشبع وثقيلة ثقل الرصاص فقد كانت تظل تحترق مدة طويلة ، فضلا عن أن النار التى تخرج منها كانت قويه حامية ، بل لقد خطر ببالى أنها كانت تحترق احتراقا أفضل ، من جراء تشبعها بالماء هذا . فكأن ما بها من قطران كان يحترق مدة أطول لانحصاره بين الماء ، وذلك كما يحترق فى المصابيح

قال « جيلبين » فى وصفه لحراس الغابات فى بلاد الانجليز : كانت اعتداءات الناس على الغابة ، واغارة البيوت والاسيجة التى أقيمت عند حافاتها ، تعد مصدر متاعب ومضايقات كثيرة فى القانون القديم ، ولذا نص فيه على انزال العقاب الصارم بهم لانها تؤدى الى افزاع الصيد وتنفيره ، والى اتلاف الغابة . على أن الذى كان يهمنى هو المحافظة على الصيد نفسه ، وعلى الأجمات التى يختبىء فيها ، أكثر مما يهمنى الصيادون والحطابون ، كأنما كنت وزير الغابات نفسه . فاذا ما حدث واحترق جزء من الغابة ، ولو كنت أنا الذى أحرقته عرضا ، حزنت عليه حزنا أشد من حزن أصحاب الغابة أنفسهم عليه وأطول منه أمدا ، بل كنت أحزن عليها اذا ما قطعها أصحابها هؤلاء . فليت المزارعين يشعرون بشىء من تلك الرهبة التى كان يستشعرها الرومان عندما يخفون غابة مقدسة عندهم ليدخلوا الضوء اليها ، أى ليتهم يعتقدون أنها مقدسة فى نظر اله من الآلهة . فقد كان الرجل الرومانى يقدم كفارة الى الاله ويصلى قائلا : اللهم يامن تقدست هذه الغابة باسمه ـ (الها كنت أو الهة) ـ أسألك الرحمة بى وبأسرتى وأطفالى .

ومن عجب أن الناس لا يزالون يجعلون للخشب قيمة كبرى حتى فى هذا العصر ، وفى هذه البلاد الجديدة ، وهى قيمة أدوم ومعترف بها فى العالم كله ، أكبر من قيمة الذهب . فعلى الرغم من مكتشفاتنا ومخترعاتنا لا يكاد أحد منا يمر بكومة خشب من غير أن يحتفى بها ويكترث لها ، فهى لا تزال ذات قيمة كبيرة لنا ، كما كانت لأجدادنا من السكسون والنورمنديين ، فان كانوا يتخذون منها خشب قسيهم ، فانا كذلك نصنع منه زجاج بنادقنا . قال ميشو*: منذ أكثر من ثلاثين سنة كان ثمن خشب الوقود فى نيويورك وفى فيلادلفيا ، يكاد يعادل ثمن أحسن أنواعه فى باريس ، أو يزيد عليه فى بعض الاحيان ، وان كان رأس المال الضخم هذا يقتضى فى كل سنة أكثر من ثلاثمائة حبل ، وتحيط به سهول منزرعة تمتد ثلاثمائة ميل . وأسعار الخشب تصعد فى هذه البلدة صعودا يكاد يكون مستمرا موصولا . والمشكلة الوحيدة هى الحد الذى سترتفع اليه فى هذه السنة أكثر مما كانت عليه فى السنة التى قبلها . فالعمال والتجار الذين

يأتون بأنفسهم الى الغابة لهذا الغـرض وحده سيحضرون حتما مزاد الخشب ، بل انهم ليدفعون ثمنا أعلى ليصرح لهم بتسقط الاخشاب وجمعها بعد أن يفرغ الحطاب من عمله . لقد مضت سنون طوال على التجاء الناس الى الغابة يبحثون عن خشب الوقود ، ومواد الفنون والصناعة ، ولا يزال كل ساكن فى نيو انجلند وكل ساكن فى نيو هولنـــد ، الباريسى منهـم والكلتى ، المزارع وروبين هود ، جودى بليك ، وهارى جيل فى أغلب بقاع العالم ، والامير والفـلاح ، والعالم والمتوحش كلهـــم لا يزال بحاجة الى قليل من الخشب من الغابة ليستدفىء به وليطهو عليه طعامه . وكذلك أنا لا أستطيع أن أستغنى عن هذه الاخشاب .

ينظر كل انسان الى كومة أخشابه بنوع من العطف والمودة . وكان يطيب لى أن أرى كومتى أمام نافذة بيتى . وكلما زاد ما فيهـــا من الكسارة والشظايا كان ذلك خـــيرا لى ، اذ أنه يذكرنى بعملى السار . هذا ، وقد كان عندى بلطة قديمة لم يحضر أحد ليطالب بهـا كنت أعبث بها أحيانا فى أيام الشتاء عند الجانب المشمس من البيت ، فأضرب بها أعجاز الشجر التى سبق أن استخرجتها من حقل الفـول . وكما تنبأ سائق الخيل عندما كنت أحرث الحقل، فانها قد أدفأتنى مرتين ، مرة وأنا أفلقهـــــا والاخرى وهى تحترق فى النـــار ، حتى انى لأجزم بأنه لم يكن ثمة وقود يعطى حـــرارة أكثر منها . أما من حيث البلطة فقد أشار على بأن أبعث بها الى حداد القرية ليصلحها ، ولكنى استغنيت عنه بأن جعلت لها يدا من خشب الجوز الامريكى مما جعلها صالحة كل الصلاح ، فان كانت لاتزال غير مرهفـة فانها موزونة عـــلى الاقل .

ان بضع قطع من خشب الصـــــنوبر «السمين» لتعد ذخرا فى نظـرى . ومن الخـير ألا ننسى أن كثيرا من طعام النار هذا لا يزال خبيئا فى باطن الارض . وكثيرا ما ذهبت فى السنين الماضية أبحث عن الخشب فى ســـفح جبل عار حيث كانت تنمو عليه غابة من غابات الصـــنوبر الراتنجى فى الزمن القـــديم ، واستخرجت جذور الصنوبر السمينة ؟ وانهـا لتكاد تكون غير قابلة للفناء اذ كانت الأعجـاز التى عمرها ثلاثون سنة أو أربعون على الأقل لا تزال مع ذلك سـليمة الباطـن ، وان كان «الكامبيوم» قد أصبح كله مدرا نباتيا كما يتبين من طبقات اللحاء الكثيف الذى يكون حلقة فى مستوى الارض على بعد أربع بوصات أو خمس من القلب . ومن اليسير عليـــك أن تنقب فى هذا المنجم بالبلطة والمجرفة ، وتتبع هذا المخزن الدسم الاصفر الذى يشبه صفرة شحم البقر ، وعندئذ تكون قد عثرت بعـــرق من الذهب متوغل عميقا فى جوف الارض . عـلى أنى كنت عادة أشعل نارى بأوراق الشـجر الجافة التى أجلبها من الغابة وأدخر الكثير منهـا فى حظيرتى الخاصة قبل أن تسقط الثلوج . وعندما

يعسكر الحطاب في الغابة ، ويشعل ناره بقطع صغار من أشجار الجوز الامريكي الاخضر ، بعد أن يغلقها تغليفا مناسبا . وحدث عدة مرات أن حصلت على طرف من مثل هذه الاخشاب . فعندما يكون القرويون قد أوقدوا نيرانهم وراء الافق ، كنت أنا كذلك أعلن سكان وادي والدن المتوحشين على اختلاف أنواعهم بواسطة رتل من الدخان يصعد من مدخنتي — أعلنهم بأني متيقظ .

أيها الدخان ذو الاجنحة الخفاف — أيها الطائر الايكاري
يا من يصهر أجنحته في أثناء طيرانه العالي
ويا أيتها القبرة التي لا تغرد ! يا رسول الفجر !
يا من تدورين حول القرى والاكواخ مثلما تدورين حول عشك !
لست أيها الدخان سوى حلم راحل ، وشبح
لرؤيا من الرؤى تبدو في منتصف الليل ، تجمع أذيالك .
ففي الليل تحجب النجوم ، وفي النهار
تسدل على الضوء الظلام ، فتحجب الشمس
فاصعد أنت يا بخوري من هذا الموقد ،
وادع الآلهة أن تعفو عن هذا اللهب النقي الواضح[1] .

كان الخشب الاخضر الصلب الذي قطع توا من الغابة صالحا وافيا بأغراضي صلاح أي نوع آخر ، وان كنت لا أستعمل منه الا القليل عادة . وكنت في بعض الاحيان أترك نارا قوية في البيت وأخرج الى الغابات أتريض فيها سيرا على الاقدام ، وذلك في مساء يوم من أيام الشتاء . وعند عودتي ، بعد ثلاث ساعات أو أربع ، أجد النار مازالت متأججة . فلم يكن بيتي بالبيت الخالي اذن في غيبتي عنه ، بل كان كأنما تركت فيه قهرمانا بهيجا يشرح الصدر . فأنا والنار نقطن هذا البيت معا . وكان قهرماني هذا أمينا عادة حريصا على سلامة البيت . ومع ذلك فقد خطر ببالي مرة وأنا أعمل في تفليق الخشب ، أن أطل من النافذة لأرى ان كان البيت لا يزال سالما لم تشب به حريق ما ، وكانت هذه هي المرة الاولى والوحيدة التي أذكر أن شيئا من القلق قد ساورني فيها بشأن البيت مخافة احتراقه ، بوجه خاص . ولذلك نظرت ، فاذا بشرارة قد علقت بفراشي ، فأسرعت ودخلت البيت وأطفأت النار بعد أن أحرقت جزءا من الفراش بقدر راحة اليد . على أن بيتي كان مقاما في موضع مشمس محمي ،

(١) من شعر المؤلف نفسه .

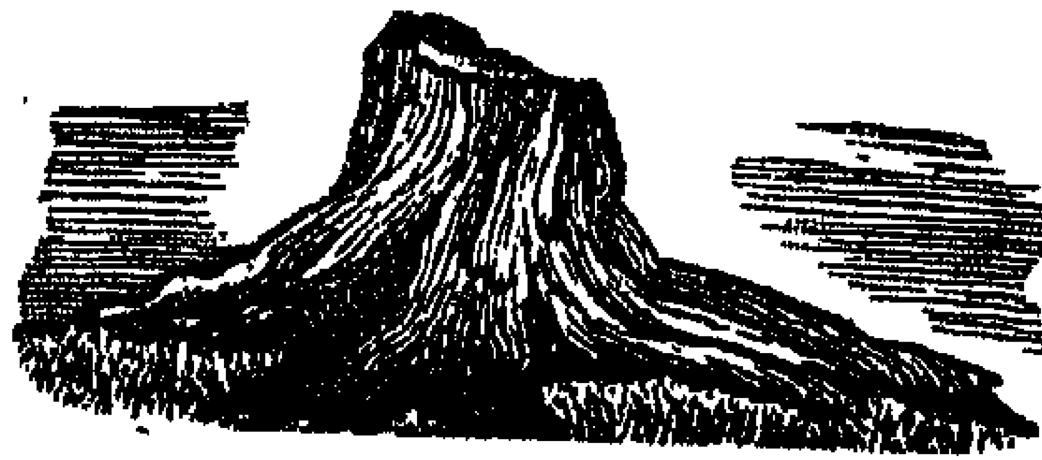
وكان سقفه منخفضا انخفاضا كافيا يخـول لى أن أدع النار تخمد وسـط أى يوم من أيام الشتاء .

هذا ، وقد اتخذت (فئران الحلد) عشاشهافى كيلار بيتى ، وجعلت تقرض ثلث ماعندى من البطاطس ، وتتخذ لها فيه فراشا مريحـا من الورق الأصفر ومن الشـعر الذى تخلف من عملية طلاء بيتى بالشيد . وليس يخفى أن أشدالحيوانات ضراوة وأكثرها توحشا تحب الراحة والدفء بمثل ما يحبهما بنو الانسان . فلم تكن تستطيع الحياة بعد الشتاء الا لانها تحرص كل الحرص على توفير هذين الامرين لنفسـها . وكان أصدقائى يتحدثون عنى كأنى انما جئت الى الغابات بقصد أن آبرد نفسى وأجمـدهاعمدا . ان الحيوان لا يعمـل غير فراش له ، يدفئه بحرارة جسمه فى مكان محمى مستور ، على حين أن الانسان ، بعد أن توصـل الى معرفة النار ، صار يحجز بعض الهواء فى شقة واسعة ، ثم يدفئه ، بدلا من أن يسرق الحرارة من ذات جسمه ، ثم يتخذ من هذه الشـقة فراشا له يستطيع أن يتحرك فيه بحرية بعد أن يكون قد خلع عنه ملابسه الثقال التى قد تعوقه فى حركاته . وبذلك صـار فى مقدوره أن يستبقى نوعا من الصيف قائما فى وسـط الشتاء ، بل انه يستطيع بما فى شقته هـذه من نوافذ ، أن يدخل اليها الضوء ، كما يستطيع أن يستعين بالمصابيح ليطيل مدى النهار . وبذلك يسبق الغريزة بخطوة أو اثنتين ويوفر لنفسـه جزءا من الوقت يخصصه للفنون الجميلة . لقد كنت أشعر بعد أن تعرض جسمى طـويلا لأقسى لفحات الحر أنه قد أخـذ يترهـل ويسترخى ؛ ولكن اذا ما عدت الى بيتى وجوه الصالح الملائم لى سرعان ما أجدنى قد استعدت مواهبى واسـترددت قدراتى وأطلت بذلك حياتى . على أن الرجـل الذى يقطن أكثر البيوت ترفا لا يكون لديه ما يفخر به فى هـذه الناحية الا القليل . ولسنا بحاجة الى أن نتعب أنفسنا ونتجشم مئونة التفكير فى الطريقة التى بها يهلك الجنس البشرى كله ويقضى عليه بهـا فى النهاية . فما أسهل ما تقطع خيوط آجالهم فى أى وقت من الاوقات ريح حادة تهب عليهم من الشمال . فها نحن مازلنا نؤرخ حوادثنا بأيام الجمعة الباردة* وبسقوط الثـلوج العظمى ؛ ولكن يوم جمعة أقسى بردا ، أو ثلجا أعظـم مما نزل ، ليقضى على وجود الانسان كله فى هذه البسيطة .

استخدمت فى الشتاء الماضى موقدا صغيرا من المواقد التى تستعمل لطهى الطعام ، رغبة منى فى الاقتصاد ؛ ولم يكن فن الطهى فى ذلك الوقت عملية شعرية ، بل كان عملية كيميائيـة محضة . فما أسرع ما ينسى فى عصر المواقد هذا . لقـد كنا نشوى البطاطس على الملة فى الرماد الحامى ، كما كان يفعل الهنود الحمر فى العصور السالفة ؛ ذلك الى أن موقد الطهى هذا

كان يشغل حيزا من البيت نحن بحاجة اليــه ،وكان يملأ المسكن رائحة غير مقبولة ، ولكن أسوأ من ذلك كله أنه كان يحجب النار عنى ،مما أشعرنى بأنى قد فقدت رفيقا من رفقتى • ألست تستطيع أن ترى دائما وجه انســان فى النار ؟ فاذا نظر اليها العامل فى المســـاء نقى أفكاره من الســـخافات والاقذار التى تجمعت فيها طيلة النهار • ولكنى لم أعد الآن أجلس قبالة النار وأنظر اليها ، فأعاد ذلك الى ذاكرتى بقوة وعنف جديدين قول الشاعر فى قصــيدة له فى الموضوع :

أيها اللهب الساطع ! لن أحرم بعد اليوم
عطفك الكبير ، ذلك العطف العزيز على الذى يصور الحياة •
فما على لو أن آمالى ارتفعت عالية زاهرة على الدوام ؟
وما على لو هبط حظى فى الليل مثل ذلك الهبوط ؟
ما الذى أبعدك عن بيتنا وعن ردهتنا ،
وأنت ذلك الذى يرحب بك النـــاس أجمعين ويحبونك ؟
أكان وجودك ياترى خيالا ووهما أكثر مما يطيق
ضوء حياتنا العادى ، نحن الذين بلغ منا الخمول ما بلغ ؟
هل كان لألاؤك الوامض يعقد أحاديث خفية جريئة ،
مع أرواحنا المؤتلفة ؟ هل كانت أسرارا أجرأ مما ينبغى ؟
حسنا ! فها نحن ما زلنا بحمـــد الله سالمين أقوياء ، نجلس الآن عند موقد لا يطيف به
أى خيال غامض مبهم ،
حيث لا شىء يفرح الصــدور ولا شىء يقضها ، وليس سوى نار
تدفىء الاقدام والايدى ، ولا تطمح الى أكثر من ذلك
فبجانب موقدها المدملج النفعى ،
يستطيع الحاضر أن يركد وينام
من غير أن يخشى الاشبـاح التى كانت تطلع من ذلك الماضى الغامض ،
والتى كانت تتحدث الينـــا على ضوء الخشب القديم غير المتسق •





سكان سابقون وزائرون فى الشتاء!

سبق أن اجتزت بسلام بضع عواصف ثلجية مرحة ، وقضيت فى الشتاء بضع ليال بهيجة ، فى البيت أمام موقد نارى ، على حين كان الثلج عاصفا خارجه يدور دورات جنونية رعناء ، أسكتت حتى البوم عن النعيب . وقد تمر أسابيع كثيرة لا أصادف فيها أحدا فى أثناء رياضتى التى أقوم بها مشيا على الاقدام ، اللهم الا أولئك القوم الذين يأتون أحيانا ليقطعوا الاخشاب ويحملوها الى القرية على زحافات تجرى على الجليد . ومع ذلك كله كانت الطبيعة تعاوننى على شق طريق لى فى الغابات وسط أعمق الثلوج المتراكمة فى الغابات . فاذا ما سرت فى طريقى هبت الريح وألقت أوراق شجر البلوط على ما خلفته ورائى فى الجليد من آثار أقدامى ، فتظل هذه الاوراق عالقة بها الى أن تمتص أشعة الشمس فتذيب الثلج من تحتها وتهيىء لى بذلك ممراجافا . وليس ذلك كل مافى الامر ، بل ان خطها الأسود يكون مرشدا لى يهدينى سواء الطريق . أما من حيث الاجتماع بالناس فقد اضطررت الى الالتجاء الى سكان هذه الغابات السابقين ، أستدعيهم الى . فالكثرة من أهل بلدى يذكرون أن أرجاء الطريق الذى يقوم عنده بيتى كانت تتجاوب بضحكات السكان وأحاديثهم ، وأن بيوتهم وحدائقهم الصغيرة كانت مبثوثة فى أماكن متفرقة فى الغابات التى كانت قائمة على حفافى الطريق ، وان كان هذا فى ذلك الوقت محصورا بهذه الغابات أكثر مما هو عليه الآن . ففى بعض المواضع ، على ما أذكر ، كانت أشجار الصنوبر تحتك بجانبى العربة المارة بها ، كلتيهما فى وقت واحد ؟ وكان الاطفال والنساء اللواتى

تضطرهم الاحوال الى سلوك هذا الطـــــريق وحدهم ، سيرا على الاقدام متجهين الى لينكولن، كانوا يفعلون ذلك والخوف يساورهم ، فلا غرو ان كانوا يقطعون جزءا أكبر من المسافة جريا، ومع أنه ليس سوى طريق متواضـــــع يؤدى الى القرية المجاورة ، أو هو طريق أعد ليكون ممرا للحطاب وبهيمتيه ، فقـد كان فى الزمن القديم يسلى المسافر فيه ، ويروح عنه أكثر منه الآن . وذلك لما كان فيه من مناظر شتى منوعة فلا عجب ان ظلت ذكرياته باقية فى نفس كل من سار فيه أطول مما تظل ذكريات غيره من الطرق . فحيث الآن حقول مكشوفة تمتد من القرية الى الغابات ، كان هذا الطـريق مستنقعا من أشجار الاسفندان ، ويقوم فيه على أساس من كتل الخشب التى لا شك فى أن بقـــــاياها لا تزال الى اليوم تحت الطريق الحالى العـــام الكثير التراب ، الممتد من مزرعة ســـتراتون ، التى أصبحت ملجأ الفقراء ، الى تل بريستر .

وكان «كاتو انغرام» ، يقطن عبر الطريق ، شرقى الحقل الذى أزرعه . وكاتو هذا عبد رقيق من عبيد السيد (ضنكن انغرام) أحـــد السراة الاعيـــان فى قرية كنكورد* . وكان قد بنى لعبده هذا بيتا ، وسمح له بالسكنى فى غابات والدن . فهو اذن كاتو الكنـــكوردى ، وليس بكاتو الأتيكى* . ويقـول بعض الناس ان أصله زنجى من غانة . وقليلون هم الآن الذين يذكرون قطعة أرض هذا العبد الصغيرة التى بين أشجار الجوز الامريكى التى تركهـا تنمو لعله يحتاج اليها فى شيخوخته ؟ ولـكن مضـــاربا من الرجال البيض استولى عليهـــا آخر الامر ؟ على أنه هو الآخـــر ، لم يكن يشغل سوى بيت ضيق مثـــل بيت الزنجى . ولا زال أثر بيت كاتو الصغير قائما ، وان زالت معالم نصفه أو كادت ، حتى لم يعد يعـرفه غير القليلين من الناس . وذلك لان ســـتارا من أشجار الصنوبر صار يحجبه عن عيـون المارة والسائحين فهو الآن حافل بأشجار الســماق الأملس ، فضـــلا عن نوع من أوائل أنواع العود الذهبى* ينمو عادة غزيرا متكاثفا .

وقد أقامت (زيلفا) بيتا صغيرا لها عنـد زاوية حقلى نفسها وأقرب منه الى المدينـــة . وزيلفا هذه امرأة سوداء كانت تقوم بغزل الكتان فى بيتها لاهل البـلدة ـ نظير أجر معين ـ وكانت تجعل غابات والدن تدوى بغنائهـــا الصارخ ، فقد كان صوتها عاليا ومعـــروفا للجميع . وحدث فى حرب* سنة ١٨١٢ أن أحرق الجنود الانجليز بيتها فى غيبتها ، وكان هؤلاء الجنود أسرى أطلق سراحهم على أساس وعد منهم بعدم الهـرب ، واحترقت مع البيت قطتها وكلبها وجميع ما عندها من الدجاج . وكانت زيلفا تعيش عيشة مريرة قاســية حتى لتكاد أن تكون عيشة غير بشرية . ويذكر أحد الشيوخ الذين يترددون على هـــذه الغابات أنه مر ببيتها ذات يوم عند الظهيرة فسمعها تتحدث الى نفسها وهى أمام قدر على النـــــار تغلى

وتئز ، تقول : وأنت كذلك عظام ــ عظام ! هذاوقد رأيت بنفسى طوبا ملقى هناك وسط أجمة من أشجار البلوط .

وفي أسفل الطريق ، على يمين السائر ،وفوق تل بريستر ، يقطن بريستر فريمن ، حيث لا تزال تنمو أشجار التفاح التى سبق أن زرعها بريستر وتعهدها ، وهى الآن أشجار كبار شائخة ولا تزال ثمارها مع ذلك « برية » حريفة المذاق . وبريستر فريمن هذا زنجى صناع اليدين كان عبدا من عبيد السيد كمنجز ، قرأت منذ مدة غير طويلة ماكتب على شاهد قبره الذى فى طرف مقبرة لينكولن القديمة على مقربة من تلك المقابر التى لا شواهد عليها ، وهى مقابر الجنود الانجليز الذين سقطوا فى ميدان القتال وهم يتقهقرون من كنكورد ، وحيث كتبوا اسمه (سيبو بريستر) ـ مع أن له الحق فى أن يتسمى باسم سيبو الافريقى* ـ وتحت هذه العبارة كانت عبارة (رجل ملون) ، كأن لونه كان قد حال وتغير . ولقد دلنى هذا الشاهد بقوة ، على وقت وفاته ، ولم يكن ذكر ذلك سوى طريقة غير مباشرة لاخبارى بأنه سبق له أن عاش . وكانت تسكن معه زوجته المضيافة (فندا) التى تحترف التنجيم بشكل سار وأسلوب لا ينفر الناس منها ، وهى امرأة سوداء ضخمة الجسم ، أشد سوادا من أى طفل من أبناء الظلام ، والحق أن مثل هذا الجرم الاسود لم يطلع فى سماء كنكورد من قبل ولن يطلع عليها من بعد .

وفى أسفل التل ، بعد بيت فريمن ، على اليسار ، وعلى الطريق القديم المؤدى الى الغابة أطلال تنم عن دار لأسرة ستراتون ، التى كان بستانها يشغل كل منحدر تل بريستر . وقد أهلكت هذا البستان من زمن طويل أشجار الصنوبر الراتنجى حتى لم يبق منه سوى أعجاز ، ما زالت جذورها القديمة عرائش لكثير من أشجار القرية المدبرة .

وأقرب من بيت فريمن الى القرية تقع دار (بريد) فى الناحية الاخرى من الطريق ، عند حافة الغابة تماما ، وهى أرض اشتهرت فيما مضى بأفاعيل شيطان مريد لم تحدد لنا « الميثولوجيا » اسمه واضحا . فقد قام بدور بارز عجيب فى حياة نيوانجلند ، وانه لجدير بنا أن ندون سيرته فى يوم من الايام كما ندون سيرة أية شخصية ميثولوجية أخرى . فكان يظهر أولا متخفيا فى ثياب صديق ، أو أجير ، ثم يسرق الاسرة ويقتلها كلها عن آخرها ـ ذلك هو (روم) نيوانجلند . وينبغى ألا يقص علينا التاريخ الآن المآسى التى مثلت هنا . فلندع الزمن يتدخل بشكل ما ليخفف من آثارها ويضفى عليها صبغة لازوردية . وتقول الرواية ، وهى رواية مشكوك فيها كل الشك وغامضة كل الغموض ، أن حانة كانت هنا فى يوم من الايام ، وأن البئر الموجودة هى نفسها التى كانت فى ذلك الزمن تخفف

من حدة شراب السائح ، وتروى حصانه . فهنا اذن كان الناس يحيون بعضهم بعضا ، ويستمعون ما يقص عليهم من الاخبار ، أويروونها لغيرهم ، ثم يمضى كل منهم فى سبيله .

وكان كوخ (بريد) هذا لا يزال قائما منذ اثنتى عشرة سنة فحسب ، وان كان قد ظل غير مسكون دهرا طويلا . وكان فى حجم كوخى ، فأحرقه ثلة من الاطفال الاشقياء فى احدى ليالى الانتخابات ، ان لم تخنى ذاكرتى . فقد كنت أعيش وقتئذ عند حافة القرية ، وقضيت هذا الشتاء فى قراءة ملحمة جنديبرت لمؤلفها دافنانت* . وكان شتاء عملت فيه بشىء من الكسل والتراخى . هذا ، ولم أكن أدرى قط ان كنت أعتبره مرضا فى الاسرة أن يكون لى عم لا يذهب الى مخدعه الا بعد أن يحلق لحيته ، ويضطر الى انبات البطاطس أيام الآحاد فى كيلاره ، حتى يظل متيقظا سهران يرعى يوم السبت ، أم هل على أن أعدها نتيجة محاولتى أن أقرأ مجموعة الاشعار الانجليزية التى جمعها تشالمرز* من دون أن أغفل منها شيئا ما . وقد غلبنى على قراءتى فى كتاب (الزفياى) * . فما أن وضعت عليه رأسى حتى دقت الاجراس مؤذنة بحدوث حريق . فبادرت آلات الاطفاء مندفعة بسرعة عظيمة فى هذا الاتجاه يتقدمها حشد طويل من الرجال والاولاد كنت أنا فى طليعتهم ، لانى قفزت من فوق مجرى الماء . ولقد ظننا أول الامر أن الحريق حدث على مسافة بعيدة عنا ، نحو الجنوب عند الغابات ، نحن الذين سبق لنا أن سارعنا الى اطفاء الحرائق من قبل . فالحريق اما أن يكون فى البيدر ، أو الحانوت أو البيت أو فيها كلها . واذا بأحد الناس يصيح بأن الذين احترق هو بيدر بيكر ، على حين أكد آخر أنه كدمان . بلاس . ثم تطاير الشرر من جديد على الغابة ، كأن السقف كله قد انهار ، فصحنا جميعا : كنكورد ، الى الغوث ! فانطلقت العربات تجرى فى سرعة جنونية تجرف كل ما أمامها ، ولعلها كانت تحمل معها بين من تحمل ، وكيل شركة التأمين ، الذى يحتم عليه عمله أن يذهب الى الحريق مهما يكن بعد المكان . وسرعان ماسمعنا جرس آلات الاطفاء يدوى خلفنا ، فى بطء ، ولكن فى ثبات أكبر منه . وجاء فى آخر الجمع ، كما تهامس الناس فيما بعد ، أولئك الذين أشعلوا الحريق أنفسهم ، وأذاعوا خبره بين الناس . وهكذا ظللنا كالمثاليين الحقيقيين نرفض الادلة التى تأتينا بها حواسنا ، حتى وصلنا الى منعرج فى الطريق فسمعنا النيران وشعرنا فعلا بحرارتها من فوق الجدار ، وأدركنا ، مع الاسف ، أنا كنا هناك فعلا . فقرب النيران منا نفسه ، قد ثبط حماستنا ؛ ففكرنا فى البداية أن نلقى عليها ماء ، ولكن الامر قد انتهى بأن قررنا أن ندعها تحترق ، فقد كادت أن تذهب كلها ، فضلا عن أنها لا قيمة لها ولا خطر ، وعلى ذلك وقفنا حول آلة الاطفاء يدفع بعضنا بعضا ، وجعلنا نعبر عن عواطفنا بأصوات عالية أو نشير بأصوات خافتة

الى الحرائق الكبرى التى حدثت فى العالم ،بما فيها محل باسكوم ، وقلنا لأنفسنا ، لو كنا هناك في الوقت الملائم مع آلة الاطفاء ، وعلى مقربة منا بركه ملأى لاستطعنا أن نحول ذلك الحريق الاخير الذى أحدق بنا ، وكان عاما ،الى فيضان جديد.. وفى النهاية رجعنا أدراجنا من غير أن نحدث أى أذى لأحد ، ثم عدنا الى النوم والى جندبيرت .

وحدث أنى سرت فى هذه الطريق عينها،عبر الحقول فى الليلة التالية ، وفى الساعة عينها تقريبا ، فسمعت أنينا خافتا فى هذه البقعة ،فاقتربت منه فى الظلام ، فاذا بى أجد الشخص الوحيد الذى أعرفه ، والذى بقى على قيد الحياة من أفراد هذه الاسرة . فصار بذلك وريث فضائلها ورذائلها معا . وهو وحده الذى كانت له مصلحة فى هذا الحريق ـ وجدته راقدا على بطنه ، يطل من فوق جدار (الكيلار) على بقايا النيران التى كانت لا تزال تخبو فى أسفله ، وكان يتمتم لنفسه على عادته بألفاظ غير مفهومة . واذ كان يعمل طول اليوم فى البطائح البعيدة التى عند النهر ، انتهز فرصة اللحظات الاولى التى يستطيع أن يقول عنها انها لحظاته ، وزار بيت آبائه ومراح شبابه . فجعل ينظر الى الكيلار من كل ناحية ، ومن كل وجهة نظرة ممكنة ، على التوالى ـ فعل ذلك كله وهو راقد ، كأن كنزا يتذكره كان مخبوءا بين الاحجار ، حيث لم يكن فى الواقع سوى كوم من الطوب والرماد . واذ كان البيت قد زال ، اكتفى الرجل بالنظر الى ما تبقى من أطلاله ، وقد هون عليه آلامه ما تضمنه وجودى من معانى العطف عليه والرثاء لحاله ، فأرانى بقدر ما يسمح له الكلام ، حيث كانت البئر مغطاة ،والتى لا يمكن أن تحترق والحمد لله . ثم جعل يتحسس فى الظلام طويلا حولها ، رجاء أن يحصل على خشبة (الشادوف) التى سبق أن قطعها والده وأقامها هنا ، ثم جعل يبحث عن المشجب الحديدى أو المسمار المعقوف الذى كان يعلق عليه الحمل فى طرف الخشبة ـ وهو كل ما يمكنه أن يتعلق به الآن ـ وذلك ليقنعنى بأنه لم يكن مجرد (ركاب) عادى . فلمسته ،وما زلت أراه كل يوم فى أثناء رياضتى ، اذ عليه يتوقف تاريخ أسرة بأكملها .

مرة أخرى . فعلى اليسار ، وحيث ترى البئر وشجيرات الليلاق قرب الجدار ، وفيما هو الآن حقل مكشوف ، كان نطنج ولوجروس يعيشان . ولكن ما لنا ولهذا الآن ؟. فلنعد الى لينكولن .

هذا ، وقد استقر وايمن الخزاف فى بقعة فى الغابات أبعد من مسكن أى من هؤلاء الذين ذكرت ، وحيث الطريق أقرب ما تكون الى الغابة . وقد رود وايمن هذا أهل البلدة بآنية الفخار وترك وراءه ذرية تخلفه ، لم يكونوا أغنياء بحطام الدنيا ، فلم تكن الارض ملكا لهم ،

بل أعطيت لهم ليرتفعوا بها مدى حياتهم ليس الا . وكثيرا ما كان « الشريف » يتردد عليهم ليجبي الضرائب المستحقة على الارض ولكن عبثا ، لانه لم يكن ليجد شيئا يحجز عليه ، ولذا كان يكتفي بترك اعلان لهم كما تقضي بذلك الشكليات ، فقد قرأت ذلك في تقاريره . وذات يوم من أيام الصيف ، وأنا مشغول بعـــزق الارض ، وقف رجل راكبا حصانا عند حقلي ، وكان متجها الى السوق ومعه حمل من الاواني الخزفية . فسألني عن وايمن الصغير فقد سبق أن اشترى منه منذ زمن طويل عجـــلة لصنع الفخار ، وأراد أن يعرف ما فعل الزمن به . لقد قرأت فيما مضى في الكتاب المقــدس عن صلصال الخزافين ، وكيف يصنع ، ولــكن لم يخطر ببالي أن الاواني التي يستخدمهـــا الخزاف في عمله كانت مما وصل الينـا سالما من تلك العهود القديمة ، أو مما ينبت على الاشجار كما ينبت اليقطين . وسرني أن أعرف أن مثل هذا الفن الواقعي كان يزاول قائما في البيئـــة المجاورة لي .

وكان آخر من سكن هذه الغابات قبلي ، رجل ايرلندي الاصل اسمه (هوج كويل) ، وكان ساكنا في أرض وايمن ، ويســـمونه الكرنل كويل . وتقـــول الشائعات ، انه كان جنديا ممن اشتركوا في موقعـــة واترلو ، فلو عاش لجعلته يعود ويقاتل في مثل هذه المعركة من جديد . وكان هذا الرجل يعمل هنـــا في حفر الخنادق . فنابوليون مضى الى سنت هلينا وجاء كويل الى غابات والدن . وكل ما أعرفه عنه محزن يثير الأسى ، فقد كان رجلا مؤدبا حقا ، مثله في ذلك مثل كل رجل عرف الدنيا وخبرها واتصل بالناس ، فكان في استطاعته أن يحدثك حديثا طيبا مهذبا ، أحسن مما تستطيع أنت أن تصغي اليه ، وكان يلبس في الصيف معطفا كبيرا لانه كان يشكو من هذيان السكر ، وكان وجهه في لون اللعل (الكرمين) . وانتهى أمره بأن توفي في الطريق عند ســـفح تل بريستر ، بعد أن جئت الى الغابات بزمن قصير ، فلا غرو ان كنت لا أتذكر أنه كان جارا لي . وقد زرت بيته قبل أن يهدم ، وقبل أن يتحاشاه زملاؤه الذين عدوه بيتا مشئوم الطلعة ، وها هي ملابسه البالية التي غضنها الاستعمال كأنمـــا كانت شخصه بعينه ، تراها ملقـــاة على سرير مرتفع من ألواح الخشب وها هي « بيتـــه » ، ملقاة على الموقد مكسورة ، محل وعاء كان قد كسر عند عين الماء ولا يمكن أن يكون رمزا لموته ، فقد اعترف بأنه ، وان كان قد سمع بعين ماء بريســـتر ، فانه لم يرها قط . وكانت ثم أوراق قـــذرة من أوراق اللعب مبعثرة عـــلى الارض .

كما كانت بهـــا دجاجة لم يستطع مأمور الضرائب أن يقبض عليها ، وهي دجاجة سوداء سواد الليل البهيم ، وصامتة صمته ، فلم تكن تقوقيء مثل ســـائر الدجاج بل ظلت ســـاكنة تنتظر مجيء الثعلب . وكانت لا تزال تبيت في الشقة الملاصقة . ووجدت خلف البيت رسوم

حديقة سبق أن زرعت، ولكنها لم تعزق وتمشط حتى لاول مرة بسبب تلك النوبات التشنيجية المريعة التي كانت تنتاب الرجل • ومع أننا الآن في موسم الحصاد فقد علاها الشيح الرومي والحسك الذي علقت أشواكه بملابسي ونشبت فيها بدلاً من الثمار • وكان ثم جلد مرموط من مخلفات موقعة « واترلو » التي سبق له أن اشترك فيها ولكنه لم يعد بحاجة الى قلنسوة تدفىء رأسه ، ولا الى قفازين طويلين ليديه •

ولم يبق الآن ما ينم عن موضع تلك المساكن غير شق في الارض دفنت فيه بعض أحجار الكيلار ، ونمت في المرج المجاور المشمس أشجار الشليك والفرمبواز وأمثالهما ، كما نمت شجيرات البندق والسماق ، واحتلت بضعة أشجار من الصنوبر الراتنجي والبلوط المعقد ما كان من قبل ركن الموقد • ولعل شجرة من أشجار البيتولا السوداء العطرة كانت تتماوج أغصانها الآن حيث كانت عتبة الباب ، وقد يكون شق البئر واضحا مرئيا في بعض الاحيان ، فقد كان من قبل عينا تفيض منها المياه ، ولم يعد مكانها الآن سوى حشيش جاف ، أو غطيت بحجر عريض مسطح ، تحت التربة عند رحيل آخر فرد من أفراد الجماعة ، ولم يكتشف أحد هذا الحجر وتلك البئر الابعد زمن • ان تغطية الآبار واخفاء معالمها عملية تستدعي الاسى وتستثير الاسف ! فهذه الشقوق في الارض التي تشبه جحور الثعالب المهجورة ـ هذه الجحور العتيقة هي كل ما تبقى الآن في بقعة كانت من قبل مسرحا للحياة البشرية بما فيها من حركة وضجيج ، حيث كانت موضوعات القضاء والقدر ، وحرية الارادة ، والعلم اللدني المطلق تدرس وتناقش على التوالى بلهجة ما ، وبشكل من الاشكال ، على أن كل ما أستطيع أن أعرفه من النتائج التي وصلوا اليها لا يزيد على أن كاتو وبريستو كانا ينفشان الصوف وهو أمر مفيد ، فائدة تاريخ المدارس الفلسفية المشهورة •

وبعد أن مضى جيل على اندثار الباب واندثار عتبتيه العليا والسفلى ، مازال الليلاق النشيط ينشر أزهاره الاريجة في كل ربيع فيجنيها السائح الغارق في تأملاته • وكان الاطفال يعنون بزرع هذا الليلاق من قبل بأيديهم ، ويتعهدونه بأنفسهم ، في أحواض معينة في الحدائق الامامية للدور • أما الآن فهو ينبت عند جوانب الجدران في المراعي المنعزلة ، بعد أن حلت محله غابات جديدة نامية ، فهو آخر مابقى من تلك الاسرة • ولم يكن يخطر ببال الاطفال السمر أن تلك العقلة الصغيرة القميئة ، بعينيها الصغيرتين وحدهما ، التي غرسوها في الارض في ظل الدار ، وجعلوا يروونها كل يوم ، سترسخ وتتأصل في الارض يوما ما بمثل ما رسخت وتأصلت ، ولم يخطر ببالهم كذلك أنها ستعيش بعدهم هم وبعد دثور الدار نفسها ، خلف البيت حيث يحميها الظل ، وتصبح حديقة للانسان وبستانا • تقص قصتهم

فى خفوت على السائح المنفرد المستوحش بعد مضى نصف قرن بعد أن كبروا وماتوا أجمعين ـ وتزدهر ازدهارا رائعا ويعبق أريجها عطرا حلوا كما كانت تزدهر وتعبق من قبل فى ذلك الربيع الاول . هأنذا مازلت أشاهد ألوانها الهادئة المهذبة البهيجة ـ ألوان الليلاق .

ولكن ما السبب ياترى الذى أدى الى فشل هذه القرية الصغيرة ، التى كانت نواة لشىء أعظم منها ، على حين ظلت كنكورد قائمة راسخة تحافظ على كيانها ؟ أحقا لم تكن لها ميزات طبيعية ، ولا خواص مائية ؟ نعم ، ان هؤلاء الناس لم يحسنوا استغلال بحيرة والدن العميقة ، وعين ماء بريستر الباردة ـ اللهم الا فى تخفيف أقداح شرابهم ـ وان كانت ميزة طيبة أن يشرب الانسان جرعات طويلة صحية منهما . ولكن ألا يصح أن تنجح هنا صناعة عمل الاسفاط ، ومكانس الاسطبلات ، والحصير ، وتجفيف الاذرة ، وغزل الكتان ، وصنع الخزف ، فتجعل البرية تزدهر ازدهار الوردة[1] وتيسر لذرارى كثيرة أن ترث أراضى آبائها ؟ . وبذلك تكون الارض الجدباء قد صينت من أن تنحط انحطاط الاراضى المنخفضة على الاقل ؟ فواحسرتاه ! ما أقل ما تعمل ذكرى هؤلاء السكان من بنى الانسان على زيادة جمال المنظر الطبيعى ! ولعل الطبيعة تحاول ذلك من جديد معى أنا ، بوصفى أول من نزل هنا فى هذه البقعة ، ولأن بيتى الذى أنشىء فى الربيع الماضى أقدم بيت فيها .

لا أعلم أن أحدا سبق أن أقام مبنى فى البقعة التى أشغلها الآن . فأنقذونى يا قوم من مدينة أقيمت على أطلال أخرى أقدم منها ، فموادها التى بنيت منها ، أطلال ، وحدائقها مقابر ! فالتربة هنا باهتة ملعونة . وقبل أن يصبح ذلك ضروريا ولا غنى عنه تكون الارض نفسها قد هلكت وبادت . وهكذا ملأت الغابات بمثل هذه الذكريات وبتلك الافكار ، وهدهدت نفسى حتى نمت .

وكان من النادر أن يزورنى أحد فى هذا الفصل ، فعندما يصير الثلج عميقا كل العمق ، لا يغامر أحد بالاقتراب من بيتى مدة أسبوع أو سبوعين ، ومع ذلك فقد كنت أعيش فيه راضيا مطمئنا ، ومستريحا راحة جرذ الحقل أو راحة تلك الماشية والدجاج التى قيل انها ظلت حية مدة طويلة بغير طعام ، مدفونة فى الثلج . أو مثل أسرة ذلك الرجل الذين كانوا من أول النزلاء فى مدينة ستن التى فى هذه الولاية والذين تغطت أكواخهم كلها بالثلج العظيم الذى نزل فى سنة ١٧١٧ عندما كان رب الاسرة غائبا ، فوجدهم هندى من الهنود الحمر ، بوساطة الثقب الذى أحدثه نفس المدخنة فى الثلج المتراكم ، وبذلك

---

(١) راجع اشعيا ١/٣٥

أنقذ الاسرة ونجاها . ولكن لم يحـــدث أن هنديا صديقا قد اهتم لشأني وعني به ، وما كان بحاجة الى ذلك ، فرب البيت كان داخله . الثلج العظيم ! ما أحلى مايسمع الانسان عنه ! عندما لا يستطيع الفــلاحون أن يذهبوا الى الغابات والمستنقعات ، بخيولهم وسائر حيواناتهم فيضطرهم الامر الى أن يقطعوا الاشجار الظليلة التي أمام بيوتهم ، وحيث تكون طبيعة الثــلج السطحية صلبة جامدة ، وقطعوا كذلك الاشجار التي في المناقع على بعد عشرة أقدام من سطح الارض ، كما تبين الامر واتضح في الربيــع التالي .

من الميسور الهين أن نشبه الممر الذي كنت أستخدمه في الثلج العميق - من الطريق العام الى منزلي ، ويبلغ طوله نحو ربع الميل - بخيط متعرج منقوط ، بين كل نقطة وأخـرى مسافة غير قليلة ، وقد بقيت أسبوعا معتــدل الجو ، وأنا أسير عدد الخطوات ذاتهـا تماما ، ومراعيا طول الخطوة نفسها ، في كل من غدوي ورواحي ، وأخطو في حرص وفي دقة مثـل دقة الفرجار فوق آثاري الخاصة التي خلفتهـا في طريقي - فالى مثل هـذا الروتين يضطرنا الشتاء ! فكثيرا ماكانت تمتليء بزرقة الســماء نفسها . ولم يكن ثمة جو ليستطيع أن يتدخل بشكل يعوقني عن رياضتي سيرا على أقدامي ، أو بالاحرى يعوقني عن أسفاري الى الخارج ، اذ كثيرا ما كنت أسير ثمانية أميال أو عشرة في الثلج المتراكم ، لأحافظ على موعد ضربته مع شجرة من أشجار الزان أو البيتولا الصفراء ، أو مع معرفة قديمة من أشـجار الصـنوبر . فعندما يكون الثلج والجليد قد جعلا أطرافهـا تتدلى فيرهفان من قممها ، وبذلك يحـــولان الصنوبر الى حور . وكنت أخوض حتى أصل الى ذرى الجبال العالية حين يكون سمك الثـلج قد بلغ قدمين في الاراضي المستوية ، وأستنزل على رأسي زوبعة من الثلج في كل خطـــوة أخطوها .. وأحيانا كنت أقع هنـاك وأزحف على ركبتي على حين يكون الصيادون قد مضوا الى حيث يقضون فيها الشتاء . وحـــدث مرة أني كنت أتسلى ظهر يوم بمراقبة بومة كانت جاثمة في وضح النهار على طرف من الاطراف الميتة في شـجرة صـنوبر بيضاء ، على مقربة من جذعها . وكنت واقفا على بعد خمسة أقدام منها فكانت تسمعني كلما تحــركت أو وطئت الثلج بقدمي ، ومع ذلك لم يكن في استطاعتها أن تراني جليا ، فاذا ما أحدثت ضوضاء كـبيرة أتلعت رقبتها ونصبت ريشها وفتحت عينيهـــاواسعتين ، ولكنها سرعان ماتعود وتطبق جفنيها وتأخذ في الاغفاء . وكذلك كنت أشـــعر أنا بالنعاس يرنو على جفوني بعد أن ظللت أرقب هذه البومة ساعة كاملة ، وهي جاثمة وعيناها مفتوحتان نصف فتحة كأنما كانت قطة ، وماهي في الحقيقة سوى أخت لها من ربات الجنــاح . فلم يكن ثمة غير شق ضيق بين الجفنين احتفظت به ليكون صلة بيني وبينها . وهكذا كانت هذه البــــومة تنظر الى من أراضي الاحلام بعينين

تكادان تكونان مغمضتين ، وتحاول أن تدركني،أنا ، ذلك الشيء الغامض ، أو الذي يعكر عليها صفو أحلامها . وأخيرا عندما سمعت حـــركة أعلى صـوتا من حركة اقترابي منها ، ازدادت قلقا فاستدارت في مجثمها كأنها قلقت من جـراء تعكيري أحلامها عليها . ولما أخذت تهبط من على الشجرة خفقت بجناحيها بين أشجار الصنوبر، ثم بسطتهما الى امتداد لم يكن متوقعا ، ومع ذلك لم أسمع لهما صوتا . ثم انطلقت وسـط فروع أشجار الصنوبر مسترشدة باحساس دقيق عمـا قربها ، أكثر مما نسترشد بالنظر ، كأنهـــا كانت تتحسس طريقها في الفجر بأجنحتهـــا الحساسة . وهكذا وجدت لها مجثما جـــديدا تستطيع فيه أن تنتظر طلوع الفجر بسلام .

وبينا أنا أسير على ذلك الجسر الطـويل الذي أنشيء للسكة الحديدية خـــلال المراعي صادفتني رياح كثيرة هوجاء قارصـــة وليس ثم مجال آخر غير هذا المجال يتسع أكثر من هذا لانطلاقها وحركاتها . وكنت اذا ما قرسـني الصقيع في أحد صدغي ، وأنا على ما أنا عليـه من الوثنية ، أدرت له الصدغ الآخر - ولم تكن الحال خيرا من ذلك في طريق العـربات البادىء من تل بريســتر . ذلك لاني ما زلت أجيء الى المدينة ، كما يجيء لها ذلك الهنـدي الاحمر الصديق عندما تكون محصولات الحقول الواسعة المكشوفة قد تكدست كلها بين أسوار طريق والدن ، وعندما تكفي نصف ســـاعة واحدة لمحو آثار آخر عابر سبيل . ولما عدت كانت ثم أكوام أخرى من الثلج قد تكدست ،فجست خلالها وجاهدت أن أسـير فيها حيث كانت ريح الشمال الغربي النشيطة معنية بالقاء ذرور الثلج حول زاوية حادة في الطـــريق ، حتى لم يكن يرى أي أثر لارنب برية ولا حتى ذلك النبش الرفيع الذي يحدثه فأر المراعي . ومع ذلك كان يندر ألا أجـــد حتى في قلب الشتاء مستنقعا دافئا ثرارا حيث الكلأ ، وحيث ذلك النبات الخبيث الرائحة الذي يشبه الكرنب كان لا يزال ينبت أخضر خضرة دائمة ، وحيث كنت أصادف أحيانا طائرا جلدا صبورا ينتظـر عودة الربيع .

وكنت أعود الى بيتي في المساء على الرغم من الثلج ، فأعبر الآثار العميقة التي يكون قد خلفها حطاب عند بيتي ، فأجد كومة «برايته» على موقد النـــار ، كما كنت أجد البيت نفسه قد امتلأ برائحة بيته (غليونه) . وفي مساء يوم من أيام الآحاد ، تصـــادف أن كنت في البيت ، فسمعت وقع أقدام فلاح طويل الرأس يسير على الثلج ، وكان قد جاء من مسافة بعيدة مخترقا الغابات باحثا عن بيتي ، كي يجتمع بي ويتحدث الي . وهو واحد من قلة من أصحاب مهنته الذين يعيشون وسط ضياعهم ويلبسون رداء عاديا ، بدلا من (روب) الاســـتاذية ، وكان على استعداد مثلهم لان يستخلص المغزى الاخلاقي من الكنيسة أو من الدولة ، استعداده لأن يسحب حملا من السماد من مخـــــزن ضيعته . فتحدثنا عن تلك العصور القديمـــة

البسيطة الخشنة التي كان الناس فيها يجلسون حول نيران كبيرة موقدة في الجو البارد المنشط، وعقولهم صافية • واذا ما أعوزنا النقل جربنا أسناننا على الجوز الذي خلفته حكماء السناجيب، فلا يخفى أن أسمك الجوز قشرا أفرغه لبا •

وكان الرجل الوحيد[1] الذي يأتي الى منزلي من أبعد مكان وسط أعمق الثلوج وأكأب العواصف ، شاعرا • فالفلاح ، أو الصائد ، أو الجندي ، أو المخبر الصحفي ، بل حتى الفيلسوف ، نفسه كان يرهب الحضور الى في مثل هذه الاحوال الجوية ، على حين لم يكن ثم شيء يعوق الشاعر عنه • فليس ما يحدوه الى المجيء سوى الحب الخالص • ومن ذا الذي يستطيع أن يتنبأ بغدوات الشاعر وروحاته ؟ فعمله يستدعيه الى الخروج في كل ساعة حتى حين ينام الاطباء • فكنا نجعل ذلك البيت الصغير يدوي بالمرح الصاخب وتتجاوب أرجاؤه بأصوات الاحاديث الجدية ، وبذا تعوض وادي والدن عن صمته الطويل • ان برودواي [2] ليعد ساكنا مهجورا اذا قيس به • وكنا في فترات مناسبة نضحك ضحكات عالية بانتظام ، سواء من جراء آخر نكتة قيلت ، أو نكتة لم يقلها أحد بعد • وكم من نظرية في الحياة جديدة كل الجدة وضعناها ونحن نتناول طبقا من (عصيدة) تجمع بين مزايا قرى الضيف وبين ما تتطلبه الفلسفة من صفاء العقل •

ويجب ألا أنسى زائرا آخر[3] محبوبا كان يفد على ليزورني في أثناء آخر شتاء لي قضيته عند البركة • فقد جاء عليه وقت كان يجيء عن طريق القرية وسط الثلج والمطر والظلام حتى يرى ضوء مصباحي من خلال الاشجار فيأتي ليزورني ، ويقضي معي بعض ليالي الشتاء الطوال • وكان واحدا من أواخر الفلاسفة الذين أنجبتهم «كنينيكت»* للعالم • وكان في أول الامر يتجول في البلاد يبيع مصنوعاتها ، ثم صار فيما بعد — بحسب اعترافه — يبيع عصارة مخه ، ولا يزال يبيعها ، فيرضي الله ويغضب بني الانسان ، ولا يحمل من حيث الثمار سوى مخه ، كما تحمل الجوزة لبها داخل قشرتها • وكان في نظري أكبر الأحبار كلهم ايمانا ، وكانت جميع ألفاظه ومواقفه تتضمن وجود حالة أفضل من الحالة المعهودة للناس • وهو آخر رجل يمكن أن يخيب أمله مرور الزمن وتوالي الاعوام • على أنه ليست له أية مغامرة في الوقت الحاضر ؟ ومع أنه الآن مغمور في زوايا النسيان ، فسيأتي يوم تسن فيه قوانين

---

(١) هو الشاعر الامريكي وليم الري تشاننج •
(٢) شارع مشهور في نيويورك •
(٣) هو آموس برنصن ألكوت (١٧٩٩ — ١٨٨٨) من كبار المصلحين و «الفلاسفة» المربين في عصر المؤلف ، وهو والد لويزا الكوت الروائية الامريكية المعروفة •

لم تخطر على بال أحد ، ولسوف يفد عليه أرباب الاسر وأولو الامر من الحكام يستشيرونه ويطلبون رأيه •

« فما أعمى من لا يستطيع أن يرى الهدوء ولا الصفاء ! »

انه لصديق صدوق لبني الانسان ويكاد يكون الصديق الوحيد للتقدم البشرى ، هو شيخ فان (Old Mortality) *وأخرى بك أن تقول انه شيخ خالد ، فقد كان يوضح بصبر لا يمل وبايمان راسخ تلك الصور المطبوعة في جسوم الناس ، أولئك الذين ليسوا سوى آثار متداعية لها ورسوم حائلة لربها وخالقها ؟ فانه بعقله الواسع الكريم يضم الاطفال والصعاليك والمجانين والعلماء معا ، ويعنى بأفكارهم كلهم بعد أن يضفى عليها عادة شيئا من السماحة والرشاقة • وفي رأيي انه يجب أن يقيم فندقا في طريق الدنيا الواسع حيث يستطيع الفلاسفة من أمم العالم كله أن يقضوا ليلهم ، وينبغي أن يكتب على لافته : « هذا فندق لبنى الانسان وليس لحيواناتهم ، فادخلوا يا من لديكم الوقت الكافى من الفراغ ، ومن العقل الرصين الهادىء ، يا من تتلمسون جادين الطريق المستقيم » ولعله كان أصح الرجال وأسلمهم ، فهو أقل أهواء ونزوات من أى رجل صادفته ، فهو هو أمس وفي الغد • وكثيرا ما سرنا قديما معا وتحدثنا ، وتركنا الدنيا وراء ظهورنا فعلا ، فلم يكن مرتبطا بأى معهد أو مؤسسة ما من مؤسساتها ومعاهدها ؟ فقد ولد حرا طليقا ، فأى طريق سلكنا كان يبدو لنا كأن الارض والسماء قد التقتا فيه ، اذ كان يزيد من جمال المناظر الطبيعية • لقد كان رجلا يلبس حلة زرقاء ، هي أنسب سقف يلائمه ، قبة السماء التي تعكس ما فيه من صفاء ومن هدوء • فلست أدرى كيف يمكن أن يأتيه الموت والطبيعة لا تستطيع أن تستغني عنه •

واذ كان لدى كل منا بضعة أفكار اختمرت في ذهنه من زمن طويل ، فقد جلسنا لنتناقش فيها ، ونعرضها على محك العقل نرهفها ونهذبها ، ونعجب بما قد يكون فيها من روعة ومن جمال • وكنا نتعاون على تفهمها وادراك كنهها ، في هدوء ووقار حتى لا تفزع منا أو تشت عن مجرى تفكيرنا ، فظلت تقبل علينا ، وتتراجع عنا خلال السحب التي تسبح في الجو الغربي ، وفي وقار أفواج المحار التي قد تتكون وتذوب في مجرى الماء • فهنا عملنا ، وجعلنا نراجع الميثولوجيا والاساطير ، نكمل أسطورة هنا ، ونتمم أسطورة هناك ، ونبنى قصورا في الهواء لم نكن نجد لها في الارض أى أساس خليق بها نقيمها عليه • ايه ! أيها الناظر العظيم ! أيها المتوقع الكبير ! أنت يا من التحدث اليه « ليلة من ليالى التسلية في نيو انجلند » ! فما أروع الاحاديث التي تساقطناها نحن الثلاثة ــ الناسك والفيلسوف وذلك الرجل العجوز الذى تكلمت عنه من قبل • لقد كان حديثنا اتسعت له دارى الصغيرة

واهتزت أركانها • ولست أستطيع أن أذكر لكم هنا عدد الارطال التى تزيد على ثقل الضغط الجوى ، والتى كانت واقعة على كل بوصة مربعة • فقد فتحت الدار خصاصها وأضحت هذه بحاجة الى أن تسد « وتقلفط » فيما بعد بكثير مما يمنع الرشح الذى ترتب على ذلك • ولكن كان عندى مايكفينى من هذا النوع من النسيل الذى جمعته من قبل •

وثم رجل آخر (١) قضيت معه فى بيته فى القرية « مواسم طيبة » لا تنسى بسرعة • وكان يزورنى من آن الى آخر ، ولم يكن عندى أحد أكثر من هؤلاء أجتمع بهم هناك !

وهناك أيضا ، كما هى الحال فى كل مكان ، كنت أنتظر أحيانا ذلك الزائر الذى لا يأتى أبدا • وقد جاء فى «الفشنو بورانا»* أنه « يجب على رب البيت أن يظل فى فناء بيته فى المساء وقتا يكفى لحلب بقرة ، أو أطول من ذلك اذا شاء ، انتظارا لوفود ضيف قد ينزل عليه » • وكثيرا ما أديت هذا الواجب نحو اكرام الضيف ، فانتظرت مدة تكفى لحلب قطيع كامل من البقر ، ولكنى لم آر بعد ، الرجل الذى يحضر من المدينة ويقترب منى •



(١) هو رالف والدو أمرسون شيخ الادباء فى عصر المؤلف

حيوانات الغابة

اذا تجمدت البرك كل التجمد هيأت لى عدة طرق قصار تؤدى الى جهات كثيرة . ولم يكن ذلك فحسب ، بل كانت تتيح لى من سطوحها مشاهد جديدة للمناظر الطبيعية المعهودة التى حول هذه البرك . فلما عبرت بركة فلنت بعد تغطيتها بالثلوج ، وجدتها أوسع رقعة مما كنت أتوقع ، وغريبة على كل الغرابة ، حتى ظننت أنى فى خليج بافين لا فى بركة فلنت على الرغم من أنى كثيرا ما جدفت فيها وتزحلقت عليها . وكانت تلال لينكولن تقوم حولى ، عند طرف سهل اكتسى بكثير من الثلوج ، لاأذكر انى وقفت عليه من قبل . وكان صيادو السمك وهم يتجولون وكلابهم فى بطء وتثاقل يبدون لى من مسافة غير محدودة كأنهم من صيادى الفقمة أو من الاسكيمو ، أو كانوا يبدون فى الجو الكثير الضباب ، من تلك المخلوقات التى تتحدث عنها الاساطير ، ولم أدر أن كانوا من العمالقة أو من الاقزام . وعادة كنت أختار هذا الاتجاه كلما ذهبت الى لينكولن لالقاء محاضراتى فى المساء ، من غير أن أسير فى أى طريق ، أو أمر ببيت ما ، بين كوخى وقاعة المحاضرات . هذا ، وفى بركة جوس الواقعة فى طريقى كانت تسكن جماعة من فئران المسك ، اتخذت مساكنها عالية على الجليد ، وان لم يبد واحد منها خارج مسكنه عندما عبرت البركة . ولما كانت والدن خالية من الثلوج مثل سائر البحيرات ، أو لم يكن بها منها غير بضعة أكوام صغيرة مبعثرة ، فقد اتخذت منها مسرحا لى أسير فيه بحرية ، على حين كان سمك الثلج قد بلغ قدمين فى غيرها من البرك . وكان القرويون محصورين فى شوارعهم لا يتعدونها . ففى هذا المكان ، بعيدا عن شوارع القرية ، وعن أجراس العربات التى تجرى على الجليد ، اللهم الا فى فترات متباعدة بعضها عن بعض بعدا كبيرا ، كنت أتزحلق على الجليد ، وأمرح عليه كما لو كنت فى ساحة مطروقة من ساحات « الموس » تطل عليها غابات البلوط وأشجار الصنوبر الرائعة ، وقد مالت سيقانها وناءت بما تراكم عليها من الثلج وبما تدلى من أغصانها من صغار قطع الجليد .

أما من حيث الاصوات فى ليالى الشتاء ، وفى كثير من أيامه كذلك ، فقد سمعت من مسافات غير محدودة صوت البومة الناعبة . وكان صوتا كئيبا مؤثرا على الرغم من أنه موسيقى ؟ فهو أشبه بذلك الصوت الذي يحدث اذا ما ضربت الارض المجلودة (بريشة) ملائمة ،

وتلك هي لغة غابة والدن المستعملة فيها ، والتيأصبحت معهودة لى آخر الامر ، وان كنت لم أر قط الطائر وهو يتحدث بها • وكان ينـدر أن أفتح نافذتي مساء يوم من أيام الشتاء من غير أن أسمع هذه البومة ، وهى تنعب نعيبا رنانا :هو هو هو هو رر هو ! فكان يخيـل الى أن المقاطع الثلاثة الاولى تقـول هو ديو دو (أي كيف حالك ؟) وأحيانا لم أكن أسمع غير هو هو • هذا ، وذات ليلة فى أوائل الشتاء ، قبـل أن يتم تجمد البركة ، أفزعنى حوالى الساعة التاسعة صوت اوزة • فلما خطوت نحو الباب ،سمعت خفق أجنحة الاوز ، وهـو يطير عـلى ارتفاع قليل فوق بيتى ، كأن عاصفة هبت عـلى الغابات • ثم مر فوق البركة متجهـا صوب (فيرهافن) ، فلعل الضوء الذى فى منزلى منعهامن الهبوط فيها • وكان زعيم الأوز يصـيح طول الوقت صياحا منظم الايقاع • وفجأة اذا ببومة ، لا شك فى أنها كانت على مقربة منى ، ترد عـلى الاوزة فى فترات منتظمة ، بصـوت أشد جفوة وضخامة من أى صوت آخر سمعته من سكان الغابات ، كأنما عقدت عزمها على أن تكشف أمر هذه الاوزة وتفضح هـذه الواغلة الوافدة من اقليم هدسن ، بأن تسمعها صـوتامن أصوات أهالى الغابة أضخم من صوتهـا وأوسع مدى ، فتطـردها من نطاق كنكورد بصياحها هو ! هو ! فماذا كنت تقصدين يا ترى من ازعاج الحصـن فى تلك الساعة من الليل ،وهو حصن مخصص لى وحدى ؟ هل خيـل اليك أن أحدا من الناس قد ضبطنى مرة نائمافى مثل هذه الساعة ؟ أتظنين أن ليس لى رئتان وحنجرة مثل ما لك ؟ بوهو••بوهو •• بوهو! لقد كانت نغمة مثيرة حقا من أشد النغمـات الناشزة التى سـمعتها فى حياتى ، ومع ذلك ،فان كانت لك أذن تحسن تمييز الاصـوات ، أدركت أن فى هذه النغمة عناصر من التوافق الموسيقى لم تطرق أذن أحد فى هذه السهول ، ولم تشاهد مثلها عين أحد من أهليها •

وكذلك سمعت طقطقة الجليد فى البركة ــ زميلى وضجيعى فى فراشى ــ فى هذه الارجاء من كنكورد • فكأن فراشه قد آقضه ، وتمنى راضيا لو أنه يتقلب على جنبيه ، أو كأنه كان يشكو من غازات فى المعدة ، أو من أحـلام مزعجة أفزعته • وقد يوقظنى صوت تشـقق الارض من جراء الصقيع ، فيخيـل الى أن شخصا ما دفع زوجا من الخيل صك بهمـا باب دارى ، حتى اذا ما طلع النهار وجدت شـقافى الارض طوله ربع ميل ، وعرضـه ثلث بوصة •

وأحيانا كنت أسمع الثعالب وهى تطوف على سطح الجليد فى ليلة مقمرة ، باحثـة عن حجلة ، أو عن أى صيد آخر تصيده • وكانت تعوى عواء جنونيا مثل كلاب الغابة ، كأنمـا كانت تكافح قلقا نفسيا شغل خاطرها فحاولت التعبير عنه ، وودت لو أنها كانت كلابا حقـا

فتجرى فى الشوارع طليقة حرة • فلو أننا عملنا للوقت حسابا وأدخلناه فى تقديرنا ، ألا يجوز أن تكون ثم حضارة قائمة بين الوحوش ، كما هى قائمة بين بنى الانسان ؟ فليست الوحوش فى نظرى سوى أناس بدائيين ، حفارين فى الارض لا زالوا واقفين موقف الدفاع عن نفوسهم ينتظرون أوان تطورهم • وقد يحدث أن يجتذب الضوء الساطع من نافذتى ثعلبا من تلك الثعالب فيقترب منى ، وهو يعوى مستنزلا على لعنة من لعنات الذئاب ، ثم يعود أدراجه •

وكان السنجاب الاحمر يوقظنى عند الفجر عادة ، وهو يجرى فوق سطح المنزل ، وعلى جوانبه صاعدا هابطا ، كأنما قد أرسل الى من الغابات لهذا الغرض ذاته • ولما حل الشتاء ، ألقيت على الثلج عند باب بيتى نصف كيلة من سنابل الاذرة الحلوة التى لم يتم نضجها بعد ، وجعلت أتسلى بمشهد حركات الحيوانات المختلفة التى استغوتها هذه السنابل فكانت تأتى بانتظام عند الشفق ، وفى الليل لتتخذ منها وجبة شهية • وكانت السناجيب الحمر تغدو وتروح طيلة النهار ، فتسلينى بما تقوم به من مناورات • فهذا واحد منها يقترب فى حرص وحذر فى البداية ، من خلال شجر البلوط ، فيجرى على سطح الجليد بشكل متقطع مما يذكرك بورقة من أوراق الشجر تسفيها الرياح • فكان يجرى بضع خطوات فى هذا الاتجاه بسرعة كبيرة مدهشة حقا ، وبنشاط ضائع سدى ، وكان يحرك رجليه بسرعة لا تخطر لك على بال ، كأنما كان فى رهان ، ثم يعود فيجرى بضع خطوات مثلها فى اتجاه آخر • كل ذلك من غير أن يتقدم أكثر من ثلاث أقدام فى المرة الواحدة • ثم يقف بغتة وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات وسمات تستثير الضحك حقا ، ويقوم بحركة بهلوانية لا معنى لها ، كأن عيون العالم كلها كانت موجهة نحوه تنظر اليه • فجميع حركات السنجاب ، ولو كان فى أعمق أركان الغابة وأكثرها انعزالا ، تتضمن وجود متفرجين كثيرين بقدر عدد من يتفرجون على فتاة راقصة • وكان يضيع وقتا فى التلكؤ والاحتياط والحذر ، أكثر مما يكفى لقطع المسافة كلها مشيا • هذا ، ولم يحدث أنى رأيت عمرى كله سنجابا يمشى • ثم فجأة وقبل أن أنبس بكلمة واحدة ، اذا به قد قفز الى قمة شجرة صنوبر ليستريح ، ويعتب على جميع النظارة المتفرجين الوهميين ، ويخاطب نفسه ، ويخاطب العالم كله فى وقت واحد ، لسبب لا أعرفه ، ولا يعرفه هو نفسه على ما أظن • وأخيرا يصل الى الاذرة ، ويختار سنبلة طيبة مناسبة له ، ويظل يقفز حولها بالطريقة المضطربة نفسها غير المجدية ، ثم يثب الى أعلى خشبة فى كومة الاخشاب التى أمام نافذتى ، ويحملق فى وجهى برهة • ويظل على الكومة جاثما ساعات طوالا ، يتزود بسنابل جديدة المرة بعد المرة فيقرضها بنهم وشراهة

أولا ثم يلقي بالكيزان ويبعثرها بعد أن يجردهامن كل ما عليها من الحب تقريبا • ثم لا تلبث أن تراه قد صار أكثر تأنقا ، يعبث بطعامه ويأبى أن يذوق منه الا قلوب الحب ، ويتناول سنبلة ويضعها متزنة على العصا ممسكا اياها بمخلب واحد في غير حرص ولا حذر ، فاذا بها تنقلب منه فجأة وتقع على الارض ، فينظر اليهـا بوجه يستثير الضحك لما تبدو عليه من سمات الشك والتردد كأنما ظنها سنبلة حية ، ذلك لانه لم يكن قد عزم أمره بعد على شيء • فهل يعـود ويتناولها ، أم يأخـذ أخرى غيرها جديدة ، أو يدعها وينطلق هو لشأنه • وكان تارة يفكر في الاذرة وأخرى يصغي الى ما عساه يكون في الريح • وهكذا يضيع هذا المخلوق الصـفيق عدة سنابل سدى في صباح واحد ، ثم ينتهي به الامر أن يتناول سنبلة طويلة غضة زاخـرة بالحب أكبر من جسمه كثيرا ، وبعد أن يضعها بمهارة كبيرة في وضع متزن يمضي بهـا الى الغابات كأنما كان نمرا صاد جاموسة ، ويلتزم الطريقة المتعرجة عينها ، ويتوقف في مسـيره عدة مرات وهو يسحب السنبلة متثاقلا كأنه قد ناء بحملها ، فتظل تقع منه باستمرار في اتجـاه بين العمودي والافقي • ومع ذلك كان مصمما على المضي بها مهما كانت الاحوال • فما أعجبه مخلوقا مرحا كل المرح ومتقلبا كثير الاهـواء والنزوات ! وفي النهاية يتمكن بأن يمضي بهـا فعلا الى حيث يسكن ، ولربما حملها الى قمـة شجرة من أشجار الصنوبر تبعـد نحو مائتين أو ثلاثمائة ياردة ، لاني كثيرا مارأيت (القوالح) الصغار مبعثرة حول الغابات في اتجاهات شتى •

وأخيرا تفد الطيور المعروفة بآباء زريق ، بعد أن تكون صرخاتها الناشزة قد سـمعت قبل مجيئها بزمن طويل ، وهي تقترب في حذر واحتياط من مسافة تقرب من ثمن الميـــل • فتثب من شجرة الى شجرة وتقترب شـيئا فشيئا متسللة زاحفة لتلتقط قلوب الجـوز التي كانت السناجيب قد ألقتها من قبـل ، ثم تجثم على فرع من فروع شجرة صنوبر راتنجي ، تحاول أن تبلع في عجلة حبة أكثر مما تستطيع حلوقها أن تسيغها ، فتغص بهـا ؟ وبعد جهد كبير تخرجها ، وتقضي ساعة تحـاول أن تكسرها بضربات متتاليـة من مناقيرها • أنهـا لصوص سراقة ما في ذلك شك ، وليس لها أن تنتظر أي احترام مني • أما السناجيب ، وان كانت تبدو في البداية حيية خجولة فقـد كانت تندفع الى عملها كمـا لو كانت تسعى وراء الحصول على ما لها كل الحق في الحصـول عليه •

وفي أثناء ذلك أيضا كانت أسراب القراقف* تأتي فتلتقط ما سـقط من السناجيب من الفتات ، ثم تعود طائرة الى أقرب فرع شـجرة فتضع الفتات تحت مخالبهـا وتنقرها بمناقيرها الصـغار كأنما كانت تلتقط حشرات من لحاء الشجر • وتظل عـلى ذلك الى أن تجعلها في حجم صالح للمرور من حلوقها الرفيـعة • هذا ، وكان سرب من هذه القراقف يأتي كل

يوم ليتغذى من كومة أخشابي ومن الفتـــات التي عند باب داري ، وهي تصيح بنغمات خافتة وثابة كأنها وقع قطع الجليد تسقط على الكلأ • أو كانت تصيح بنشاط : واي •• واي •• واي •• واي • وأندر من ذلك ، في الايام التي تشـــبه أيام الربيـع ، كنت أسمع من جانب الغابة « فوبة » نحيلة نشيطة • وقد أنست بي هذه العصـــافير وألفتني حتى ان واحدة منها حطت عـلى حزمة من الخشب كنت أحملهـــا الى البيت ، وجعلت تنقر الخشب في غير وجل ولا تهيب •

وقد حط عصفور مرة على كتفي ولبث عليه برهة وأنا أعزق في حديقة من حـــدائق القرية ، فشعرت بأني ازددت بذلك شرفا أكبر مما كنت أناله من جراء أي « أوسمة » ألبسها على كتفي • وأخيرا ألفتني السناجيب ، هي الاخرى ، ورفعت الكلفة بيني وبينهـــا حتى أنها كانت تمر من على حذائي اذا كان هـذا أقرب طريق الى مقصدها •

وقبل أن تكتسي الارض كلها بالثلج تماما ــ وكذا في أواخر الشتاء عندما تكون الثلوج قد ذابت من على سفوح التل الجنوبية ، وحول كومة أخشابي ــ كانت الحجل تخرج من الغابات في الصباح ، وفي المساء باحثة عن رزقها • ففي أية ناحية من نواحي الغـــابات سرت وجدت الحجل تندفع من مكامنها على أجنحة خفاقة تدفع الثلج من على الاوراق والغصون الجافة وتهـزه هزا فيتساقط وسط أشعة الشمس كأنه التبر ؛ لان هذا الطائر الجريء لا يرهب الشـــتاء ولا يفزع منه ، فكثيرا ماكان يتغطى بالثلج • وقيل انه ينقض أحيانا وهو طائر فيغمر نفســـه في الثلج الناعم حيث يظل مختبئا يوما أو يومين • وكان من عادتي أن أهيج هذه الطيـــور من الاراضي المكشوفة التي كانت تجيء اليهـــا من الغابات عند الغروب ، كي تنقر أشجار التفاح البري • وكانت تأتي بانتظام كل صباح وتحط على أشجار معينة حيث يكون الصـــياد المكير متربصا بها • وبذلك كانت البساتين البعيـــدة عن القرية والقريبة من الغابات تعـــاني الكثير من الضرر من جراء ذلك • ومهما يكن الامر ، فاني يسرني أن أرى الحجل تنال غذاءها ، على كل حال ، فهي طيور الطبيعة الخاصة بهـــا ، التي تعيش على البراعم ، وعلى الماء •

وفي صباح أيام الشتاء المظلمة ، أو في أمسياته القصار كنت أسمع أحيانا صــــوت جماعة من الكلاب تجوس خلال الغـــابات جميعها وهي تعوي وتنبح عاجزة عن مقـاومة غريزة الطـــراد الراسخة في نفوسها ؛ وكان صوت بوق الصيادين يدوي على فترات وينم عن أن الانسان وراءها ، فتعود الغابات تتجـــاوب بالاصداء ومع ذلك لا ترى ثعلبا يبرز الى سطح البركة المكشوفة المنبسط ، ولا تظهـر الكلاب التي تطارد «اكتيونها*» • ولربما شاهـــدت الصيادين في المساء وهم عائدون الى بيوتهـــم وفنادقهم ومعهم حزمة واحـــدة ليس غـير ، يسحبونها وراءهم خلف عربتهم دلالة عـــلى ما غنموه • وقيـــل لي لو أن الثعلب بقي في

بطـــون الارض المجلودة لـكان آمنا عـــلى نفسه ، ولو أنه جرى فى خـط مستقيم لمـــا استـــطاع أى كلب صـــيد أن يلحـــق به • ولكنه بعد أن يكون الكلب قد خلف مطارديه وراءه بمسافة طويلة يقف (الثعلب) ويظـــل يصغى الى أن يقتربوا منه ، وعندما يجـــرى يدور فى اتجاهات شتى حتى يصـــــل الى جحره المعهود حيث يكون الصـــيادون فى انتظاره متربصين به • ومع ذلك فقد يجرى بضع عشرات من الياردات على ســـور ما ثم يقفز الى جانب قفزة طويلة • فيبدو أنه كان يعلم أن الماء لا يبقى لرائحته أى أثر تستطيع الكلاب أن تشمه • هــذا ، وقد قال لى صياد انه رأى مرة ثعلبـــا والكلاب وراءه تطارده فاندفع الى



والدن حيث كان الجليد مغطى ببرك صـــــغار ضحلة ، وظل يجـــرى عبر والدن حتى بلغ منتصفها ، ثم عاد أدراجه الى الشاطىء ذاته • وبعد قليل وصلت الكلاب • ولكنها كانت قـد فقدت هنا كل أثر للثعلب • وأحيانا كانت تمر ببـــابى وهى تتصيد وحـــدها من غير مرافقة أحد لها ، فتدور حـــول البيت وتظل تعـــوى وتنبح من غير أن تحسب لى أى حســـــاب ، كأنى لم أكن موجودا وكأنهـــا قد أصـــيبت بنـــوبة جنون ، فلم يكن ثمة شىء يستطيع أن يحولها عن الطراد • وهكذا تظل هذه الكلاب تدور الى أن يصادفها أثر حـــديث لثعلب • فالكلب العاقل يضحى بكل شىء فى سبيل مثل هذا الاثر • فقد حدث أن جاءنى رجل من بلدة لكسنجتن يسأل عن كلب له ، يتـــرك وراءه أثرا كبيرا فى الارض وقد مضى عليه أســـبوع وهو يتصيد وحده ؟ ولكننى أخشى ألا يكون الرجل قد استفاد كثيرا مما أخبرته به ، فقـــد كان يقاطعنى كل مرة حاولت فيها أن أجيبه عن سؤاله ، فيسألنى هو : وأنت ماذا تصنع هنـــا ؟ لقد فقد كلبا ولكنه وجد انسانا •

اعتاد صياد عجوز سليط اللسان أن يجيء الى والدن ليستحم فيها مرة كل عام عندما يكون الماء دافئا كل الدفء • وفي مثل هذه الاوقات اعتاد أن يعرج على بيتي ويزورني ، فأخبرني مرة ، أنه من سنوات مضت تناول بندقيته ذات مساء وأخذ يتجول في الغابة في والدن • وبينما كان يسير في طريق وايلاند سمع نباح كلاب من كلاب الصيد تقترب منه ، ولم تلث الا هنيهة حتى بصر بثعلب يقفز من على السور الى الطريق ، ثم في لمح البصر يقفز ثانية من على السور الآخر ، تاركا الطريق ، فلم تستطع رصاصة الصياد السريعة أن تمسه بأذى ؛ وعقب ذلك جاءت كلبة صيد عجوز تتبعها جراؤها الثلاث ، جاءت بسرعة في اثر الثعلب تطارده • فقد كانت تصطاد وحدها من غير صاحبها ، وما لبثت هي الاخرى أن اختفت في ظلمة الغابات • وفي وقت متأخر في المساء ، والرجل يستريح برهة في الغابات الكثيفة التي تقع جنوبي والدن ، اذا به يسمع صوت الكلاب من بعيد عند بركة فيرهافن وهي لا تزال تطارد الثعلب • ثم مالبثت أن جاءت فقد كان نباحها يدوي في الغابات وجعل يقترب شيئا فشيئا ، مرة من ويلدو ، وأخرى من ناحية بيكر فارم • فلبث ساكنا لايتحرك يصغي الى موسيقاها ـ تلك الموسيقى التي تدرك عذوبتها أذن الصياد • واذا بالثعلب يظهر فجأة وهو يجوس خلال طرق الغابات المظلمة بخطوات سهلة وسريعة ؛ وكان حفيف أوراق الشجر يخفي صوته عطفا من هذه الاوراق عليه وشفقة به ، فظل يجري بسرعة على الارض وهو مطمئن ، هادىء بعد أن خلف مطارديه وراءه بمسافة طويلة • ثم قفز وربض على صخرة وسط الغابات وجلس عليها منصتا يتسمع ؛ وكان ظهره نحو الصياد الذي استولت عليه الرأفة بهذا الثعلب برهة واستوقفت ذراعه • على أن هذه لم تكن الا خطرة عارضة لم تلبث الا قليلا • وبالسرعة التي تلي بها الفكرة النكرة سمعت بم ! واذا بالثعلب يتدحرج على الصخرة ويخر على الارض قتيلا • ومع ذلك فقد ظل الصياد يصغي الى عواء الكلاب ، الى أن جاءت هذه ودوت جنبات الغابات القريبة بأصواتها الشيطانية ، ثم برزت الكلبة العجوز وأنفها في الارض وجعلت تعوي كأنما كانت بهاجنة ثم اتجهت الى الصخرة مباشرة • فلما رأت الثعلب مجندلا أمسكت عن النباح كأن ألسنتها قد انعقدت مما أصابها من الدهشة وظلت تسير حوله عدة مرات في صمت وسكون ، وجاءت جراؤها الواحد يتلو الآخر والتزمت الصمت كذلك مثل أمها مبهوتة حائرة أمام ذلك السر الذي خفي عليها أمره • ثم تقدم الصياد نفسه ووقف بينها فانكشف لها ماكان خافيا ؛ ووقفت قبالته صامتة وهو يعمل في سلخ جلد الثعلب • ثم سارت واجمة قليلا ، وأخيرا عرجت نحو الغابات واختفت فيها • وفي هذا المساء ذاته جاء سري من سراة بلدة وستن الى كوخ الصياد باحثا عن كلابه فقال انها

كانت تتصيد وحدها منذ أسـبوع فى غابات ومتن . فأخبره الصـياد الكنكوردى بجميع ما عرفه عنها ، وعرض عليـه جلد الثعلب ،فأبى أن يقبله ومضى فى سبيله ، ولم يوفق الى العثـور على كلابه تلك الليلة . ولـكنه علم فى اليـوم التالى أنها قضت الليلة فى ضيعة ، فبعد أن أكلت ماشـاءت أن تأكل رحلت فى الصباح الباكر .

ويروى الصياد الذى قص على هـذه القصة أنه يتذكر انسانا اسمه « سام نطنـج » كان يصيد الدببة فى « فيرهافن لدجز » ويشترى بجلودها روما من قرية كنكورد . قال انه شاهد مرة « موسا » هناك . وكان نطنـج هـذا يملك كلبا شهيرا من كلاب الصيد يسـمى بورجوين (وكان ينطقه برجاين) كان محدثى يستعيره منه أحيانا . هذا ، وقدعثرت بالمذكرات الآتية فى دفتر من دفاتر اليومية لأحد تجار هذه البلدة الذى كان يعمل ضابطا فى الجيش كذلك ، ويقوم بعمل كاتب البلدية - فقـرأت فيـه : ١٨ يناير سـنة ١٧٤٢ - سنة ١٧٤٣ : جون ملفين له جلد ثعلب رمادى واحد ٣-٢ر . وهذا النوع من الثعالب لم يعد له وجود هنـا الآن . وقرأت عنده فى دفتر (الاسـتاذ)مايأتى : فبراير سنة ١٧٤٣ : هزيكيا استراتون . له نصف جلد قط ثمنه ١/٢ ٣-١-ر . ولا شك فى أن هذا القط كان قطا بريا لان استراتون هذا كان جاويشا فى الحرب الفرنسية القديمة ، ولم يكن يشرفه أن يصيد صيدا أقل من هذا . وكذلك كانت النقود تقرض على جلود الغزلان التى كانت تباع كل يوم . وما زال على قيـد الحياة رجل يحتفظ عنده بقرنى آخـر غزال اصطيد فى تلك النواحى . وسرد علـى رجـل آخر تفاصيل صيد هذا الغزال الذى اشـترك فيه عمه . كان الصيادون وقتئذ فئة مرحة كثير عددها . وكنت أتذكر جيدا رجلا منهم نحيل الجسم اسمه نمرود ، كان يتنـاول ورقة من أوراق الشجر الملقاة فى الطريق فيعزف عليها نغمة أكثر وحشية ، وأعظم انسـجاما من أية نغمة يمكن أن تصـدر عن أى قرن من قرون الصيد . هذا اذا لم تكن ذاكرتى خانتنى .

واذا انتصف الليل ، وكان القمر طالعا فى السماء ، كنت أصادف فى بعض الاحيـان الكلاب فى طريقى وهى تجـوس خـلال الغابات فاذا ما شـعرت بى ولت من أمامى ولبثت ساكنة وسط الشجر حتى أمر بسـلام وأبتعد عنها .

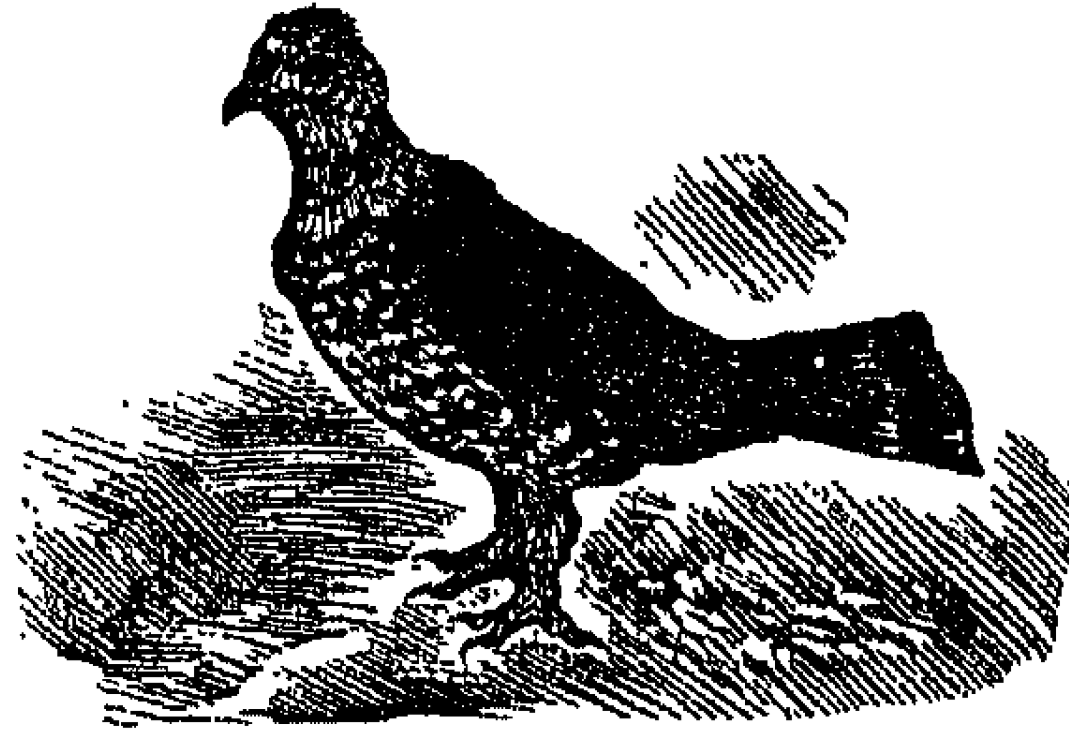
وكانت السناجيب والجرذان البرية تتنازع على ما عندى من البندق المدخر . فحـول بيتى عشرات من أشجار الصـنوبر الراتنجى تتراوح أقطارها بين بوصـة واحدة وأربع بوصات . وقد سبق للجرذان أن قرضتها فى الشتاء الماضى ، فقد كان شتاء قاسيا نرويجيـا حقا بالاضافة اليها ، فقد لبثت الثلوج على الارض مدة طويلة بعضـها متراكم فوق بعض حتى اضطرت الجـرذان الى خلط نسبة كبيرة من لحاء شجر الصنوبر بغذائها . وكانت هـذه

الاشـجار حية مزدهرة في منتصف الصيف ،وزاد طول الكثير منها قدما على الرغم من اصابة جذوعها بجراحات دائرية قتالة من جـراءقرض الارانب اياها ولم ينقض شتاء آخـر الا كانت قد ماتت جميعها بغير استثناء • فمـن عجب أن يسمح لفأر واحد بأن يتغدى بشجرة صنوبر كاملة ، يظل يقرض حولها بدلا من أن يقرضها صاعدا نازلا • ولكن من يدرى فلعل ذلك كان ضروريا لتخفيف هذه الاشجار التي من دأبها أن تنمو متكاثفة •

وكانت الارانب البرية تألفني كل الالفة فقد اختبأت أرنب منها تحت بيتي وظلت فيـه طيلة الشتاء لايفصلها عني سوى أرضـيته ،ودأبت تزعجني كل يوم برحيلها السريع من البيت عندما أكون قد شرعت في التحـرك •وذلك انها كانت تصدم أخشاب الارضـية برأسها في عجلتها واسراعهـا في الخـروج فتحدث صوتا عاليا متواليا ثمب ! ثمب ! ثمب ! فقد اعتادت الارانب أن تأتي الى بابي لتقـرض قشور البطاطس التي كنت ألقيها عنده • واذ كان لونها يقرب من لون الارض كان من العسير عليك أن تميزها عنها ، ولا سـيما ان ظلت الارانب هادئة لا تتحرك • وكانت أرنب منهـا تغيب عن ناظرى أحيانا في ضوء الشفق • ثم تعود فأراها جالسة تحت نافذتي لا تتحـرك ،حتى اذا ما فتحت الباب في المسـاء انطلقت كالسهم تقفز وتصرخ • وكانت الارانب ، وهي على مقربة مني ، تستثير في نفسي الشفقة عليها والرثاء لها • فذات مساء ، جلست أرنب عنـد باب بيتي على بعد خطوتين اثنتين مني ، ومع أنها كانت أول الامر ترتعد خوفا ، فقد لزمت مكانها وأبت أن تنهض • لقـد كانت أرنبـا مسكينة هزيلة ، بادية العظام ، ذات أنف حاد وآذان طوال مهلهلة وذيل قصـير وأرجل رفيعة • فظننت أن الطبيعـة لا بد أن تكون قاربت الافلاس ، اذ لم يعد فيهـا أنواع من الارانب أشرف من هذه وأنبل • فقـد بدت عينا هذه الارنب الكبيرتان صغيرتين ، تنمان عن ضعف الصحة ، كأنما كانت تشكو من مرض الاستسقاء • ولكن ما ان تقدمت نحوها خطوة واحدة حتى قفزت قفزة طويلة مرنة على الثلج ومطت جسمها حتى نهايته فبدت طويلة رشيقة ؟ وسرعان ما ولت ، وجعلت الغابه بيني وبينها ،وبذلك تكون قد أكدت حيوانيتها الحرة الطليقة حقا وما بها من نشاط ، كما أكدت ما للطبيعـة من كرامة • انها لم تكن نحيلة اذن لغير سبب فتلك اذن طبيعتها •

وما بلد من غير أرانب برية ومن غـير حجل ؟ فهذه من أبسط المنتجات الحيوانيـة الاهلية وأكثرها توطنا • فهي عائلات قديمـة جليـلة عرفها الاقدمون ، كما عرفها أهـل العصور الحديثة ؟ هي من لون الطبيعة ذاته ، ومن مادتها نفسها ، وانها لأقرب صلة بأوراق الشجر وبالارض ، وببعضها بعضا • وهي اما ذوات أجنحة أو ذوات سـيقان • انك لم تر

مخلوقا بريا متوحشا عندما تشاهد أرنبـــا أو حجلة تثب فجأة ، وانما رأيت مخلوقا طبيعيـا كنت تتـــوقع منهـا ، كما تتوقع رؤية أوراق الشجر وسماع حفيفها • وليس من شـك فى أن الارانب والحجل ستظل تتكاثر وتزدهر كمايزدهر أبناء التربة الحقيقيين مهما حـــدث من الانقلابات والثورات • فـــلو حدث أن قطعت الغابة ، لصارت الفسائل والشجيرات التى تنبت مكانها مخبأ للارانب والحجل تختبىء فيـــه ،وعندئذ تصبح أكثر عددا منهـــا فى أى وقت كان • انها بلاد فقيرة حقا ، تلك التى لاتستطيع أن تقيت أرنبا بريا • ان غاباتنا حافلة بالارانب والحجل كليهما ، فترى الارنب أو الحجـــلة لا تزال تمشى حول كل مستنقع محـــــوط بالأسيجة وفروع الشجر ، وبالفخاخ والمصايد المصنوعة من شعر الخيل ، والتى ينصبها لهـــا بعض رعاة البقر •





البركة فى الشتاء

استيقظت من نومى مرة ، بعد ليلة ساجية من ليالى الشتاء ، شاعرا بأن سؤالا قد طرح على فى نومى ، حاولت الاجابة عنه وأنا غارق فى السبات ؛ ولكن عبثا ما حاولت . فقد كان سؤالا من طراز ـ ماذا ـ وكيف ـ ومتى ـ وأين ، ولكن الطبيعة المشرقة التى يعيش فيها جميع المخلوقات ، كانت تطل على من نوافذى العريضة بوجه مطمئن راض ، من غير أن يتردد على شفتيها أى سؤال . وأخيرا استيقظت من نومى على سؤال قد أجيب عنه ، وعلى الطبيعة ، وضوء النهار الساطع . وكان الثلج قد تراكم على الارض المنبثة فيها فسائل أشجار الصنوبر ، وبدا سفح التل نفسه الذى يقوم عليه بيتى كأنه يقول لى : الى الامام ! فالطبيعة لا تلقى على الناس سؤالا ما ، ولا هى تجيب عن أى سؤال نسأله ، نحن بنى الانسان المكتوب علينا الفناء . لقد عزمت أمرها منذ زمن طويل .. يا أيها الامير ، ان عيوننا لتتأمل معجبة منظر هذا الكون الرائع المنوع الشكول ، وتنقل أثره الى الروح . وليس من شك فى أن الليل يستر جزءا من هذه الحقيقة المجيدة ويخفيه عنا ، ولكن النهار لايلبث أن يطلع فيكشف لنا عن هذا العمل العظيم الذى يمتد من الارض ، ويسمو حتى يبلغ أرجاء الأثير .

والآن ، فلأعد الى عملى الذى أقوم به كل صباح ، فأتناول أول كل شىء بلطة وجردلا ، وأمضى بهما باحثا عن الماء ، ان لم يكن ذلك منى سوى حلم من الاحلام . فالبحث عن الماء بعد ليلة باردة مثلجة يقتضينى أن أستخدم عصا الاستنباء الخاصة لأستعين بها على العثور به . ففى كل شتاء ينقلب سطح البركة السائل الرجراج ، الذى تتأثر من شدة

حساسيته كل نفس ، ويعكس كل ضوء وكل ظل من الظلال ـ ينقلب هذا السطح ، وتتجمد مياهه الى عمق قدم أو قدمين ونصف ، ويصير صلبا متينا لا يؤوده مرور أثقل زوج من الماشية عليه . وقد تغطى الثلوج هذا السطح المجلود بقدر هذا السمك نفسه ، حتى يشق عليك أن تميزه عن أى سطح آخر مستو لأى حقل من الحقول . فكأن هذه البركة كانت تفعل ماتفعله المراميط القارضة فى التلال المجاورة ، فتطبق أجفانها ، وتظل هاجعة ثلاثة شهور ، أو أزيد . وبعد أن أقف على هذا السهل المكسو بالثلوج ، كأنى فى مرعى وسط التلال المجاورة ، آخذ فى شق طريقى وسط ثلوج عمقها قدم وتحتها جليد عمقه قدم كذلك ؟ وعندما أفتح فى الجليد كوة تحت قدمى ، وأركع عندها لأشرب ، أطل على ذلك البهو الفسيح الهادىء الذى يأوى الاسماك ، وينتشر فيه ضوء ندى ، كأنما كنت أطل من نافذة عليها زجاج « مصنفر » يوزع الضوء ، فأشاهد قاع ذلك البهو مفروشا بالرمل الابيض الحر ، الذى لا يزال هو هو كعهدى به فى الصيف ، وهنا يسود المكان هدوء دائم لا أمواج تعكره ، كما يسود الشفق الوردى الجو ويعمه . فهو يتلاءم مع مزاج سكانه الهادىء المتزن . فها هى السماء تحت أقدامنا ، كما هى فوق رؤوسنا .

وفى الصباح الباكر ، وقد جعل الصقيع كل شىء هشا ، يأتى الرجال ومعهم أدوات الصيد ، وطعامهم الخفيف ، فيدلون خيوطهم الرفيعة خلال حقل الثلج ليصيدوا الفرخ والكراكى الصغار . انهم قوم وحشيون دفعتهم غريزتهم الى اتباع طرق فى الصيد غير تلك الطرق المألوفة لاهل بلادهم ، ووثقوا فى شئونه برجال من غير أهل بلادهم ، كذلك . فهم بروحاتهم وغدواتهم يربطون بلادا بعضها ببعض فى نواح ، لو لاهم ما ارتبطت . تراهم يجلسون ليتناولوا غداءهم على قماش خشن يبسطونه على أوراق شجر البلوط الجافة عند الشاطىء . لقد ألموا بشئون الطبيعة وظواهرها ، المام أهالى الحضر بالشئون الصناعية ، فلا تراهم يرجعون الى الكتب يستشيرونها لان ما يعلمونه ، وما يستطيعون أن يذكروه لك عن الطبيعة وأحوالها ، ليقل كثيرا عما فعلوه وأنجزوه . ويقال ان الوقت لم يحن بعد لاذاعة الامور التى يمارسونها فعلا ، ونشرها على الناس . فها هوذا رجل منهم يصطاد الكراكى الصغار بطعم يتخذه من كبار سمك الفرخ ، واذا ما ألقيت نظرة على جردله أخذك العجب مما ترى . فكأنى بك تنظر الى بركة والدن فى الصيف ، وكأنى به قد احتجز فصل الصيف واحتبسه فى بيته ، أو عرف أين تراجع واستخفى . ترى كيف حصل على هذه الاسماك فى قلب الشتاء ؟ انه أخذ يجمع الديدان أولا من كتل الخشب وأروماته المتعفنة ، اذ الارض كلها مجلودة ، وبذلك استطاع أن يصيد ما اصطاد . ان حياته نفسها لتتعمق الطبيعة وتصل الى آماد

أبعد مما تنفذ اليهـا بحوث العـالم الطبيعي ودراساته ، بل ان هذا الصياد نفسه ليعـد موضوعا يجدر بالعالم الطبيعي أن يدرسـه . فعلى حين يرفع العالم الطحالب ولحاء الشجر بسكينه في رفق ولين بحثـا عن الحشرات ، نرى صاحبنا يفلق كتل الخشب بلطته تفليقا عنيفا فيتطاير اللحاء ، وتتناثر الطحالب العالقة بها شذر مذر مسافات بعيدة ؛ فهو انما يكسب رزقه بقطع الاشجار وتفليـق كتل الخشب ، فلمثله الحق فى أن يصيد السمك ، ويطيب لى أن أرى الطبيعة ممثلة فيه . ألا ترى أن فرخ السمك يبتلع الدودة ، والكركى يبتلع الفرخ ، وأن الصائد يبتلع الكركى ؟ بذلك تكون حلقات الوجود موصولة مرتبط بعضها ببعض فى سلم النشوء .

وكنت عندما أتجول فى أنحاء البركة فى يوم غائم ، أتسلى أحيانا بمشاهدة طرق الصيد البدائية التى يتبعها أحـد الصيادين الجفـاة الخشنين . فرأيته يضع فروعا من شجر الحور على مافى الجليد من ثقوب ضيقة متباعدة بعضها عن بعض بعشرين أو ثلاثين ياردة ، وبعيدة عن الشاطىء بمثل ذلك البعد نفسـه ، ثم يربط طرف الخيط فى عصا ليمنع انسحابه الى الداخل ، ويعلق هذا الخيط المسترخي فى شـجرة من أشجار الحور على ارتفاع قدم أو أكثر من سطح الجليـد ، ثم يربط به ورقة جافة من أوراق البلوط ، حتى اذا ما رآها اجتذبت استدل على أن سمكة قد عضت الصـنارة ، وتتراءى لك فروع أشجار الحور هذه من خلال الضـباب فى فترات منتظمة ، وأنت تسير حـول البركة حتى تبلغ منتصف محيطها .

فما أبدع كراكيك ياوالدن ! فكلما شاهدتها راقدة على الجليد أو سـابحة فى البئر التى يحتفرها الصياد فيه بأن يعمل ثقبا صغيرا تدخل منه المياه ــ أخذتنى دائما روعة ذلك الجمـال النادر ، كأنما كانت تلك الاسماك التى تحدثنا عنها الاساطير . فهى غريبة عن السـوق هنا ، بل وعن الغابات كذلك ، غريبة بلاد العرب عن الحياة المألوفة فى بلدتنا ، ككونكورد . فجمالهـا رائع ، باهر ، علوى . أين منه جمال « البقلات » وأنواع « الحساس » التى تتغذى بالجيف وتعيش على الرمم ، والتى يطبـل النـاس ويزمرون مشيدين بشهرتهـا فى شوارعنـا ؟ فكراكى والدن ليست بالخضراء حضرة شـجر الصنوبر ، ولا هى بالرمادية فى مثـل لون الحجارة ، ولا زرقاء زرقة السماء . فلونهـا فى نظرى أندر من ذلك كله وأعجب ، فهى فى ألوان الازهار والاحجار الكريمة ، اذا ما جازلنا هذا التعبير كأنها اللآلىء ــ لآلىء ميـاه والدن ، أو بلوراتها ــ تجلت فى شكل أسماك ؟ انها كلها والدن بالطبع ، لحما ودما ، بل هى والدنات صغار من مملكة الحيوان ؟ ومن عجيب أن تصاد هذه الاسماك هنا . ففى هـذه العين الواسعة العميقة البعيدة عن الماشية والعربات ، وأصوات الزحافات التى تجرى على طـريق

والدن فوقها ، تجد هذا السمك الجليل الزمردي اللون ، الذهبية يسبح في الماء . ولم يحدث أني رأيت له مثيلا في أية سوق من الاسواق ، وان وجد لكان معقد الانظار كلها ، ومع ذلك فحسبه بضع حركات تشنجية سريعة حتى تزايله روحه المائية بسهولة فيقضي بعد قليل ؛ مثله في ذلك مثل انسان ارتفع قبل أجله المقدور عليه الى أجواز السماء حيث يرق الهواء وتقل كثافته .

ولما كانت لي رغبة في أن أرد الى والدن قاعها الذي أشاعوا عنه أنه فقد من زمن طويل قمت بمسح البحيرة كلها بعناية وحرص مستعينا بالفرجار والجنزير وخيط المسبار . وقد تم ذلك في مستهل سنة ١٨٤٦ قبل أن يتشقق الجليد ويأخذ في الذوبان . وكانت ثم قصص كثيرة شتى تروى عن قاع هذه البحيرة ، أو بالاحرى عن عدم وجود قاع لها ؛ وكلها قصص لا شبهة في أنها لا أساس لها من الصحة نستنداليه . أليس عجيبا أن يظل الناس طويلا يعتقدون أن هذه البحيرة لا قاع لها ولا يجشمون أنفسهم مئونة سبرها واختبارها ؟ وحدث أن زرت في أثناء تجوالي في الاراضي القريبة مني بركتين عظيمتين من أمثال البركة التي يقال عنها انها عديمة القاع . هذا ، وكان كثيرون من الناس يعتقدون أن والدن كانت من العمق بحيث تصل الى الطرف المقابل من الكرة الارضية ، وأن بعضا من أولئك الذين انبطحوا على الجليد مدة طويلة على وجوههم ينظرون من خلال هذا الوسط الزئبقي ــ وربما كانوا ينظرون كذلك بعيون عليها غشاوة وتسرعوا في الاستنباط مخافة أن يصابوا ببرد في صدورهم ــ ربما يكونون قد شاهدوا ثقوبا واسعة جدا بلغت من السعة أن حملا من الدريس يمكن أن يقذف فيها ، ان كان هناك انسان يستطيع أن يقذف به ؛ ولا شك في أن هذا الثقب منبع نهر «الاستيكس*» ، ومدخل العالم السفلي ــ عالم جهنم الذي يوصل اليه من هذه الارجاء ــ وقد جاءها غيرهم من القرية ومعهم مقياس من مقاييس الاطوال وحمل عربة من الحبال التي سمكها بوصة ، ومع ذلك فلم يوفقوا الى العثور على قاع لها . ذلك بينما كان المقياس ملقى في الطريق . كانوا هم يرسلون الحبال آملين عبثا أن يسبروا مدى ما فيهم من قدرة على استيعاب كل عجيبة وغريبة . وهي حقا قدرة لا يسبر لها غور . ولكنني أستطيع أن أؤكد لقرائي ان والدن لها قاع ثابت على عمق لا يخرج عن المعقول ، يتيسر لنا قياسه على الرغم من أنه عمق غير عادي . وقد وفقت فعلا الى قياسه في غير صعوبة أو مشقة بوساطة خيط وحجر زنته قرابة رطل ونصف رطل ؛ وفي استطاعتي أن أقرر بالدقة متى غادر الحجر القاع ، وذلك عندما اضطر الى بذل جهد أعظم في سحب الخيط قبل أن تتسرب المياه أسفله فتعاونني على سحبه . فأكبر عمق في البحيرة هو على وجه الدقة مائة قدم واثنتان ، ويجوز أن نضيف

اليها خمسة الاقدام التى ازدادتها منـــذ ذلك الوقت ، وبذلك يصبح عمقها مائة قدم وسبع ، وهو لا شك عمق عظيم بالاضافة الى مساحتهـا الصغيرة ؛ ومع ذلك فان الخيال يأبى أن ينزل عن بوصة واحدة منه • ولكن ما علينا لو كانت جميع البرك ضحلة قليلة الغور ؟ هـــل يخشى ألا يؤثر هذا فى عقول الناس ؟ انى لأحمـــد الله على أن هذه البركة خلقت عميقة صافيـــة حتى يصح أن تتخـــذ رمزا • فعلى حين يؤمن الناس بما لا نهاية له فانهم يؤمنون كذلك بأن بعض البرك لا قاع لها •

لما سمع أحد أصحاب المصانع بمدى عمق البحيرة الذى توصلت الى معرفته خطر له أن هذا لايمكن أن يكون صحيحا • فبحسب خبرته بالسدود لا يمكن آن تكون الرمال عـــلى زاوية حادة وعرة الى هذا الحد • ولكن أعمق البرك ليست بالعميقـــة ذلك العمـــق الـكبير بالاضافة الى مساحتها كما يتوهم الكثيرون من الناس • فلو أن مياهها صرفت عنهـا لما تركت وراءها أودية بارزة واضحة المعالم كل الوضوح؛ فهى ليست مثل تلك التى بين التلال ، لان هذه البركة العميقة عمقا غير عادى لا يتناســـب مع مساحتها تبدو لنـــا فى قطاع عمودى يمـر بوسطها فى الواقع بأعمق من طبق ضـــحل ،فأكثر البرك اذا ما فرغت مياهها تركت بطيحـة ليست بالمقعـــرة أكثر مما نعهـده عادة • هذا ، ولا يخفى أن « وليم جلبين » حجة ثقة فى كل مايتصل بشئون المناظر الطبيعية ؛ وهـــو عادة مصيب فيما يقول الى مدى بعيـد • وقف وليم جلبين هذا مرة عند رأس بحيرة فاين فى اسكتلندة التى يصفها بأنها خليـــج من الماء الملح عمقه ستون أو سبعون قامة ، وعرضه أربعة أميال ،وطوله قرابة الخمسين ميلا ، تحيط به الجبـال من كل جانب • ويلاحظ أننا لو رأينـا هـذه البركة عقب الطـــوفان مباشرة ، أو عقب أى اضطراب فى القشرة الارضية يكون السـبب فى ايجادها ، وقبل أن تندفع المياه فيها وتغمرها لبدت لنا شقا مريعا أو هوة بالغة الفظاعة •

« فبقدر ما ارتفعت التلال الضخام ، انهارت
حفرة جوفاء عريضة وعميقة
فكانت مجرى واسعا من مجارى المياه »

ولكن لو استخدمنا أقصر قطر من أقطار بحيرة « فاين » هذه ، وطبقنا هذه النسب عـلى بحيرة والدن ، التى لا تبدو ، كما رأينا ، فى شكل قطع عمودى ، الا لأنها لاتزيد على أن تكون أشبه بطبق ضحل ، لتبين لنا أنها أضحل من ذلك بأربعة أضعاف • فحسبنا هذا اذن عن فظائع شق بحيرة فاين عقب صرف مياهها عنها • وليس من شـــك فى أن الكثير من الأودية

الباسمة ، وما بها من حقول الذرة المترامية الاطراف لتشغل مثل هذا الشق تماما ، بعد أن تراجعت عنها المياه ، وان كان لابد لنا من بصيرة العالم الجيولوجي ومن بعد نظره لاقناع السكان الغافلين بذلك الامر ، فكثيرا ما تستطيع العين الطلعة أن تبصر شواطىء أية بحيرة بدائية بين التلول المنخفضة من غير حاجة الى أن يرتفع السهل ارتفاعا ثانيا ليخفى تاريخ هذه الشواطىء عنا . وأسهل من ذلك كما يعرف أولئك الذين يعملون فى الطريق العام ، أن نتعرف الحفر والتجاويف بواسطة البرك الصغيرة التى تحدث عقب نزول المطر . وان نحن أطلقنا العنان للخيال ولو بعض الاطلاق ، لأدركنا أن مدى ذلك قد يهبط الى أبعد ما يمكن أن تهبط اليه الطبيعة ، أو يرتفع الى أعلى مما يمكن أن ترتفع اليه . وعلى هذا فلربما وجدنا عمق المحيط تافها كل التفاهة بالاضافة الى اتساعه .

وكنت ، وأنا أسبر البحيرة من خلال الجليد ، أستطيع أن أعين شكل قاعها بدقة أعظم مما يمكن الحصول عليه عند مسح الموانىء التى لاتتجمد مياهها . وقد دهشت مما وجدته فى قاع البحيرة من انتظام عام فى الجملة . ففى أعمق جزء منه ، عدة أفدنة تكاد تكون أكثر استواء من أى حقل من الحقول المعرضة للشمس والريح والمحراث . وفى حالة واحدة معينة ، وعلى خط اختير اعتباطا ، لم يختلف العمق بأكثر من قدم واحدة فى كل مائة وستين ياردة . وكنت فى الجملة ، أستطيع أن أقدر مقدما عند وسط البركة ، الاختلاف فى كل مائة قدم ، وفى أى اتجاه آخر ، من غير أن يخطىء تقديرى بأكثر من ثلاث بوصات أو أربع ـ هذا ، وقد اعتاد بعض الناس أن يتحدثوا عن وجود ثقوب عميقة وخطيرة حتى فى البرك الهادئة الرملية التى مثل هذه البركة ؟ ولكن تأثير الماء فى مثل هذه الاحوال يسوى جميع المرتفعات والمنخفضات بعضها ببعض . فانتظام القاع وتماثله مع الشواطىء ومع سلسلة التلال المجاورة كانا كاملين لدرجة أن أى رأس أو بروز بعيد كان يتجلى عند سبر الاعماق عبر البركة واضحا تماما ويتسنى تعيين اتجاهه بملاحظة الشاطىء المقابل ، فالرأس يصبح سدا ، والسهل ماء ضحلا ، والوادى والخانق ماء عميقا ومجرى .

ولما رسمت البركة على أساس بوصة واحدة لكل ستين قدما ، ودونت أرقام الاعماق ، وهى أكثر من مائة ، تبين لى الاتفاق العجيب الآتى : فبعد أن لاحظت أن الرقم الذى يدل على أكبر عمق فيها كان على ما يظهر فى وسط الخريطة ، وضعت عليها مسطرة طولا أولا ، ثم عرضا ، فأدهشنى أن أجد أن أكبر الخطوط طولا يتقاطع مع أكبرها عرضا عند النقطة التى تبين أكبر عمق تماما ، وذلك على الرغم من أن الوسط يكاد يكون مستويا . كما أدهشنى أن شواطىء البركة أبعد من أن تكون منتظمة ، وأن أقصى طول ، وأقصى عرض ، حصلت

عليهما بالقياس كانا داخل الخلجان ، فقلت في نفسي : من يدري ؟ فلعل هذه الملاحظة تؤدي الى تعرف أعمق جزء في المحيط ، كما تؤدي الى أعمق جزء في بركة ما كبيرة كانت أو صغيرة • أليست هذه هي القاعدة لتقدير ارتفاع الجبال كذلك ، من حيث هي عكس الاودية ؟

هذا ، وقد لوحظ أن ثلاثة من الخلجان الخمسة ، أي جميع الخلجان التي تم سبر أعماقها ، لها سد يعترض أفواهها ، وماء عميق في داخلها ، وبذلك يمكن أن يكون الخليج مسطحا من الماء داخل الارض لا أفقيا فحسب ، بل رأسيا كذلك ، وأنه يكون حوضا أو بركة مستقلة ، فاتجاه الرأسين يبين اتجاه السد • ولكل مرفأ على شاطيء البحر سد عند مدخله ، وكلما كان فم الخليج واسعا بالاضافة الى طوله ، كان الماء الذي فوق السد عميقا بالاضافة الى الماء الذي في الحوض • وعلى هذا ، فاذا علمنا طول الخليج وعرضه وحالة الشواطيء المحيطة به ، حصلنا على العناصر التي تكاد تكفي لوضع قانون يصدق على جميع الحالات •

وكي أقف على مدى قرب حدسي من الصواب ، على أساس ما حصلت عليه من هذه الخبرة ، عند أعمق نقطة في بركة ، بمجرد ملاحظة الخطوط العامة لسطحها ، وصفات شواطئها فحسب ، عملت رسما « لهوايت بند » التي تبلغ مساحتها ٤١ فدانا • وهي مثل هذه البحيرة لا جزيرة فيها ، وليس بها أي مدخل أو مخرج يرى • ولما كان خط أكبر عرض لها وقع قريبا جدا من أقل الخطوط عرضا حيث تقترب رأسان متقابلان بعضهما من بعض ، وحيث يتباعد خليجان متقابلان بعضهما عن بعض ، تجرأت ووضعت علامة على نقطة تبعد مسافة قصيرة عن الخط الثاني من الخطوط التي تدل على أكبر طول ، باعتبارها تدل على أعمق مكان ، فتبين أن أعمق مكان ، يقع في نطاق مائة قدم من هذه النقطة ، وأبعد في الاتجاه الذي كنت ميالا اليه ، ولم يكن أعمق مما قدرت الا بقدم واحدة ، أي أن عمقه كان ستين قدما • وبالطبع لو كان ثمة نهر يجري خلالها ، أو كانت فيها جزيرة لتعقدت المسألة تعقيدا أشد •

ولو أننا عرفنا جميع قوانين الطبيعة لاحتجنا الى حقيقة واحدة فحسب ، أو الى وصف ظاهرة واحدة حقيقية ليس الا ، كي نستنبط كل النتائج الخاصة بهذه المنطقة • على أننا لا نعرف الآن سوى بضعة قوانين • وقد فسدت نتيجتنا التي وصلنا اليها ، وهي لم تفسد بالطبع من جراء وجود اضطراب في الطبيعة ، أو خلل في نظامها ، وانما فسدت من جراء جهلنا نحن بالعناصر الضرورية في عملية حساب هذه النتيجة • فآراؤنا عن القانون وعن الانسجام والتوافق مقصورة عادة على الحالات والاحداث التي نشاهدها ، على حين أن الانسجام الذي ينشأ عن عدد عظيم من القوانين التي لم نقف عليها بعد ، والتي قد تبدو لنا متضاربة متعارضة،

وان كانت فى الحقيقة منسجمة متوافقة ـ لهوانسجام أعجب وأروع • هذا ، والقـــوانين الخـــاصة ، تختلف باختلاف وجهات نظرنا ،ومثلما يختلف شكل الجبل باختلاف كل خطوة يخطوها السائح ، ويكود له عدد لا يحصى من المناظر الجانبية ، على حين ليس له سوى شكل واحـــــد مطلق فحسب • وحتى ان شق هذاالجبل ، أو ثقب ثقبـــا نافذا فانا لا نستطيع أن نفهمه بعد ذلك فى جملته فهما صحيحا •

وما لاحظته عن البركة ، يصدق كذلك على أمور «الاخلاق» • فهو قانون المتوسطات • فقاعدة مثل قاعدة القطرين الاثنين لا تهدينا الى مركز الشمس فى النظام الشمسى ، والى مركز القلب فى الانسان فحسب ، ولكنها ترسم خطوطا تقطع جملة مظاهر سـلوك الانســان اليومية الخاصة به ، طولا وعرضا ، وتقطـــــع أمواج حياته كذلك ، حتى تصل الى مافيه من خلجان وأجوان ، وحيث تتقاطع هذه الخطوط ، تكن أسمى ذروة فى أخلاقه ، أو أعمقها فيهـــا • وقد لا نحتاج الا الى معرفة اتجاه شواطئـــــه ومعرفة بلاده المجاورة أو ظروفه وأحواله كى نستنتج عمقه وقاعه المخبوء • فان كانت تحيط به ظروف جبلية ، تشرف على صدره ، وتنعكس عليه فى الوقت نفسه ، أوحت الينا بعمق مماثل لها فيه • أما ان كان ثمة شاطىء سهل منخفض، فقد يدل على أنه ضحل فى هذه الناحية • أما من حيث أجسامنا ، فالجبهة الجريئـــة البارزة تدل على عمق فى التفكير • وكذلك يوجد سدعند مدخل كل خليج من خلجاننا ، أى عنـد كل ميل من ميولنا الخاصة ، كل منها مرفأ خاص لنا نقضى فيه فصلا من فصول السنة ، نحتجز فيه ونحصر ، وليست هذه الميول بالمتقلبة عادة ،ولكن شكلها وحجمها واتجاهها يتعين بالرؤوس البارزة التى عند الشاطىء ـ محور الارتفـــاع القديم • وعندما يرتفع السد تدريجيا ويزداد من جراء قيام العواصف وحدوث المد والجـزر والتيارات ، أو عندما يحدث انخفاض فى المياه يجعل السد يصل الى السطح ، فان ما كان فى البداية مجرد ميل عند الشاطىء رسا عنـــــده الفكر ، يصبح بحيرة مستقلة اقتطعت من المحيط وفصلت عنه ، وفيها تتحقـــــق للفكر شروطه الخاصة به ، وربما يتغير من ملح أجاج الى عذب فرات ، ويصبح بحيرة عذبة الماء ، أو بحـــرا ميتا ، أو مستنقعا من المستنقعات • أفليس لنا أن نفترض ، عندما يستقبل كل فرد هذه الحياة ، أن سدا مثل مثل هذا السد قد برز الى السطح فى مكان ما ؟ حقا اننـا ملاحون ضعفاء مساكين ، وأن أغلب أفكارنا لتقوم عند شاطىء لا مرافىء فيه ، ولا عهد لنـا الا بما فى خليج الشعر من أجوان ؛ ولسنا نتجه بسفينتنا الا شطر الموانىء العامة ، ولا ندخل الا أحواض العلم الجافة التى لا تهيأ الا لهذه الحياة الدنيا ، ولا تتعاون فيهـا التيــــارات الطبيعية بشكل يمكن كلا منها من الاحتفاظ بفرديته •

أما من حيث مدخل والدن أو مخرجها ، فانى لم أستكشف شيئا منهما غير المطر والثلج والبخر ، وان كان من الجائز أن نعرف مثل هذه المواضع بواسطة ترمومتر وخيط • فحيث يصب الماء في البركة ، قد يكون أبرد مايكون ،في الصيف وأدفأ مايكون في الشتاء ، فبينما كان قطاع الجليد يعملون هنا في شتاء سنة ١٨٤٦/٤٧ حدث ذات يوم أن رفض العمال الذين يقومون بتكويم ألواح الجليد أن يتسلموا ما أرسل منها الى الشاطيء بحجة أنها لم تكن من السمك بحيث تبقى جنبا الى جنب مع سائر الالواح الاخرى • وبذلك استكشف العمال أن الجليد الذى فوق حيز ضيق كان أرق ببوصتين أو ثلاث بوصات ، مما في موضع آخر ، فجعلهم يظنون أنه لا بد من وجود خليج هناك • وكذلك أطلعونى في مكان آخر على ما حسبوه نقب ترشيح ، كانت البركة تنضح منه تحت تل الى بطيحة مجاورة • فأوقفونى على قرص من أقراص الجليد ودفعونى قدما الى الامام كى أتمكن من رؤية هذا النقب ؛ فوجدت تجويفا صغيرا يقع تحت عشر أقدام من الماء • على أنى أستطيع أن أؤكد أن البركة ليست بحاجة الى رأب أى صدع فيها الى أن يجدوا موضعا آخر غير هذا ينضح أسوأ مما تنضح • هذا وقد اقترح بعضهم أننا نستطيع التدليل على اتصال هذا النقب بالبطيحة ـ ذلك ان كان هناك ثقب حقا ـ بنقل مسحوق ملون ،أو نشارة خشب الى فم النقب • وان وضعنا مصفاة على العين في البطيحة تعلقت بها بعض الجزيئات التى يحملها التيار •

عندما كنت أقوم بعملية مسح البركة بلغ سمك الجليد ست عشرة بوصة ، وكان يتماوج من تأثير ريح رخاء لينة هبت عليه مثلما تتماوج المياه • ولا يخفى أن ميزان الماء لايتسنى استعماله على الثلج ، فعلى بعد خمس ياردات ونصف من الشاطيء كان أعظم فرق لا يزيد على ثلاثة أرباع البوصة اذا ما رصدناه بميزان موضوع على الأرض الصلبة وموجه نحو عصا مدرجة موضوعة على الجليد ، على الرغم من أن الجليد كان يبدو متصلا بالشاطيء اتصالا وثيقا • وربما كان الفرق أكبر من هذا في الوسط • ومن يدرى ؟ فلو أن آلاتنا بلغت درجة كافية من الدقة لاستطعنا أن نسجل تذبذبا في القشرة الارضية نفسها ، فعندما تكون اثنتان من أرجل ميزان الماء على الشاطيء والثالثة على الجليد ووجهة الميزان نحو الجليد ، فان صعودا أو نزولا يسيرا في الجليد يكاد لا يذكر ، قد يحدث فرقا مقداره عدة أقدام على شجرة تعوم عبر البركة • فعندما شرعت أعمل ثقوبا في الجليد لاسبر البركة ، كان عليه نحو ثلاث أو أربع بوصات من الماء تحت ثلج عميق تغلغل فيه الماء حتى وصل الى هذا الحد • ولكن سرعان ما أخذ هذا الماء يتسرب الى الثقوب ، وظل يجرى يومين في مجار عميقة حتت الجليد وبرته من كل جانب ، وكانت العامل الاساسى ان لم تكن العامل الاكبر ، في تجفيف سطح البركة ؛ وذلك

لان جريان المـاء الى الداخل رفع الجليد وجعله يطفو . فما أشبه ذلك الى حد ما بعمل ثقب فى قاع سفينة لاستفراغ ما فيها من المـاء . فاذا ما تجمدت أمثال هذه الثقوب وأعقب تجمدها مطر ، ثم حدث فى النهاية تجمد آخر،وتكونت طبقة جديدة ملساء من الجليد على جميع ذلك ، كان هـــذا الجليد مرصعا من الداخل ترصيعا جميلا بأشكال غامقة تشبه شكل خيوط العنكبوت بعض الشبه ، ويحق لك أن تسميها وردات ثلجية ، أحدثتها المجارى التى يشـــقها الماء وهو يسرى من كل جانب متجها نحو مركز معين يصب فيـه . وعندما تتكون على الجليـــد عدة برك ضحلة ، كنت أرى أحيانا خيالا مزدوجا لشخصى ، أحد الخيالين واقف على رأس الآخر



أحدهما على الجليد والثانى على الاشجار ، أو على سفح التل . هذا ، ومع أننا كنا لا نزال فى شهر يناير البارد ، وكان الثلج والجليـد كلاهما سميكين وحلين فقد دأب صاحب الملك الحازم على المجىء من القرية كى يحصل عـــلى الثلج ليبرد شرابه فى الصيف . فقد كان هذا الرجل رائعا حقا فيما أبداه من تعقل وحكمة وبعـد نظر ، اذ أدرك الآن ، فى شهر يناير ، مدى حرارة شهر يولية وما يصيب النـــاس فيه من عطش . وكان يرتدى حلة سميكة ، ويضع فى يديه قفـازين طـــويلين ، على حين كانت لا تزال عليه أشياء كثيرة لم يكن قد أعد لهـــا عدتها بعد ، ولعله لم يكن يدخر فى هذه الدنيا أى ذخر يمكن أن يبرد له شرابه اذا ما اشتد حر الصيف فى الآخرة . جاء هذا الـــرجل ليقطع البركة الصلدة وينشرها ويزيل السقف عن منازل الاسماك ، وينقل على عرباته الهواء ، عنصرها الاساسى بعد أن يحكم ربطه بالسلاسل كما يربط الحطب بالحبـــال ، ينقله فى هواء الشتاء الصـــالح الى مخازن شتوية حيث يظل فيها حتى يحل الصيف ، فكنت ترى هذا الجليد من بعيد وهو ينقل فى الشوارع كأنه لازورد متجمد . ان قطاع الجليد هؤلاء قوم مرحون طروبون ، نفوسهم حافلة بالفكاهات والنوادر .

فلما مضيت معهم دعونى الى مشاركتهم فى قطع الجليد بالمنامير فاتخذت مكانى فى أسفل على حين كان آخر قد اتخذ مكانه فى أعلى ..

وذات صباح فى شتاء عام ١٨٤٦/١٨٤٧ ، وفد مائة رجل من سلالة « الهايبربورين » ، وانقضوا على بركتنا تصحبهم عربات كثيرة محملة آلات زراعية كئيبة لا يروق منظرها أحدا ـ من زحافات ومحاريث ومياذر ومناجل ومعاول ومناشير وأمشاط ومعازق . وكان كل رجل منهم قد تقلد حربة ذات سنين ، مما لم يرد ذكره فى مجلة « نيو انجلند فارمر » ، ولا فى « السكلتيفاتور » . ولم أكن أدرى ان كانوا قد جاءوا ليبذروا شوفانا شتويا أو أنواعا أخرى من بذور وردت حديثا من آيسلندا ؟ واذ لم أشاهد معهم أى سماد قلت فى نفسى أنهم انما جاءوا لكى يكشطوا وجه الارض ، كما فعلت أنا من قبل ، ظنا منهم أن التربة عميقة وانها لبثت مدة طويلة كافية هملا من غير زرع . وقيل ان وراءهم مزارعا من سراة القوم يدفعهم ويحركهم رغبة منه فى تثمير أمواله التى بلغنى أنها تقرب من نصف المليون . واذ كان يرغب فى تغطية كل دولار عنده بآخر مثله جاء الى والدن لينتزع منها كساءها الوحيد ، بل جاء لينتزع عنها جلدها فى قلب الشتاء القارس . ومضى هؤلاء العمال من فورهم يحرثون ويعزقون ويقلبون الارض وينظمون الخطوط فى نسق بديع ، كأنما كان قصدهم أن يجعلوا منها مزرعة نموذجية ، فلما أنعمت النظر فيما يفعلون لعلى أعرف أى أنواع الحبوب بذروه فى الأخاديد ، اذا بجماعة منهم على مقربة منى أخذوا فجأة يرفعون التربة البكر بأن يجذبوها جذبات خاصة حتى يصلوا الى الرمال ، أو بالأحرى الى الماء . فقد كانت التربة مرنة وثابة والحق أنهم كانوا يرفعون الاراضى الصلبة الموجودة ثم يجرونها فى زحافات ، فخطر لى أنهم انما جاءوا ليقطعوا النباتات المتلبدة المتحجرة من مستنقع معين . وظلوا على ذلك يغدون ويروحون ، وترافقهم صرخة معينة صادرة من القاطرة ، فيغدون من نقطة ما فى الاقطار الشمالية ثم يروحون عائدين اليها ، وبدوا فى نظرى كأنهم جماعة من طيور الثلج التى فى المحيط المتجمد الشمالى ، على أن السيدة « والدن » العجوز لم يفتها أن تثأر لنفسها منهم . فبينما كان أحد العمال المأجورين يسير خلف محراثه اذ زلقت رجله فغاص فى شق من شقوق الجليد ، وهوى حتى بلغ أغوار ترتاروس* ، واذا بذلك الذى كان من قبل شجاعا قد انقلب نصف رجل ، وكاد أن يفقد حرارته الحيوانية ، وعندئذ طاب له أن يلجأ الى بيتى ويعترف بما للموقد من فائدة . وكانت التربة المجلودة تسبب فى بعض الاحيان كسر قطعة من الفولاذ من سكين المحراث ، أوقد يحدث أن ينغرس المحراث نفسه فى الاخدود بشكل لا يدع مناصا من كسره كى يتيسر اخراجه من ورطته .

وكان ما يحدث فعلا أن يجيء كل يوم من كمبريدج مائة رجل ايرلندى ، عليهم مراقبون من الامريكيين ، لاستخراج الجليد ، فكانوا يقسمونه أقراصا بطرق معروفة لكل انسان ، فلا داعي لوصفها هنا • ثم تنقل هذه الاقراص الى الشاطيء ، فتسحب بسرعة الى افريز من الجليد ، ثم يشبك بها حديدات معقوفات لترفع بها بوساطة بكرات وحبال تجرها الخيل وتوضع على كومة عالية في سلامة واطمئنان كما لو كانت براميل من الدقيق ، حيث ترص بانتظام بعضها الى جانب بعض ، صفا فوق صف كأنها قاعدة مسلة وطيدة وضع تصميمها لتخترق السحب وتصل الى عنان السماء • وقيل لهم أنهم يستطيعون أن يستخرجوا حوالى ألف طن من كل فدان تقريبا ، ولا يخفى أن مرور الزحافات المتوالى فى طريق معين يحدث فى الجليد كثيرا من الحفر والاخاديد كما يحدث فى الارض اليابسة • وكان الشوفان يقدم علفا للخيل فى أقراص من الجليد بعد أن تجوف وتقعر حتى تصبح كالجفان • وهكذا كانوا يرصون أقراص الجليد بعضها فوق بعض فى الهواء الطلق حتى تصبح كومة عالية ارتفاعها خمس وثلاثون قدما ، ومساحتها بين مائة وثمانين ياردة مربعة ، وبين مائتين • وكان من عادتهم أن يضعوا بين الطبقات الخارجية دريسا ليمنعوا عنها الهواء ، لأن الهواء وان لم يكن قد بلغ درجة كبيرة من البرودة ، اذا ماوجد ممرا خلالها حفر فجوات كبارا ولم يترك سوى عمد هزيلة ، مبعثرة فى هذه الناحية وفى تلك ، لا تحتمل ثقل الكومة فينتهى بها الامر أن تنهار • وكانت الكومة تبدو أول الامر فى شكل خص عظيم أزرق اللون ، أو كأنها فالها * • وعندما يدس الدريس الخشن المجلوب من المراعى ، فى شقوق الكومة وخصاصها ، ثم تتغطى بالصقيع تبدو تلك الكومة فى شكل طلل وقور أبيض مبنى بالرخام اللازوردى اللون ، وقد اكتسى بالطحالب ، فكأنه كان مسكن الشتاء أو كوخ ذلك الشيخ الكبير الذى كثيرا ما نشاهد صورته مرسومة فى التقاويم فكأنه قد بيت النية على أن يصطاف بيننا هذا ، وقد عرفوا بالحساب أن ٢٥ ٠/٠ من هذا الجليد لا تصل الى غايتها المرسلة اليها ، وأن ٢ ٠/٠ أو ٣ ٠/٠ تضيع سدى فى العربات التى تنقل الجليد • ومع ذلك فان جزءا كبيرا من هذه الكومة كان مقدرا عليه أن يتجه الى مصير آخر يختلف كل الاختلاف عما قصد به أولا • وذلك اما لانهم وجدوا أن الجليد لا يظل على حالة جيدة كما كانوا يتوقعون ، لما يحتويه من مقدار من الهواء أكبر من المعتاد ، واما لانه ، لسبب ما ، لم يصل الى السوق • ويقدر وزن كتلة الجليد التى عملت فى شتاء سنة ١٨٤٦/١٨٤٧ بعشرة آلاف طن ، غطيت فى النهاية بالدريس وبألواح من الخشب • ومع أن سقفها نزع عنها فى شهر يولية التالى وأن بعضها نقل ، وظل الباقى معرضا للشمس ، فقد ظلت قائمة طيلة الصيف كله ،

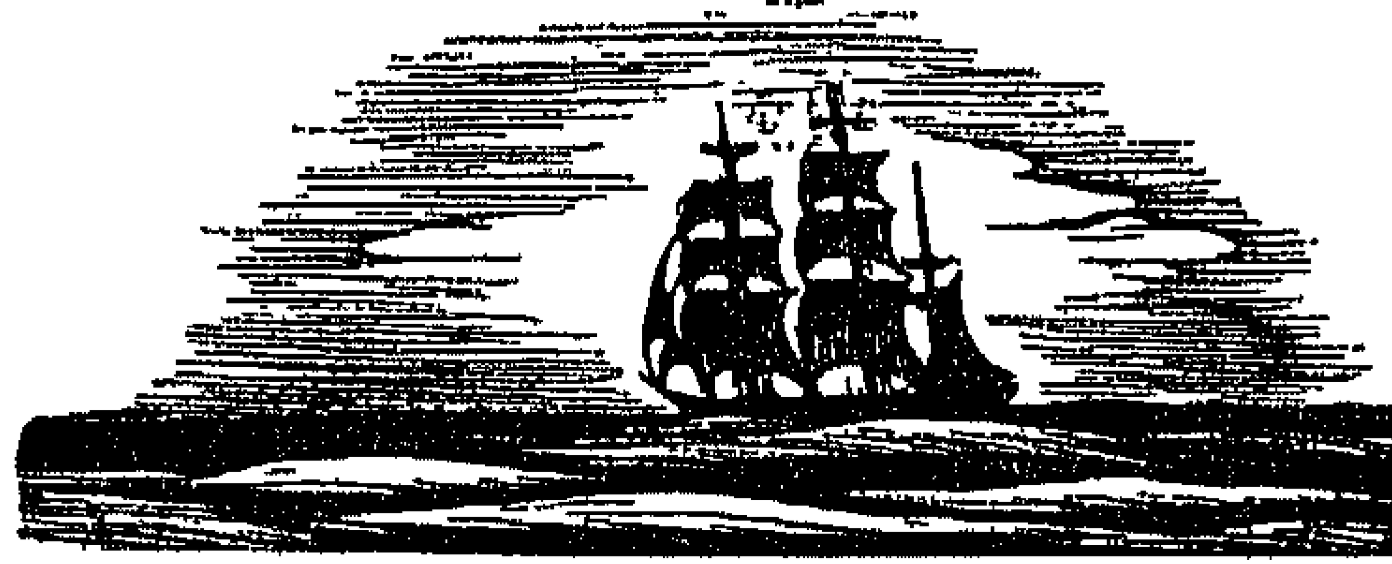
وطيلة الشتاء الذى بعده ، ولم تذب تماما الا فى شهر سبتمبر سنة ١٨٤٨ ، وبذلك تكون البركة قد استفادت بالجزء الاعظم منها .

اذا نظرت من كثب الى جليد والدن وجدته أخضر فى لون الماء ، على حين أنه يبدو أزرق جميلا اذا نظرت اليه من بعد واستطعت أن تميزه فى سهولة ويسر عن الجليد الابيض المأخوذ من مجرى النهر أو من الجليد الضارب الى الخضرة فحسب الذى تجده فى بعض البرك على بعد ربع ميل منا . وقد يحدث أن يفلت قرص من أقراص الجليد من عربة أحد الثلاجين وينزل فى شارع القرية ويظل فيه أسبوعا فيبدو كأنه زمردة ضخمة تستثير اهتمام كل من يمر بها . ولاحظت أن جزءا من والدن كان أخضر وهو ماء ، فصار أزرق بعد تجمده اذا ما نظرت اليه من وجهة النظر ذاتها . ومن ثم كانت الحفر التى حول هذه البركة تمتلىء هى الاخرى فى بعض الاحيان فى الشتاء بماء ضارب الى الخضرة مثل لون مياهها ، ولكنه يعود ويتجمد فى اليوم التالى ويصبح أزرق اللون . ولعل زرقة لون الماء ترجع الى ما يحتويه من الضوء والهواء ، فأكثر المياه شفوفا أشدها زرقة . وهكذا نرى أن الجليد موضوع شائق جدير بالتفكير والتأمل . ان فى بيوت الثلج جليدا عمره ست سنوات ولم يتغير طعمه ، بل ظل صالحا كعادته . فكيف حدث يا ترى أن جردلا مملوءا بالماء يفسد سريعا ، على حين أنه اذا تجمد ظل عذبا سائغا الى الابد ؟ ويقول الناس أن هذا هو الفرق بين العواطف وبين العقل .

وهكذا بقيت ستة عشر يوما أشاهد من نافذتى مائة رجل يعملون كما يعمل الفلاحون المجدون ، معهم الماشية والخيل ، وسائر أدوات الفلاحة كذلك . فكانوا صورة من تلك الصور التى نراها مرسومة فى التقاويم أيضا . وكلما أطللت تذكرت قصة القنبرة والحصاد ، وأمثولة البذار وما اليهما . أما الآن فقد مضوا جميعا ، ومن المحتمل أن أطل من النافذة عينها بعد ثلاثين يوما أخرى على مياه والدن الصافية ذات اللون الاخضر البحرى الصافى ، وهى تعكس السحب والاشجار ، وترسل أبخرتها ، وهى فى وحدتها وعزتها ، ولن تظهر آثار ما تنم عن أن رجلا وقف هنا فى يوم من الايام . ولعلى أسمع صوت « غطاس* » وحيد يضحك وهو يغوص ويسوى ريشه ، أو أرى صيادا منفردا ومعه قاربه كأنه ورقة شجرة طافية ، وأشاهد خياله منعكسا فى الامواج حيث كان يعمل من زمن قريب مائة رجل فى أمان وطمأنينة .

وهكذا يبدو أن سكان مدائن تشارلستن* ، ونيو أورليانز* وبمباى ، وكلكتا الذين أرهقتهم حرارة الجو فجعلوا ينضحون عرقا ، يأتون ليشربوا جميعا من ماء بئرى . فكنت أغسل عقلى فى الصباح بفلسفة « الباجافات جيتا* » تلك الفلسفة الكونية الجليلة التى تعالج

نظريات خلق العالم والتي مضى عليهـــا سنون كثيرة من سني الآلهة ، أن دنيانا الحديثـــة بما فيها من آداب قميئة لتبدو تافهة بالاضافة اليها • ولا يخالجني أي شك في أن هذه الفلسفة ترجع الى حالة من حالات الوجود ، وتسمـــو سموا كبيرا عن مدى تصورنا وتفكيرنا • ثم بعد ذلك كله ألقي بالـــكتاب وأمضي الى بئري أستقي منها ، فأصادف خادم البرهمي ـ قسيس براهما* وفنشو* ، واندرا* الذي لا يزال جالسا في معبده على نهر الـــكنج يتلو الويدا ، أو يسكن عند جذع شجرة ، والى جانبه جرة ماء وكسرة خبز ، وأقابل خادمه الذي جاء يســـتقي ماء لسيده فيصطدم دلوانا الواحد بالآخر في البئر ذاتها • فمياه والدن النقية الطاهرة تختلط بمياه الكنج المقدسة ، وقد تحملها الريح المواتيـــة الى ما وراء جزائر الاتلانتيس* والهسبريديز ، التي تحدثنا عنها الاساطير ، وتطوف كما طاف هانو* من قبل ، وبعد أن تطفو مارة بجزيرتي ترنات* وتيدوور* بمدخل الخليج الفارسي ، تذوب في العواصف المـــدارية التي تهب في بحار الهند ، ثم تنزل في موانيء لم يسمع أحد بأسمائها سوى الاسكندر •





الـــربيـــع

ان قيام قطاع الجليد بشق بقاع واسعة في البحـيرة يجعلهـــا تشرع في الذوبان قبل الاوان ، وذلك لان المـــاء اذا حركته الرياح حت الجليـــد المحيط بالبحيرة ، ولو كان الجو باردا • على أن هذه لم تكن حالة والدن هذاالعام ، اذ سرعان ما اتخذت لها كساء جديدا سميكا من الجليد ، بدلا من كسائها القديم • فمن عادة جليدها أن لايبدأ في الذوبان بالسرعة التي يبدأ بها جليد البحيرات الاخرى القريبةمنها•ويرجع ذلك الى بعد غورها ، وعدم وجود مجرى مائي يخترقها فيعاون على اذابة الجليدأو على حته وبريه • فلم يعرف عن جليدها قط أنه تشقق وتفتح مرة فيالشتاء حتى ولا فيشتاء١٨٥٢/١٨٥٣ القاسي الذي امتحنت بهالبحيرات امتحانا صارما • وانما عادتها أن تتفتح فيأوائل شهـــر أبريل بعد بحـــيرتي فلنت وفيرهافن بأسبوع ، أو عشرة أيام ، وعنـــدئذ تأخذ فيالذوبان بادئة بجزئها الشمـــالي في المواضع الضحلة ، حيث بدأت تجمد مياهها • فهي فيالحق خير ماء في هذه البقاع ينبئنا عن مدى تقدم الفصل على وجه الاطلاق ، وذلك لانهـــا أقل تأثرا من غيرها بما يحدث في الجو من التغيرات العابرة العارضة • فان حدث أن اشتد البرد فيشهر مارس ، وظل شديدا بضعـة أيام ، تأخر ذوبان البرك الاخرى السالفة الذكر وقتا غيرقصير ، على حين تكاد درجة الحرارة في والدن تزداد باطراد زيادة موصولة • ففي الســادس من سبتمبر سنة ١٨٤٧ ، وضع الترمومتر في وسطها ، فظل عند درجة ٣٢°ف ، أي عنـــد درجة التجمد • أما عند الشاطىء فقد ثبت عند درجة ٣٣°ف ، وفي اليوم نفسه كان عند درجة٢/١ ٣٢° في وسط « بركة فلنت » ، وكان في الماء الضحل ، تحت جليد سمكه قدم ، وعـــلى بعد ٧٠ ياردة من الشاطىء ٣٦°ف • فوجود فرق قدره ثلاث درجات ونصف درجة ، بيندرجة حرارة المـــاء الضحل في البركة الثانية هذا ، ووجود نسبة كبيرة فيها ضحلة بالاضافةالى البركة الاخرى ، يدلانا على سبب تفتحها قبـــل بحيرة والدن بمدة غير قصيرة • وكانالجليد في ذلك الوقت في أضحل أجزائها أرق

بعدة بوصات منه في الوسط . أما في قلب الشتاء، فقد كان الوسط أدفأ جزء فيها ، كما كان الجليد فيه أرق . كذلك لابد أن كل من خاض في شواطيء بركة ما في الصيف قد شاهد أن الماء قرب الشاطيء ، حيث العمق لا يزيد على ثلاث بوصات أو أربع ، يكون أدفأ بكثير من الماء الذي على مسافة قصيرة من الشاطيء ، وأن الماء الذي على السطح ، حيث الماء عميق ، يكون أدفأ من الماء القريب من القاع .. وفي الربيع ، لاتؤثر الشمس عن طريق تزايد كل من درجة حرارة الماء ودرجة حرارة الارض فحسب ، بل ان حرارتها لتمر خلال جليد سمكه قدم أو أكثر ، وتنعكس (الحرارة) من القاع في المياه الضحلة ، فتدفيء الماء كذلك ، وتذيب قعر الجليد في نفس الوقت الذي تذيب فيه سطحه مباشرة . وبهذا تجعله غير مستو ، كما تجعل مافيه من فقاعات الهواء تتمدد صعدا ونزلا حتى يصبح الجليد متخلخلا تمام التخلخل . وأخيرا يزول فجأة في مطرة واحدة من أمطار الربيع . هذا ، وللجليد « شعرته » ، مثلما للخشب « شعرة » . وعندما يأخذ قرص من الجليد في التخلخل - أي عندما يتخذ شكل قرص من أقراص العسل ، أيا كان موضعه ، تكون الخلايا الهوائية في زاوية قائمة مع ماكان من قبل سطح الماء . وان كان ثمة صخرة ، أو كتلة من الخشب ظاهرة قرب سطح الماء ، كان الثلج الذي فوقها رقيقا كل الرقة ، وغالبا ما يذوب من جراء هذه الحرارة المنعكسة . وقد قيل لي انه في التجربة التي أجريت في كمبريدج* لتجميد الماء في بركة خشبية ضحلة ، مع أن الهواء البارد كان يدور تحتها فيصل الى كلا الجانبين ، فان انعكاس الشمس من القاع كان يضارع هذه الميزة ، بل يفضلها بكثير . وعندما ينزل مطر دافيء في وسط الشتاء ويذيب الثلج الممزوج بالجليد من على سطح بحيرة والدن ، ويترك في وسطها جليدا صلبا ، مظلما كان أو شفافا - تكونت عند الشاطيء شقة من الجليد المتخلخل الابيض السميك عرضها ست ياردات أو أكثر - من أثر هذه الحرارة المنعكسة ، وبذلك ، كما ذكرت من قبل ، تعمل الفقاعات نفسها داخل الجليد ما تعمله العدسات المحرقة فتذيب ما تحتها منه .

وتحدث ظاهرات السنة هذه كل يوم في أية بركة ، ولكن بشكل مصغر . ففي كل صباح ، بوجه عام ، يدفأ الماء الضحل بأسرع مما يدفأ الماء العميق ، وان لم يصبح مع ذلك كله دافئا جدا ، ويظل يبرد كل ليلة بسرعة أعظم حتى الصباح . فما يحدث في اليوم ، يلخص ما يحدث في السنة كلها . فالليل هو الشتاء ، والصبح والمساء هما الربيع والخريف ، والظهر هو الصيف . فطقطقة الجليد تنم عن تغير في درجة الحرارة . فذات صباح رائع بهيج في ٢٤ فبراير سنة ١٨٥٠ ، عقب ليلة باردة ذهبت الى بركة فلنت لاقضي النهار فيها فأدهشني أن أرى أني اذا ما ضربت الجليد برأس بلطة دوى وأحدث صوتا مثل ذلك الذي يحدثه

«الجنح» وبلغ دويه مسافة طويلة حولى كأننى قرعت طبلة محكمة ، فأخـذت البركة تطقطق وتدوى بعـــد الشروق بساعة عندما شـعرت بتأثير أشعة الشمس التى وقعت عليها مائلة من فوق التلال ، فتمطت وتثاءبت كما يتثاءب الرجل عنـــدما يستيقظ من نومه ، وأحدثت ضـوضاء ظلت تزداد شيئا فشيئا مدة ثلاث ساعات أو أربع ، ثم بعد قيلولة فى وقت الظهيرة استراحت فيها ، عادت تدوى من جديد عند حلول الليل لما لم تعد الشمس تؤثر فيها بحرارتها . وان كانت حالة الجو ملائمة ، أخذت البركة تطلق مدفعها المسائى بانتظام كبير . أما فى وسط النهار عندما تكون الشقوق قد كثرت فى البركة ، وصـار الهواء أقل مرونة فانها تكون قد فقدت كل ما بهـــا من رنين فقدانا تاما . وعنـدئذ لا تخشى الاسماك ولا فئران المسك أن تصعق من جراء ضربة توجه الى البركة . ويقول الصيادون أن ارعاد البركة هذا يفزع الاسماك ويمنعها أن تقضم الطعم الذى يقدم لها . هذا ، والبـركة لا ترعد كل مساء ، ولست أستطيع أن أقول على وجه التأكيد متى ينتظــر أن ترعد . فمع أنى لا أكون قد لاحظت حدوث أى فرق فى حالة الجو ، فاذا بهـــا ترعد . فمن ذا الذى يخطر بباله أن شيئا باردا سميك الجلد يكون حساسا الى هذا الحد الكبير ؟ ومع ذلك فللبركة قانون ترعد وتزمجـــر بحسبه ونزولا على حكمه ، مثلما تتفتح البراعم حتما فى الربيع . لقـد حفلت الارض كلها بشتى ضروب الحياة وتغطت بها ، فأعظم بركة حساسة تتأثر بتغيرات الجو تأثرا كبيرا مثل حساسية أنبوبة الزئبـق وتأثره بهـــا .

ومما دعانى الى المجىء الى الغابات والسكنى فيها ، انه سيكون لدى من الفراغ والفـــرص مايتيح لى رؤية حلول فصل الربيع أول مايحل . فأخيرا يبدأ ما فى البركة من جليـــد فى أن يتخلخل ويصبح مثقبا مثل قرص عسل النحــل حتى أن قدمى لتغوص فيه وأنا أسير عليـــه ، ويذيب الضباب والامطار والشمس الدافئـــة كلها الجليد شيئا ، اذ قد طال النهار طولا محسوسا وأصبحت أدرك كيف سأقضى الشتاء من غير حاجة الى اضافة شىء جديد الى ما عنـدى من خشب الوقود ، اذ لم تعد بى حاجة ماسة الى نار كبيرة . وهأنذا متأهب كل الاهبة ويقظ كل اليقظة لأشاهد أول تباشير الربيع ، ولأسمع أى لحن عارض يصدر عن طير وافد على البركة ، أو لأسمع صوت السنجاب المخطط ، فلا بد أن يكون ما ادخره من مئونة للشتاء قد أوشك على النفاذ ، أو لأشاهد المراميط وهى تقدم على الخروج من مشتاها .

وفى ١٣ مارس ، بعد أن سمعت تغـريد « العصفور الازرق* » و « العصفور الغرد * » و « ذى الجناح الاحمر* » ، كان سمك الثلج لا يزال قدما على وجه التقـريب . ولما ازداد الجو دفئا ، ولم تكن المياه قد بردت الجليد بشكل محسوس بعد ، ولم يتكسر ، ويطف ويتفرق

على الماء ، كما يحدث في الانهار ، ومع أنه قد ذاب تماما عند الشاطيء في شريط عرضه ثلاث أقدام فان الوسط قد تخلخل ليس الا ،وصار كثير الثقوب والخروق ، ومشبعا بالماء ، حتى أن قدمك لتغوص فيه وسمكه ست بوصات • ولكن قبل أن يحل مساء اليوم التالى، وربما كان ذلك عقب نزول مطر دافيء ، تلاه ضباب ، كان الجليد كله قد اختفى وذهب مع الضباب ، كأنما زال بعصا ساحر • وحدث فى سنة من السنين أنى عبرت وسط البركة قبل زوال الجليد بخمسة أيام فحسب • ففى عام ١٨٤٥ تفتحت والدن كلها تفتحا كاملا فى أول أبريل ، وفى سنة ١٨٤٦ فى ٢٥ مارس ، وفى سنة ١٨٤٧ فى ٨ أبريل ، وفى سنة ١٨٥١ فى ٢٨ مارس ، وفى ١٨٥٢ فى ١٨ أبريل ، وفى سنة ١٨٥٣ فى ٢٣ مارس ، وفى سنة ١٨٥٤ حول السابع من شهر أبريل •

وانه ليعنينا نحن الذين نعيش فى مناخ متطرف الى هذا الحد أن ندرس بوجه خاص كل حدث يتعلق بتفتح الانهار والبرك المتجمدة ،وباستقرار الجو • فعندما تحل الايام الدفيئة يسمع القاطنون على مقربة من البركة ، الجليدوهو يتشقق فى الليل محدثا صوتا مفزعا كأنه طلقات المدافع العالية ، وكأن أغلال الجليد قدت من طرف الى طرف • ثم لا تمضى أيام قلائل حتى يروه قد زال بسرعة • وهكذا يخرج التمساح من الوحل فى هزات أرضية • وحدث أنى قابلت مرة شيخا عالى السن معروفا بقوة ملاحظته للطبيعة وأطوارها ، وكان بالغ الحكمة فى كل ما يتصل بأحوال الطبيعة حتى لكأنها نشأت فى صغره واشترك هو نفسه فى وضع هيكلها ، وبلغ من تمام نضجه ، واكتمال عقله ، انه لم يعد فى الامكان أن يستزيد علما جديدا بأحوال الطبيعة ولو امتد به الاجل حتى يبلغ من العمر ما سبق أن بلغه متوشالح* نفسه • ودهشت عندما سمعته يبدى العجب من أية عملية من عمليات الطبيعة ، فقد وقر فى نفسى ، أنه لم تعد ثمة أسرار بينهما • قال لى مرة انه أخذ بندقيته وقاربه فى يوم من أيام الربيع ومضى يصيد البط ، وكان الثلج لا يزال موجودا على البطائح ، وان كان قد زال كله عن النهر • فغادر مدينة صد برى ، حيث كان يسكن ، وانحدر الى بركة فيرهافن من دون أن يصادف عقبة ما • فوجد معظم البحيرة ، على غير ما كان يتوقع أن تكون ، فقد تغطت بطبقة صلبة من الجليد ، وكان اليوم دافئا ، فعجب اذ رأى أنه لا يزال بها ذلك المقدار الكبير من الجليد • ولما لم ير أى بط ، عمد الى قاربه فى الجانب الشمالى أو الخلفى من جزيرة كانت فى البركة واختبأ فى الشجيرات التى عند الجانب الجنوبى منها انتظارا لمجيء البط ، وكان الجليد قد ذاب مسافة تتراوح بين خمس عشرة ياردة وعشرين من الشاطيء ، فكان ثم سطح من الماء دافيء ساج ذو قاع وحل من النوع الذى يشتهيه البط ويحبه • فخيل للصياد أن

البط لا يلبث طويلا حتى يظهر ، ولكنه بعد أن ظل راقدا فى سكون نحو ساعة من الزمان ، اذا به يسمع صوتا خافتا بدا له صادرا من مسافة بعيدة ، ولكنه كان صوتا بالغ الفخامة ومؤثرا كل التأثير ، يختلف عن أى صوت آخر سمعه من قبل . ثم أخذ الصوت يتضخم ويزداد كأنما كان ينذر بخاتمة عالمية لا تنسى ، فقد تحول الى ضوضاء مفاجئة وزئير ، خالهما صوت عدد عظيم من البط جاء ليستقر هنا . فتناول الشيخ بندقيته ، وهب فى عجلة تبدو عليه علائم التهيج ، فأدهشه أن يجد كتلة الجليد كلها قد أخذت تتحرك فى أثناء ما كان راقدا هناك ، واتجهت نحو الشاطيء . أما الصوت الذى سمعه فقد صدر عن احتكاك حافة الجليد بالشاطيء احتكاكا كان فى أول الامر هادئا ، يقرض ويحت ، ثم اذا بحافة الجليد ترتفع وتبعثر حطامها على طول الجزيرة حتى يبلغ ارتفاعا كبيرا قبل أن يتوقف .

وأخيرا ترتفع الشمس وتبلغ أشعتها الميل المطلوب ، وتهب الرياح الدفيئة ، فتقشع الضباب ، وتزيل المطر ، وتذيب جسور الجليد ، وبينا الشمس تفرق الضباب اذا بها تبسم عندما تطل على منظر منوع الشكول ، بين أسمر وأبيض تخرج منه أدخنة تفوح منها رائحة البخور ، فيختار السائح من خلالها الطريق الذى يسلكه من جزيرة الى جزيرة ، وهو منشرح الصدر بما يسمع من موسيقى صادرة عن خرير آلاف المجارى والنهيرات وقد حفلت أوردتها بدم الشتاء الذى تجرى فيه الآن .

وليس غير قليل من الظواهر الطبيعية ، يسرنى أن ألاحظه أكثر مما تسرنى ملاحظة الأشكال التى تتخذها الرمال والصلصال عقب ذوبان الجليد . فأراها تجرى على قطع عميق على طريق السكة الحديدية ، وهو الطريق الذى أسلكه عادة عند ذهابى الى القرية . وهى ظاهرة قلما تحدث على مثل هذا النطاق الواسع ، على الرغم من أن عدد ما انكشف حديثا من الجسور المكونة من المواد المطلوبة ، لابد أن تضاعف كثيرا منذ أن اخترعت السكك الحديدية . ولم تكن المواد سوى رمال من مختلف درجات الدقة ، وشتى الالوان الزاهية ، مختلطة عادة بقليل من الصلصال . وعندما يظهر الصقيع فى الربيع ، بل وفى يوم من أيام الشتاء التى يحدث فيها ذوبان الجليد ، تشرع الرمال فى أن تجرى على السفوح جريان اللافا السائلة ، وقد تنبثق أحيانا من خلال الثلج ، وتفيض عليه ، حيث لم يكن ثم رمال ترى من قبل . فترى كثيرا من المجارى الرملية التى لا حصر لها تتعانق ويغطى بعضها بعضا محدثة بذلك مجرى مختلطا هجينا يتبع قانون المياه الجارية نصف الطريق . أما النصف الثانى فيخضع لقانون النبات ، فعندما يجرى يتخذ شكل أوراق الشجر ذات العصارة ، أو المتسلقة ، ويكوم أكواما من فروع وأوراق متبلدة يبلغ عمقها قدما أو أكثر ، واذا ما نظرت اليها من عل كانت تشبه الفصوص المسننة ،

المتعانقة ، التى لبعض أنواع الطحالب والحزاز* . وانها لتذكرك بالمرجان ، أو بمخالب الفهود وأرجل العصافير ، والامخـــاخ ، والرئات ،والامعاء ، أو بشـتى أنواع الافرازات ـ فهى نباتات دميمة غريبة حقا ترى أشكالها وألوانهامقلدة على البرنز ـ فهى نوع من الوريقـــات المعمارية أقدم من « الاكنتوس » والهنـــــدباوالمستحية والكرم ، أو من أى أوراق نباتيـة أخرى ، وربما كان مصيرها فى بعض الاحوال أن تكون أحجبة أو لغزا لعلماء طبقات الارض فى المستقبل . وقد أثر فى هذا « القطع » كل التأثر كأنه مغارة انكشفت للضوء بكل ما فيهـا من الاستالاكتيت . فألوان الرمال المختلفة ،ألوان جافة ثرية رائعـــة ، فتشمل شتى ألوان الحديد ، من أسمر ورمادى وأصفر وأحمر .واذا ما بلغت جملة الرمل الجارية المصرف الذى عند سفح الجسر ، انتشرت خصلا شتى،وفقدت المجارى المنفصلة شكلها نصف الاسطوانى ، وتدريجيا تصبح أكثر فرطحة وأعظم عرضا ،وتجرى كلها معا بعضها مع بعض كلمـا زادت رطوبتها ، حتى تكاد تكون طبقـــة من الرمل مسطحة ، لا تزال ألوانها جميـلة متعـــددة ولكنك تستطيع مع ذلك أن تميز فيها أشكال النبات الاصلية . وأخيرا ، تتحـــول فى الماء نفسه الى جسور وسدود مثل تلك التى تتكون عند مصاب الانهار . وعندئذ تزول عنها أشكال النبات وتضيع وسط آثار الامواج المنطبعة فى القاع .

ويتراوح ارتفـــاع الجسر بين عشرين وأربعين قدما ، وقد يتغطى كله فى بعض الاحيان بطبقة من هذا النوع من أوراق النبات ، أى من دقاق الرمال ، تبلغ طولهـــا ربع الميل ، على جانب واحد منه أو على جانبيه كليهما . فهذه هى محصول يوم واحد من أيام الربيع . أما ما يجعل هذه الاوراق الرملية غريبة رائعة فظهورها فجأة الى الوجود بهذا الشكل الذى تظهر به ، فأنا ، اذ أرى أحد جانبى الجسر ميتــا جامدا ـ والشمس لا تؤثر الا فى جانب واحد أولا ـ وأرى على الآخر هذه الاوراق الغزيرة الحافلة ، وكلها صنع ساعة واحدة ، كنت أتأثر كل التأثر حتى ليخيل الى أنى كنت ، واقفا فى معمل مصنع الفنان الذى خلق الدنيا بأسرها ، وخلقنى ، ولكأنى وصـــلت الى حيث لا يزال يعمل على هذا الجسر وينثر رسومه وتصميماته الجديدة بنشاط فياض ، وأشعر بأنى قد أصبحت على مقربة من الاجزاء الحيوية للكرة الارضية . فهذا الفيض الرملى كتلة نباتية تشبه ما فى جسم الانسان من أحشاء حيوية . وهكذا تجد ، حتى فى الرمال ذاتها ، ابتسارا للورقة النباتية* فلاغرو ان عبـــرت الارض عن نفسها فى الظاهر بأشكال من أوراق الشجر ، وانها لتجتهد فى أن تعمل بالفـكرة نفسها فى الباطن كذلك . فكل ورقة معلقة تجد هنا مثالهـــا الاول الذى تقلده وتحاكيه . أما من حيث البـــاطن سواء باطن الكرة الارضية أو باطن جسم الحيـــوان فان الورقة فص رطب سميك . وكلمة (فص)

تنطبق بوجه خاص على الكبد والرئتين وصفائح الشحم ، وكذلك ليس ريش الطائر ، وأجنحته سوى أوراق شجر ، أجف من ذلك وأرق ، وكذلك أنت أيضا ، فقد تمر بمرحلة الدودة القمئـــة التى فى الارض الى مرحلة الفراشة الرفافة فى الهواء . والكرة الارضية ذاتهـــا تسمو باستمرار ، وتغير نفسها ، وتنتقل فتصبح فى فلكها ذات أجنحة . حتى الجليد نفســه ، يبدأ بأوراق بلورية رقاق كأنه جرى فى قوالب مائية صاغتها أوراق النباتات المائيــة على مرآة المـاء . ومن جهة أخرى ليست الشجرة كلها فى جملتها ، الا ورقة واحدة ، وليست الانهار سوى أوراق عراض ، لبابها الارض المتداخلة فيها . وما البـــلاد ، وما المدن ، سوى بعض الحشرات ألقيت فى زوايا الاوراق .

واذا غابت الشمس توقفت الـــرمال عن الجريان ، ولكنها لا تلبث أن تعود اليــــه فى الصباح ، وتظل تتفرع وتتشعب آلافا مؤلفة من الشعب والفروع . ولعلك تدرك منهـــا كيف تتكون الاوعية الدموية . وان أنت أنعمت النظر ، شاهدت أول ما شاهدت ، مجرى من الرمال الناعمة قد انطلق من كتلة الجليد الذائبة ، طرفه أشبه شيء بأنملة الاصبع ، فيظل ينحـدر الى أسفل متحسسا طريقه فى بطء ، وعلى غير هدى . وكلما ارتفعت الشمس فى كبد الســـماء وازدادت الحرارة والرطوبة ، ينتهى الامر بأن ينفصل عن هذا المجرى أكثر أجزائه ميوعة ، متبعا فى ذلك القانون الذى تتبعه أكثر الاشياء جمودا وأقلها حراكا ، ثم يكون لنفسه مجرى أو شريانا ملتويا كثير الثنايا ، ترى فيه مجـرى صغيرا فضيا يظل يومض كالبرق ، وهو ينتقـل من مرحـــلة من مراحل أوراق الشجر أو الاغصان المتلبدة الى مرحلة أخرى ، ثم تبتلعه الرمال دراكا . ومن عجب أن نرى كيف ترتب الرمال الجارية أمورها بسرعه ، وانتظـــام عجيبين مستعينة بخير ما فى كتلتها من مواد ، لتكوين حافات مجراها المحددة ، وكذلك من منابع الانهار . فقد يكون الهيـكل العظمى فى المواد التى ترسبها المياه ، وقد تكون الاليـــاف اللحمية ، أو النسيج الخلوى فى التربة التى من مواد أدق من ذلك ، ومن مواد عضوية . ترى ماعسى أن يكون الانســان ان لم يكن كتلة من الصلصال الذائب ؟ فليست أنملة اصبعه ســوى قطرة خثرت وتجمدت . فأصـــابع الايدى والاقدام انما تجرى من كتلة الجسم الذائبة ، حتى تبلغ مداها . ومن يدرى ما يكونه الجسم البشرى اذا تمدد وجرى تحت سماء غير هذه السماء تكون أنسب به وأصلح له ؟ أليست اليدسعفة منتشرة ، بما فيها من فصوص وعروق ؟ ان لنا أن نتوهم أن الاذن عبارة عن حزاز أو طحلب قامت ومعها شحمتهـــا أو قطرتها على جانب من الرأس ، وأن الشفة تمتد من جوانب الفم الاجوف وتتدلى منها ، ولا يخفى أن الانف قطرة خاثرة ، أو هى ستالاكتيت ، وان الذقن قطرة أكبر ، هى ملتقى ما يتدلى من الوجه ،

وليست الوجنتان سوى هبوط من الجبهة الى وادى الوجه قاومتهما وفرقتهما عظام الوجنتين. وليس كل فص مستدير من فصوص الورقة النباتية سوى قطرة سميكة متباطئة الآن ، كبيرة كانت أو صغيرة • فالفصوص أصابع الورقة ، وبقدر ما فيها من فصوص تميل أن تتفرع وتجرى فى مثل هذا القدر من اتجاهات • واذا ازدادت درجة الحرارة أو ازداد أى مؤثر آخر ملائم ، جعلتها تجرى بسرعة أعظم مماتجرى •

وهكذا يبدو أن هذا السفح الواحد من التل يمثل المبدأ الذى يتجلى فى جميع عمليات الطبيعة • فبارىء هذه الارض انما سجل اختراعه لورقة شجر فحسب • فهل من شمبليون يفك لنا رموز هذه الاسرار الهيروغليفية ، ويكشف عما استغلق علينا فهمه منها حتى نستطيع أن نقلب صفحة جديدة آخر الامر ؟ ان هذه الظاهرة لتطربنى أكثر مما تطربنى غزارة الكروم وخصبها • حقا ان بها شيئا ينم عن افرازات ، وأن لا آخر لأكوام الكبد والرئات والامعاء ، كأن الكرة الارضية قد قلبت ظهرا لبطن • على أن هذا يوحى الينا على الاقل بأن للطبيعة أمعاء بشكل ما ، وأن هناك أيضا أم الجنس البشرى كله • هذا هو الصقيع خارجا من الارض • هذا هو الربيع • فهو يسبق الربيع الاخضر المزدهر ، كما تسبق « الاساطير » الشعر بمعناه الفنى • ولست أعرف شيئا خيرا منها ، يزيل عنا متاعب الشتاء وآثاره ويشفينا مما يسببه لنا من عسر الهضم ، وهو يقنعنى بأن الارض ما زالت فى قمطها ولفائف طفولتها ، وأنها تمد فى كل جانب أصابع صغارا مثل أصابع الاطفال ، وأن خصائل جديدة من الشعر قد تنمو على أكثر الجباه صلعا ، فليس ثمة شىء فيها غير عضوى • فأكوام أوراق النبات هذه تتكدس على طول الجسر كما تتكدس أخبات أفران المعادن ، وتشعرنا بأن الطبيعة مازال باطنها على أشد ما يكون حرارة • فليست الارض مجرد قطعة من التاريخ الميت ، ولا هى طبقة فوق طبقة مثل صحائف الكتاب، لايدرسها غالبا الا علماء طبقات الارض وعلماء العاديات والآثار ، ولكنها شعر حى ، مثل أوراق الشجر التى تسبق الزهر والثمار ، انها ليست أرضا حفرية متحجرة ، بل هى أرض حية ، كل حياة نباتية أو حيوانية متطفلة عليها اذا قيست بحياة الارض المركزية العظمى ، وان أوجاعها ومخاضها لتنشر فضلاتنا وبقايانا من قبورها • انك قد تصهر معادنك وتصبها فى أروع ما تستطيع آن تصبها فيها من قوالب ، ولكنها لن تسترعى اهتمامى بقدر ما تسترعيه الاشكال الجارية التى تتخذها المواد التى تلفظها هذه الارض المنصهرة • فهذه الارض مرنة طيعة مرونة الصلصال فى أيدى الخزاف • وليست وحدها هى المرنة هذه المرونة ، بل كذلك كل مايقوم عليها من مؤسسات •

ولا يلبث الصقيع أن يخرج من الارض كما تخرج الحيوانات ذوات الاربع من أوكارها، ويسعى الى البحر مصحوبا بالموسيقى ، أويهاجرالى أقاليم أخرى فى شكل سحب وغمام • وهو لا يخرج على هذه الجسور وحدها فحسب، بل على كل تل وسهـل ، وفى كل تجويف من تجاويف الارض «فاله الذوبان» بما له من وسائل لطيفة فى الاقناع والزام الحجة ، أقوى من « ثور* » بمطـــرقته وقدومه ، فعلى حين يذيب هذا الاشياء فحسب،فان ذلك يكسرها ويحطمها تحطيما •

وعندما تتعرى بعض أجزاء الارض من الثلج ، ويجفف سطحها بعض التجفيف توالى بضعة أيام دافئـــة ، كان يلذ لى أن أقارن بين أوائل تلك الامارات الرقيقة المؤذنة بحـــلول السنة الناشئة التى أخذت تبرد توا ــ وبين ذلك الجمال الرائع الذى يتجلى فى النبات المتصـوح الذابل الذى تحمل برد الشـتاء وعرف كيف يقاومه ــ انها الحياة الخالدة ، تتجلى فى «الاعواد الذهبية» وشتى أنواع الحشائش البرية الرشيقة،وانها لكثيرا ماتكون ظاهرة وشائقة أكثر ممـا تكون حتى فى الصيف نفسه ، كأن جمالهـــا لا ينضج الا فى هذا الوقت ، وحتى السـعد والسمار والبرصير* ، وحشيشه حنا ، وملكة المروج* والقندول* وغيرها من النباتات ذات السوق القوية ــ تلك الأهراء التى لا تنفد والتى تغرى أكثر العصافير تبكيرا ــ انها لحشـائش طيبة رطبة على الاقل تكتسى بها الطبيعة الثكلى• وانى ليسترعينى بوجه خاص رؤوس «حشيشة الصوف » الشبيهة بحزمة القمح ، فهى تعيـدالصيف الى ذكرياتنا عن الشتاء ، وانهـا لمن الاشكال التى يروق الفن أن يحاكيها ، والتى لها فى مملكة الحيوان نفس العلاقة بطرز سابقه فى عقل الانسان ، التى لعلم الفلك فهى طرازعتيق أقدم من الطرازين الاغريقى والمصرى • هذا ، ويوحى الينا الكثير من ظواهر الشـتاء برقة وحنو لايمكن التعبير عنهما ، لقـد اعتدنا أن نسمـــع عن هذا الملك بأنه جاف صخاب طاغية ، ولكنه مع ذلك يزين خصل الصيف برقة هى رقة العاشق المغرم •

ولما اقترب الربيع دخلت السناجيب الحمر تحت بيتى اثنين اثنين ، واستقرت تحت قدمى مباشرة وأنا جالس مشغول بالقراءة والكتابة ،وظلت تحدث أصواتا شتى من أغرب ما طرق الآذان من ضحك وشقشقة وفرفرة وكنت اذاما ضربت بقدمى الارض لم يزدها ذلك الا امعانا فى رفع صوتها ، كأنها كانت قد تجاوزت كل خوف وفوق كل احترام ، فى ألاعيبها وحيلها الجنـــونية ، وكأنما كانت تتحدى البشر أن يسكتوها • لا ! انكم لن تفعلوا !

لقد أصمت آذانها عن سماع حججى ، أولعلها فشلت فى ادراك مافيها من قوة ، وأخذت تصب على جاما من السباب لا قبل لى بمقاومته •

أول عصفور من عصافير الربيع ! لقـد بدأت السنة بآمال فتية ، أقوى مما بدأت به في زمن ما ، فكانت التغاريد الفضية الخافتة تسمع من فوق الحقول الرطبة التي تعـــرت بعض أجزائها ، تلك التغاريد الصادرة عن العصفور الازرق* ، والعصفور الغـــريد* والشحرور الاحمر* ، كأن أواخر الندف من ثلج الشتاء كانت ترن ، وهي تسقط • فما التـــــواريخ والايام ، والتقاليد المـأثورة ، وما جميع الكتب المنزلة في مثل هذا الوقت ! فالجـــداول تغني وتنشد للربيع • ويطير صقر المناقع مسفا فوق سطح المرعى ، يسعى وراء تصيد أول مايستيقظ من ضروب الحياة الهلامية • وكان صوت الثلج الذائب يسمع في كل واد ، ويذوب الثـــلج بسرعة في البرك ، ويهب الـــكلأ في سفوح التلال ، كما تهب نيران الربيع كأنما الارض أرسلت حرارة باطنية تحيي عودة الشمس ، ولم يكن لون لهيبها بالاصفر بل كان أخضر ـ رمز الشبـــاب الخالد : مشط الحشيش ، كأنه شريط طويل أخضر يخرج من تربة الارض الى الصيف • نعم ، قد يعوق الصقيع نمـوه ، لكنه سرعان ما يعود ويبرض ثانية ويرفع مشط دريس السنة المـاضية بقوة الحياة الجديدة التي تحته • فهو يظل ينمو باطراد كما يبض جدول المـاء من الارض ، ويكاد يكون هو والجدول الصغير شيئا واحدا ، ذلك لانه في أيام النمو في شهر يونيه ، عندما تجف جداول الميـاه ، تكون أمشاط الكلأ مجاري لها ، وتظل القطعان من سنة الى سنة تشرب من هذا المجرى الاخضر الخالد ، ويستمد منهـــا الحصادون مواردهم الشتوية • وهكذا تفنى حياتنـــا البشرية حتى جذورها ، ومع ذلك لا تزال أمشاط الخضر تخرج الى الابد •

ان والدن تذوب بسرعة ، فثم قنـــاة عرضها عشرون ياردة على جانبيها الشمالي والغربي ، ويزداد عرضها على ذلك عند طرفها الشرقي ، وقد انكسر حقـــل كبير من حقـــول الجليد وانفصل عن كتلة الجليد الكبرى • وهأنذا أسمع عصفورا يغرد من فوق الشجيرات التي عنـــد الشاطيء • أوليت ، أوليت ، أوليت ! تشب ، تشب ، تشب ، تشي تشار ـ تشي ويس ويس ويس ! فهو يعاون كذلك على كسر الجليـــد وتشقيقه • فما أجمل الاقواس الكبرى المنسابة في حافة الجليد ، متجاوبة الى حد ما مع الاقواس التي عند الشاطيء ولكنها أكثر منها انتظاما ! وهو صلب أكثر من المعتاد من جـــراء البرد القارس الحديث ، ولكنه برد عارض يزول ، وكان كله يتماوج تماوج أراضي القصـور ، ولـكن عبثا ما تهب الريح شرقية على سطحه المظلم الى أن تصل الى سطحه الحي الذي وراء ذلك • وانه ليروعك أن ترى هذا الشريط من المياه يتألق في ضوء الشمس ، وسطح البركة العادي حافل بالمرح والشباب كأنما كان يعبـر عن فرح الاسماك التي داخله ، وعن سرور الرمال التي على شاطئه • انه تألق فضي رائع

مثل ذلك الذى يصدر عن حراشف بعض أنواع السمك ، بل كأنما كان كله سمكة واحدة حية نشيطة • ذلك هو التقابل بين الشتاءوالربيع • كانت والدن قد ماتت ، وهى الآن تبعث من جديد ! الا أنها تفتحت هذا الربيع باطراد أكثر مما تتفتح به عادة وكما سبق لى أن ذكرت •

ان الانتقال من العواصف والشتاء الى الجو المعتدل الصافى ، ومن الساعات المظلمة المتثاقلة الى الساعات المشرقة المرحة أزمة محسوسة تنطق بها الاشياء جميعا • ولكن يتبين أخيرا أنها أزمة آنمة فى الظاهر • وفجأة يتدفق النورفى بيتى مع أنا على أبواب المساء ، وسحب الشتاء لا تزال تهوم فوقه ، ومياه المطر تتساقط من أركان السقف مختلطة بقطع من الجليد • فنظرت من النافذة ووجدت ، وما أروع ماوجدت ! فحيث كان الجليد البارد المظلم ترى البركة الشفافة هادئة ساكنة حافلة بالآمال كأنها فى أمسية يوم من أيام الصيف ، تعكس على صدرها جو أمسية من أمسيات الصيف كذلك ، وان لم يكن ثمة شىء مرئى فوقها كأنما كانت على تفاهم مع أفق من الآفاق بعيد • وسمعت صوت أبى الحناء فخيل الى أنه أول صوت طير سمعته منذ آلاف من السنين • فلن أنسى لحنه بعد مضى آلاف آخرى مثلها من الاعوام تلك النغمة الحلوة القوية التى كانت تسمع من قديم • فما أعجب أبا الحناء هذا مساء يوم من أيام أواخر الصيف فى نيو انجلند ! • فلو أنى عثرت يوما بالغصن الذى يجثم عليه ! أنا انما أقصده هو ! بل أقصد الغصن ! فليس هذا بسمنة مهاجرة على الاقل فأشجار الصنوبر الراتنجى ، وشجرات البلوط القريبة من بيتى ، التى لبثت ذابلة متهدلة الاغصان زمنا طويلا قد استعادت صفاتها العديدة التى امتازت بها ، وبدت فجأة ناضرة خضراء ، منتصبة حافلة بالحياة ، كأنما المطر قد غسلها ونظفها وأعاد اليها رونقها من جديد • وكنت أعرف أن السماء لا تمطر بعد ذلك ، تعرفه من النظر الى أى غصن فى الغابة ، بل الى كومة أخشابك نفسها ، فتدرك أن كان شتاءها قد مضى أم لم يمض بعد • ولما دخل الليل وتزايد الظلام أفزعتنى أصوات الاوز وهو يطير مسفا فوق الغابة كأشبه ما يكون بجماعة المسافرين المتعبين يصلون متأخرين من البحيرات الجنوبية ، وجعلوا يمعنون آخر الامر فى الشكوى المسرفة التى لا حد لها ، ويعزون بعضهم بعضا • وكنت ، وأنا واقف عند باب بيتى ، أسمع حفيف أجنحة الاوز • فلما اتجهت هذه الطيور نحو بيتى ولمحت ضوئى سكتت فجأة ثم استدارت واستقرت فى البركة • فدخلت البيت وأغلقت الباب وقضيت أول ليلة لى من ليالى الربيع فى الغابات •

وفى الصباح جعلت أراقب الاوز من خلال الضباب ، وهو يسبح وسط البركة على

بعد نحو ثلاثمائة ياردة منى ، وكان الاوز كثير العدد وكثير الصخب حتى بدت والدن أشبه ما تكون ببركة اصطناعية عملت لتسليته خاصة. ولكن لما وقفت عند الشاطىء ، هبت الوزات ترفرف بأجنحتها بقوة عظيمة تبعا لاشارة كبيرها وقائدها . وبعد أن اصطفت ، ظلت تدور طائرة حول رأسى ، وكان عددها تسعا وعشرين وزة . ثم اتجهت شطر كندا مباشرة ، وزعيمها يصرخ فى فترات منتظمة ، معللة نفسها بأنها ستتناول فطورها فى برك أكثر وحلا . وفى الوقت نفسه هبت جماعة من البط واتخذت طريقها نحو الشمال اثر بنات عمومتها الصواخب .

وقد ظللت أسبوعا وأنا أسمع فى كل صباح كثير الضباب المحاولات والاستدارات والاصوات المتتالية التى تقوم بها أوزة منفردة ، تبحث عن الفها ، ومع ذلك كانت تملأ الغابات بأصوات حياة أوسع مما تستطيع أن تتحملها . وشاهدت فى شهر أبريل الحمائم ثانية وهى تطير مسرعة فى مجموعات صغار ، وسمعت « الخطاطيف » تشقشق فوق قطعة أرضى التى أخليتها من أشجار الغابات ، وان لم يكن يبدو أن البلد فيها الكثير من هذا الطير ، وتستطيع أن تقدم الى بعضه . وخيل لى أن الخطاطيف هذه كانت من الجنس القديم الذى كان يعيش فى تجاويف الاشجار قبل مجىء الجنس الابيض .

وفى جميع الاقاليم تقريبا ، تعد السلحفاة والضفادع من بين تباشير هذا الفصل ـ فصل الربيع ـ وتطير العصافير وهى تغرد ، ويلمع ريشها ، وتبرض النباتات وتزهر ، وتهب الريح كى تصحح تذبذب القطبين ، هذا التذبذب الطفيف ، وتحافظ على توازن الطبيعة .

ولما كان كل فصل يبدو لنا بدوره خير المواسم وأفضلها ، كان حلول الربيع أشبه شىء بخلق دنيا منتظمة من عالم الفوضى والاضطراب فكان تحقيقا للعصر الذهبى .

فقد انسحبت الرياح الشرقية الى أورورا* والى مملكة النبط* .
وأصبح الفارسى ، والجبال تحت أشعة الصباح .
. . . .
وولد الانسان ، وسواء كان بارىء الاشياء ،
مبدع دنيا خيرا من هذه قد خلقه من البذرة القدسيه
أو أن الارض قد انفصلت أخيرا عن الاثير العالى
فقد احتفظ ببضع بذور من سماء مماثلة . »

ان شؤبوبا واحدا من المطر الخفيف ليزيد الكلأ اخضرارا عدة درجات ، وكذلك تشرق آمالنا وتزهو ، وتتدفق علينا أفكار وخطرات أفضل مما نفكر فيه . انا يجب أن

نغتبط ونهنىء أنفسنا بأنا نعيش فى الزمن الحاضر دائما ، ونستفيد من كل حادثة تقع لنا ، مثلنا فى ذلك مثل الكلأ الذى يعترف بأقل قطرات من الندى تقع عليه ، ولم نضع وقتنا فى التكفير عن فرص مضت وأفلتت من أيدينا ، ونسمى ذلك تأدية لواجبنا . انا لنتلكأ فى الشتاء على حين أن الوقت ربيع . ان خطايا الناس كلها لتغفر فى صباح يوم رائع من أيام الربيع . فمثل هذا اليوم هدنة مع الرذيلة ؟فما دامت هذه الشمس مستمرة فان أخبث مذنب قد يرجع عن ارتكاب ذنوبه وخطاياه .فبطهارتنا المستردة لنستبين طهارة جيراننا وبراءتهم ، فلربما عرفت أمس أن جارك لص أو سكير أو منهمك فى لذائذه الحسية ، ولربما تكون رثيت له أو احتقرته واستيأست من هذا العالم كله ، ولكن الشمس تظل مع ذلك تضىء باهرة متلألئة وتدفىء صباح هذا اليوم ـ أول أيام الربيع ـ فتخلق الدنيا خلقا جديدا ؟ وتقابل جارك وهو يقوم بعمل جدى ، وترى كيف أن عروقه الداعرة المرهقة لتتمدد وتتسع من الفرح الهادىء ، وتبارك اليوم الجديد وتشعر بسلطان الربيع وببراءة الطفولة ، وبذا تنسى كل ذنوبه وخطاياه . ولا يكون محوطا بجو من حسن النية فحسب ، بل يحوط به كذلك شىء من القداسة يحاول أن يجد وسيلة يعبر بها عن نفسه ؟ وقد يكون ذلك التعبير بشىء أعمى غير مجد مثل غريزة ولدت حديثا . عندئذ يظل السفح الجنوبى للتل يدوى برهة قصيرة من جراء نكتة ليست من النوادر المبتذلة ، وترى بضعة أغصان حديثة بريئة جميلة تهيأ للبروض من لحائه ذى العقد وتحاول أن تحيا سنة أخرى ، غضة رقيقة كما يفعل أصغر النباتات سنا ، فحتى هو قد دخل فى فرحة من الفرحات القدسية .

فلماذا لا يدع السجان أبواب حبوسه مفتوحة ؟ ولماذا لا يستبعد القاضى قضيته ، ولماذا لا يصرف الواعظ رعيته ؟ ذلك لانهم لا يطيعون الاشارة التى أشار الله بها اليهم ، ولا هم يتقبلون المغفرة الواسعة التى يقدمها الله لعباده أجمعين .

« ومن حيث محبة الفضيلة وكراهية الرذيلة ، فان العودة الى الصلاح والاستقامة التى تحدث كل يوم فى نفس الصباح الكريم الهادىء ، تقرب المرء بعض الاقتراب من طبيعة الانسان البدائية ، مثله فى ذلك مثل فسائل أشجار الغابات التى سبق أن قطعت ؟ وكذا حال الشرور التى يقترفها الانسان فى يوم من أيامه ، فهى تمنع بذور الفضائل التى أخذت تبرض من جديد ، من أن تنمو وترقى نفسها ، ثم تقضى عليها قضاء مبرما .

« وبعد أن تمنع بذور الفضيلة هكذا عدة مرات من أن تنمو وترقى ، لم يعد نفس المساء الكريم يكفى للمحافظة عليها وصيانتها . وعندما يكون نفس المساء غير كاف للمحافظة عليها لا تختلف عندئذ طبيعة الانسان عن طبيعة البهائم اختلافا كبيرا . واذ يرى الناس أن طبيعة هذا

الرجل تشبه طبيعة البهائم ، خيل اليهم أنه لم تكن له في يوم من الايام ملكة العقل الفطرية .
فهل هذه هي عواطف الانسان الطبيعية ؟

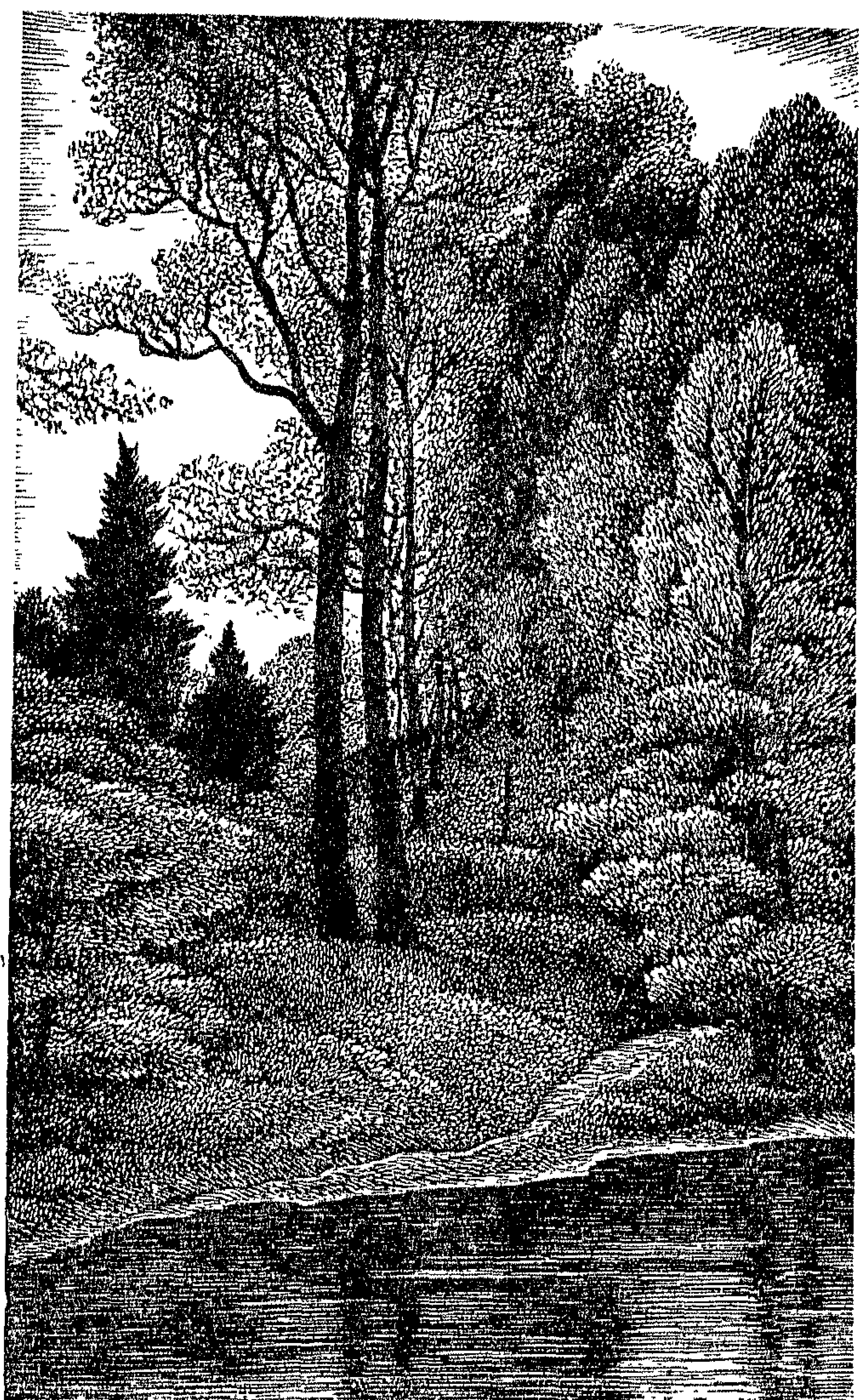
« خلق العصر الذهبي أولا ، ثم من تلقاء نفسه ومن غير أي مدافع أو نصير
ومن غير حاجة الى قانون ما ، (عني) بتعهد الوفاء والاستقامة بين الناس .
ولم يكن ثم عقاب ولا ارهاب ، ولم تكن ثم ألفاظ تخيف وتهدد
تقرأ على ألواح من النحاس معلقة قباله . ولم تكن الجماهير
الضارعة تخشى ماينطق به قاضيها من الاحكام ، بل كانت مطمئنة اليها ولا حاجة بهـا
الى محام يدافع عنها
ولم تك أشجار الصنوبر ، التي قطعت من على سفوح التلال ، قد نزلت بعد الى الامواج
المائعة لترى عالما جديدا غريبا عنها
ولم تكن الناس قد عرفوا بعد شـواطيء تلجأ اليها غير شواطئها هي نفسها فقـد كان
ثمة ربيع خالد ونسمات عليلة مع رياح دافئة تلاطف الازهار التي تولدت من غـير
بذور »

وفي التاسع والعشرين من شهر أبريل كنت أصيد السمك عند ضفة النهر قرب قنطرة « ناين ايكر كورنر » . وكنت واقفا على الكلأ الخفاق وعلى جذور الصفصاف ، حيث يستخفي فئران المسك ، فسمعت صـوت تقصف قريب يشبه الى حد ما صوت العصى التي يعبث بهـا الصبيان بأصابعهم في لعبهم ؛ فلما رفعت بصري رأيت صقرا ضئيل الجسم كل الضآلة ورشيقا يشبه « السبد » يحلق في الجـو تارة ، كأنه مويجة صغيرة ثم يهبط أخـرى ، وهو يتقلب ظهرا لبطن مسافة عشر ياردات أو خمس عشرة ياردة مبديا باطن جناحيه اللذين كانا يلمعان في ضوء الشمس كما يلمع شريط من الحرير ، أو كأنهما الباطن اللؤلؤي لصدفة من الاصداف . فذكرني هذا المنظر بنظام الصـيد بالبزاة وبما يتصل بهذا الصيد من نبل وشعر ، وأظن أن الاجدر بنا أن نطلق عليه اسم صـقر الجراد . ومهما يكن الامر فاني لا أحفـل باسـمه أي احتفال ، فقد كان طـيرانه أجمل طـيران شاهدته . فهو لم يكن يخفق بجناحيه كما تفعل الفراشة ، ولم يحلق كما تحلق الصقور الاكبر منه ، ولكنه كان يلعب وهو واثق من نفسه معتزا بها ، في ميادين الجو ، فيظل يرتفع المرة بعـد المرة وهو يضحك ضحكته الغريبـة ، ويكرر هبوطه الحر الرائع وهو يتقلب مرارا كالحدأة ؛ ثم اذا به يفيق من هبوطه العالي هـذا كأنه لم يضع قدمه قط على الارض اليابسة فبـدا كأنه لا رفيق له ولا صديق في هذا العالم ، بل كان يلعب في الجو وحده . وما كان بحاجة الى أحد سوى الصباح وسـوى الاثير الذي يلعب به .

ولم يكن مستوحشا شاعرا بالوحدة ، بل جعل الارض نفسها هي التي تشعر بالوحدة تحته . فأين كان ذلك الاب الذى فقس هذا الصقر ،وأين قريبه أو أبوه الذى فى السماء . يبدو أن ساكن الهواء هذا لا يمت الى الارض الا ببيضة فقست ذات يوم فى شق صخرة عالية ؟ أم تراه قد اتخذ عشه فى ركن من أركان سحابة نسجت من أهداب قوس قزح ، ومن جو الشمس عند الغروب وبطنه ببطانة ناعمة لينة من ضباب الصيف جيء بها من الارض ؟ أم هل منسره الا ن فى سحابة صخرية ؟

وفضلا عن ذلك فقد حصلت على « طائفة » من أسماك نادرة ذهبية وفضية ونحاسية لامعة ، كانت تبدو أشبه بسمط من الجواهر . آه ! فكم من صباح فى أوائل الربيع توغلت فيه فى هذه المراعى ، أثب من ربوة الى ربوة ، ومن جذر شجرة صفصاف الى جذر غيرها ، عندما يكون الوادى والغابات مغمورة بضوء صاف متألق ساطع يكاد يوقظ الموتى ، آن كانوا حقا نائمين فى قبورهم كما يظن بعض الناس . أنا لسنا بحاجة الى برهان أقوى من هذا على خلود النفس ، فجميع الاشياء يجب أن تحيا فى مثل هذا الضوء . أيها الموت ! أين كانت لدغتك ! وأنت أيها القبر أين كان فوزك وانتصارك اذن ؟

فلولا تلك الغابات والمراعى التى تحيط بقريتنا والتى لم يتم استكشافها بعد لركدت الحياة فيها وأسنت . فما أحوجنا الى القيام بأمور وحشية تقوينا وتنشطنا ـ كأن نخوض أحيانا فى المناقع والسبخات حيث تختبيء طيور الواق* ، ودجاج المراعى* وحيث نسمع صداح الشناقب* ، ونشتم رائحة السعد* المتهامس حيث لا يبنى عشه سوى دجاجة أكثر وحشية وأكثر انفرادا ، وحيث يزحف المنك* زحفا فيكاد بطنه يلتصق بالارض . وفى الوقت الذى نكون فيه جادين فى الفحص عن كل شيء ، فى الوقوف على حقيقته ، ينبغى أن تكون الاشياء كلها خفايا وأسرارا ، لايتسنى اكتناهها ،وأن تكون الارض والبحار وحشية جافة الى أقصى حد ، لم تمسح ولم تسبر لانها لا يمكن أن تمسح ولا أن تسبر . انا لا نكتفى بما نناله من الطبيعة ، بل ينبغى أن نجدد قوتنا برؤية ذلك النشاط الذى لا يقف عند حد وذلك بمشاهدة الظواهر الجبارة ـ البحر بما فيه من حطام السفن الغرقى ، والبرية بما فيها من أشجار حية وأشجار ميتة ، والسحب الراعدة ،والمطر الدافق الذى يظل ينهمر ثلاثة أسابيع متوالية فيحدث المجارى والنهيرات . انا لفى حاجة لان نجتاز حدودنا الخاصه ونشاهد بعض الكائنات الحيه ترعى حرة طليقة فى مزارع ليس فى مقدورنا أن ننتجعها أبدا . انا ليطيب لنا أن نرى الباشق يأكل من الرمم والجيف التى تنفرنا وتثبط من عزائمنا ، على حين يحصل هو على الصحة والقوة من مثل هذه الوجبة . حدث أن كان حصان ميت ملقى فى الطريق



الذي يؤدي الى بيتي فأضطر أحيانا الى آن أغير طريقي ، مما جعلني أوقن بما للطبيعة من شهية قوية وصحة لا تختل ، فعوضني هذا من ذلك .

اني أحب أن أرى الطبيعة زاخرة بضروب الكائنات وشتى المخلوقات مما سوغ التضحية بعشرات الآلاف منها ، والسماح لهـا بأن يفترس بعضها البعض الآخر ، وان هـذا النظام الدقيق يمكن أن يقـوض ويستبعد من الوجود مثل اللباب « فآباء ذنبية* » تلتهمها البلشونات* ، وتداس السلاحف والضفادع في الطـرقات ، وان السماء قد تمطر أحيانا لحما ودماء . فمع امكان التعرض للحوادث يجب أن ندرك ضآلة مايمكن الاستفادة بها فالاثر الذي ينطبع في نفس الرجل العـاقل هو البراءة العالمية . فالسم ليس ساما بعد كل شيء ، كما أنه ليس ثمة جروح قاتلة . فالرحمة أساس لايمكن الاعتماد عليه بحال من الاحوال . بل هي يجب أن تكون ماضية ناجعة .

وفي أوائل شهر مايو أخذت أشجار البلوط ، والجوز الامريكي ، والاسـفندان ، وغيرها تتفتح وتزهر وسط غابات الصنوبر التي حول البركة ، فأضفت بذلك على المنظر الطبيعي رواء ولألاء مثل رواء ضوء الشمس ولألائهـا ، ولا سيما في الايام الغائمة . كأنما كانت الشمس تنبثق من ضباب متراكم ، وتلقي ضوءا خافتا على سفوح التلال في تلك البقعة منها أو تلك . وفي اليوم الثالث أو الرابع من شـهر مايو لمحت «غطاسا*» في البركة ؛ وفي الاسبوع الاول من الشهر عينه سمعت السبد الفرجيني وسمنة ويلسن ، و « بي وي » الاحـراش وغيرها من الطيور الغريدة . وكنت قد سمعت من قبـل سـمنة الدبق* . وجاءت « الفوبة* » مرة أخرى تطل على بابي وعلى نافذتي لترى ان كان بيتي يصلح لها مثلما تصلح المغـارة . وكانت تحمل نفسها على جناحين طنـانين وبمخالب منقبضة كأنما كانت نشبتها في الهـواء فتعلقت به ، وهي تفحص أراضي بيتي . وكان طلـع الصنوبر الراتنجي الذي يشبه الكبريت في لونه قد بكر فغطى البركة والاحجار والاخشـاب المتعفنة التي على الشاطىء ، وكثر كثرة عظيمـة حتى لتستطيع أن تجمع منه ملء برميـل ان شئت . فتلك هي الامطار الكبريتية التي نسمع عنها . وانك لتقرأ حتى في تمثيلية سكانتولا* التي وضعها كاليداس* ، عن الجداول المصطبغة باللون الاصفر من جـراء تكاثر غبار اللوتس الذهبي . وهكذا تنقضي الفصول وتنقلب كلها صيفا كلما صعد المرء وجال وسط الكلأ في مرتفعات أعلى فأعلى .

وهكذا انقضت السنة الاولى من حيـاتي في الغابات ، وتمت . وكانت السنة الثانيـة شبيهة بها لا تختلف عنها في كثير ؛ فانتهى بي المطاف ، وغادرت والدن في السادس من سبتمبر سنة ١٨٤٧ .

ختـــــام

يحسن الاطباء صنعا اذ يوصون مرضاهم بتغيير الهواء والمناظر ، واني لأحمدالله أن هذه البقعة التي أسكنها ليست الدنيا بأجمعهـــا . فشجيرات «عين البقر*» لا تنمو في نيوانجلند*، وصوت العصفور الحاكي* لايسمع هنا ؛ أما الأوز البرى فعالمي شائع الوطن ، أكثر منا معشر بني الانسان . ألا تراه يفطر في كندا ، ويتغدى في أوهايو* ، ويتزين ويصلح من ريشه ليقضي ليلته في خليج من خلجان الجنـــوب ؟ وكذلك الجاموس البرى ، فهو يساير فصـــول السنة في تنقلاته الى حد ما ، فيظل يرعى في الكولورادو* ، حتى يعثر بكلأ آخر أخضر وأنضر ينتظره في «اليلوستون*» . ومع ذلك كله ، لا نزال نظن أنا اذا رفعنا عن مزارعنا الاسيجة المأخوذة من خشب الشجر ، وأقمنا بدلها أســـوارا من الحجر نكون قد وضعنا لحياتنا حـــدودا ، وقررنا مصائرنا بأنفسنا . ألا ترى أنهم ان اختـــاروك مسجلا للمدينة ، استطعت أن تسافر هـــذا الصيف الى جزائر تيرادلفويجو* ، عـــلى حين تستطيع أن تذهب هذا الصيف ان شـــئت الى حيث نيران جهنم . ان العالم لأوسع رقعة من رأينا فيه وفكرتنا عنه .

على أنا مع هذا يجب أن نكثر من النظر الى أعلى السور عند مؤخرة سفينتنا كما يفعـــل الركاب الطلعة الفضوليون ، وألا نقضي رحلتنا كما يقضيها الاغبيـــاء من الملاحين في جمـــع نسالة الحبال . فليس الطرف الآخر من الكرة الارضـــية ســـوى بيت نظيرنا من السكان . وما رحلتنا ســـوى سفر في البحر عـــلى نظام الدوائر العظمى كما يقولون ؛ ان الاطبـــاء لا يصفون وصفاتهم الا لأمراض الجلد فحسب . ومن الناس من يسارع الى جنـــوب افريقيـــة ليصيد الزرافة ، ولكن ليس هذا بالصيد الذي ينشده ، يقينا ؛ فالى متى ياترى يظل الرجل منا يطارد الزرافات اذا استطاع الى صـــيدها سبيلا ؟ ان الشناقب* ودجاج الارض* تعد كذلك من نوادر الصيد . ولعل خيرا من ذلك وأنبل أن يصيد الانسان نفسه ويستريح .

فارجع ببصرك ووجهه الى ذات نفسك
تجد ألف موضوع في عقلك لم يكشف عنه بعد .
فسح فيه ، ونقب ، تكن بذلك
خبيرا بشئون طبوغرافية وطنك .

ماذا تمثل افريقية ؟ وماذا يمثل الغرب ؟ ألا ترى أن داخل بلادنا مازال أبيض عـــلى الخريطة ـ وقد يكون أسود في الواقع ـ مثله في ذلك مثل الشاطىء أول ما استكشف ؟ هل منبع النيل أو التيمز أو المسيسيبى أو الطـريق الشمالى الشرقى ، حول هذه القـارة هو الذى نعمل على اسـتكشافه ؟ أتلك هى المشـكلات والمعضلات التى تشـغل بال البشر أكثر من سواها ؟ وهل كان فرانكلين* الشخص الوحيد الذى ضل وضاع حتى تجد زوجته كل ذلك الجد فى طلبه والبحث عنه ؟ هل يدرى المسـتر جرينل* نفسه أين هو ؟ فلتكن أنت منجو بارك* نفســك ، ولويس* وكلارك* وفروبيشر* مجاريك ومحيطاتك . واسـتكشف عروضك أنت العليا ونقب عنها ، واصحب معـك أحمالا كثيرة من اللحوم المحفوظة لتعيش عليها ان كان ثمة ضرورة تقتضيها ؟ ثم كوم علبها الفـارغة بعضها فوق بعض عالية حتى تبلغ عنان السماء لتكون معلما أو مرقبا للارشاد والهداية . فهل اخترع الناس اللحوم المحفوظة لتحفظ علينـا اللحـم فحسب ؟ لا ! كن كولومبـوس* واستكشف قارات جديدة ، وعوالم جـديدة برمتها ، فى نفسك أنت ؟ وافتتح طرقا جديدة ، لا للتجارة ، ولكن للفكر والرأى . فكل امرىء منا سيد مملكة تتضاءل أمامها امبراطـورية القياصرة حتى لتصبح دويلات صغار أو مجـرد ركام خلفها الجليد وراءه . ومع ذلك فمـن الناس من يستطيعون أن يكونوا وطنيين ، وليس لهم شىء من احترام النفس ، فيضحون بما هو أعظم فى سبيل ما هو أصغر وأقل ؟ فهـم يحبون التربة التى ستكون منها قبورهم ، ولا يحفـلون بالروح التى لا زال ممكنا أن تنفث الحياة فى الصلصال الذى خلقوا منه . فليست الوطنية سوى علقة فى رؤوسهم . اذ ما معنى « حملة استكشاف البحار الجنوبية » تلك ، بكل مافيها من رجال ، وبما تتكلفه من أموال ونفقات ، ان لم تكن اعترافا غير مباشر بوجـود قارات وبحار فى العالم الروحى ، ذلك العالم الـذى ليس كل امرىء منا سوى برزخ أو خليـج فيه ، ومع ذلك لم يقم باستكشافه والتنقيب عنه بعد ؟ وانه لأهون على المرء أن يسافر بحرا ، ويقطع آلافا عدة من الأميال وسـط البرد والعواصف ، وبين ظهرانى آكلة لحوم البشر ، فى مركب حكومى يعاونه فيه خمسمائة رجل وصبى ـ من أن يستكشف بحره الخاص به ـ محيطه الهادى ومحيطه الاطلسى اللذين يؤنسانه فى وحدته .

ذرهم يطوفوا ويستقصوا أمور الاسترا ليين البعيدين ،
ففى أنا من الله الشىء الكثير ، أما هم ففيهم الكثير من الطريق [1] .

---

(١) البيتان الاخيران من قصيـدة للشاعر الرومانى كلوديوس ، الاسكندرى المولد ، والذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد ..

لا معنى لان تطوف حول العالم لتعد القطط في زنجبار ؟ ومع ذلك فافعل هذا الى أن تجد لك شيئا خيرا منه . فلعلك تجد ثقبا مثل ثقب «ميم*»، تستطيع أن تلج منه الى الداخل آخر الامر . فانجلترا وفرنسا والبرتغال وساحل الذهب وساحل العبيد كلها تطل على هذا البحر الخاص . ولكن لم يحدث أن سفينة من سفنها تجرأت وأبعدت عن الارض الى أن تختفي عن الابصار ، مع أنه لا شك في أن هذا هو الطريق الذي يؤدي الى الهند مباشرة . ولو استطعت أن تتكلم بكل لغة من اللغات ، وتأخذ بعادات الامم جميعا ، وتسافر أبعد مما سافر أي سائح ، وتتأقلم في كل مناخ ، وتجعل أبا الهول يضرب رأسه بحجر ، فان استطعت أن تفعل ذلك كله ، فأطع مع ذلك قول الفيلسوف القديم واعرف نفسك . فهذا هو الامر الذي يتطلب عينا وأعصابا . فالمهزومون والآبقون وحدهم هم الذين يولون وجوههم شطر الحروب ، فهم الجبناء الذين يهربون ويلتجئون بالجيش . فابدأ الآن واتجه شطر الطريق الغربي البعيد الذي لا يقف عند المسيسيبي ولا عند المحيط الهادي ، ولا يؤدي الى صين بالية أو يابان عتيقة ، بل يؤدي مباشرة الى هذه الكرة الارضية ، صيفا وشتاء ، ليلا ونهارا ، غروب الشمس أو غروب القمر ، وأخيرا غروب الارض وانهيارها .

قيل ان ميرابو* عمل مرة قاطع طريق ليستوثق من مدى درجة العزم والتصميم التي يستلزمها امرؤ يضع نفسه ضد أقدس قوانين المجتمع ويعارضها معارضة صريحة وجها لوجه . فأعلن « أن الجندي الذي يقاتل في الميدان لا يستلزم من الشجاعة نصف مايستلزمه قاطع الطريق منها » ، « ولم يقف الشرف قط ، ولا الدين في سبيل عزيمة ماضية قامت على أساس من حسن الروية والتفكير » . فهذا شيء خليق بالرجولة في هذه الدنيا على ما هي عليه . ومع ذلك فهو باطل ، ان لم نقل مستيئسا . وأعقل من ذلك ، الرجل الذي كثيرا ما يجد نفسه في مواقف « معارضة شكلية » للامور التي يقال عنها انها أقدس واجبات المجتمع ، وذلك عن طريق الطاعة لقوانين أقدس من هذه . وبذلك يكون قد اختبر مدى تصميمه ومضاء عزيمته من دون أن يضطر الى أن يحيد عن الطريق الذي رسمه لحياته ؟ ليس للانسان أن يقف مثل هذا الموقف ازاء المجتمع وانما عليه أن يحافظ على نفسه ويستبقيها عالية في أي موقف يجده فيه من جراء خضوعه لقوانين كيانه ووجوده هو ، وهو موقف لا يتعارض مع أية حكومة رشيدة عادلة ، اذا ما حدث وصادف حكومة من هذا القبيل .

لقد غادرت السكنى في الغابات لسبب قوي ، كما سبق أن ذهبت لسبب قوي . فربما تخيلت أن أمامي عدة حيوات أحياها ، وأني لاأستطيع أن أقضي أي وقت آخر في هذه

الحياة • وما أسهل أن يحدث للانسان منا أن يسير في طريقة خاصة على غير قصد منه ، وبذلك يهيىء لنفسه سكة يظل يطرقها ويتبعها • فلم يكد يمضى على أسبوع واحد هناك حتى أبلت قدماى طريقا من بيتى الى البركه • ومع أنه قدمضى الآن خمسة أعوام أو ستة منذ طرقته فلا يزال هذا الطريق واضحا كل الوضوح • على أني أخشى مع ذلك أن يكون ناس غيرى قد تورطوا فيه ؟ فعاونوا على صيانته مفتوحا ؟ اذلا يخفى أن سطح الارض لين مرن تنطبع فيه آثار أقدام الناس ؟ وكذلك المسالك التى تسير فيها الخواطر فى العقل • فما أبلى طرق هذا العالم اذن وما أكثر ماعليها من تراب ! وماأعمق التقاليد وأرسخ العادات في النفوس !. انى لم أشأ أن أتخذ لنفسي حجرة خاصة في شتى أسفارى فى بحار هذا العالم ، بل كنت أفضل أن أكون على ظهر سفينة هذه الدنيا ، وأمام ساريتها كى أستطيع أن أرى ضوء القمر يسطع على الجبال ، فليست بى رغبة تحدونى الى الهبوط الى أسفل السفينة •

ولقد علمتنى التجارب هذا الامر على الأقل . ان الانسان اذا سار قدما وهو موقن ، وولى وجهه شطر أحلامه وأمانيه ، وحاول أن يعيش الحياة التى يصورها له خياله فانه سوف يلقى نجاحا لم يكن ينتظره ؟ ولسوف يخلف وراءه بضعة أشياء ويمر بنجوم غير مرئية ؟ ولسوف توضع قوانين جديدة عالمية أكثر حرية وتتأصل حوله ، وفى نفسه ، أو أن تتسع القوانين القديمة وتمتد وتؤول فيما فيه مصلحته تأويلا أوسع وأسمح • وانه سيعيش على أنه من طبقة أسمى من سائر المخلوقات • وبحسب ما يبسط حياته تبدو له قوانين العالم أقل تعقدا ، ولا تكون الوحدة وحدة ، ولا الفقر فقرا ، ولا الضعف ضعفا • فان كنت قد بنيت فى الهواء قصورا فليس من الضرورى أن يكون عملك هذا قدضاع عليك سدى • فهنا يجب أن تكون أحلامك ، وما عليك الا أن تضع الآن الأسس وطيدة تحتها •

انه لطلب سخيف ذلك الذى تطلبه كل من انجلترا وأمريكا أن تتكلم كى يستطيعا أن يفهما ما تقول • ولكن لاالناس ولا الكمأة تنمو بهذا الشكل ؟ كأن هذا شىء من الأهمية بمكان ، وكأنه لا يوجد عدد كاف من الناس غير الأمريكيين والانجليز يستطيعون أن يفهموك ، وكأن الطبيعة لا تطيق سوى نظام واحد من الفهم ؟ وكأنها لا ترزق الطير كما ترزق الحيوان من ذوات الاربع – أى ترزق الاشياء الطائرة كما ترزق الاشياء الزاحفة ، وكأن (شى) و (هو) ، اللفظتين اللتين يستطيع (البهيم) أن يفهمهما أحسن لغة انجليزية ، وكأن السلامة فى الغباوة ! ان أخشى ما أخشاه ألا أكون قد شططت وأغرقت فى تعبيرى ، الشطط والاغراق الكافيين أى أخشى أنى لم أبعد بعدا كثيرا وراء الحدود الضيقة لخبرتى اليومية يجعلنى كفاء الحقيقة التى أنا مقتنع بها كل الاقتناع • هل أقول الشطط والاغراق !

ان هذا ليتوقف على الطريقة التي تكون محصورا بهـــا ؟ فالجاموس الوحشى الكثير الهجـــرة والانتجاع فيرتاد مراعي جـــديدة في عروض أخرى لا يعد مسرفا اسراف البقرة التى ترمح الجردل برجلها وتثب من على سور الحظـــيرة ، وتجرى وراء عجلها اذا ما آن وقت حلبها .
انى أود أن أتكلم فى مكان ما ، من غير حدود أو قيـــود ، كرجل يتكلم فى لحظة من لحظات يقظته ونشاطه الى رجال فى لحظات يقظتهـــم ونشاطهم مثله . فأنا مقتنع بأنى لا أبالغ المبالغة التى تكفى حتى لوضـــع أساس لتعبير صحيح صادق . فمنذا الذى سمع بنغمة موسيقية ثم خشى ألا يتكلم بعد ذلك أبدا كلاما فيه اسراف وفيـــه مبالغة ؟ انا من حيث المستقبل ، أو من حيث الجائز الممكن ، يجب أن نعيش فى تؤدة وعلى مهل . ليس أمامنا حـــدود معينة مقررة بل يجب أن تكون حدودنا التى فى ذلك الاتجاه غامضة حقا مثلما تكشف ظلالنا عن عرق نضح من اتجاه الشمس على غير علم منا . ان الحقيقة كفاية . فما تتضـــمنه ألفاظنا من حقيقة سرعان ماتنتقل ولا يبقى منها سوى حروفها فحسب . ان الالفاظ التى تعبر عن ايماننا وتقوانا ليست بالالفاظ المحددة ، ومع ذلك فهى ألفـــاظ لهـــا دلالتها ، ولها عبيرها الفواح مثلما للبخـــور ، تنشقه آرباب الطبائع السامية .

لماذا نهبط بكل شىء الى مستوى أفكارنا السخيفة دائما ، ثم نمدح عملنا هذا بأنه يتفـــق مع الذوق السليم ؟ ان آكثر الاحساسات شيوعا هى تلك التى يستشعرها الناس وهم نيام ويعبرون عنها بغطيطهم . انا قد نميل أحيانا الى آن نسلك أولئك الذين فطنتهم تعادل مرة ونصفا ، والذين فطنتهم تعادل نصفا فقط فى سلك واحد ؟ لأننا لانستطيع أن نقدر ســوى ثلث فطنتهم حـــق قدرها . ومن الناس من ينعون على الشـــفق حمرته اذا ما حدث مرة واستيقظوا من نومهم مبكرين . وسمعت « أنهم يدعون أن أشـــعار (كبير)* تحتمل أربعة معان مختلفة : الوهم ـ والروح ـ والعقل ـ ومذهب الويدات* الخارجى السهل ادراكه » . آما فى هذا الجزء من العالم فالناس يشكون مر الشكوى من كل امرىء ، تحتمل كتاباته آكثر من تأويل واحد ، فعـــلى حين يحاول الانجليز آن يعالجوا مرض صـــدأ البطاطس ، أفليس فينا من يحاول آن يعـــالج صدأ المخ ، فهـــو داء تفشى آكثر من صـــدأ البطاطس وأشد منه خطرا وفتكا .

لا أظن أنى بلغت درجة الغموض والاستغلاق فيما أكتب . بل يحق لى أن أفخـــر ان لم يجد الناس فى صفحاتى من هذه الناحـــية عيبا أشد خطرا مما يجدونه فى جليـــد والدن من العيوب . فالزبائن الوافدون على البحيرة من الجنوب قد أنكروا على هذا الجليد لونه الازرق كأنما كان وحلا كثير القذى ، على حين أن هذا اللون نفسه هو الدليل على نقائه وصفائه . فهم يفضلون عليه جليد كمبردج* على الرغم من أن مذاقه مشوب بطعم الكلأ . فالنقاء الذى يحبـــه

الناس ويفضلونه أشبه مايكون بالضباب الـــذي يغشى الارض ، وليس كالأثير اللازوردي الذي وراءها .

يدوى بعض الناس فى آذاننا بأنا نحـن الامريكيين خاصة ، المحدثين منا عامة ، من حيث العقل ، أقزام ، اذا قورنا بالقدامى ، بل وبالرجال الذين كانوا فى عصر البزابث* . ولكن ماشأن هذا بالموضوع الذى نحن بصدده ؟ ان الكلب الحى غير الكلب الميت . فهل على الانســان أن يشنق نفسه لأنه من جنس الاقزام ، وليس أكبر قزم يستطيع أن يكونه ؟ فليعن كل امرىء بشئونه الخاصة به ، وليحاول أن يكون على ما خلقــه الله عليه ويسره له .

لماذا كنا فى هذه العجلة اليائسة نتلهف على الظفر بالنجاح فى مثل هــذه المشروعات ؟ ان كان المرء منا لا يساير رفقاءه من الجماعة خطوة خطوة فلربما كان يسمع دقات طبال آخر مختلف عن طبال الجماعة . ان عليه أن يخطو بحســب الموسيقى التى يسمعها هو ســـواء كانت وحدة موقعة ، أو كانت نائية بعيـــدة عنا كل البعد . وليس من الأهمية بمكان أن ينضـــج المرء بالسرعة التى تنضج بهـــا شجرة التفاح أو شجرة البلوط . فهل ينبغى أن يحول ربيعه الى صيف يا ترى ؟ ان كانت ظروف الاشــياء وأحوالها التى خلقنا لها لم تتوافر بعـــد ، فأية حقيقة واقعية نستطيع أن نحلها محلهـــا لتكون بديلا منها ؟ انا لن نتحطم على صخرة حقيقية باطلة لا جدوى منها . فهل نجشم أنفســـنا مئونة اقامة سماء من الزجاج فوقنا ، حتى ولو كنا واثقين من انا بعد انجازها سنظل ننظـر الى السماء الاثيرية الحقيقية ، كأن الاولى لم تكن .

حدث أن كان فى مدينة كورو ، فنـــان يسعى وراء الكمال ؟ فخطـر بباله ذات يوم أن يصنع عصا . وبعد التروى وانعام النظر أدرك أن الوقت عنصر هام له تقديره فى كل عمل من الاعمال الناقصة ، على حين أن العمـل الكامل لا يحسب فيه للوقت أى حساب . فقـــال فى نفسه ان هذه العصا ستكون من كل وجه من الوجوه كاملة حتى ولو لم أعمل فى حيــاتى شيئا آخر غيرها فمضى من فوره الى الغـــابة ليبحث عن الخشب اللازم لعصاه . واذ قد عزم أمره على أن ينتقى لها خشبا صالحا كل الصلاح فكان اذا ما بحث عن خشبة ووجدها صـــالحة رفضها ، وأخذ يبحث عن غيرها ثم يرفضـــها وجعل يوالى ذلك حتى هجره اخوانه الواحد بعد الآخر ، بعد أن كبروا وشاخوا جميعا فى أعمالهم ، ثم قضوا نحبهم وانتقلوا من هـــذه الدنيا . أما هو فلم يكبر ولم يشخ لحظة واحدة ، لان وحـــدة غرضه وقوة عزيمته ، وتقـــواه السامية منحته ، على غير علم منه ، شـــبابا خالدا لا يزول . ولما لم يحـاول أن يصـــانع الزمن فقد هرب الزمن من طريقه ، وجعـــل يتحسر على بعده منه لانه لم يستطع أن يتغلب عليــــه ويقهره . فلما توصل الفنان الى عدد من العصى صالحة من كل وجه من الوجوه ، كانت

مدينـــة كورو قد صارت أنقاضا وأطلالا أكل عليها الدهر وشرب . فجلس على طلل من أطلالها يسوى العصى التى معه ويبريها ، ولكن قبل أن يشكلها بالشكل الذى أراده لهـــا كانت أسرة قندهار قد دالت وانقرضت . فخط بطرف العصى فى الرمل اسم آخر فرد من أفرادها ثم استأنف عمله الذى كان بصدده . فبعد أن سوى العصـا وجعلها ملساء ناعمة وصقلها ، لم تعد « كالبـــا » النجم القطبى ، وقبل أن يضع الرج فى العصى ، ويرصع قبضتها بالاحجار الكريمة كان براهما* قد استيقظ ونام عدة مرات . ولكن ما الذى يدعونى أن أتلبث هنا لأسرد عليكم هـــــذه الامور ؟ فما ان انتهى الفنان من صـنع العصى على ما يحب ويشتهى ، اذا بها تنقلب فجـــأة وتتمدد وتصبح أجمل شىء خلقه براهما* فقد أوجد بصنعه هذه العصى نظاما جديدا وخلق دنيا كاملة النسب رائعتها . فمع أن المدن القديمة والاسرات القديمة قد زالت ، فان مدنا أخرى وأسرات أخرى أجمل منها وأروع قد حلت محلها فى هذه الدنيا . وها هو الفنان يرى الآن الى جانب كومة البراية التى لا تزال ندية لم تجف بعد عند قدميه ، أن ما مضى من الزمن السابق على عمله ، لم يكن سوى مجرد وهم وخداع ، وان ما مضى منــــه لم يكن أكثر مما يكفى لومضـــة أو شرارة واحدة لتصدر من عقل براهما وتقــع على مشاقة مخ انسان زائل وتشعله . لقد كانت المادة نقية طاهرة وكان فنه نقيا طاهرا فلم لا تكون النتيجة عجبا عجابا ؟ .

ليس ثمة وجهة نظر الى مسألة ما تفيدنا بقدر مايفيدنا الصدق . فهذا الاتجاه وحده هو الصحيح الصامد ، فلسنا فى الغالب حيث نحـن بل فى موضع زائف خطأ . وانا ، لما فى طبائعنا من ضعف صرنا نتخيل حالة ما ، ثم نضع فيها أنفسنا ، وبذا نصبح فى حالتين اثنتين فى وقت واحد ، ويصبح من الصعوبة بمكان عظيم أن نتخلص من ورطتنا التى تورطنا فيها . أما فى لحظاتنا السليمة فنحن لا ننظر الا الى الحقائق ــ الى الحالة الواقعة فعلا ، على ماهى عليه . فقــل ما تريد أن تقوله ، لا ما يجب عليك أن تقوله . فان أية حقيقة كائنة ماكانت خــير من الزعم والادعاء . سئل توم هايد السمكرى وهــو على المشنقة عما اذا كان لديه شىء يريد أن يقــوله ، فأجاب : قولوا للخياطين أن لا ينســـوا أن يعقدوا عقدة فى طرف الفتلة قبل أن يبـــدأوا عمل أول غرزة . أما صلاة زميله فقد نسيت تمال النسيان .

فمهما كانت حياتك وضـــيعة ، فواجهها ، وعشها ، ولا تتجنبها ولا تصب عليها جاما من السباب . انها لم تبلغ من السوء ما بلغت أنت . فقد تبدو فقيرة كل الفقر عندما تكون أنت فى قمة غناك وثروتك . فمن يتسقط عيوب الناس وأخطاءهم يجـــدها حتى فى الجنـــة . فأحب حياتك على مابها من فقر ، فقد تصادفك بضـع ساعات سارة مثيرة حافلة بالسعادة ، ولو كنت فى بيت فقير . ألا ترى أن الشمس وهى تغرب تنعكس أشعتها من نوافذ ملجأ الفقراء متألقــة

باهرة كما تنعكس من مسكن الرجل الغنى ؟وأن الثلج يذوب من أمام باب الملجأ فى أوائل الربيع مثلما يذوب من أمام باب الغنى فيهـا ؟لست أعرف أحدا غيرذى العقل الهادىء الرضى يستطيع أن يعيش فى الملجأ راضيا مسرورا ،تطيف به الافكار والخواطر التى تشرح الصدر كما يستطيع أن يعيش فى قصر من القصور • ويخيل الى أن فقراء المدينة كثيرا ما يعيشون عيشة أكثر استقلالا من سواهم ، ولعل ذلك يرجع الى أنهم بلغوا من العظمة أن يتقبلوا ما يقدم اليهم من غير أن يشعـــروا بأى قلق أوغضاضة ، على حين يرى أغلب الناس أنهم أسمى من أن تعولهم مدينتهم ، ولكن كثيرا ما يحدث أنهم ليسوا أكبر من أن يعولوا أنفسهم بوسائل وطرق قذرة غير شريفة ، مما هو شر من ذلك وأسوأ سمعة • فوال الفقر وتعهده ، كما تتعهد عشبا من أعشاب الحديقة ، كالمريمية* مثلا ،ولا تجشم نفسك كثيرا ، مؤونة الحصول على أشياء جديدة ، سواء كانت من الملابس ، أو من الاصدقاء • فاقلب ملابسك القديمة ، وعد الى قديمك ، فالاشياء لا تتغير ولا تتبدل ، وانمانحن الذين نتغير • فبع ملابسك ان شئت ، ولـكن احتفظ بأفكارك ، وسيكفل لك الله ألا يعوزك الاجتماع بالناس • فلو انى حجزت كالفيلسوف فى ركن من أركان علية ما طيلة حيـاتى لظلت الدنيا على سعتها فى نظرى مادامت معى أفكارى • قال الفيلسوف : « انا لنستطيع أن نستبعد القائد من جيش ذى ثلاث فرق فيدب الاضـــطراب والهرج فيه ، على حين انا لا نستطيع أن نسلب أخس الناس وأوضعهم فكره ونحرمه اياه • فلا تهتم الاهتمام الكبير بأن تترقى وتنمو وتعرض نفسك لمؤثرات كثيرة لتؤثر فيك • فهذا كله ، اسراف وتبذير ، فالتواضع يكشف عن الاضواءالسماوية كما يكشف عنها الظلام • ان ظلال الفقر والخسة تتجمع حولنا ، واذا بالخليقـــة تتسع أمامنا وتترامى أطرافهــــا » • وكثيرا مايذكرنا الناس والاحوال بأنا لو أعطينـــا مال قارون لظلت أهدافنا حتما هى هى لم تتغـــير ، ولظلت وسائلنا هى هى كذلك فى أساســـها • وزيادة على ذلك فان قصرك الفقر على دائرتك التى أنت فيها ، ولم تك تستطيع أن تشـــترى كتبا ولا صحفا مثلا ، فقد قصرت عـــلى أكثر الخبرات أهمية وأعظمها حيوية • فأنت مضطر الى معالجة شئون المادة التى تنتج لك أعظم مقدار من السكر والنشا • انها الحيـــاة على مقربة من العظم ، حيث الحيـــاة أحلى ما تكون • فهأنت بمنجى من أن تكون عابثا تعنى بالسفـــــاسف والتوافه • فالثروة الزائدة على الحد لا يشترى بها الا الاشياء الزائدة عن الحاجة التى لا لزوم لها ، فلست بحاجة الى مال لتشترى شيئا واحدا ضروريا للحياة الروحية •

انى أعيش فى ركن من أركان حائط من رصاص دخل فى تكوينه شىء من المعدن الذى تتخذ منه النواقيس ؟ فلا غرو ان كانت تبلغ مسامعى ، وأنا أقيل وقت الظهـــيرة ، أصوات

مضـــطربة من خارجه ، وهي أصـوات بنى عصرى . هذا ، وقد قص على جيرانى أبنـاء الكثير من مغامراتهم مع المشهورين من السادةوالاعيان ، ومع السيدات المشهورات من أهل هذا الجيـــل . وحدثوننى عمن قابلوهم من الاشراف على موائد الغداء . على أنى لم أكن أعنى بأمثال هذه الامور كلها ولا أكترث لهاأى اكتراث ، مثـل عدم اكتراثى لما تحـويه جريدة « التايمز » اليومية . فقد كان جل اهتمام الجمــاعة وحديثهم يدوران حول المـلابس والأزياء وحول آداب اللياقة وحسن السلوك ولكن لا يخفى عليك أن الوزة تظل وزة دائما ، مهمـا ازينت . وكانوا يتحـــدثون الى عن كاليفورنيا* وتكساس* وانجلتـــرا وجزائر الهند ، وعن ذلك المحترم السيد الجيورجاوى وذلك السيد المساتشوستسى ـ فهـــذه كلهـا ظواهر عارضة سريعا ما تزول . وانهم ليظلون يخوضون فى أمثال هذه الاحاديث حتى ليبلغ بى الامر أن أثب من بهو الدار كما وثب البك المملوك* . فانى ليسرنى كل السرور آن أعود الى بيتى والى معالم طريقى المعهودة لى ـ من أن أسير فى موكب فخم رائع ، وفى موضع بارز مرموق فيه . وانما يطيب لى آن آسير مع بارىء هذا الكون نفسه ان استطعت الى ذلك سبيلا . أنا لا أود أن أعيش فى هذا القرن التاسع عشر العصبى الكثير الحركة والهرج ، هذا القرن التافه . ويسعدنى أن أجلس أو أقف ، غارقا فى أفكارى ، وأدع هذا الجيل يمضى فى سبيله . فبماذا يحتفل القوم هنا اليوم يا ترى ؟ انهـــم كلهم أعضاء فى لجنة التنظيم ، ينتظرون فى كل ساعة تمر بهم خطابا يلقيه عليهـم شخص من الاشخاص . ان الله وحده رئيس هذا اليوم ، وما « وبستر* » الا خطيب من خطبائه . انى أحب أن يكون لى وزنى وقيمتى ، وأتجه نحو الامر الذى يسترعينى ويجـــذبنى بقوة وبحق أكثر مما أتجه الى غيره ، لا أن أتعلق بالميزان لأبدو أقل وزنا مما أنا عليه فى الواقع . ولست أفترض حالة ما ، بل أتقبل الحالة على ما هى عليه ، وأسير فى الطريق الوحيد الذى أستطيع أن أسلكه والذى لا تستطيع آية قوة آن تقف فى سبيلى وتقاومنى فيه فليس يرضينى مطلقــا أن أنشىء نصبا قبل آن أكون هيأت له أساسا وطيدا .

قرأنا مرة أن مسافرا سأل صـــبيا عن مستنقع أمامه ان كان ذا قاع صلب وطيـــد ، فأجابه الصبى ، نعم ! ولكن سرعان ما ارتطم حصان هذا المسافر فى المستنقع وغاص فيـــه حتى حقويه ؛ وعنـــدئذ قال للصبى : ظننتك قلت ان هذا المستنقع صلب القاع وطيده ؟ قال نعم ، هذا حق ، ولكنك لم تصل بعد الى نصفه . وكذلك الامر فيما يتعلق بمناقع هــذا المجتمع وسبخاته ورماله ؛ ولكن لا يعرف ذلك الا كل صبى عجوز ، فان الصالح وحده هو ما فكرت فيه أو قلته أو فعلته وأنت فى معينـــة نادرة . وليست بى رغبة أن أكون واحـــدا من هؤلاء

القوم الذين يبلغ بهم الخرق آن يدقوا مسمارا في خشبة رفيعة أو في طلاء الجدار ؟ فمثل هذا العمل يقض مضجعي ويؤرقني ليالي عدة . فأعطني مطرقة ، ودعني أتحسس الطريق ، لا تعتمد على « المعجون » ، بل دق مسمارا ، وأحكم الدق بكل أمانة واخلاص حتى اذا ما استيقظت في الليل وفكرت في عملك رضيت عنه وارتحت الى ما عملت ، فهو عمل لا يخجلك أن تدعو آلهة الفن وتستلهمها من أجله ؟ فعلى مثل هذا يعاونك الله ويؤيدك ، وعلى مثله وحده دون غيره . فكل مسمار يدق يجب آن يكون مسمارا جديدا في (ماكينة) الكون ، ويجب أن تكون أنت نفسك الذي تقوم بهذا العمل فتدق هذا المسمار .

فبدلا من أن تهبني الحب والمال والشهرة ، وفر عليك ذلك كله ، فحسبي آن تعطيني الحقيقة وحدها . حدث أني دعيت مرة الى وليمة فجلست الى مائدة حافلة بشتى صنوف الطعام الدسم والخمر المعتق ، يقوم بخدمة الضيوف حشم وغلمان مدربون مذللون ؛ ولكنها كانت مائدة خلوا من كل اخلاص ومن كل صدق ، فغادرت هذا السماط غير الكريم ، وأنا أشعر بالجوع . فقد كان القرى باردا برودة ما فيه من المثلجات . وقلت لنفسي آن الناس هنا ليسوا بحاجة الى الثلج لتبريد هذه المثلجات وتجميدها . ثم طفق الضيوف يتحدثون الى عن عمر الخمر وقدمه ، وعن شهرة محصول العنب الذي اعتصر منه ؛ ولكنني كنت أفكر في خمر أخرى أعتق من هذه وأحدث منها وأصفى ، وعن محصول أروع لم يكن عندهم ، ولا هم يستطيعون أن يبتاعوه بمال . فالطراز ، والبيت وما حوله من أراض رحاب ، وطرق اللهو فيه ، كلها أمور توافه لا تذكر في نظرى . فلقد زرت الملك ، ولكنه استبقاني طويلا أنتظر في ردهته ، وسار معي سيرة رجل عاجز عن القيام بواجب القرى واكرام الضيف ، على حين أن رجلا من جيراني يعيش في شجرة مجوفة كان سلوكه مما يجدر بالملوك حقا . فما كان أولاني بزيارته هو !

فحتام نجلس في مداخل بيوتنا نزاول تلك الفضائل الخاملة العتيقة ، التي يجعلها أي مجهود يبذل في عمل من الاعمال لا لزوم لها ولا موضوع ؟ كانما كان على المرء منا آن يبدأ يومه بمواجهة المتاعب ومعاناة المشاق الطوال ، ثم يستأجر رجلا ليمشط له نبات البطاطس الذي زرعه ، ثم يذهب في المساء ليمارس الوداعة المسيحية ، والاحسان المسيحي في طيبة وصلاح ، سبق له أن دبر أمرهما ورسم خططهما من قبل ! تأمل كبرياء الصين ، ورضى سائر الناس عن أنفسهم ، ذلك الرضى الراكد الآسن ! ان جيلنا هذا ليميل بعض الميل الى أن يزهى ويتباهى بحجة أنه آخر حلقة في سلسة رائعة من الاجيال . ففي كل من بوسطن ولندن وباريس ورومية ، كان الناس ، وهم يفكرون في أجدادهم البعيدين الذين انحدروا

منهم ، يتحدثون عن تقدم العصر فى الفن والعلم والادب ، وهم راضون مغتبطون • هذا ، وعندنا وثائق الجماعات وتقاريرها ، والمدائح العامة التى تصاغ فى « عظماء الرجال » ! ولكن ما ذلك كله سوى آدم الصالح يتأمل فيما تحلى به من فضائل • « حقا لقد أنجزنا أعمالا جساما، وغنينا أصواتا قدسية خالدة لن تموت » أى أنها لن تموت ما دمنا نذكرها • أين جماعات آشور العلمية ، وأين رجالها الاعاظم ؟ فما لنا من فلاسفة شبان ؟ ومن رجال نقوم بالتجارب العلمية ! ليس بين قرائى رجل واحد عاش حياة بشرية كاملة الى الآن • قد لا تكون هذه الشهور سوى شهور الربيع فى حياة الجنس البشرى كله ، فان حدث لنا ذلك الجرب الذى أصاب الناس سبع سنوات طوال ، فانا لم نربعد فى كنكورد الجراد الذى ظل سبعة عشر عاما • انا لا علم لنا ولا دراية الا بقشرة ضئيلة من الكرة الارضية التى نعيش عليها ، فلم يحفر أغلب الناس غير ستة أقدام تحت سطح الارض، ولم يقفزوا فوقها بأكثر من هذا القدر • انا لا ندرى أين نحن ، ونقضى قرابة نصف وقتنا فى نوم عميق ، ونعد أنفسنا مع ذلك عقلاء ، لنا نظام ثابت فى ظاهره • حقا انا نفكر تفكيرا عميقا ، ولنا نفوس طموحة وثابة ! انى عندما أرى الحشرة تزحف بين أوراق الصنوبر على أراضى الغابة ، أسائل نفسى عن السبب الذى يدعوها الى أن تفكر هذه الافكار الوضيعة ، فتخفى رأسها عن نظرى ، أنا الذى قد أكون ممن يعملون على ايصال الخير لها ، وتزويد بنى جنسها بطرف من المعلومات التى تبهجها وتشرح صدرها ؟ انى عندما أراها أتذكر الخير الاعظم ، والعقل الأسمى الذى يشرف على وعلى مصائرى أنا ــ تلك الحشرة البشرية •

يفد على هذه الدنيا باستمرار فيض متواصل من كل جديد ؟ ومع ذلك ترانا نسمح فيها بالخمول الذى لايكاد يصدقه العقل ؟ وحسبى دليلا على ذلك أن ألمع الى نوع تلك العظات التى لا يزال الناس يستمعون اليها فى أكثر البلاد استنارة وأوسعها ثقافة • نعم ان ثم ألفاظا مثل السرور والحزن ، ولكنها ليست سوى أثقال يحمل بها مزمور ينشده الناس بنغمة صادرة من الانف ، على حين أنا لا نزال نؤمن بما هو عادى وبكل خسيس دنيء • قد تظن ألا قدرة لنا الا على تغيير ملابسنا وحدها ، ويقول الناس ان الامبراطورية البريطانيــة واسعة مترامية الاطراف ، وانها امبراطورية محترمة ، وان الولايات المتحدة قوة من الطراز الاول ، ولسنا نعتقد أن وراء كل انسان مدا يرتفع ، وجزرا يهبط وينحسر ، وأن هذا المد وذاك الجزر قد يعبث بالامبراطورية البريطانية يوما ما ويجعلها تطفو كعصافة على سطح الماء ، اذا استطاع انسان أن يحتويها فى عقله يوما ما • ومن يدرى أى نوع من جراد السبعة عشر عاما سيخرج من الارض ؟ فحكومة هذه الدنيا التى أحيا فيها ، لم ترسم خطوطها ولم تصنع ، كما

رسمت خطوط بريطانيا العظمى وصنعت في حديث جرى على الخمر بعد تناول العشاء .

فما أشبه الحياة التي فينا بالماء الذي في النهر ! فقد يرتفع هذا العام ويفيض على النجود والهضاب الظماء ؟ وقد تكون هذه السنة نفسها حافلة بالاحداث ، فيطغى فيها الماء ويغرق كل ما عندنا من فئران المسك* . هذا ، ولم تكن قطعة الارض التي نسكنها أرضا جافة دائما ، فهأنذا على مسافة بعيدة من الشاطىء ، الضفاف التي كان يجرى عندها النهر في الأزمنة السالفة ، قبل أن يأخذ العلم في تدوين فيضاناته . لقد سمع كل امرىء بالقصة التي ذاعت في جميع أرجاء « نيو انجلند » عن بقة جميلة قوية خرجت من لوح جاف من ألواح مائدة عتيقة مصنوعة من خشب أشجار التفاح لبثت ستين عاما في مطبخ فلاح في ولاية كنيتكت* ، ثم في ولاية مساتشوستس* . وكانت قد فقست من بويضة في الشجرة الخضراء من سنوات عدة قبل ذلك ، كما يتضح من فحص طبقات الخشب السنوية التي وراءها . وقد ظل الناس يسمعون هذه البقه عدة أسابيع وهي تقرض خشب المائدة . وربما كان فقسها من جراء حرارة اناء وضع على هذه المائدة . فمن ذا الذي يسمع بهذه القصة ، ولا يشعر أن ايمانه بالبعث وخلود الروح قد قوي وازداد ؟ومن ذا الذي يدرى أي نوع من أنواع الحياة الجميلة ذات الاجنحة ، التي دفنت بويضتها من أجيال طوال تحت طبقات كثيرة متمركزة ومتخشبة من حياة المجتمع الجافة الميتة ، سيظهر بغتة وعلى غير انتظار من بين أثاث وأحقره ، كي تستمتع آخر الامر بحياتها كاملة ؟ كانت هذه البويضة قد أودعت أولا ، في كامبيوم الشجرة الحية الخضراء التي تحولت شيئا فشيئا الى ما كان يبدو أنه قبرها ، فسمعتها أفراد الاسرة البشرية وهم جلوس حول المائدة في احتفال ما ، فاستولى عليهم الدهش من ان هذه البقة قد ظلت تقرض عدة سنين .

أنا لا أقول ان هذا الشخص أو ذاك سوف يدرك كل هذا ، ولكن تلك هي صفات ذلك الغد الذي لن يستطيع مجرد مرور الزمن أن يجعل فجره يطلع علينا . فالضوء الذي يسلبنا نعمة البصر ظلام بالاضافة الينا ؟ ولن يشرق علينا سوى ذلك النهار الذي نكون فيه متيقظين عند طلوع فجره ؟ وكم من يوم سيطلع فجره علينا ؟ فما الشمس الا نجمة من نجوم الصباح .

آدم سميث (١٧٢٣ ــ ١٧٩٠)

عالم انجليزى من علماء الاقتصاد ، ولد فى اسكتلندة وتعين فى جامعة كمبريدج • أصدر سنة ١٧٧٦ كتابه المشهور « ثروة الامم » ، فكان له تأثير عميق ، اذ عاون على جعل الاقتصاد السياسى « علما » قائما بذاته •

الاذريون Marigold

نبات اسمه العلمى كالندولا Calendula وهو من الفصيلة المركبة ، وله زهـــــر أصفر فى وسطه خمل أسود •

آلهة الاقدار Fates

ثلاث الاهات معروفة فى أساطير اليونان والروم يقمن بتحديد المقدور على الناس ولا سيما آجالهم • وهن كلوتو وتصور عادة حاملة مغزلا فيه آجـــال البشر ، ولاكيزس التى تمثل القـــدر المحتوم ، وأتروبوس التى تحمل آلة قاطعة تقطـــع بها خيط من انتهى أجله •

الآس البرى Cranberry

نبات ، ينمو شجيرات فى الاراضى الرطبة وفى المستنقعات •

آلهة الرشاقة Graces

ثلاث الاهات أخـــــوات لا ينفصلن ، ويمثلن فى الاساطير الاغريقية والرومانية النور والفرح والخصب ، وكل ما هـــو جميل رائع • وهن « ثاليا » و « أجلايا » ويوافرايزين وتـــــوحين الى من تحببن بالفن وبكل ما هو رائع رشيق ، ومن ثم كن صواحب الاهات الفن ، ويقطن عند سفح جبل اولمبوس

أبلار (١٠٧٩ ــ ١١٤٢) Abelard

ببير أبلار ، عالم فرنسى جمـــع بـــين اللاهوت والفلسفة • عهد اليه بالاشراف على المدرسة الكاتدرائية فى باريس فأقبل الناس على دروسه أيما اقبـــال من كل الاقطار ، وتخرج على يديه كثيرون من علمـــاء أوروبا فى ذلك العصر ، وكان معروفا بالفصاحة وقوة الحجة ، وحسن المحاضرة وغزارة العلم •

أبو زريق Jay

طائر كالغراب أسود اللون بزرقة وبياض، كثير التصويت • ويســــمى القيق أو الزرياب كما جاء فى الدميرى ، وهو ألوف للناس ، سريع الادراك ويحاكى أصوات الطيور الاخرى فى يسر وســــهولة وهو معروف بكثرة صـــــــياحه ولذا يسمى بالانجليزية Garrulus

اتحاد المـــانى German Confederation

كانت ألمانيا قبل أن يتم توحيدها ســـنة ١٩٧١ تتكون من ولايات وامارات ، ودول عديدة ، حدودها فى تغير دائم ، ومن ثم كان يضرب بها المثل فى التغير وعـــدم الاستقرار

اتروبوس Atropos

هى فى أساطير اليونان احدى الالهـــات اللواتى كن يتولين شئون أقدار البشر • فأتروبوس هى التىكان عليها انهاء آجال الناس بأن تقص خيط أجلهم بآلة قاطعة معها « أنظر الهة الاقدار »

الاتلنتيس Atlantis

تقول الاساطير انها جزيرة كبيرة كانت فى المحيط الاطلسى غربى أعمدة هرقليس ــ جبل طارق ــ • وقد أشاراليها أفلاطون

فى اقريطياس ، وفى تيماوس ، ورسم صورة رائعة لها ، ويقول الجيولوجيون الآن أن جزائر الازور ومديرا والخالدات بقايا هذه الجزيرة القديمة أو تلك القارة المغرقة · هذا ويقال ان سولون أشار الى أن كاهنا مصريا قد أخبره انهـا كانت موجودة منذ تسعة آلاف سنة

أدميتوس Admetus

كان ملكا على احدى المدن اليونانيـة · وتقول الاساطير انه تزوج من ألسستيز ابنه تيلياس بعد أن حقق الشرط الذى اشترطه أبوها على خطيب ابنته ، وذلك أن يحضر اليه فى عربة يجرها أسد ، فتم له ذلك بمعاونة الاله أبولو · ولما غضبت الآلهة على أبولو هذا ونفته من السماء عمل راعيا عند أدميتوس تسع سنوات · واعترافا بجميله اتصل بآلهةالاقدار ورجا منهن أن يجعلن أدميتوس من الخالدين ففعلن ·

أخيرون Acheron

نهر تصوره اليونان فى أساطيرهم على أنه احد الانهار التى تفصل الاخرة عن الدنيا ــ تفصل بين عالم الاحياء وعالم الاموات · وكان لا بد للارواح من أن تعبر هذا النهر حتى تصل الى العالم الاخر ، وكان المعداوى شارون يقوم بهذه المهمة نظير أجر معين ، ولذلك كان الاغريق يضعون فى فم موتاهم قطعة من النقود ثمنا لهذه التعدية ·

أخيل Achilles

أكبر أبطال اليونان فى حروبهم مع أهل تروادة·كان مشهودا له بالشجاعة النادرة وهو ابن بيليوس ملك الميرميدون فى تساليا، وأمه ثيتيس، حورية من حوريات الماء غمسته وهو طفل فى نهر الاستكس فصار مصونا لا يقهر · فليس به مقتل الا عقبه حيث لم تمسه مياه نهرالاستكس هذا · وقد أخفته أمه بأن ألبسته ملابس فتاة حتى لا يذهب الي حرب تروادة ·

ولكن يوليسز عرفه ودعاه إلى الاشتراك فى الحرب فكان أعظم أبطالها · ولما اختلف مع أغا ممنون ــ قائد الحرب الاعلى غضب واعتزل القتال فساءت حال الجيش ، ولكن لما قتل فيها صديقه باتروكلوس هب للانتقام له · وأخيرا استطاع باريس الترواى أن يصيب أخيل فى عقبه ، فأرداه قتيلا

آرثر ينج Arthur Young

مزارع انجليزى (١٧٤١ ــ ١٨٢٠) عنى بدراسة الزراعة من ناحيتيها النظرية والعملية وساح فى فرنسا لهذا الغرض قبل قيام الثورة فيها ، ودون رحلته في كتاب بعنوان رحلات في فرنسا نشرسنة ١٧٩٢ وصف فيه أحوالها قبل قيام الثورة الفرنسية الكبرى ، ومن ثم كانت له قيمة تاريخية ·

أركاديا Arcadia

نجد مرتفع فى وسطشبه جزيرة اليونان تحيط به الجبال وتقول الاساطير ، ويقول الشعراء ، انهـا أرض الرعاة والرعيان السعيدين والسعيدات ، ففيها يعيش الناس عيشة ريفية فى نعيم مقيم وسعادة غامرة · ومع ذلك يقال ان سكانها من أقل اليونانيين ذكاء

الاريوان Trout

سمك مرقط يعيش فى الماء العذب وهومن نوع السمك المعروف «بالسلمون» أو سمك سليمان ، ولكنه أصغر منهحجما ويعيش فى الانهار ، وفى البحيرات المنقطعة فىنصف الكرة الشمالى· واسمه العلمى Telpia Chromis وليس بما يسمى البلطى ؛

استرليتز

بلدة في مورافيا حدثت عندها موقعة حربية كبيرة بين نابليون وامبراطورى روسيا والنمسا انتصر فيها نابليون فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٥ · وقد تسمىمعركة الاباطرة الثلاثة ·

اسخيلوس (٥٢٥ـ٥٤٦ ق٠م٠ Aeschylus
أبو الدراما اليونانية ٠ نعرف له نحـــو سبعين اسما لمسرحيات كتبها ولكن لـم يصلنا منها سوى سبع من أهمها الفرس Persae ، بروميتوس Prometheus

أســـتور Astor
كان جون جاكوب أستور ابن فلاح ألمانى اقتنى أموالا طائلة من تجـارة الغراء من أمريكا حتى أصبح مليونيرا ، وخلفه ابنه فضاعف هذه الثروة الضخمة ٠

الاسطبلات الاوجية Augean Stables
هى اسطبلات لملك اغريقى اسمه أوجياس وهو ملك أسطورى كان يحكم احدى مدن اليونان ٠ له اسطبل به كثير من الغنم والماشية منها اثنا عشر ثورا أبيض مقدسا لم ينظفـمنذ ثلاثين عاما ، فكلفـهرقليس أن ينظفه ففعل بأن سلط عليه ماء نهرين جاريين ٠ وهـــذا العمل والاعمال الاثنـا عشر التى قام بها هرقليس ٠ ويضرب الاوروبيون بهذا العمل مثلا على الشغل الشاق التافه فى ذاته الذى يجب أن يقوم به كل مصلح قبل أن يشرع فى بنـــاء اصلاحاته ٠

الاســــفنذان Maple
شجرة تنبت فى أمريكا ٠ اسمها العلمى Acer Saecharimus يؤخذ من جذوعهـــا السكر بعمل خدوش فيهـــــا فتسيل عصـــــارة تجمع وتبخر وتبلور فيكون السكر وهـــو دون سكر القصب وسكر البنجر ويستعمل كثيرا فى كندا وغرب الولايات المتحدة ٠

اسقلابيوس Asclepius
اله الشفاء من الامراض عنـــد الاغريق وهو ابن أبولو اله الطب ٠ فلمـا رأى زيوس كبير الالهة ان اسقلابيوس هذا صار يشفى المرضى ويعيدهم الى الحياة خشى على الارض أن تزدحم بالناس فقتله بصاعقة صبها عليه ، فتوسط له أبولو فاعتبر الها ٠

وقد انتقلت عبادته الى روميه سنة ٢٩٣ قبل الميلاد اتقاء لشر وباء تفشى بينهم ٠ ويرمز اليـــه الآن بعصى التف عليهـــا ثعبان ، وهو رمز مستعمل فى النواحى الطبية والصيدلية ٠

الاصطفلين Parsnips
نبات ذو جذور بيض تؤكل مثل الجـزر واللفت واسمه العلمى Peucedanum Sativum

افتيـــا Pthia
بلدة فى تساليا من أقاليم اليونان كانت عاصمةشعب الميرميـــــــدون الذى كان بليوس والد اخيل ملكا عليهم ٠ ثم قادهم أخيل الى الحرب ضد أهل ترواده ٠

الافسنتين أو الشيح الرومى Wormwood
نبات له أنواع عدة منها الشيح والشيبة والبحتران ويعمل منه شراب الابسنت ، وهو شراب مسكر مر سام ٠

افلين Evelyn
هو جون افلين (١٦٢٠ ـ ١٧٠٦) كاتب انجليزى من كتاب اليوميات ، ساح فى فرنسا وايطاليا فى أثنـــاء الحرب الاهلية فى انجلترا وخصص جزءا كبيرا من وقته لدراسة الاشجار ، وعنى بفلاحة البساتين ، وله كتاب مشهور بعنـــوان الغابة (Sylva) فى أشجار الغـابات ٠ وقد أدخل كثيرا من أنواع النبات فى انجلترا ٠ وامتازت « يومياته » بالصدق والتنوع ٠

أكتور Actor
هو أبو منيوتيوس ٠ وجد باتـروكلوس صديق البطل أخيل فى حرب ترواده

أكتيون Actaeon
فى الاساطير القديمة ، صياد ماهر ذائع الشهرة يقال انه فاجأ الالهـــة أرتميس « ديانا » وهى تستحم مع حوريات لها فى بركة فى الغابة فغضبت عليه وحولته من انسان الى وعل ذى قرون وعندئذ هجمت عليه كلابه الخمسون وفتكت به ٠

الالجلكو نيون Algonquins

فصيلة من الهنود الحمر الامريكيين كانت تقطن فى أماكن عدة فى الولايات الشرقية والوسطى من الولايات المتحدة ·

الاكنتوس Acanthus

ويسمى أيضا حرشف أوكنكر ، كما ورد فى معجم شرف · وهو نبات شائك ذو أوراق عراض ينمو فى أقاليم البحر المتوسط وقد اتخذ المعماريون من الاغريق والرومان ورقته أساسا لزخارفهم ·

الالنوس Alder

أو الحورة الرومية : نوع من الشجر ينمو فى الاراضى الرطبة ، والالنوس اسمه العلمى ويستعمل خشبه فى الخراطة عادة ·

الاليـاذة Iliad

ملحمة الشاعر هوميروس الكبيرة · من ٢٤ كتابا وتدور حول الحرب التى قامت بين الاغريق وبين تروادة من أجل اختطاف باريس بن بريام ملك تروادة ، لزوجة منلاوس ملك اسبرطة التى يقال أنها كانت أجمل امرأة فى العالم المعروف وقتئذ ·

اليزابث (اليصابات)

ملكة انجلترا الشهيرة فى التاريخ · وهى ابنة هنرى الثامن من زوجته آن بولين · تولت الحكم ١٥٥٨ ـ ١٦٠٣ وفى عهدها انتصر الانجليز فى حرب الارمادا على الاسبان ، وكثرت فى أيامها المغامرات البحرية على أيدى أمثال دزيك وفروبشر ورالى وغيرهم ·

الاليزيوم (Elysium)

هو فى تصور شعراء الاغريق والروم مقر أرواح الموتى الذين كانوا فى دنياهم صالحين · فتتجمع هنا فى نعيم وسعادة سلبية كاملة ·

الامبراطورية السماوية

هى الصين كما كانت تسمى ·

اندرا Indra

اله من أهم الالهة عند الهندوس ، فهو اله السماء · يتحكم فى الرعد والبرق والعواصف والصواعق ويمثل عادة برجل راكب فيلا أبيض ، وله أربعة سواعد يحمل فى واحد منها صاعقة ·

الامبروزيا Ambrosia

طعام الآلهة وهو طعام طيب الرائحة ، وشرابهم الرحيق · وهو الذى يفيض عليهم الجمال الدائم والشباب الخالد ·

انتايوس (Antaeus)

تقول الاساطير القديمة انه مارد من مردة ليبيا · أمه «ترا» أى الارض · واما ابوه فنبتون اله البحار · كان عظيم القوة حتى كان يفخر بأنه سوف يبنى معبدا لابيه من جماجم من صرعهم · على أن قوته كانت مستمدة من « أمه » فما دامت قدماه على الارض فلن يقهر · فعرف ذلك البطل الاغريقى هرقليس فصارعه ورفعه عن الارض وبذلك قطع عليه العون من أمه ثم عصره بيديه عصرا حتى قتله ·

انفانتا

اسم كان يطلق على ولية عهد اسبانيا ·

الانفاليد Hôtel des Invalides

مبنى ضخم فى باريس جنوبى نهر السين تأسس سنة ١٦٧١ ـ ١٦٧٤ مقرا لمشوهى الحرب ومرضاها · ونابليون الاول مدفون الان تحت قبة كنيسة هذا المبنى ·

أولد مرتاليتى Old Mortality

اسم شخصية فى رواية بالاسم عينه للكاتب الانجليزى السير ولتر سكت نشرها سنة ١٨١٦ · وأولد مرتاليتى هذا رجل جوال يطوف بالقبور ينظف شواهدها مما علاها من الطحالب وينقش عليها نقوشا جديدة بدلا من التى بليت ، ويقيم شواهد أخرى بدل التى انهارت ·

اورفيوس Orpheus

فى أساطير اليونان ـ هو شاعر ، ابـن أبولو وكاليوبى ، كان يحسن العزف على القيثارة حتى كان يفتن كل من يسمعـه من الالهة والبشر والنبات والحيوان. ولما توفيت زوجه الحورية يوريديس من لدغة حية حزن عليها أيما حزن واستطاع أن يدخل العالم الآخر وهو يعزف على قيثارته وطلب من بلوتو أن يرد عليه زوجه فقبل على شريطة ألا يتلفت وراءه لينظر اليهـا الا بعد خروجهما من العالم الاخر ، ولكن أورفيوس لم يستطع الصبر فنظر اليهـا فاختفت عنه الى الابد فهجر الناس وكره النساء اللواتى كن يتعلقن به وبفنه ولكنه لم يكن يبالى بهن فأخذتهن غيرة النساء فقتلنه وألقين جثته فى الماء .

أورورا Aurora

الهة الفجر عند الروم ويقابلهـا ايوس EOS عند الاغريق . كانت تنهض مبكرة وتغادر فراش زوجها لتفتح أبـواب الشرق للشمس . وكان لها نجمة تتألق فى جبهتها ، وتركب عربة وردية اللـون يجرها أربعة جياد بيض .

أوليمبوس وأولمب Olympus

جبل عال فى بلاد اليونان تقول الاساطير أن قمته شـاهقة تمس السـماء فاتخذتها الالهة مقرا لهم يجتمعون فيه حول كبيرهم زيوس ، تسليهم آلهة الفن بالغناء والعزف على القيثـارة . ويحجب الجميع عن البشر حجـاب كثيف من السحب. أما قمة الجبل نفسه فالجو فيها صحو دائما لا مطر ولا سحب ولا صواعق فالجو فيها ربيع دائم .

اياكوس (Aeacus)

اياكوس بن زيوس من ايجانيا التى هى ابنة آله الانهار . كان اياكوس معروفا فى طول اليونان وعرضها بعدله ونزاهتـه وتقواه. وبعد وفاته صار قاضيا من قضاة العالم الاخر الثلاثة .

ايرس Flags, Iris

اسم عام يطلق على عدة أنواع من نبات له أوراق طوال تشبه نصل السـيف ، وأزهاره كبار زرق وصفر . وينمو فى المواضع الرطبة .

ايكاروسى ـ ايكارى Icarian

نسـبة الى آيكاروس بن ديدالوس . وديدالوس هذا صانع أثينى ماهر قتـل ابن أخيه غيرة منه لاختراعه المنشار وعجلة الفخرانى ، فنفى الى كريت مع ابنه ، فكلفه منيوس صاحب كريت أن ينشىء له المتاهة التى عرفت باللابيرانتة ، فلما فرغ منها أبى الملك أن يسمح له بمغادرة كريت . فصنع لنفسه ولابنه أجنحة ألصقها كل منهما بجسمه بالشمع . ولكن ايكاروس اقترب فى طيرانه من الشمس فانصهر الشمع وسقطت جناحاه وسقط هو كذلك فى البحر القريب من كريت فسمى بالبحر الايكاروسى نسبة اليه . وبايكاروس هذا يضرب المثل فى الطموح الاخرق .

اينياس Aeneas

بطل الانياده التى صاغها الشاعر الرومانى فوجيل . واينياس هذا قام برحلات ومغامرات كثيرة عقب تروادة واستـقر آخر الامر فى ايطاليا . وجعـله فوجيل الجد الاعلى لقبيلة يوليان ـ القبيلة التى ينتمى اليها الامبراطور وقتئذ .

أيولاوس Iolaüs

ابن أخ غير شقيق للبطـل هرقليس . وكان أيولاوس هذا صديقا له وفيا يضرب المثل بوفائه، فقد عاونه قبلا على التغلب على حية الهايدرا ذات الرءوس المتعددة ، بأن كوى المواضع التى يقطع عندها هرقليس رؤوسها حتى لا تنبت رؤوس أخرى مكان المقطوعة .

ايولوس Aeolus

اله الريح فى أساطير قدامى الاغريق . وكان يحتفظ بالرياح مخزونة فى مغارة فيصرفها منها عند الاقتضاء .

باتركلوس Patroclus

صديق أخيل الحميم كما ورد فى الياذة هوميروس • فلما أبى أخيل أن يشترك فى الحرب مع أغا ممنون ، وساءت حالة الجيوش اليونانية هب باتركلوس ولبس لامة صديقة أخيل وقاد المرميدونيين فى الحرب ضد الترواديين ، ولكنهقتل ، فعز ذلك على أخيل ، فقام هو ايضا وعاد الى الاشتراك فى الحرب لينتقم لمقتل صديقه •

باجافات جيتا Bhagavat Gita

قصيدة دينية فلسفية قديمة من أشهر ما فى أدب الهندوس الدينى ومن أبعده أثرا فيهم • ومعناها الحرفى نشيد الاله كريشنا • وتراها فى الكتاب السادس من الماها بهارتا. ويقال انها لم تكن فىالاصلجزءا منه • ويحدد الباحثون عصرها بين القرنين الخامس والثانى قبل الميلاد •

باجانينى ـ نيكولاى باجانينى(١٧٨٤ـ١٨٤٠) Paganini

موسيقى ايطالى مشهور يعزف على الكمان ذاعت شهرته منذ ١٧٩٣ وعزف فى لندن وباريس •

وكان يعزف على وتر واحد مما جعل الناس يدهشون كل الدهش ويقولون عنه انه حليف الشيطان •

الباحور • الباحوراء Dog days

وهو شدة الحر فى شهر يوليو • وهى عشرون يوما قبل شروق نجمة الشعرى اليمانية وعشرون أخرى بعد هذا الشروق وهى تعد الان من يوليه ـ أغسطس • وتسمى بأيام الكلب وهو من أسماء نجم الشعرى •

البتولا ـ أو القان ـ أو الثامول Birch

نوع من الشجرمنتشر فى أمريكا الشمالية وغيرها • ومن خصائصه أن لحاءه يمكنأن يقصل شرائح رقاقا • كان الهنود الحمر يستعملونه لتغطية هياكل قواربهم •

بحيرة تشامبلين Lake Champlain

بحيرة فى الولايات المتحدة بين ولايتى نيويورك وفرمونت • سميت باسم مستكشفها الاول صمويل دوشمبلان الفرنسى (١٥٧٦ ـ ١٦٧٥) منشىء مستعمرة كويبك فى كندا •

براهما Brahma

هو ، فى ديانة الهندوكيين وآدابهم، روح الكون الشاملة المطلقة الخالدة وعنها صدر كل شىء واليها يرجع كل شىء ويندمج فيها •

وهو ، من جهة أخرى ، الخالق • ويتجلى فى أشكال ثلاثة براهما هذا « الخالق » وفشنو «الحافظ» وسيفا «المهلك» • وهذا التجلى المثلث يعرف باسم تريمورتى أو الثالوث الهندى •

البراهمة

طبقة الكهنة عند الهندوكيين • ويعدون حراس الدين وسدنته والواسطة فيه بين الالهة والناس • ومن ثم كانت طبقة مقدسة وتعد من الوجهة الاجتماعية أرقى الطبقات عندهم •

برايت تاون (Bright-Town)

لا توجد مدينة بهذا الاسم • ولكن المؤلف كثيرا ما يلجأ فى كتاباته الى التورية والتلاعب بالالفاظ • فالفلاح المشار اليه فى الكتاب كان ذاهبا الى مدينة برايتون وكان يسوق زوجا من الثيران • وكان الامريكيون فى ذلك الوقت يطلقون اسم « برايت » على الثور •

برباريس Barberry

نبات شائك ثماره عنبية حمراء مستطيلة ذات عصير حامض • والكلمة الانجليزية عربية الاصل •

البرهمانية ـ ديانة البراهمة وطقوسهم

وهى المرحلة الاولى من مراحل تطور الديانة الهندوكية • نظام اجتماعى دينى سياسى نشأ بين الاريين فى وادى نهر

الكنج . ويتميز من الناحية الاجتماعية بتقسيم المجتمع الى أربع طبقات أغلاها طبقة البراهمة أو رجال الدين .

البريتور (Praetor)

قاض ـ وموظف كبير في رومية القديمة ينتخب سنويا ، كان مركزه يلي القنصل مباشرة ، يعاونه ويرأس المحكمة المدنية . ولم يكن يعين في هذا المنصب الا من كان من الاشراف « البطارقة » .

كان عمله في الاصل في المدينة نفسها ثم في الارياف وتدريجا زاد عددهم حتى بلغ في وقت ما ستة عشر .

بفايفر Pfeiffer

هي السيدة عايده لورا بفايفر ١٧٩٧ ـ ١٨٥٨ رحالة نمساوية طافت بكثير من بلدان العالم في الشرق والغرب ووضعت عدة كتب عن رحلاتها ، واخر رحلة لها كانت الى جزيرة مدغشقر .

بقراط (ابقراط) Hippocrates

طبيب يوناني قديم ولد حوالى سنة ٤٦٠ قبل ميلاد المسيح وكان معاصرا لسقراط وأفلاطون . توفى سنة ٣٧٥ ويعد أبا الطب . ويعزى اليه تأليف كتب كثيرة ثبت أن أكثرها ليس له ، يقول ابن النديم في الفهرست انه « أول من علم الغرباء الطب لما خاف على الطب أن يفنى كما ذكر ذلك في عهده الى الاطباء . » ومازال الاطباء في انجلترا وغيرها يقسمون يمين الوفاء لمهنتهم وهومايسمونه بعهد أبقراط

وقد بلغت شهرته فارس فدعاهاهلها لعلاج وباء انتشر بين الجند فرفض محتجا بأنه لا يستطيع معاونة أعداء بلاده .

البقلا ـ سمك « القد » Cod

نوع من السمك ويعتبر من أهم الانواع التى تؤكل . يوجد في أمريكا عند شواطىء نيو انجلند وعند نيوفنلند ، وشواطىء النرويج في أوروبا . واسمه العلمى gadus morrhua وهو الذى يؤخذ منه زيت السمك « زيت كبد الحوت » المعروف .

بقلة يوحنا John's Wort **أو حشيشة يوحنا**

نبات صغير ، ومنه شجيرات ذات أزهار صفراء براقة واسم جنسه العلمى Hypericon

البك المملوك

اشارة الى أحد البكوات المماليك المصريين الذين دعاهم محمد على الى القلعة في أول مارس سنة ١٨١١ ثم اغتالهم فكانت مذبحة المماليك المشهورة . ويقال ان مملوكا منهم اسمه أمين بك قد نجا من المذبحة بأن قفز بجواده من على سور القلعة .

بكونيا Pecunia

لفظة لاتينية معناها النقود . وأصل الكلمة كانت تدل على الماشية .

البلشون ـ مالك الحزين Heron

طائر من طيور الماء طويل العنق والمنقار والساقين ، يتغذى بالاسماك ، ويقولون انه سمي مالك الحزين لانه يقعد قرب المياه حتى اذا نشفت حزن عليها .

بلوتو

اله العالم السفلي عند القدامى . وهو ابن خروتوس و ريا وأخو زيوس .

وزوج برسفوني . وبعد أن نزل خروتوس عن العرش تولى بلوتو رياسة العالم السفلي .

بلوتوس

اله الثراء والمال في أساطير الاغريق .

يقال ان زيوس كبير الالهة سمل عينيه كي يوزع الثروات على الناس من غير نظر الى جدارة أو فضل ـ أى يوزعها على الصالحين والطالحين على حد سواء بطريقة عشوائية .

بن ـ وليم بين (١٦٤٤ ـ ١٧١٨)(Penn)

مؤسس ولاية بنسلفانيا احدى الولايات المتحدة التى سميت باسمه • وذلك ان ملك الانجليز كان قد اقترض مبلغا من المال من أبيه فمنح ابنه قطعة من الارض فى شرق امريكا سدادا لهذا الدين ،فأقام عليها مستعمرة لاستيطان أفراد الطائفة الدينية التى كان ينتمى اليها وهى طائفة ال quakers •

بن جونسن ١٥٧٣ ـ ١٦٣٧ Ben Jonson

شاعر ومؤلف مسرحى انجليزى ، اشتغل أولا بناء ثم التحق بالجيش ، ومن سنة ١٥٩٧ آتصل بالمسرح ممثلا ومؤلفا وقد مثل شكسبير فى أحدى رواياته •

بنكرهيل Bunker Hill

تل على مقربة من مدينة بسطن • حدثت عنده أول معركة جدية فى حروب الثورة الامريكية فى ١٧ يونيه سنة ١٧٧٥ • فقد هاجم الانجليز حصنا جديدا أنشأه الامريكيون على تل بريد فردوهم على أعقابهم مرتين ولكنهم اضطروا مع ذلك الى التسليم لفراغ ذخيرتهم • ومع فوز الإنجليز فان روح الامريكيين المعنوية قد ازدادت قوة وتصميما•وهذه المعركة يرد اسمها كثيرا فى الادب الامريكى • وقد أقيم لها نصب وضع أساسه القائد الفرنسى لافاييت سنة ١٨٢٥ وألقىدانيال وبستر خطابا عند وضع الاساس وعند اتمام النصب •

بوب (١٦٨٨ ـ ١٧٤٤)

الكسندر بوب • شاعر انجليزى كان أحدب قميئا ، كثير التهكم والسخرية بالشعراء والادباء • لم يسلم منه أحد فى عصره ، قرض الشعر منذ الثانية عشرة من عمره•ومنأهم أعماله انه ترجمملحمتى هومر الالياذة والاوديسية شعرا بين سنتى ١٧١٥ ـ ١٧٢٦

البوصير Mullein

نبات حشيشى طبى اسمه العلمى Verbascum ومنه أنواع عدة •

بو واو Pow-wow

حفلة صاخبة كان يعقدها الهنود الحمر الامريكيون للشفاء من الامراض أو من أجل النصر فى الحروب • واللفظة هندية من ألفاظ الالجنكونيين •

البيسون Bison

الجاموس الامريكى ـ حيوان ضخم فى حجم الجاموس المعروف عندنا الا أنه كثير الشعر ، له قرون صغار وسنم كبير ، يعيش فى أمريكا فى البرارى وكاد ينقرض الان •

بيكن هيل Beacon Hill

شارع فى مدينة بسطن بولاية مساتشوستس كان يقطنه كثيرون من أهل الثقافة العالية والادب وسراة القوم ، ويمتد من شارع Tremont •

بيليوس Peleus

ابن أياكوس ، وهو ملك الميرميدون فى افتيا، من أعمال تساليا• تزوج من الالهة « أو الحورية » ثيتيس وأنجبا البطل أخيل •

البيوى Pewee

طويئر من الطيور التى تختطف الذباب ، ولا سيما تلك التى تعيش فى شرق أمريكا الشمالية • وسمى بهذا الاسم حكاية لصوته ، ولذا احتفظنا به فى الترجمة العربية •

تارتاروس Tartarus

فى الاساطير الاغريقية بقعة مظلمة فى أعماق العالمالآخر بعدها عنالارض يعادل بعد الارض عن السماء ، يقال ان زيوس كبير الالهة عند اليونان اعتقل فيها العمالقة أو « التيتان » الذين ثاروا عليه• ثم غدت بمثابة سجن تحشر فيه أرواح المذنبين حيث ينالون عقابهم •

تالاريا Talaria

أحذية ذات أجنحة تقول الاساطير القديمة انها كانت تربط بقدمى الاله « مركيرى » •

تدرج Pheasant

طائر يشبه الحجل • جميل المنظر • يعيش فى آسيا الصغرى وفارس وجنـــوب أوروبا الشرقى وهــو من الطيــور التى يرغبها هواة الصيد كل الرغبة • وموسمه فى أوروبا من اكتوبر الى يناير . وهو من الطيور التى يعني الاغنياء بتقديمها الى الضيوف ، فى ولائمهم الكبيرة .

تشبمان Chapman

جورج تشبمان (١٥٥٩ ـ ١٦٣٤) ـ شاعر انجـــليزى ومؤلف مسرحى كان معاصرا لشكسبير • اشتهر بترجمتـــه لملحمتى هومــــر الشهيرتين الاليــــاذة والاوديسية شعرا .

تشلليني (١٥٠٠ ـ ١٥٧١) Cellini

بنفنو توتشلليني ـ فنان ايطـــالى ذو مواهب متعددة ، ومزاج مضطرب حــاد ميال الى المغامرة فهو صائغ وحفـــار ومثال معا . كتب ترجمـــة حيـــاته بنفسه .

تـــل Tell

وليــم تل ـ بطل تحـــرير سويسره الاسطورى فى حروب استقلالها ضـــد النمسا وامبراطورها البرت الاول المتوفى سنة ١٣٠٨ وهو الذى كلف أن يصيب تفاحة توضع على رأس ابنه الحبيب اليه ففعل وأصاب التفــاحة من غير أن يؤذى الولد •

تللوس Thallus

اسم عام لكل نبات لا تظهر له اوراق ولا سيقان بالمعنى المعهود ، وذلك مثل الفطر والحزاز .

توم هايد Tom Hyde

رجل من بسطن اتهــم بالسرقة فحــكم عليه بالشنق .

تيرا دلفويجو : او ارض النار Tierra Delfuego

مجموعة من الجزائر تقع فى الطـــرف الجنوبى لامريكا الجنوبية عند مضـــيق ماجلان بعضها تابع لجمهورية شـــيلى والبعض الاخر لجمهورية الارجنتين •

تيزيوس Thesius

آكبر ابطال أثينا الاسطوريين . وهو ابن ملكها ايمــوس ، نشأ بعيـــدا عن حجر والده ، فقد أخفى سيفا تحت حجر ثقيل وأوصى الا يرد اليه ابنه الا اذا استطاع رفع الحجر وتقـــلد السيف . وكانت امرأة أبيه تعمل على ألا يعود ، فلما كبر الولد استطاع ان يرفع الحجر ويتقــــلد السيف ويعود الى والده على الرغم من معارضة زوجة أبيه وانكارها اياه ، ولكن والده عرفه من السيف الذى معه فرحب به ، وعاد الفتى الى مغامراته الخطــيرة وبينما هو عائد من احداها نسى أن يرفع العلم الابيض على سفينته ايذانا لوالده بعودته سالما فظن الوالد ان شرا أحــاق به . فمات لساعتــه غما وحــزنا على ولده .

ثـــر Thor

فى الاساطير الاسكندنافية هو اله الرعـــد والحرب • والرعد علامة غضبه وزمجرته • والصاعقة هى مطرقته التى يحطم بهــــا من يشاء . وهو ابن الاله اودين وعـــدو العمالقة فقد هاجمهم وقضى عليهـــم بمطرقته السحرية • وهو كذلك عدو القرى العاملة على الفوضى . والمقطع الاول من لفظة Thursday ـ الخميس بالانجليـــزية هو اسمه (Thor)

تيليـــا ـ زيزفون Basswood

نبات أزهاره عطرية ، ومعرقة

ثقب « سيم » "Simmes" Hole

تصور «سيم» هذا وجود سرداب طويل يمتـــد فى قلب الارض من قطبها الشمالى الى قطبها الجنوبى وان هـــذا السرداب يمكن أن يسكنه الناس ويعيشـــوا فيه .

جاى فكس Guy Fawkes

رجل انجليزى تآمر مع آخرين على نسف البرلمان الانجليزى فقبض عليه فى بدروم المجلس وهو على وشك اشعال فتيـــل

البارود فى ٥ نوفمبر سنة ١٦٠٥ وهو يوم افتتاح البرلمان . وقد شنق فى ٣١ يناير سنة ١٦٠٦ . ولا زال الانجليز يحتفلون كل عام بذكرى هذا اليوم باشعال الصواريخ واحراق تماثيل لجاى هذا .

الجايلصاق أو البقاطة Huckleberry

شجيرات تنمو فى شمال الولايات المتحدة وبخاصة فى شرقها تصنع من ثمارها المربيات . واسمها العلمى Gayussa نسبة الى Guy Lusae العالم الكيميائى الفرنسى المتوفى فى منتصف القرن السابع عشر .

جذور السبيع Milkweed

نبات اسمه العلمى اسكليباس كرنوتى Asclepias Cornuti ويسمى فى الانجليزية بما معناه عشب اللبن من جراء ما فيه من عصارة لبنية .

جراد السبعة عشر عاما

نوع من الجراد يقال انه لا يظهر الا مرة كل سبعة عشر عاما وقد ظهر فى ولاية مساتشوستس سنة ١٨٥٢

جرينل Grinnel

هنرى جرينل : كان تاجرا من سراة التجار فى مدينة نيويورك اشتهر بان اضطلع بنفقات بعثتين ارسلتا للبحث عن المستكشف جون فرانكلين الذى قام سنة ١٩٤٥ لاستكشاف الطريق الشمالى الغربى سنة ١٨٤٥ وضاعت أخباره .

جزائر سندوينتش Sandwich Islands

هى جزائر هواى المشهورة الان . استكشفها الكابتن كوك ١٧٧٨ وسماها بهذا الاسم . وهى عشرون جزيرة تقع فى شمال المحيط الهادى . وفيها تقع بيرل هاربر التى اعتدى فيها اليابانيون فجأة على الاسطول الامريكى الراسى بها .

جزيرة مان Isle of Man

جزيرة صغيرة تقع فى البحر الايرلندى بين انجلترا وايرلنده على بعد ٣٥ ميلا من كل منهما . يؤمها الناس كثيرا لجمال مناظرها واعتدال مناخها .

جورجون Gorgon

اسم يطلق على كل من اخوات ثلاث فى الاساطير الاغريقية هى ميدوزا ويوريالى وستيو ، لهن حيات فى رؤوسهن بدلا من الشعر . وكانت أولاهن بالغة الدمامة حتى ان من رأى وجهها تحول فى التو الى حجر . قتلها برسيوس ووضع رأسها على ترس مينرفا .

الجوز الامريكى Hickory

شجر ينبت فى امريكا الشمالية ولاسيما فى الجزء الشرقى منها . لبعض أنواعه ثمر يشبه الجوز يؤكل . واخشابه متينة تستعمل وقودا عادة . ولمتانة الخشب يضرب به المثل فى قوة الاحتمال ، فلقب به كل من اندرو جاكسن ١٧٦٧-١٨٤٥ وفارتن فان بورن ١٧٨٢-١٨٦٢ من رؤساء الولايات المتحدة .

جونسون

ادورد جونسون (١٥٩٨-١٦٧٢) تاجر انجليزى من المتطهرين هاجر وأسرته الى الولايات المتحدة سنة ١٦٤٠ واستقر فى ولاية مساتشوستس ونشر سنة ١٦٥٣ كتابا فى تاريخ نيو انجلند عنوانه Wonder Working Providence والكتاب له صبغة دينية قوية وباسلوبه كثير من المحسنات البلاغية ومرصع بكثير من الاشعار .

حشيشة يوحنا Johnswort

نبات يسمى كذلك بقلة يوحنا او رمان الانهار . اسمه العلمى هايبريكورن (Hypericorn) ينمو على شكل شجيرات ذات أزهار صفر براقة .

الحورة الخفاقة Aspen

نوع من شجر الحور تتحرك أوراقه ويسمع لها حفيف عندما تهب عليها أقل نسمة .

الخطـــاف Martin
طائر مثل السنونو او عصفور الجنـــة له منقار صغير وذيل مشقوق .

الخـلد والجمع خلدان Inole
حيوان حفار يعيش فى المنطقة المعتـدلة الشمالية فى اوروبا واسيا وامريكا . ياكل الحشرات٠له عينان صغيرتان كل الصغر حتى ظنه النـــــاس اعمى . وله اذنان مستورتان ، وفرو ناعم ٠
ورأى الفريق معلوف فى كتابه معجم الحيوان ان يسميه تلبا او طوبين وهــو الاسم الذى يعرفه به الاسبانيون ذلك لان هذا الحيوان يختلف عن الحيــوان المعروف للعرب .

داروين
هو تشـــارلس داروين (١٨٠٩ــ١٨٨٢) عالم انجليزى من علماء الطبيعة تعـــلم الطب فى ادنبره باسكتلندة واللاهوت فى كمبريدج واولع بدراسة الطبيعـــات وعلم الحشرات فى أوقات فراغه٠قام فى سنة ١٨٣١ برحلة على السفينة (بيجل) دامت خمس سنوات ثم استقر سنة ١٨٤٢ فى مقاطعة كنت فى جنوب انجلترا لبحوثه العلمية ودراسة نتائج رحلته .
نشر سنة ١٨٥٩ كتابه المشهور (أصل الانواع) فكان لنظرياته أعمق الاثر فى العلم ، مما احدث انقـلابا كبيرا فى كل نواحى التفكير .

الدرود Druids
طائفة دينية عند الشعوب الكلتية فى فرنسا وبريطانيا ، كانوا لعلمهـــــم يتولون شئون الدين والقضاء والتعليم وكان لهم على الرعية سلطان يكاد يكون مطلقـــا وكانوا يتعبدون فى اجمات البلوط . ولم يخلفوا لنا شيئا مكتوبا ٠ وكل ما يعرف عنهم كان بطريق الرواية ٠

دجاج الحرش ــ دجاج الارض Woodcock
طائر من الانواع التى يعنى هواة الصيد بصيدها . واسمه العلمى Scolopax Nusticola وهو اكبر من الشنقب حجما ويقطن المواضع الرطبة والمستنقعـــات ويختفى وراء الاشواك ويصعب تميزه من بين أوراق الشجر الجافة ٠ ومما زاد فى صعوبة صيده انه طائر صامت قلما يصيح اذا بوغت ، ذلك الى سرعة طيرانه ٠ ويفد على مصر من اوروبا شتاء٠وعادته ان ينام فى النهار ويبحث عن غذائه ليلا .

دلفى Delphi
بلدة فى اليونان القديمة عند سفح جبــل برناسوس (جبل كاسترى الان) كان بها معبد للاله ابولو حيث كان يبدى تنبؤاته بوساطة كاهنة ــ هى كاهنة دلفى

الدلق ــ الخز ــ السنسار ــ السمور
Marten
حيوان يشبه ابن عرس ولكنه اكبر منــه حجما . ومنه انواع عدة كلها تقطن لصق الكرة الشمالى ٠ ويوجـــــد فى الشرق الادنى فى اسيـــا الصـــــغرى وفارس والشام .
وفراؤة ذات قيمة كبيرة ٠ وكانت مما يقدره البكوات المماليك ويهدون منــــه للعلماء والاعيان ٠

دودونا
قرية فى ابيروس باليونان القديمة كان بها معبد فيه كاهنة تعبر عن اراء الالـــه زيوس .

((دويكاليون)) وبيرها Deucalion and Pyrrha
فى الاساطير الاغريقية ان دويكاليون هذا هو ابن بروميثيوس ، وبيرها زوجته . فلما استقر رأى زيوس كبير الالهة على القضاء على الجنس البشرى لما اصـــابه من التدهور والانحطاط بتسليط الفيضان عليه تسعه ايام بلياليها لم ينج من اهل هلاس غير دويكاليون هذا وزوجه لتقواهما وذلك ان ابا دويكاليون عمل باشارة ابيه فانشأ سفينة وظل فيها تســـعة ايام الفيضان الى ان رست على جبل برناسوس فسالا كاهنة دلفى عن السبيل الى مــلء الارض بالناس من جديد فأشارت عليهما

بالقاء عظام امهما من وراء ظهريهما فـلم يفهما المقصود واخيرا فسرا عظام امهما بالحجارة فأخذا يلقيانها من وراء ظهريهما فما يلقيه دويكاليون أصبح رجلا وماتلقيه زوجتهصارامرأة· وصار ابنهما البكرهلن ابا الاغريق جميعا .

ديجبي ــ السير كنلم ديجبي (١٦٠٣ ــ ١٦٦٥)

هو ابـن افرراد دجبي الذى تورط فى مؤامرة نسف البرلمان الانجليزى وشنق وكان السير كنلم من أوائل أعضـاء الجمعية الملكية للعلوم· كتب رسائل عدة فى طبيعة الروح·وقد عزا زواجه الى الطوالع الفلكية ·

ذات الكرسى Cassiopeia

كوكبة من النجوم تخيلها القـدامى فى صورة امرأة جالسة على كرسى له قائمـة مثل قائمة المنبـر ، خلف الكواكب التى على رأس فيفاوس · وتقـول الاساطير الاغريقية انها امرأة فيفاوس هـذا وأم اندروميدا وكانت كثيرة الفخر بهـا · فالنجوم الزاهرة فى الكوكبة تمثلهـا جالسة على كرسى ورافعة ذراعيهـا متضرعة ·

رالى ــ السير والتر رالى (١٥٥٢ ــ ١٦١٨) Raleigh

مستكشف انجليزى وسـياسى مؤرخ وأديب شاعر كان أثيرا عند الملكةاليزابث أعد حملة للاستكشاف فى أمريكا فوصل الى أرض فى شرقها أطلق عليها اسـم فرجينيا·وهوالذى أدخل البطاطسوالتبغ الى انجلترا · وبعد وفاة الملكة اليزابث تغير حظه فحبس فى برج لندن حيث ظل اثنتى عشرة سنة فى السجن كتب فيهـا تاريخ العالم حتى سنة ٧٣٠ قبل الميلاد ــ قتل سنة ١٦١٨ ·

رجل الوزة Cinquefoil

نبات من الفصيلة الوردية ذو أزهـار صفراء صغيرة ، أوراقه ذات خمسـة فصوص واسمه العلمى
potentilla reptans

الرخمة « النسر » Vulture

شاع فى العربية ترجمة كلمة Eagle الانجليزية بكلمة نسر · ويقول علمـاء الحيوان أن كلمة Eagle توازيهـا فى العربية كلمة عقاب · أما النسر فهو ال Vulture · والرخمة نوع من أنواعه · وهو طير من الكواسر يتغذى بالجيف

روبين جود فيلو (Robin Good fellow)

شخصية خيالية تبدو كثيرا فى القصص الشعبى الانجليزى وتسمى كذلك بـك (Puck) فتظهر فى الليل فى الاسرة التى تعطف عليها ، وتقوم ببعض الخدمات · ولكنها مع ذلك تقـوم ببعض الالاعيب والحيل الخبيثة ·

ريكاردو Ricardo

دافيـد ريكاردو (١٧٧٢ ــ ١٨٢٣) · انجليزى من رجال الاقتصاد المشهورين نشر سنه ١٨١٧ كتابا فى الاقتصاد كان له أثره : مبادى الاقتصاد السـياسى والضرائب ، ذلك الى كتاباته الاقتصادية الاخرى ·

زرادشت Zoroaster

زعيم دينى أو نبى عند قدماء الفرس · اختلف العلماء فى تحديد عصره·ويجمع الكثيرون على أنه كان فى القرن الثـامن قبل المسيح · دعا الى اله واحد هو خالق الكون ــ أهورا مازدا اله الخير· ومعذلك فثم اله آخر آهريمان اله الشر · والاثنان يصطرعان ولكن اله الخير ستكون لـه الغلبة اخر الامر ·

الزندافستا Zendavesta

الكتاب المقدس عند قدماء الفرس وهـو مجموع من كتابات شتى يرجع أقدمها الى القرن السابعقبلالميلاد ، ولكنها لم تجمع الا حوالى القرن السادس بعده ــ أى بعد أكثر من ألف سنة ·

ساتورن Saturn

اله الزراعة عند الرومان · ويعـادل كرونوس عند الاغريق · وهـو ابـن أورانوس ، فطرد أبـاه عن الملك وتولاه

مكانه ، كما طرد أبوه هذا جده من قبل . ويعزى الى ساتورن هذا ، انه أول من أدخل الحضارة فى ايطاليا ، وهى حضارة وثيقة الصلة بالزراعة ، وعلم النـــاس الفضائل ، فعم الرخاء البلاد ، وتحـــرر الناس من الهم والفقر والخطايا فسـمى عصره بالعصر الذهبى لانه عصر رخاء كله .

سالم

ميناء فى شرق ولاية مســـاتشوستس بالولايات المتحدة . تقع على بعد خمسة عشر ميلا فى الشمال الشرقى من بســطن . وتشتهر بما حدث فيها من محاكمـــات للساحرات سنة ١٦٩٢ ، كما تشتهـــر أيضا بأنها مسقط رأس الاديب القصصى ناثانيال هوثورن (١٨٠٤ ــ ١٨٦٤) .

ساى ــ جان باتيست ساى (١٧٦٧ــ١٨٣٢)
Say

اقتصادى فرنسى ولد فى ليون من أسرة بروتستانية . اطلع على كتاب «ثروة الامم» لادم سميث فاتجه الى دراسة علم الاقتصاد ونشر سنة ١٨٠٣ كتـــــابه الذى كان أساس شهرته وهو
Traité d'économie politique

السبد **Nightjar goatsucker**

وجمعه سبدان، وهو طائر مهاجر من طيور الغسق التى تنشط عادة فى الليل . ومنه نوع يفد الى مصر فى الربيع ويعـــرف فيها عادة بأبى النـــوم أو البخاخ ، وفى السودان بالقرة واسمه العلمى
Caprimulgus

السبد الفرجينى **Whippoorwill**

طائر صغير من فصيلة السبد يعيش فى شرق الولايات المتحدة واسمه الامريكى مشتق من حكاية صوته ويسمى عندهـم
Virginian nightjar
، وهكذا سميناه هنا .

السبد الامريكى **Night hawk**

طائر يعيش فى أمريكا الشمالية ويشبه فى كثير السبد الفرجيني . يطير عادة فى الليل . ومع ذلك قد يرى فى النهار . تعرفه من طيرانه المضطرب .

سبنسر (١٥٢٢ــ١٥٩٩) **Spenser**

المقصود هنا أدمند سبنسر . وهو شاعر انجليزى من شعراء القرن السادس عشر، فى عصر الملكة اليزابث . ومن أهم ماكتب The Faerie Queene (١٥٩٠ ، ١٥٩٦) ولكنه لم يتمها .

سربيروس **Cerberus**

وحش ذو ثلاثة رؤوس يحرس مدخـــل العالم السفلى فى أساطير اليونان . وكان مغرما بالموسيقى يسكن عند سماعهـا . اســـتطاع هرقليس أن يتغلب عليـــه ويسحبه من رقبته الى الدنيا .

السرخس العطرى **Sweet fern**

شجيرة أمريكية صغيرة ذات أوراق تشبه أوراق السرخس ذا ترائحة عطرية .

سردانا بالوس **Sardanapolus**

الاسم الذى يطلقه الاغريق على أشـــور بانيبال ملك اشور وفاتح بابل فى القرن السابع قبل الميلاد .

تقول الاساطير أن جيشا جرارا فاجأه على غرة فانقلب بطلا . وذلك انه أشعل نارا عظيمة والقى بنفسه فيها لما وجد نفســه محصورا في نينوى بعد ان أحاط بـــه الاعداء من كل جانب .

ويطلق هذا الاسم الان فى اللغــــة الانجليزية على كل عاهل مترف ســـفيه مبذر عنيد .

السعد أو السعادى **Cotton grass**

نبات ينمو فى المستنقعات والاقاليـــم الرطبة وهو ما يسمى كذلك بالانجليزية
Sedge

سعدى الشيرازى (١١٨٤ــ١٢٩٢)
Saadi of Shiraz

شاعر من أشعر شعراء الفرس واســـمه مصلح الدين « أو شرف الدين » . اتخذ اسم السعدى نسبة الى الاتابك الحاكم على البلاد وقتئذ . ولقب بالشيرازى نسبة الى

بلده شيراز . تعلم فى نظامية بغداد وارتحل كثيراً فى بلاد الشرق الاوسط.
وأهم كتبه اثنان « البوستان » أو حديقة الفاكهة و « الكلستان » أو حديقة الورد .

السلور Pout
نوع من الاسماك يعيش فى المياه العذبة مثل القرموط والشلبة التى فى النيل .

السماق Sumach, Sumac
شجيرة تنمو فى جنوب المنطقة المعتدلة الشمالية . يستعمل مسحوق أوراقها فى دباغة الجلد وفى طبع الاقمشة القطنية .
والكلمة الاوروبية مأخوذة من اللفظ العربى .

السمنة أو الدج Thrush
طائر صغير فى حجم اليمامة أو أصغر منها أغبر اللون موحده عادة ولكن الكثير منه منقط الصدر كبير العينين طويل الساقين بالنسبة لحجمه. يعيش عادة على الارض وكثيرا ما يختلط لونه بلون أوراق النبات الجافة . وقد اختلط اسمه « بالسمان » كما حدث لصاحب قاموس محيط المحيط.
ومن أنواعه الشحرور وأبو الحناء والمزقة.
وفى أمريكا أنواع عدة منه مثل سمنة ويلسن (Veery) وسمنة الغابة woodthrush وغيرهما . وكذلك فى مصر عدة أنواع منه .

سمنة الغابة woodthrush
نوع من الدج كبير يعيش فى شرق الولايات المتحدة معروف بصوته الواضح الشجى . وقد نراه فى مصر .

سمنة ويلسن ـ الدج الامريكى Veery
طائر من فصيلة الدج أو السمان Turdidae يسكن شرق الولايات المتحدة لونه كلون القرفة وجانباه رماديان يعيش فى الغابات ويتغذى بالحشرات وهو حسن الصوت والتغريد .

سمندل Salamander
حيوان من الضفدعيات المذنبة. زعم القدماء انه يدخل النار ولا يحترق وقد سمى سمندر وسميدر وسمندل . ولليونان والعرب أقوال كثيرة فيه ـ كالدميرى فى « حياة الحيوان » مثلا .

سندرلا Cinderella
معناها الحرفى « فتاة الرماد الصغيرة ».
وهى بطلة قصة قديمة ، لعلها شرقية الاصل تذكر كثيرا فى الادآب الالمانية فى القرن السادس عشر . وأذاعها أحد الكتاب الفرنسيين فى كتاب له نشره سنة ١٦٩٧ . وتمثل الفتاة التى تضطر الى القيام بأعمال صغيرة فى البيت الذى تتحكم فيه زوجة أبيها على حين اخوتها غير الشقيقات يتمتعن بفاخر الملابس وبكل خير فى منزل أبيها . واخر الامر يصادفها الحظ فيغرم بها أمير عظيم ويتزوجها مفضلا اياها على اخواتها من أمها وعلى غيرهن من الفتيات .

سيبيل Sibyl
اسم يطلق على امرأة أوعدة نساء مشهورات فى الزمن القديم لما كان لهن من القدرة على التكهن بما سيحدث .

سيريز Ceres
الاهة القمح عند الرومان القدماء وتعادل « دميتر » عند اليونان. وهى أخت يوبيتر كبير الالهة وابنة ساترن ، حدث أن اختطفت ابنتها بروسبرين فظلت سيريز تبحث عنها فى أرجاء الارض كلها حتى أهملت النظر فى شئون الزراعة والقمح فعم القحط البلاد وأصبحت الارض جرداء قاحلة .

« سيرينة » Siens
حورية من حوريات البحار ممن كن يستهوين الناس بغنائهن الساحر ، فقد كان غناؤهن ينسى السامعين كل شىء فينصتون اليه حتى الموت جوعا أو تتحطم سفينتهم . وكن ثلاثا يسكن فى جزيرة صغيرة على مقربة من صقلية ويصفهن المؤلفون بأوصاف شتى ، فهن وحوش لها رؤوس فتيات رائعات الجمال ، أنذرتهن الهواتف بأنه اذا مر بهن أحد فى

سفينة ولم يفتن بغنائهن كان فى ذلك هلاكهن • ولما مر بهن يوليسز ، وكانت الالهة « سيرسى » قد حذرته، أمر بحارة سفينته أن يحشو كل منهم أذنيه قطنا ، وأن يقيدوه هو فى سـارية المركب ولا يحلوا وثاقه مهما طلب منهم ذلك • وبهذه الوسيلة مرت السفينة فى سـلام فكان فى ذلك هلاك السيرينات الثلاث •

الشـحرور Blackbird

طائر من نوع الدج•أسودحسن الصوت•

الشحرور الاحمر Red wing

طائر من الطيور المغردة•من نوع الدج وقد سمينا النوع الاوروبى منه بالمزفة متابعة للمرحوم الدكتور شرف • ويمتاز هـذا النوع بحمرة ريش الذكرعند الكتفين•أما الانثى فغبراء ، ذات خطوط عنـــد الصدر •

الشنقب Snipe

ويعرف فى مصر باسم الدراج أوالبكاشين وفى الشام بالشكب وفى العراق جهلول•
وهو قريب من دجاج الحرش ، فله منقار طويل ويقطن البرك والمستنقعات عادة • ويزور مصر شتاء وافدا عليها من أوروبا • وهو من الطيور التى يهـوى الصيادون الهواة صيدها لجودة لحمه •

الصفارية Oriole

طويئر أصفر اللون ويسميه العامة فى مصر بالصفيرة لصفرة لونه ويفد اليهـا فى الربيع والخريف بكثرة•ويرى فى الحدائق لانه يتغذى بالثمار • والموجود منه فى أمريكا نوع آخـر غير الذى فى العـالم القديم ولذا يسمى بالصفارية الامريكية أو صفارية بلتيمور •

الصلور Pouts

نوع من السمك من فصيلة Siluridae يعيش فى المياه العذبة •

صمويل لانج (١٨١٠ - ١٨٩٧)

سياسى انجليزى كاتب ومدير سـكك حديدية ووزير مالية فى الهنـد • كان مهتما كل الاهتمام بدراسة شئون ماقبل التاريخ •

طيبة (Thebes)

هى هنا عاصمة بيوشيا القديمة فى بلاد اليونان ومحلها الان قرية نيفال • دمرها الاسكندر المقدونى وباع أهلها عبيـدا ويتصـل بأساطيرها كادمـوس ، وايونايسـوس وهرقليس وأوديب وغيرهم •

الظربان Skunk

حيوان يعيش فى أمريكا ومن خواصه أنه يفرز مادة ذات رائحة كريهة منتنة •

عصافير البقر Cowbirds

عصافير صغارسود ترى عادة مع الماشية• وأكثرها لا يحضن بيضه بل يضعه فى أعشاش الطيور الاخرى • وهو ضرب من الشحرور صغير الحجم له رأس أسمر ومنقار قصير والانثى رمادية اللـون عادة •

العصر الذهبى The Golden Age

جاء فى أساطير اليونان والرومان أن الاله ساتورن عندما مضى الى ايطاليا أشاع فيها الرخاء والنعيم واستحـدث بذلك عصرا عرف بالعصر الذهبى

العصفور الازرق Blue bird

عصفور غريد يقطن أمريكا الشماليـة الذكر أزرق فاقع اللون عادة وصـدره برتقالى • يهاجر فى الشتاء وعودته تبشر بحلول الربيع واسمه العلمى • (Sialia Sialis)

العصفور الحاكى Mocking bird

طويئر كثير الانتشار فى الولايات المتحدة يمتاز بقدرته العجيبة على محاكاة أصوات الطيور الاخرى محاكاة صحيحة دقيقـة واسمه العلمى Mymus polyglottos

عصفور غريد Song sparrow

عصفور « دورى » لكنه يغرد تغريدا عذبا سارا ويقطن أمريكا الشمالية

عقاب البحر ـ عقاب نسارية Fish hawk

عقاب تألف البحار وتعيش على صيد السمك. قدماها مزودتان بأشواك تعاونها على صيده فلا يفلت مما يصيده منها. اسمها عند العامة فى مصر بالمنسورى . وقد تسمى المنسورية وتكثر فى مصر فى الفيوم وفى شواطىء البحر الاحمر واسمها العلمى pandion halielus osprey وتسمى بالانجليزية أيضا Osprey

العليق الاسود Blackberry

(Rubus fracticosus)

ثمار نبات متسلق يوجد فى أوروبا وأمريكا الشمالية ، ولا سيما فى الاوتما والغابات والاسيجة وتصنع منه المربيات.

عين البقرة Buckeye

شجيرة تنمو كثيرا فى ولاية أوهايو بالولايات المتحدة حتى لقبت هذه الولاية بولاية عين البقر . وسميت شجيراتها بهذا الاسم من أجل شكل ثمرتها التى تشبه عين المها أو ثمرة أبى فروة .

الغطاس Loom,

طائر من طيور الماء من فصيلة الغواصيات Colymbidae . يسمى فى أمريكا الشمالية (diver) ومن هنا سميناه بالعربية. وهو طائر سريع الطيران، سريع الغطس والعوم ولكنه مع ذلك بطىء السير قبيح المشية لا يكاد يستوى على قدميه .

فأر المسك Muskrat, Musquash

حيوان بر مائى فى حجم الفأر الكبير ، له ذيل مغطى بما يشبه حراشف السمك، يعيش فى كندا والولايات المتحدة . له غدة تفوح منها رائحة تشبه رائحة المسك ومن ثم كان اسمه. ومن عادته أن يجمع الطعام ويدخره فى مكان ما ثم يطليه بالطين ليعود اليه فى الشتاء . له فرو ثمين . وقد أسماه المرحوم الدكتور شرف بالرثيمة. والرثيمة هى الفأرة الكبيرة .

فالهلا Valhalla

فى الاساطير الاسكندنافية . بهو الاله أودين . وهو أكبر الالهة. كان يجمع بين قوتى زيوس كبير الهة اليونان واريز اله الحرب «مارس عند الرومان». وهذا البهو هو سماء (جنة) الابطال الذين استشهدوا فى القتال وأبدوا بطولة فيه. وكان أودين يعقد جلساته مع المحاربين من اتباعه فى هذا البهو ـ هذا الفلهلا وكان يقوم بخدمة الاله تسع عذارى يسمون فالكيرى Valkyrie وعملهن أن يختبرن الرجال الجديرين بأن يموتوا فى ميدان القتال كى يبعث بهم الى فالهلا

فايف بوينتس Fine Points

حى فى جنوب مدينة نيويورك كان مشهورا فى الماضى بأنه مباءة الجرائم والفقر والمجرمين والرذيلة .

فرانكلين (١٧٨٦ ـ ١٨٤٧)

السير جون فرانكلين مستكشف انجليزى اشترك فى بعثات عدة لاستكشاف شواطىء استراليا وشمالى كندا ورأس بعثة لاستكشاف الطريق الشمالى الغربى قامت سنة ١٨٤٥ وبعد سنتين فقدت البعثة كلها ولم يعثر على اثار لها الا فى سنة ١٨٥٩ .

فراى « السيدة » Mrs. Fry

اليزابث فراى « ١٧٨٠ ـ ١٨٤١ » سيدة انجليزية كانت تشتغل بالاصلاح الاجتماعى فى القرن التاسع عشر ووجهت همها الى اصلاح السجون التى تعتقل فيها النساء ونشرت عنها تقريرا كان له الاثر الكبير فى اصلاح هذه السجون فى انجلترا .

فرجيل (٧٠ ـ ١٩ ق.م)

شاعر رومانى عظيم عاش فى القرن الاول قبل الميلاد . أهم انتاجه الملحمة الكبرى التى سماها الاينادة (Alneid) أو قصة اينياس الزوادى فى ١٢ كتابا وربط فيها البطل بتاريخ رومية وبأسرة يوليان ـ أسرة الامبراطور ـ وقد أوصى عند وفاته باحراقها ولكنها نشرت بأمر الامبراطور أغسطس .

فرخ ـ فاروس Bass

هو سمك الفرخ الاوروبى (parca fluviatilis) ومنه أنواع فى جنوب أوروبا وأمريكا • وكلمة Brass تطلق على كل نوع من السمك يشبه سمك الفرخ هذا ومنها أنواع نهرية • والسمك هذا يؤكل عادة •

الفرخ أو القشر Perch

سمك يعيش فى البحار والانهار • لونه أخضر زيتونى ذهبى الجانبين وبه خطوط عريضة رأسية • أشار اليه بعض كتاب العرب فذكره ياقوت فى وصف جزيرة تنيس •

فرمونت Vermont

ولاية من الولايات المتحدة • شمال ولاية مساتشوستس • ومعنى اللفظ الجبل الاخضر • وسميت كذلك من أجل جبال « جرين » المكسوة بالعشب التى تخترق الولاية من الشمال الى الجنوب •

فروبيشر Frobisher

السير فروبيشر (١٥٣٥ ـ ١٥٩٤) من عصر الملكة اليزابيث • بحار انجليزى مشهور حاول ثلاث مرات استكشاف الطريق الشمالى الغربى واكتشف الخليج المعروف باسمه « خليج فروبيشر فى كندا عام ١٥٦٧ • وقد صاحب الملاح دريك Drake الى جزائر الهند الغربية «١٥٨٦» واشترك فى حرب الارمادا ضد اسبانيا وقد جرح وتوفى فى هجمة على مدينة Brest من أعمال فرنسا •

فلكان Vulcan

اله النار عند الرومان وهو صانع ماهر يجيد صنع المعادن ويعادل افستسوس عند الاغريق • يقال انه يملك كورا تحت جبل اتنا يصنع به الصواعق ليوبيتر كبير الالهة عند الرومان •

الفوبة Phoebe

طائر من أنواع خاطفات الذباب فى حجم العصفور الدورى • له عرف صغير • ريش ظهره رمادى اللون ، يعيش فى شرق الولايات المتحدة • والاسم معرب •

فيتروفيوس Vitruvius

يوليوماركوس فيترفيوس مهندس معمارى رومانى عاش فى القرن الاول قبل الميلاد • مؤلف كتاب فى المعمار من عشرة مجلدات وهو الكتاب الوحيد الذى وصل الينا من الرومان فى هذا الفن •

فيتون (Phaeton)

هو فى أساطير اليونان ابن هليوس اله الشمس • رجا من والده ذات مرة أن يسمح له بركوب عربة الشمس وقيادتها بنفسه يوما واحدا فسمح له أبوه بذلك ولكن الفتى عجز عن ضبط جماح الخيل فانطلقت به مسرعة وحادت عن طريقها المرسوم حتى كادت تحرق العالم فلما رأى زيوس كبير الالهة ذلك قذفه بصاعقة قتلته فى الحال •

الفيدات Vedas

أقدم كتب الهند المقدسة • وهى ليست كتابا واحدا بل تتكون أساسا من أربعة كتب • ومن ثم كانت صيغة الجميع فى اسمها • والكلمة معناها المعرفة ـ المعرفة بكل مجهول عن طريق الدين ـ ويرجع أقدم ما فيها الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد •

الفيدانات

معناها تكميل الفيدا •
وهو مذهب أو مدرسة دينية فلسفية نشأت بين الهنود القدامى فى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح • وكان أمرها فى البداية مقصورا على شرح الفيدات وتخريج المتشابه من اياتها • وتعد من أكثر المدارس الهندية تمثيلا للتقاليد البراهمانية •

القراص Nettle

يطلق هذا الاسم على عدة نباتات حولية ومعمرة ، منها ما لاوراقه شعيرات قراضة لما تحتويه من سائل كاو •

قرقف ـ فرفب Chickadee

طائر أمريكى سمى باسم صوته . يعيش فى الولايات الشمالية ، والغربية . وهو من أنواع القــراقف (titmice) المعروفه فى الشام باسم سن المنجل . وربما كان الاولى أن نسميه باسم صـوته « تشيكا ديه ! »

قرنوس Dogwood, cornu

شجر ، ذو فروع حمــــراء ، وأوراق بيضية الشكل ، وثماره توتية .

القش السمار Cat tails

نبات طويل ينمو فى المستنقعات . أوراقه طوال مسطحة تستعمل فى عمل مقاعـد الكراسى . ويسمى فى بلاد الانجليـــز reed mace

القلاص Hyades

قلاص النجم أى الثريا

وهى نجوم فى الثريا على شكل «٧» على رأس كوكبة الثور . كان القدماء يعتقدون أنها تنذر بالسوء اذا أشرقت مع الشمس .

القمص Caddice, caddis

حشرة من فصيلة التريكوبترا Trikoptera لها يرقات دودية تسمى دود القمص تعيش فى غلاف حريرى مغطى بقطع من المحار والحصى .

قندهار Candahar

مدينة فى أفغانستان فى الجنوب الغربى من كابل عدد سكانها الان نحو ٦٠ ألف نسمة .

القندول Meadow sweet

شجرة من فصيلة الورد . أزهارها متجمعة فى شكل عناقيد بيض وقرنفلية ، وهى زكية الرائحة . وقد تسمى dropwort واسمها العلمى Philipendula spirae

كاتو Cato

ماركوس بوركيوس كاتو « ٢٣٤ ـ ١٤٩ ق.م » ويلقب عادة بالرقيب أو العالـــم قنصل وقائد رومانى من أسرة عريقة كان يعيش عيشة ريفية بسيطة . . وهو الذى قهر اسبانيا فى الحرب البونية الثانية . وكان معروفا بكراهيته للترف والبــذخ والبدع المستحدثة . له عدة كتب لـــم يصل الينا منها سوى الكتاب الذى يشير اليه ثورو هنا De Re Rustica

كاتو الاوتيكى Cato Uticensis

ماركوس بوركيوس كاتو الاصغر « ٩٥ ـ ٦٦ قبل الميلاد » وهو ابن حفيد كاتـــو الكبير المتوفى سنة ٢٣٤ ق.م . تفـــرغ لدراسة الفلسفة الرواقية وشعر بكراهية للرجال البارزين فى عصره حتى يوليوس قيصر فانضم الى بومبى . وبعد انهزام بومبى هذا لجأ كاتو الى أوتيكا وهى بلدة كبيرة فى أفريقية قرب تونس الان . وهى مدينة فينيقية اصلا أقدم من قرطاجنة . واذ كان يخشى أن يقع فى أيدى قيصر فقـــد أهلك نفسه . ومن ثـــم لقب بالاوتيكى .

كارو

توماس كارو « ١٥٩٥ ـ ١٦٣٨ »

شاعر انجليزى ممن تأثروا باســـلوب الاديب والكاتب المسرحى بن جونســن . وكان كارو من حاشية الملك تشارلس الاول وله أشعار فى الغزل والمراثى . وقد نشر ديوانه سنة ١٦٤٠ بعد وفاته بسنتين .

كاستاليا Castalia

عين ماء عند سفح جبل بارناســوس فى اليونان . تقول الاساطير الاغريقية انها عين مقدسة عند أبولو والهة الفنون ، سميت باسم حورية كانت أغرقت نفسها فى هذه العين كى تتخلص من الاله أبولو وكانوا يعتقدون أن مياهها تمنح شاربها ملكة قرض الشعر .

كاليداس Calidas

شاعر هندى يقال انه كان من فحـــول الشعراء فى العالم . لم نقف على شىء من آثاره اللهم الا ما ذكره المؤلف له مـــن تمثيلية سكانتولا .

كبيـــر Kabir

عالم هندى عاش في النصف الثانى من القرن الخامس عشر • وكان كل من المسلمين والهندوكيين يدعون انه منهم • فقد كان يدعو الى التوفيق بين عقائد الاثنين • وله أتباع كثيرون • وهؤلاء الاتبـاع يعبدون آلان « راما » بوصفه الاله الاعلى وهم قوم وادعون مسالمون ، ولكن آخر رئيس لهم حولهم الى نظام حربى سياسى وهم المعروفون الان « بالسيخ » •

الكراكى الصغار Pickerel

نوع من السمك ويطلق فى أمريكا أيضا على الكراكى الكبار Pike ويعيش فى مياه شرق الولايات المتحدة وجنوبها • والكراكى الكبار سمك كبير نهم يعيش فى المنطقة المعتدلة وله خطم طويـل مفرطح وأسنان مدببة قوية ولون ظهره رمادى ولون بطنه فضى •

كلارك (١٧٧٠ ــ ١٨٣٨) Clarke

وليم كلارك ، جندى أمريكى اشترك مع المستكشف لويس فى رحلته لاستكشاف الطريق البرى الى المحيط الهنـدى « ١٨٠٣ ــ ١٨٠٦ » « أنظر لويس » •

« كلب المراعى » Praivie Dog

حيوان قارض، يعيش فى المراعى فى كندا، شمالى الولايات المتحدة وغربيها • صوته يشبه نباح الكلب • وهو حيوان حفار ويعيش جماعات مع أمثاله •

كلبـا Kalpa

لفظة هندوكية معناها دهر أوفترة طويلة وتستعمل عادة فى الفترة التى بـين دمار العالم ثم عودته ، بحسب معتقداتهم •

الكلستان Gulistan

ديوان شعر لسعدى الشيرازى «١١٨٤ــ ١٢٩٢ » •

كوه النور Koh-i-Nor

ماسة شهيرة زنتها ١٠٢ قيراط كانت ملكا لحاكم دهلى المغولى ، انتقلت بعده الى أيد كثيرة ثم آلت الى الملكة فكتوريا ــ ملكة الانجليز سنة ١٩٠٥ • وهى الان من جواهر التاج البريطانى •

كلية كمبريدج

هى جامعة هارفرد الان • لانها فى بلدة كمبريدج من ولاية مساتشوستس على بعد ثلاثة أميال غربى بسطن • تأسست سنة ١٦٣٦ • أسسها قسيس اسمه جون هارفرد معهدا لتدريس الدين على أساس مذهب المتطهرين وهى الان جامعة عامة بكل معنى الكلمة، وليست معهدا دينيا كما كانت فى الاصل •

كنفوشيوس (Confucius)

فيلسوف صينى مشهور « ٥٥٠ ــ ٤٧٥ » قبل ميلاد المسيح واسمه الاصلى كنج ــ فو ــ تسو ومعناه الحرفى كنج الفيلسوف وهو مؤسس الديانة الكنفوشيوسـية القائمة على تقديس الاخلاق ووجـوب ممارستها عمليا • واتبعـه ملايين من الصينيين فى حياته ثم ألهوه بعد مماته •

كنكورد (Concord)

بلدة فى ولاية مساتشوستس على بعـد ٢٠ ميلا غربى بسطن عاصمة تلك الولاية • تأسست سنة ١٦٣٥ ، وعلى حداثتها تعد مدينة تاريخية لما يعلق بها من الذكريات التاريخية والادبية التى جعلت لها شهرة خالدة •

فقد حدثت قربها عند لكسنجتن أولى المناوشات بين الامريكيين والانجليز فى ١٩مارس سنة ١٧٧٥ وأريق فيها أول دم أمريكى فى سبيل الإستقلال • ومن الناحية الادبية كانت مركز حركة أدبية فلسفية اجتماعية تزعمها كاتب أمريكا الكبير رالف والدو امرسن ، وحـوله كوكبة من الادباء والمصلحين مثل ناثانيال هوثورن ، وبرتسون ألكوت ، وابنتـه لويزا ، ومرجريت فولر ، وهنرى دافيد ثورو مؤلف هذا الكتاب •

كنيتيكت Connecticut

احدى الولايات المتحدة وتعد ثالث ولاية من حيث صغر المساحة • فيها جامعة ييل الشهيرة فى نيوهدسون •

الكوكو ـ الوقوف Cuckoo

طائر فى قدر الحمامة ، كثير الصوت لا يخفى بيضه بل يضعه خلسة فى عش طائرآخر . فاذا خرجتفراخه زقها صاحب العش . ولفظ الكوكو حكاية لصوته

كولورادو Colorado

ولاية من الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية تخترقها جبال الروكيز وشرقيها سهوب ووديان واسعة كانت ترعى فيها قطعان البيسون « الجاموس البرى الامريكى » الذى كاد ينقرض الان .

لابيروز La Perouse

جان فرانسوا دو جالو الكنت دولا بيروز « ١٧٤١ ــ ١٧٨٨ » .

بحار فرنسى مشهور كان الملك لويس السادس عشر أرسله على رأس بعثة لاستكشاف الطريق الشمالى الغربى الى الشرق فقام من برست سنة ١٧٨٥ ومعه سفينتان وطائفة من العلماء فوصل آلاسكا وعبر المحيط الهادى الى جزائر الفلبين وزار بلادا عدة حتى وصل استراليا ثم لم يسمع عنه شىء بعد ذلك.وأخيرا فى سنة ١٨٢٦ عثر على حطام السفينتينعند احدى جزائر البريديز فنقلتا الى فرنسا حيث حفظت فى متحف البحرية فى اللوفر بباريس .

لسان العصفور Ash

جنس من الاشجار « الزيتونية » أخشابها قيمة وتوجد فى الاقاليم الشمالية فى المنطقة المعتدلة .

اللوتس ــ البشفينى ــ الحندقوق Lotus

ويسمى كذلك بالنيلوفر . وهو نبات مائى كانت له أهمية فى مصر قديما ، وكانت ورقته تتخذ وحدة فى الزخرفة . تنفتح أزهارها ليلا ، وأوراقه مستديرة تطفو فوق سطح الماء .

واللوتس الذى تشير اليه الاداب الاغريقية شجيرة تنمو فى جنوب أوروبا تؤكل ثمارها واسمها العلمى Ziziphus lotis

لويزيانا Louisiana

منطقة واسعة فى أمريكا الشمالية غرب المسسبى وشرقى جبال الروكيز . كانت كلها تابعة لفرنسا . اكتشفها الرحالة لاسال وأسماها بهذا الاسم نسبة الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا . وبينما كان نابوليون فى حرب مع انجلترا خشى أن تقع لويزيانا فى أيدى خصومه فباعها نهائيا للولايات المتحدة فى اكتوبر سنة ١٨٠٣ .

لويس Merriweather Lewis

مريوذر لويس (١٧٧٤ ــ ١٨٠٩)

كان سكرتيرا للرئيس جفرسون رئيس الولايات المتحدة الذى كان يناصر مشروعاته لاستكشاف طريق برية الى المحيط الهادى فرصد له الكنجرس ٥٠٠ر٢ دولار . فقام لويس مع زميله كلارك سنة ١٨٠٣ ، وسارت البعثة فى نهر الميسورى حتى منبعه وعبرت جبال الروكيز ونزلت فى بئر كولومبيا حتى بلغت المحيط الهادى فى سنة ١٨٠٦ فكوفىء لويس على عمله هذا بأن عين حاكما على لويزيانا .

ليبيج (Liebig)

هو يوستوس البارون فنليبيج « ١٨٠٣ــ ١٨٧٣ » .

كيميائى آلمانى عظيم . كان أستاذا للكيمياء فى جامعة جيسن ثم فى جامعة مونيخ ومنح رتبة البارونية سنة ١٨٤٥ لما وفق اليه من كشوف علمية .

مايفلاور Mayflower

اسم السفينة التى هاجر عليها « الآباء الحجاج » فى ٦ سبتمبر سنة ١٦٢٠ من مدينه بليموث بانجلترا الى أمريكا تخلصا من الاضطهاد الدينى وأرسوا عند صخرة أسموها صخرة بليموث وكان هؤلاء المهاجرون نواة المستوطنين من المتطهرين فى ولاية مساتشوستس .

مثوشالح Methusaleh
رجل يقال انه عمر حتى بلغت سنه ٩١٩ عاما « سفر التكوين ٢٧/٤ » .

مرزة الدجاج Hen harrier
« أو عقيب الدجاج ـ صقر الدجاج »
طائر من الكواسر يصيد الجرذان والارانب وغيرها وحجمه أكبر من حجم الحدأة المعروفة واسمه العلمي Circus Cyanéus

مرموط Wood Chuck (Marmota Monax) groung hog
المرموط أو خنزير الارض حيوان صغير قارض يحفر في الارض . جسمه مغطى بفرو . يسمن في الصيف ثم اذا ما حل الشتاء دخل جحره ، يعيش في أمريكا الشمالية .

المريميه Sage
نبات أوراقه بيض وأزهاره زرق من فصيلة النعناع واسمه العلمي Salvia officials كان يستعمل في طهي اللحم عادة ، ويستخرج منه زيت طبي .

مزقه ـ شحرور أحمر Red wing
طائر من نوع الدج اسمه العلمي Turdus musicus وقد سماه الدكتور معلوف في معجم الحيوان سمنة غريدة وأسماه الدكتور شرف في رده عليه مزقة .

مساتشوستس (Massachusetts)
ولاية من الولايات المتحدة في الشمال الشرقي منها . تطل على المحيط الاطلسي ، وكانت احدى الولايات الثلاث عشرة الاولى الاصلية التي هبت وقامت بالثورة الامريكية التي نالت بها « الولايات المتحدة » استقلالها . عاصمتها بسطن ، وبها كثير من البحيرات منها بحيرة والدن التي عاش عندها المؤلف سنتين بعيدا عن العالم وعلى مقربة منه معا وجعل اسمها عنوانا لكتابه الذي نحن بصدده .

ملكة المروج Hardback
أوعرق الانجبار ـ شجيرة تنمو في أمريكا الشمالية من الفصيلة الوردية . وهي شجيرة من شجيرات الزينة . أزاهيرها بيضاء في الربيع . وهي بحق ملكة المروج

ممنـون Memnon
هو في الاساطير القديمة أمير حبشي ابن أوروا الهة الفجر وزوجها تيثونوس قتل في تروادة وهو يحارب مع التروادين قتله أخيل فحزنت عليه أمه اوروا ورجت من زيوس أن يخلد ذكراه فصارت الدنيا تشهد من ذلك اليوم قطرات الندى عند الفجر وهي دموع أوروا الباكية ، وأقيم له تمثال ضخم عند طيبة من اعمال مصر اذاما وقعت عليه أشعة الفجر الاولى خرجت منه أنغام موسيقية كأنما صدرت عن أوتار قيثارة .

منتـور Mentor
صديق ليوليسيز البطل الروماني، « وهو أوديسيوس عند الاغريق » عهد اليه بالوصاية على تليماخوس « تليماك » فقام بعمله خير قيام حتى ضرب به المثل في الوفاء والنصح لمن في عهدته من القاصرين ويطلق الآن على الشيخ الذي يصدق النصح للفتى الناشيء ويحسن توجيهه .

منجوبارك « ١٧٧١ ـ ١٨٠ » Mungo Park
رحالة اسكتلندي . مستكشف .
بعد أن درس الطب في بلاده ، قام سنة ١٧٩٥ للاستكشاف في افريقية في اقليم نهر النايجر . فقام من جامبيا واتجه شرقا الى نهر التايجر وصعد فيه نحو ٣٠٠ ميل . عاد الى انجلترا ونشر كتابا له سنة ١٧٩٩ عن رحلاته في قلب افريقية . في عام ١٨٠٥ عاد الى افريقيا ثانيا للاستكشاف مبعوثا من طرف الحكومة فلما بلغ نهر التمايجر حاول أن ينحدر فيه بقارب ولكنه غرق ومن معه .

منسيوس Mencius
هو منج ـ تسي الصيني « ٣٧٢ ـ ٢٨٩ ق.م » حكيم صيني مشهور يكرمه أتباع كنفوشيوس ويجلونه كل الاجلال وقد جمعت تعاليمه في كتاب سمي كتاب منج تسي .

المنـــك Mink

حيوان برمائي قارض من جنس أبناء عرس • بين أصابع أقدامه غشاء يعاونه على السباحة والغوص في الماء ، له فرو يقدره الناس والتجار •

يعيش في أمريكا الشمالية قـــرب الانهار • واللفظة سويدية الاصـــــل وتسمى بها كذلك في الانجليزية والالمانية ومع ان بعض الكاتبين يســميه « كلب الماء » أو ثعلب الماء أو قضاعه رأينــــا الاحتفاظ بأصل التسمية •

مومص Momus

في أساطير الاغريق اله دأب على التندر على اخوانه الالهة فكان يحول كل عمل من أعمالها الى سخرية وهزؤ حتى فينوس نفسها لم تسلم من سخريته فضــاق به الالهة وطردوه من بين ظهرانيهم •

ميرابو « ١٧٤٩ – ١٧٩١ » Mirabeau

هو الكنت دوميرابو « ١٧٤٩ – ١٧٩١ » الرعيل الاول Honoré Gabriel Riqueti Comte de Mirabeau
خطيب فرنسي وزعيم من زعماء الثـورة الفرنسية ، اختير نائبا عن الشعب عــن Aix مع انه من النبلاء •

ولم يلبث أن برز فيها ، وكان يستغل فصاحته وحسن بيانه في الحث عـــلى الاعتدال وحاول التـــوفيق بين القصر وبين مطالب الشعب المشروعة ، فقد كان يؤمن بملكية دستورية ، ولكن وفاته سنة ١٧٩١ قطعت هذه الجهود •

الميرميدون Myrmidons

تقول الاساطير الاغريقية ان زيوس كبير آلهة اليونان أراد أن يملأ تساليا بالسكان فحول ما بها من نمل الى رجال ونساء ، وكان أخيل بن بيليوس ملكا عليهـــم فلما مضى الى قتال الترواديين مضوا معه الى ساحة الحرب •

مينرفـــا

الهة الحكمة والفنون عند الروم ويماثلها بالاس اتينا عند الاغريق •

يقال انها لا أم لها بل خرجت من مخ الاله يوبيتر مباشرة مستكملة النمو وكاملة السلاح والعدة ، فدعيت عقب خروجهـا الى حضور مجلس الآلهة • وعلى رأسها خوذة وأشهر تمثال لها كان من صـــنع فيدياس •

ميشـــو Michaux

فرانسوا أندريه ميشو « ١٧٧٠ – ١٧٨٥ » عالم فرنسي من علماء النبات أرسـلته فرنسا الى الولايات المتحدة للقيام ببحوث عدة في النبات •

ميلووكي Milwaukee

مدينة كبيرة في ولاية وسكنسن احـدى الولايات المتحدة الامريكية تقع عـــلى الشاطىء الغربي لبحيرة متشيجان •

ميـــن Maine

ولاية من الولايات المتحدة ، تقع في أقصى الشمال الشرقي على المحيط الاطلسي ، وهي أكبر من ايرلنده بقليل ، كانت جزءا من ولاية مساتشوستس ، ولم تصـبح ولاية قائمة بذاتها الا منذ سنة ١٨٢٠ •

مينوتيوس Menoetius

هو ابن اكتور وايجنيه وأبو باتروكلوس صديق أخيل البطل الاغــــريقي « في الالياذة » •

نبوخذ نصر « ٦٠٤ – ٥٦١ ق•م » Nebuchadnezzar

ملك بابل • لما تولى العرش بعد أبيــه بذل جهده في تجديد مدينة بابـــل وتجميلها ، وبناء خزان للمياه ، وخندق كبير حولها • وهو الذي حارب روهـــو ولي العهد – ملك مصر تحاو سنة ٦٠٥ وانتصر عليه في قرقميش • واستولى على أورشليم مرتين ٥٩٧ ، ٥٨٦ •

النسر الطائر أو العقاب Altar

نجم نير من القدر الاول في كوكبة العقاب التي سميت باسمه • وهو من أقـــرب النجوم الينا ، وزيادة على ذلك فان ضوءه أعظم من ضـــوء الشمس اثنتي عشرة مرة •

نعرة « أو شعران » Horsefly

وهى ذبابة كبيرة تنتشر فى بلاد الانجليز وفى أمريكا وتستثير الحكة فى الخيل ، وتمتص دماءها .

النيران الفستية Vestal Fire

فستا الهة البيت العذراء فى أساطير الرومان ، وتعادل هستيا فى أساطير الاغريق . وهى سادنة النار المقدسة التى قبسها اينياس من ترواده وجاء بها الى روميه. وعندهم أن هذه يجب أن تظل موقدة ليلا ونهارا والا حلت كارثة فادحة بالبلاد . ولذا كان يحرسها أربع عذارى هن موضع اجلال الناس واحترامهم جميعا .

النيفا

نهر صغير فى روسيا يجرى بين بحيرة لادوجا وخليج فنلندا وعليه تقع لننجراد .

نيوانجلند New England

اقليم فى الشمال الشرقى من الولايات المتحدة . عرف بهذا الاسم منذ سنة ١٦١٤ ، ويشمل الآن ست ولايات هامة. وكان من أول الاقاليم التى استوطنها البريطانيون فى أمريكا والذين وفدوا اليه حبا فى الحرية الدينية والسياسية فأكثرهم من المتطهرين المتشددين فى الدين ، الميالين الى الجدوالعمل ، ولا تزال آثارهم باقية فى سكان هذا الاقليم حتى اليوم .

واذ كان أول الاقاليم التي استوطنها المهاجرون من أوروبا ، فقد تشكلت فيه التقاليد الامريكية ، والذكريات التاريخية والادبية . ففيه قامت أولى الجامعات ، وقامت الحركات الادبية والثقافية ، وانتشرت المطابع ودور الكتب ، وفيه بدأت حرب الاستقلال والدعوة الى الحرية والكفاح فى سبيلها ، وفيه بدأ الانقلاب الصناعى ، كما بدأت فيه الدعوة ضد المادية الضيقة ، والحث على الاهتمام بسمو الثقافة الرفيعة ورعاية النواحى الروحية .

نيو نذرلاندز New Netherlands

اسم كان يطلق فى أوائل القرن السابع عشر على اقليم فى الشمال الشرقى من الولايات المتحدة عند نهر هدسن ، أسسه جماعة من الهولنديين سنة ١٦٢٣ عقب تأسيسهم لشركة باسم نيونذرلاند حصلت على حق احتكار التجارة وانشأت عاصمة لها باسم نيو امستردام واشتروا جزيرة مانهتان المقابلة لاقليمهم من الهنود الحمر بثمن يعادل أربعة جنيهات . وفى سنة ١٦٤٤ وقعت نيونذرلاند فى أيدى الانجليز وسميت نيو امستردام بنيويورك .

هارلكان Harlequin

شخصية مسرحية كوميدية ، يظهر عادة مقنعا وعليه حله من ألوان عدة ، وبيده سيف من خشب ، مغرم بفتاة اسمها كولومبين. وكان كثيرالحيل شديد الدهاء فى مقاومة منافسه فى حبها . والمفروض انه لا يراه أحد غير حبيبته كولمبين .

هانو Hanno

بحار من القرطاجنيين فى القرن السادس قبل الميلاد ، لا نعرف تاريخه على وجه التحديد ، كتب وصفا لرحلة قام بها بحذاء الساحل الغربى لافريقية بقصد الاستكشاف والاستعمار . ويقال ان هذا الوصف ترجم من اللغة الفينيقية الى الاغريقية باسم (Periplus) ويبدو أن هانو اجتاز مضيق «جبل طارق» واستمر حتى وصل سيرا ليونى .

هايجيا Hygeia

الاهة الصحة عند الاغريق ، وهى ابنة اشعلابيوس اله الطب عندهم ، وتمثل عادة بعذراء متشحة بثوب فضفاض فى يدها كأس يشرب منها ثعبان .

الهايدرا Hydra

الهايدرا « أو العدار »

حية خرافية يرد اسمها كثيرا فى أساطير الاغريق والروم ، حية من حيات البحر لها تسعة رؤوس اذا قطع رأس منها نبت بدله اثنان · وقد استطاع هرقليس أن يقتلها بمعاونة صديقه أبولاس الذى صار يضرب المثل بوفائه لصديقه ثم غمس سهامه فى دمها السام حتى تكون أشد فتكا بمن تصيبه ·

هرقليس « هركيل » Hercules

أشهر أبطال الاساطير الاغريقية القديمة، ويوصف بالشجاعة والقوة الجسمانية النادرة كما يوصف فى الوقت نفسه بالشفقة والرحمة · كانت هيرا زوج أبيه زيوس تكرهه وجعلت تطارده منذ نعومة أظفاره فسلطت عليه وهو فى المهد حيتين ضخمتين فخنقهما بيديه الصغيرتين · ولما شب أبت أن تعترف بينوته لزيوس الا بعد أن يتخذ اثنىعشر عملاخطيرا فرضتها عليه منها قتل الهيدرا وتنظيف اسطبلات أوجياس وغيرها ، وهذه هى التى عرفت بأعمال هرقليس الاثنى عشر ·

الهسبريد Hesperides

جزائر فى المحيط الاطلسى ذات صبغة اسطورية كان القدامى يطنبون فى وصفها ويتخيلون فيها حديقة بها أشجار تفاح ثمارها من ذهب ·

ويطلق الاسم نفسه على عذارى يقمن بحراسة التفاح الذهبى هذا ، ويعاونهن تنين ضخم Laden ذو رؤوس عدة · وقد استطاع هرقليس أن يقتل التنين ويحصل على التفاح الذهبى ·

هكتور Hector

بطل تروادة فى حروبها مع الاغريق وهو ابن ملكها بريام وهكوبا أمه · وكان لا ينازل الا أشجع أبطال الاغريق وهو الذى قتل باتروكلوس صديق أخيل · فهب هذا وعاد الى النزال وطارد هكتور حتى قتله ·

هنرى الثامن

كان ملكا على انجلترا من١٥٠٩ ــ ١٥٤٧ وهو آخر ملوك أسرة تيودور ·

اختلف مع البابا اختلافا أدى الى انفصال الكنيسة الانجليزية عن رومية فأقفلت الاديرة وصودرت ممتلكاتها · وفى عصره انتشرت حركة الاصلاح الدينى وحركة احياء علوم الاغريق والروم ·

هوارد Howard

هو جون هوارد « ١٧٢٦ ــ ١٧٩٠ » ·

مصلح انجليزى عنى بالعمل على اصلاح السجون فى انجلترا وغيرها · ولهذا الغرض ذهب الى روسيا فى أثناء حرب القرم بينها وبين الاتراك وحلفائهم ليتفقد أحوال المعتقلات الحربية بها فى مدينة خرسن فتوفى بها ·

هومر Homer

اكبر شعراء اليونان القدامى · ويعده كثيرون من النقاد أشعر شعراء العالم قاطبة ، ويقال انه كان كفيف البصر ، ولكنا فى الواقع لا نعرف عنه شيئا يذكر فلا ندرى من هو ولا أين ولد · وكل ما نعرفه انه الشاعر اليونانى القديم الذى تعزى اليه الالياذة والاوديسية · عاش ــ ان كان قد وجد فعلا ــ بين القرنين الثانى عشر والعاشر قبل الميلاد ·

هيبه Hebe

الاهة الشباب الخالد عند الاغريق · وهى ابنة كبير آلهتهم زيوس من زوجته هيرا وكانت تعمل ساقية تقوم على تقديم الشراب للالهة · وبعد أن تزوجت من هرقليس حلت محلها جانايميد · وتقول روايات الاساطير المتأخرة انها أصبحت بعد ذلك آلاهة تعيد الشباب الى الشيوخ

الـــواق Bittern

طائر من فصيلة البلشون ومالك الحزين، طويل العنق، والمنقار والساقين، قصير الزمكى أصفر الريش، يحب العزلـــة ويختفى فى النهار بين الغاب والاســل ويمتد عنقه بينها الى أعلى فلا يكاد يبين منها، ومن خصائصـــه انه يكثر من الصياح ليلا.

يظهر فى مصر من نوفمبـــر الى مايو. ويسميه المرحوم الدكتورشرف العجاج أو الانيس. أما اسم الواق فمن « المعلوف » والدكتور الحسينى.

وبســـتر Webster

دانيال وبستر ١٧٨٢ ـ ١٨٥٢

محام أمريكى وخطيب مشهور، اشتغل بالسياسة واختير عضـــوا فى مجلس الشيوخ « ١٨٢٧ ـ ١٨٤١ » ووزيـــرا للداخلية. وكان يعنى بالدفاع عن مصالح نيوانجلند وكان موقفه من مشكلة الغـاء الرقيق وسطا بين أنصار الالغاء وأنصار الاستبقاء وقد جمعت كتاباته وخطبه فى ١٨ مجلدا.

ونســـلو Winslow

هوارد ونســـلو « ١٥٩٥ ـ ١٦٥٥ » كان حاكما لمستعمرة بليمـــــوث فى أمريكا الشمالية.

الويجوام

اسم يطلق على كوخ الهنود الحمر وهـو كوخ من أخشاب تغطى بلحاء الشـــجر والحصير وجلود الحيوان.

ويلبرفرس Wilberforce

وليـــم ويلبرفرس « ١٧٥٩ ١٨٣٣ » سياسى انجليزى، ومصلح اجتمـــاعى. تأثر كل التأثر من سوء حالة العبيـــد وما يلاقونه من تعذيب وقسوة على أيدى النخاسين، وعلى أيدى أسيادهم. فجعل همه العمل على تحريرهم والغاء الاتجار بهم وفى ســـــنة ١٨١٧ وافق مجلس اللوردات على المبالغ اللازمة لتحرير العبيد فى جزائر الهند الغربية.

يلوستون Yellowstone

اقليم واسع فى ولاية وايومنج بالولايات المتحدة فى قلب جبـــــال « الروكيز » ـ الجبال الصخرية ـ يخترقه نهر اليلوستون. وفيه أقامت الحكومة حديقة أهليـــــة مساحتها ٧٥ ميلا مربعـــا، وهى أرض مليئة بالغابات وبها عيون حـارة كثيرة ونافورات، وبعض غابات مشـــجرة، وحيوانات عديدة منـوعة تحميها الدولة بكل عناية. واســـــمه بالانجليزية

Yellow stone National Park

يؤيؤ Merlin

وقد يسمى بالحكم أو بأبى رياح

صقر جميل يعد أصغر الصقور فى الشرق واسمه عند العامة الجرادية أو صـــقر الجراد.

يوبيتر Jupiter

كبير الالهة عند الرومان ويعـدل زيوس عند الاغريق. وهو ابن ساتورن البكر. فلما كبر عزل أباه عن عرشه واقتســـم ملك العالم مع أخويه فتولى هو الســماء ونبتون البحر، وديس الآخرة.

يوف Jove

هو الاله يوبيتر عند الرومان ـ كبيـــر آلهتهم وأقواها ويعادل زيوس عنـــد الاغريق.

يوليسيز Ulysses

هو أوديسيوس عند الاغريق.

أحد أبطـــال حرب ترواده. تزوج بنلوبى ابنة ايكاريوس وأنجب منهـــا تليماخوس « تليماك ».

وامتاز فى حرب ترواده بالشجاعـــة الفائقة، المقرونة بالحزم فضـــلا عن امتيازه بالفصاحة وحسن البيان.

على أن أهم أعماله التى عرف بها هى مغامراته الكثيرة والاخطار العديدة التى واجهها وتغلب عليها فى عـــودته الى بلاده بعد الحرب وقد استغرق فى هـذه العودة عشرة أعوام.

وأوديسية هومر هى وصف لهـــذه المغامرات.

يوم الاستقلال Independence Day

هو اليوم الذى أعلنت فيه الولايات المتحدة استقلالها عن سيطرة الانجليز ، ويقع فى الرابع من يوليه سنة ١٧٧٦ فاتخذ الامريكيون هذا اليوم عيدا لهم يحتفلون به فى كل عام • وان كانت حرب الاستقلال لم تنته فعلا الا بعد انتصار الامريكيين على الانجليز فى يورك تاون سنة ١٧٨٣ وهى الموقعة التى اضطر فيها الانجليز الى الاعتراف باستقلال الولايات الثلاث عشرة عنها •

يونو Juno

هى الاهة رومانية عبدها الرومان من قديم الزمن • وهى زوجة يوبيتر كبير الالهة عندهم • وتعد ملكة السماء مثل زوجها وتعادل هيرا عند الاغريق • وتعد حامية النساء ونصيرتهن • تشرف على أحوال المرأة من يوم ميلادها حتى وفاتها • وكانت تعد كذلك المشرفة على شئون البيت ، وشئون الدولة الاقتصادية •


Bibliotheca Alexandrina
0408998
